التيسير في التفسير

الجزء الرابع

الرعد - الأنبياء

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسيني

رضوان الله عليه

تحقيق

عبدالله بن حمود العزي

محمد بدر الدين الحوثي


مؤسسة المصطفى صلى الله عليه وآله الثقافية

التيسير في التفسير

تأليف العالم الربّاني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه

تحقيق: السيد/ عبدالله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي

الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

قياس القطع: (١٦,٥×٢٤)

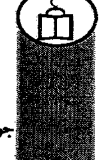
عدد المجلدات: (٧)

الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٢٠١٣/٣٢٥م)



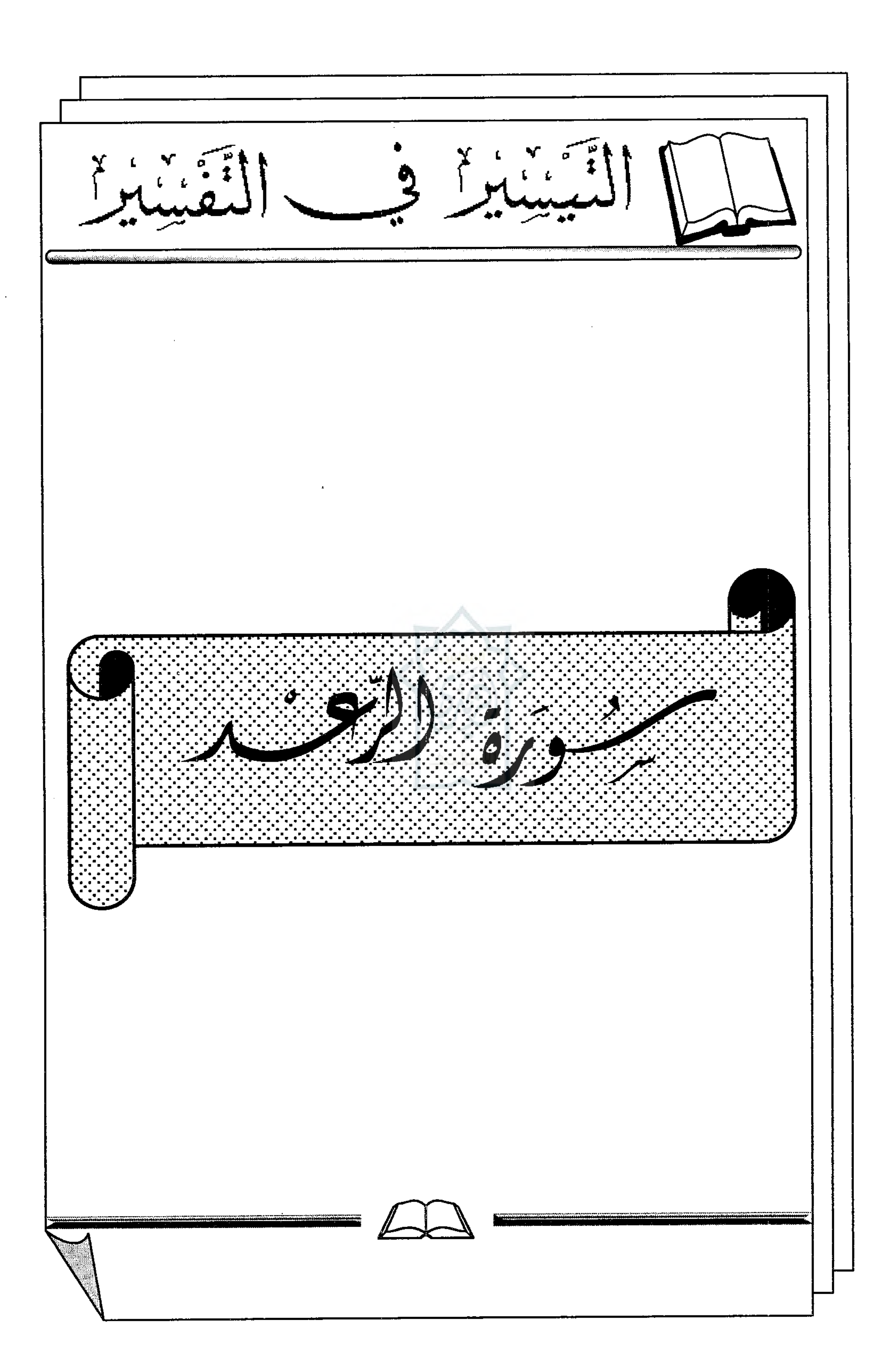


مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

اليمن ـــ صعدة

جوال: (٠٠٩٦٧.٧١١٣٧٢٧٦٢) ـ (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩٩٢٧٧٧) ـ (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)

بريد: almostafa.ye@gmail.com ـ hbhbhd@gmail.com



التيسير في التفسير
سورة الرعد



سُورَةُ الرَّعْدِ

آياتها ٤٣ — ترتيبها ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ

تفسير (سورة الرعد)

اختلف فيها؛ أهي (مكية) إلا آيتين؟ أم (مدنية) كلها؟ أم (مدنية) سوى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا..﴾ الآية؟ والمعاني فيها أشبه بالمعاني المكية ـ والله أعلم.

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الٓمٓر﴾ سبق الكلام في الحروف في أول (سورة المص).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى الحروف كلها الذي يتركب منها القول، فمعناه: أن الله أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً من الحروف التي يستعملها العرب في تأليف كلامهم، فهو تحقيق لإنزال الكتاب بكلماته وحروفه لا مجرد المعنى يلهمه الرسول ﷺ ولعل فيه إشارة إلى تعجيز العرب أن يأتوا بمثله إن كان كفارهم صادقين وقد مر تفصيل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ كالدليل على أن الكتاب حق بأنه أنزل إلى رسول الله ﷺ من ربه وكلما أنزل إليه من ربه فهو الحق؛ لأن الله حكيم حميد ليس في كلماته باطل، وتسميته كتاباً مع أنه حين نزل به جبريل لم يكن قد كتب في الأرض ولكنه جعله كتاباً؛ لأن الله أنزله ليكون كتاباً يحفظ وتتوارثه الأجيال.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي (البرهان): الكتاب: هو القرآن أي أنها آيات الكتاب الذي وعد الله محمداً ﷺ أن ينزله عليه ويجعله باقياً على وجه الدهر» انتهى المراد.

ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ

وقوله عليه السلام: ويجعله باقياً، كنت فسرت به تسميته كتاباً نظراً، فإذا قد سبقني إليه (صاحب البرهان) الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي، والحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ليست عادتهم الإيمان بالحق بدلائله فأي آية تأتيهم يعرضون عنها ولا يؤمنون بما دلت عليه لاشتغالهم بالدنيا وإهمالهم لعقولهم في شأن الآخرة فتركهم للإيمان بالقرآن ليس سببه إلا أنهم لا يؤمنون.

﴿٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من دلائل قدرته تعالى، حيث فصل بين الأرض والسموات بمسافات وحفظها من سقوط الأعلى على الأسفل فحفظها من التصادم ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي بغير أعمدة، والعَمَد: جمع عمود وهو في الأصل عود يعتمد عليه سقف الخيمة، وقوله تعالى ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي رفع السموات بغير عمد من جنس الأعمدة المرئية، وهذا دليل على القدرة الخارقة التي لا تقاس بقدرة المخلوقين وعلمه الذي لا يقاس بعلمهم فهو قادر على إحياء الموتى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تعبير عن مُلكه وابتداء تدبيره لشؤون عباده المخلوقين كخلق الملائكة وأمره لهم بما شاء من أمره ثم خلق الجن وتعبُّدهم، ثم خلق البشر وأمر الملائكة بالسجود لآدم ثم تدبير شؤون البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإهلاك المكذبين لهم القائمين ضدهم المكذبين بآيات ربهم، فهذه التصرفات وأشباهُها في العالم التابعة لملكوت الله جل جلاله هي من دلائله على مُلكه [بضم الميم] المعبر عنه بالإستواء على العرش.

فالمعنى: إن لَه تعالى مُلكَ السموات والأرض وما فيهما منذُ رفع السموات على الأرض؛ ولذلك فله الحكم وحده في الدنيا والآخرة وله الملك في الدنيا والآخرة فهو يتصرف في عباده تصرف الْمَلِك في الدنيا والآخرة بالأمر والنهي والإبتلاء والإختبار في الدنيا وبالجزاء في الآخرة للمطيع والعاصي لكل بما يستحق، والإنصاف بين عباده والحكم بينهم في الآخرة.

قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوّه، قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل:٣٨] ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل:٤٢] وكُنِّيَ به عن العزّ والسلطان والمملكة، قيل: فلانٌ ثُلَّ عرشه» انتهى المراد.

وفي (الصحاح): «العرش: سرير الملك، وعرشُ البيت سقفُه، وقولهم: ثُلَّ عرشه أي وَهَى أمرُه وذهب عِزُّهُ، قال زهير:

تداركتما عبساً وقد ثُلَّ عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعلُ»

انتهى.

وفي (لسان العرب): «والعرش: الْمُلْك، وثُلَّ عرشه: هُدِم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل: وَهَى أمره، قال زهير:

تداركتما عبساً وقد ثُلَّ عرشها وذبيان قد زَلَّت بأقدامها النعلُ»

انتهى المراد.

وقد ذكر غيره من أشعار العرب قول الشاعر:

ولقد بنت لي عمتي في مأربٍ عرشاً على كرسي مُلك متلَدِ

وقول الشاعر:

إن يقتلوك فقد ثللتَ عروشَهم بعتيبةَ بن الحارثِ بن شهـــابِ

وفي (لسان العرب) في معاني (استَوَى): «واستوى أي استولى وظهر، وقال:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق»

انتهى.

وقد ذكر معاني أُخر، ولكن العقل هو الفارق بين ما يصح تفسير القرآن به وما لا يصح؛ لأنه الفارق بين المحكم والمتشابه وبين المعاني المحتملة لتعيين المراد منها.

فأما تفسير ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ بمعنى مجهول جملة وتفصيلاً، فلا يصح؛ لأنه ورد في القرآن على وجه المدح والإحتجاج، فلا يصح تفسيره بالمجهول؛ لأنه يبطل فهم معنى المدح فيه، ويبطل فهم الحجة فيه، وذلك خلاف ما ورد لأجله فهو يبطل المراد فلا يصح، والتفسير بالمجهول جملة وتفصيلاً يخرجه عن معناه في لغة العرب كما قدمت في نظيره؛ لأن المعنى في العربية إما الحقيقي إن لم تصرف عنه قرينة، أو المجازي، أو الكناية التي يراد منها المعنيان، والمعنى المجهول جملة وتفصيلاً خارج عن ذلك كله.

ومن أمثلة الإحتجاج على المشركين والمدح ما في (سورة الأعراف) و(سورة يونس) ويمكن أن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ ونحوه كله للإحتجاج على المشركين والمدح، فليتأمله المنصف الذي لم يُعْمِ التعصُّبُ بصيرتَه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطف على ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ليدل على قدرته تعالى وعلمه ونعمته على عباده، وتسخيرُهُما جعلهما يجريان على نظام محكم محدود كتحديد الساعة التي هي الآلة لمعرفة الوقت.

وقوله تعالى ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إما بمعنى في أجل مسمى هو وقت سيرهما، فـ(اللام) مثلها في ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨] وعلى هذا: فهو يبين الآية في تحديد سيرهما على نظام لا يتخلف، وإما بمعنى يجري لأجل مسمى، أي ليبلغ أجلاً مسمى هو أجله عند خراب العالم وقيام القيامة؛ لأنه في جريه لا يزال يقترب من نهاية مدة سيرته فكأنه يسير لِيُنهي مدته، والإحتمال الأول أظهر.

وقوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ الراجح: أن معناه: يدبر أمر العالم ومن فيه بخلق السموات والأرض واستوائه على العرش وتسخير الشمس والقمر؛ لأنه يترتب على ذلك خلق المكلفين، وأمرهم بعبادته، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ويترتب عليه: رزق المكلفين، ويترتب عليه توابع التكليف من الثواب والعقاب، والتمييز بين المحسن والمسيء، والبعث والحساب، والجنة والنار، فهذا ونحوه هو الأمر، والتدبير لَه: هو فعل مقدماته التي يترتب عليها من رفع السماء فوق الأرض بغير عمد، والإستواءِ على العرش الذي هو ابتداء تدبير أمر الملكوت، وتسخير الشمس والقمر، الذي يترتب عليه منافع للناس وللأرض والشجر والحيوان.

وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فالراجح أنه خبر ثان لاسم الله، وتفصيلُ الآيات جعلُها مُفصلةً متمايزة لتكون بيِّنَةً للناظرين المفكرين فيها، والآياتُ يعم الكونية ويعم القرآن الحكيم.

ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ
ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي

وقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ كالتعليل لتفصيل الآيات؛ لأنها تدل على الحياة بعد الموت والجزاء للمحسن والمسيء بدلالة نصوص القرآن، وبدلالة أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض والعباد عبثاً.

وقوله تعالى: ﴿تُوقِنُونَ﴾ أي تعلمون علماً يقيناً وقوفكم في الآخرة ليسألكم عما أسلفتم في الدنيا في موقف العرض على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨] وكما قال في المنافقين ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة:٧٧].

﴿٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾
﴿مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي بسطها البسطَ المشاهد الذي لأجله صلحت للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي جعل في الأرض جبالاً ثقالاً راسيات في أماكنها ثابتات، وقوله تعالى: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾ أي جعل فيها مجاري للماء يجري فيها لينتفع به الإنسان وينفع الحيوان والشجر، وهذه المجاري بعضها في بطن الأرض يصل ماؤه إلى الآبار والعيون وبعضها على ظهر الأرض في الأودية وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي من كل الثمرات فالحبوب أنواع مختلفة، والفواكه كذلك تختلف ألوانها وصفاتها في الطعم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ إما يجعل النهار غاشياً للَّيل؛ لأن ضوءه يباشر سواد الليل فيدفعه، وإما يجعل الليل غاشياً للنهار؛ لأنه يباشر

ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ
صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا

ضوء النهار في آخره كأنه يدفعه مقبلاً على الناس لينامُوْا فيه ويسكنوا فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من مَدِّ الأرض وما جعل فيها وإغشاء الليل النهار إن فيه كله ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ تدل على قدرة الله التي لا تقاس بقدرة المخلوقين وعلمه كذلك ونعمته الشاملة لعباده.

وقوله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يتفكرون وينظرون في الدلائل والآيات، فهم الذين يعرفون دلالة الآيات، ويعرفون الله تعالى بآياته المذكورة من قوله: ﴿الَّذِي رَفَعَ..﴾ فهي دليل عليه كما أن دلائله وآياته لا نحصيها عدداً.

﴿٤﴾ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ من الأرض نفسها ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ بعضها مجاور لبعض، وفيها شجر يثمر أو شيء من البقول.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي شجر ملتف يغطي مجموعة أرضه لنموّه وصلاحه، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ جُمع إشارةً إلى أنواع العنب الكثيرة، وقوله تعالى: ﴿وَزَرْعٌ﴾ أي جنات من زرع، وقوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ أي وجنات من نخيل جمع نخل وكأنه جمع إشارة إلى تعدد أنواعه في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ إذا كان أصل النخلة واحداً وطلع من ذلك الأصل ساقان فهما (صنوان) تثنية (صنو) وكل واحد منهما صنو للآخر،

فإذا كانوا ثلاثة فهم صنوانٌ جمع صنو، والذي في الآية جمع صنو، وقوله تعالى: ﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ﴾ أي نخيل أصل كل واحدة واحد وساقها واحد.

وقوله تعالى: ﴿يُسۡقَىٰ﴾ راجع إلى الكل من قوله تعالى: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ تسقى بماء المطر مثلاً أرضان متجاورتان يسقيهما ماء المطر، أو ماء بئر واحدة أو غيل واحد فيكون أكلهما مختلفاً في الجودة إحداهما أكلها أجود من أكل الآخر، والأكل ما يؤكل من ثمرهما أو بقلهما أو غير ذلك، وهكذا في جنتين من العنب متجاورتين يكون عنب أحداهما أجود بل قد يكون عنب الكرمة الواحدة من الجنة الواحدة أجود من غيره يعرفه صاحب الأض، وهكذا في النخل المتجاور يكون تمر احداها أجود من تمر الأخرى مع أنهما متجاورتان، أو يكون ثمر بستان أجود من ثمر البستان المجاور له مع أن ماءهما واحد.

وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾ أي بقدرة الله تعالى؛ لأنه يفعل ما يشاء، فتلك الأراضي المتجاورة والجنات والأعناب فضل بعضها على بعض فيما تفيده من المأكول دليل على قدرته وعلمه وسعة فضله وأنه يفعل ما يشاء سواء فضل بعضها على بعض بصنعه ابتداء، أو بصنعه لما ركب فيها من الطبائع المختلفة؛ لأن الطبائع لم تختلف إلا لأنها صنع الله الذي يفعل ما يشاء، فيخلق الشيء مخالفاً لغيره من خلقه، وما شأن الطبائع المختلفة إلا كشأن الوَرَشات المختلفة لم يكن لها بدّ من أن يكون وجودها أصله صنع الفاعل المختار، وهذا تمثيل للتقريب من الفهم؛ لأن الطبيعة إنما هي صفة تكون سبباً بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ أي آيات متعددة ودلائل كثيرة ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ لأن الذين يتفكرون في الآيات المحسوسة

تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

أو المعلومة بالوجدان أو بدلائلها وعلاماتها في أيّ ذلك المذكور من أول قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ يتفكرون في اختلاف أكله، فهم الذين يعلمون أنها آيات ويعلمون ما تدل عليه، فأما المعرضون فلا حجة لهم في الجهل؛ لأنهم معرضون، سواء منهم من أنكر البعث بعد الموت، أو جعل لله نداً لا يخلق شيئاً، أو جحد الخالق ونسب الحوادث إلى الطبع.

۝ ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ عطف على ذكر الآيات في الآيات الماضية من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ كأنه تعالى يقول ومع هذه الآيات البينات الدالة على قدرة الله تعالى الفائقة التي لا تقاربها قدرة المخلوق فضلاً عن أن تقاس بها ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فهو يستحق أن تعجب منه؛ لأنهم يعترفون بأن الله خلقهم وخلق السموات والأرض وسائر ما عدده من الآيات، ومع هذا كله، ومع ما قد شاهدوا من دلائل قدرته يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إنكاراً منهم لوعد الله أنه يخلقهم بعد ما تبلى أجسادهم خلقاً جديداً ونفياً للحياة بعد الموت.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون: ﴿أئذا كنّا ترابًا﴾ المنكرون للنشأة الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم جحدوا قدرته على تجديد خلقهم بعد البلى ونفوا قدرته على إحيائهم بعد أن صاروا في قبورهم تراباً فكفرُهم بقدرته كفرٌ به.

بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ الأغلال: جمع غُلّ - بضم الغين المعجمة - وهو قيد يُجعَل في العنق واليدين يجمعها وهو إما حقيقة وهي الأصل إذا لم تكن مع القول قرينة فالمراد في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهذا وإن كان حقيقة بالنظر إلى كلمة الأغلال، فهو مجاز من حيث أن معناها مستقبل عبر عنه بعبارة الموجود في الحال، وإما أن كلمة (الأغلال) مجاز عن منع الألطاف كالختم، والأول هو الراجح، وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي أهلها الذين يعذبون فيها وبها، وقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي باقون لا يموتون.

﴿٦﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ عطف على ما في الآية التي قبل هذه الآية، كأنه قيل يقولون: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا..﴾ الآية ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي يطلبونك تعجيل السيئة، والسيئة هنا: هي العذاب العاجل الذي يسوء، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [النساء:٧٨] فهم يطلبون تعجيل العذاب تعنتاً أي: إن كنت صادقاً فعجل علينا العذاب الذي تعدنا على الكفر.

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي قبل رحمة الله ومغفرته وهداه إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار التي كان ينبغي لهم أن يطلبوها كما لا يخفى على من استعمل عقله ولو نزل بهم العذاب العاجل لحال بينهم وبين الحسنة وفوّتها عليهم؛ لأنه يحول بينهم وبين الإيمان في المستقبل من أعمارهم فتفوتهم رحمة الله ومغفرته.

ونظير هذا التركيب قول أمير المؤمنين عليه السلام في آخر خطبته الغراء: «الآن عباد الله والخناق مهمل والروح مرسل..» إلى قوله عليه السلام: «قبل الضنك والمضيق والروع والزهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وأخْذَةِ العزيز المقتدر» انتهى.

فهو عليه السلام يقول: توبوا وأنتم في الدنيا قبل أن يأخذكم العزيز المقتدر وقبل الضنك والمضيق والروع أي الفزع، وأوضح منه في المعنى الذي نحن بصدده قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥] فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ أي لتنجوا من العذاب ويحول بينكم وبينه اتباع أحسن ما أنزل الله إلى عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي يستعجلونك بالعذاب وقد مضى من قبلهم من عذاب المكذبين للرسل ما هو عبرة لهؤلاء وما كان ينبغي لهم إلا أن يعتبروا بهم فيحذروا أن ينزل بهم العذاب كما نزل على المكذبين الماضين.

قال في (الصحاح): «والـمَثُلَةُ [بفتح الميم وضم الثاء]: العقوبة، والجمع المَثُلات» انتهى، ومثله في (لسان العرب).

وقال الشرفي في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: مضت وقعات المَثْل بأشكالهم، واحد المثلات مَثُلة وهي الوقعة التي تمثل فيها بالمعذبين، والمَثْل هو التعذيب في الضرب والقتل» انتهى.

فاستعجالهم بالسيئة سفاهة رأي وجهالة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ فهذه المغفرة ترك المعاجلة بالعقاب عند وقوع الظلم، فهو سبحانه حليم لا يعجل وكانت مغفرة بالنسبة للمدة التي لا يعاقبون فيها.

لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ

فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي مع ظلمهم واستحقاقهم لتعجيل العقاب، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه مع ظلمهم يغفر ويتجاوز في هذه الدنيا عنهم بفضله ورحمته لهم، ولكن قامت [على] مقام [مَعَ]، انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي حين يريد أن يعاقب في الدنيا والآخرة كما عجل عذاب الأمم الخالية بعد إمهالها فهو يُمهل ولا يهمل: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

﴿٧﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿ءَايَةٌ﴾ أي علامة تدل على صدقه، أي هلاَّ أنزل عليه، وهذا من كفرهم بآيات الله يزعمون أنه لم ينزل عليه شيء من آيات الله فيقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي إن كان رسولاً ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ فيكفي من الآيات ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١] فهو دليل على أنك رسول من الله ولم نرسلك لإكراه الناس وإلجائهم إنما أنت نذير لهم.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ لمن يريد الهدى فأنت الهادي لهم إن قبلوا منك الهدى وإن لم يقبلوا فأنت الهادي لمن اهتدى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يفيد: أن لكل قوم من يهدي حتى في القرون المستقبلة، فلا بد من وجود العلماء الهداة ليبلغوا الناس حجج الله عليهم وآياته ولو قلّوا كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة».

ولعل هذا معنى الحديث الذي يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معنى هذه الآية: «أنا المنذر، والهادي رجل من بني هاشم» انتهى.

قال السيوطي في (الدر المنثور): «وأخرج عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند) وابن أبي حاتم، والطبراني في (الأوسط) والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن عساكر عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: «رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنذر، وأنا الهادي» وفي لفظ: «والهادي رجل من بني هاشم» يعني نفسه، انتهى.

وذكر السيوطي قبل هذا: عن قتادة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ لكل قوم داع يدعوهم إلى الله، ذكر السيوطي أنه أخرجه: ابن جرير، وأبو الشيخ. قال: وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ: عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: داع.

وفي (الدر المنثور) أيضاً: «وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في (المعرفة) والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على صدره فقال: «أنا المنذر» وأومأ بيده إلى منكب علي رضي الله عنه فقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»».

وأخرج ابن مردويه، عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ ـ ووضع يده على صدر نفسه، ثم وضعها على صدر علي، ويقول ـ: ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾».

وأخرج ابن مردويه، والضياء في (المختارة): عن ابن عباس رضي الله عنه في الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنذر، والهادي علي بن أبي طالب» انتهى. وفي (الغارة السريعة) زيادة على ما هنا انظر صفحة [١٧٧ـ١٧٨] وما بعدها.

وروى الإمام أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) وهو في [الباب الثامن: ص٩٢] بإسناده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن عند كل بدعة تكون بعدي يكاد بها الإيمان، وليّاً من أهل بيتي موكّلاً يذب عنه، يعلن الحقّ وينوره، ويرد كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتوكلوا على الله».

وروى أبو طالب عليه السلام ـ أيضاً ـ في [الباب الثامن ص١٠٠] بإسناده: عن نصر ابن حماد قال: سمعت شعبة يقول ـ حين ظهر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليهم السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل أهل بيتي في أمتي مثل النجوم كلما أفل نجم طلع نجم» انتهى.

وأخرج المرشد بالله عليه السلام في (الأمالي الخميسية) بسنده: عن علي عليه السلام قال: «مثل أهل بيتي مثل النجوم كلما مر نجم طلع نجم» انتهى.

وسقط رفعه، والنسخة المطبوعة كثيرة الغلط، فينظر إن شاء الله في نسخة صحيحة. وإن كان موقوفاً، فله حكم الرفع؛ لأنه خبر عن غيب لا يعلمه إلا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعليٌّ عليه السلام عندنا حجةٌ في كلامه لما فيه من الروايات المفيدة أنه على الحق ولو لم يكن إلا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب» أو كما قال، وقد بسطت في (تحرير الأفكار) و(الغارة السريعة) في الرد على المخالفين في صحة هذا الحديث.

عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ

ومن أراد الزيادة في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ بعلي عليه السلام فليطالع (ترجمة الإمام علي عليه السلام) من (تاريخ ابن عساكر) و (شواهد التنزيل) للحاكم الحسكاني، وغيرهما من كتب فضائل علي عليه السلام، وهو لا ينافي أنه لا بد لكل عصر من حملة لعلم الدين، كما أنه لا ينافي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الهادي لأمته لمن في عصره السامعين له بالسماع ولغيرهم بالتبليغ لمن لم يسمع ولمن بعده.

وقد روى الإمام زيد بن علي عليهما السلام في (مجموعه): عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» انتهى، فحملة العلم في كل عصر هداة لمن يبلغونه العلم والمحمول عنهم هداة من نبي أو وصي أو إمام أو عالم.

﴿٨﴾ ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ ﴿مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ يعلمه ذكراً أم أنثى تاماً أم ناقصاً، ويعلم صورته وحجمه وغير ذلك من أحواله المغيبة ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ أي ما تغيضه الأرحام وهو المني عند العُلوق فهو يعلم العلوق، مع أن المرأة نفسها قد لا تعلم أنها قد علقت، قال تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود:٤٤] أي شربته الأرض ونزل في بطنها.

وقوله تعالى ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ أي ويعلم ما تزداده الأرحام، والإزدياد: أن تأخذ الرحم بعد العلوق زيادة على ما قد أخذته مع العلوق، إما لحمل توأم

تحمله مع الأول، وإما لسقي الأول فهو لا يخفى على الله تعالى مع خفائه على الناس ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يخلقه على ما تقتضيه الحكمة، فالعبد بمقدار وأعضاؤه كل عضو بمقدار وعمره بمقدار ورزقه بمقدار وغير ذلك من أحواله، وكذلك جزاؤه بمقدار، وكذلك الأرض بمقدار والكواكب بمقادير والشمس والقمر والسموات وما بين ذلك من المسافات كل شيء بمقدار محدود عنده في حكمته وعلمه وصنعه.

(٩) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ المعدوم مثل المستقبلات من الحوادث ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الموجود، ولعل من الغيب مكاييل البحار وموازين الجبال والهواء وسائر المقادير الكثيرة المغيَّبة والنسب والأحكام التي تخفى على العباد، أو الغيب: ما غاب عنا وما جهلناه، والشهادة: ما نشاهده وكل ذلك يفيد إحاطة علمه تعالى وأنه لا يخفى عليه شيء، وقوله تعالى ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي العظيم الجليل بصفاته التي تدل عليها أسماؤه الحسنى فهو كبير بعظمته وجلاله، وليس معنى كبره ضخامة حسيّة؛ لأنه لا يشبه المخلوقين.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي المتعالي عما يقول فيه الظالمون مما لا يليق بعظمته وجلاله كاتخاذ الصاحبة أو الولد أو الشريك في ملكه وعن كل نقص وعيب كظلم العباد وخلف الوعد والوعيد والتسوية بين المطيع والعاصي والمحسن والمسيء وما لا يليق بحكمته وفضله ورحمته وكرمه ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣] وقال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٩٢] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ

فمعنى نسبة التعالي إليه تعالى هي التسبيح له والتقديس والتعظيم، وهو أعم وأبلغ من عبارة التنزيه عن العيب؛ لأنه يدل على تنزيهه عما لا يليق إلا بالمخلوق وإن لم يكن في المخلوق عيباً كاتخاذ الصاحبة والولد تعالى عنه لأنه الغني الذي لا يحتاج.

﴿١٠﴾ ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ السياق في ذكر علم الله سبحانه بالغيب والشهادة فالمعنى سواء في علمه من أسر القول ومن جهر به، وقوله تعالى: ﴿مِّنكُم﴾ تذكير بأنه يسمع ما نقوله من حق أو باطل ومما نثاب عليه أو نعاقب، ولعله يشير إلى ما يقوله المشركون ليعلموا أنه لا يخفى على الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ﴾ محاول أن يخفى بأن يكمن في مكان لا يرى فيه ولا يسمع وهو مع ذلك بالليل يخفيه سواد الليل، وقوله تعالى: ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾: «سالك في سربه: معناه في مذهبه» انتهى.

وقال في (الصحاح): «السارب: الذاهب على وجهه في الأرض، قال الشاعر:

أنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوب … وتُقَرِّبُ الأحلام غير قريبِ

وسَرَبَ الفحل يَسْرُبُ سُرُوباً، إذا توجه للرعي، قال الأخنس التغلبي:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم … ونحن خلعنا قيده فهو سارب

سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والسارب: هو المنصرف الذاهب مأخوذ من السروب في المرعَى وهو بالعَشي، وهو مثل السروح بالغداة، يعني أنه يعلم من استخفى عمله في ظلمة الليل ومن أظهره بضوء النهار، والثاني يعلم ما أخفى ظلمة الليل كما يرى ما أظهر ضوء النهار بخلاف المخلوقين الذين يخفى عليهم أحوال أهلهم» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ومن هو سارب بالنهار، فهما سواء في علمه تعالى، وقد اكتفي لهما بموصول واحد، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦] أي والذي أنزل إليكم، وقول حسان بن ثابت:

أمَن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه.

والشواهد تشير إلى أن السارب: الذاهب حيث يهوى، لا يتقيد عنه بخوف أو غيره، ولعله مراد (صاحب الصحاح) [الذاهب على وجهه] ولعل هذا سبب اختيار هذه الكلمة في الآية ـ والله أعلم.

﴿١١﴾ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام) «﴿مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ يريد به: الحفظة من الملائكة، حفظة الليل وحفظة النهار، ويقال: حَرسٌ دون حرسٍ» انتهى.

فقوله: ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ الراجح: أن المراد معقبات على العبد على حفظه، فمعناه معتَقَبات أي مثلاً جماعات من الملائكة بالليل يعقبهم ملائكة النهار، ثم يعقب ملائكة النهار ملائكةُ الليل فهم يتعاقبون لحفظ الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ أي من أمامه، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ من ورائه يحفظونه أي المعقبات ذكّرهم على المعنى، وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي المعقبات هي من أمر الله؛ لأنه هو جعلهم وأمرهم أن يحفظوا العبد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ أي كما جعل للإنسان الحفظة، فهو يحفظ للقوم نعمته لا يغيرها حتى يغيروا ما بأنفسهم من الخير مثل النيات الصالحة والسلامة من التحاسد وسوء الظن، والمهم ما بهم من الخير فإذا غيروا ما بهم فقد عرضوا نعمتهم للزوال، وفسر هذه الآية قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي أنه تعالى هو الغالب على أمره، وإرادتُه تعالى إرادةُ حكمة وحق وعلم فلا مردّ لما أراده؛ لأنه الغالب على أمره والقاهر فوق عباده، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي من والي من دونه بينهم وبين الله يحول عن تنفيذ إرادة الله ويتولى رعايتهم ونصرهم و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن وَالٍ﴾ لتأكيد النفي.

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾ هو الذي يلمع ويرى شعاعه في السحاب، فالله هو الذي يأتي به.

بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ

وقوله تعالى: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ أما خوفاً: فالبرق خوف؛ لأنه قد تأتي معه الصاعقة فتُهلك أو تدمر حتى أن بعض من قد أفزعته قد يصير بعدها يفزع إذا رأى أمارات المطر خوفاً من الصواعق، فالبرق خوف لأنه يحدث معه الخوف؛ ولأنه مصدر سبب الخوف أي الصاعقة، وأما طمعاً: فلأن البرق يُطمِع عند لمعانه في المطر لأنه يأتي عنده المطر في كثير من المرات، ونسبته إلى الله لا ينافي نسبته إلى سببه؛ لأن السبب صنع الله فهو خالق الطبائع وما تولد منها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي هو الذي ينشئ السحاب الثقال وهي التي فيها ماء ينزله رزقاً لعباده وسميت ثقالاً لوجود الماء فيها، وإن كان أجزاء يحملها الهواء والريح فهو تعبير عن وجوده في السحاب، ولا شك أن السحاب التي فيها الماء تكون أثقل من السحاب التي لا ماء فيها، ويمكن وصفها بالثقل لعظم قدرها لما فيها من الماء النافع للناس كما وصف القرآن، والعترة بالثقل.

وقال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ لأن فائدتها في إنشائها ومائها هي الأصل، أما البرق فقال تعالى فيه: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ لأن فائدته في رؤيته؛ لأنه يدعو إلى الإستعداد لنزول المطر بالدخول في البيوت والأكنان ورفع ما في مجرى السيول من المواشي وغيرها، وإرجاع المواشي من مراتعها، وكذلك يدعو البدو إلى نقل أنعامهم من محل الجدب إلى جهة البرق إذا سألوا عنها فأخبروا بنزول المطر فيها، وغير ذلك من الفوائد التي لا نعلمها.

﴿١٣﴾ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي بحمد الله أي تسبيحاً مصحوباً بحمده.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والرعد: الصوت المسموع، وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرعد وعيد الله ـ عزَّ وجل ـ إذا سمعتموه فأمسكوا عن الذنوب» والناس يسبحون لَه إذا سمعوه، فنَسبُ التسبيح إلى الرعد مجاز» انتهى.

هكذا في (المصابيح) ولعل الأصل: وعد الله، أي أنه كالوعد بالمطر، ولذلك يشبه به الوعد، فيقال:

الوعد كالرعد والإيفاء كالمطر

وقوله: «فأمسكوا عن الذنوب» أي لئلا تسبب منع المطر، وقوله: فنسب التسبيح ـ كَتْبَةُ (نَسْب) غيرُ واضحة وهي تحتمل (فنسبة التسبيح) ولعله الأصل لرفع كلمة (مجاز) ـ وتسبيح الرعد بحمد الله تذكيره للسامعين بقدرة الله وبنعمة الله سبحانه وتعالى، من حيث أن الله أنشأه مبشراً بالمطر، وفيه فائدة للإستعداد لنزول المطر كالبرق، وأما التسبيح بالقول فالله أعلم، والسياق سياق تعديد آيات الله الدالة على قدرته وعلمه الرادة على الكفار كفرهم المار ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يسبحون بحمده ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي من خيفتهم لله وخوفهم منه؛ وذلك لكمال معرفتهم بالله وكمال إيمانهم بالله وذكرهم هنا لبيان الفرق بينهم وبين الكفار الجاهلين بقدرة الله تعالى على خلقهم بعد الموت خلقاً جديداً فهو مناسب لذكره في الردّ على الكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فهو من الدلائل العجيبة خلقها ناراً شديدة سريعة الإحراق قوية النفوذ سريعة المرور تتوجه

يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ

إلى جهة معينة من الأرض من جبالها أو سهولها، فيصيب الله بها من يشاء إصابته إما في نفسه فيموت أو في بيته فتدمره أو في ماله فيخسر، وإذا لم يشأ الإصابة بها لم تضرّ ومن عَلمه الله طريق السلامة منها فلأن الله لم يشأ إصابته ولذلك عَلَّمه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي في قدرته لجدالهم في قدرته على إعادتهم خلقاً جديداً بعد أن قد صاروا تراباً؛ ولعله أيضاً من الجدال في علمه؛ لأنهم يريدون أنهم قد ضلوا في الأرض، كما حكى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة:١٠] وعطف ذكر جدالهم في الله على ذكر دلائل قدرته وعلمه؛ ليبين أنهم ضلوا وأن إنكارهم لقدرته مع الدلائل الواضحة شيء عجيب.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ يبين أن ضلالهم وكفرهم ضره على أنفسهم وأنه تعالى يجازيهم جزاء وفاقاً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ معناه: العقوبة والمكر» انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصفهاني) في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾: أي الأخذ بالعقوبة، انتهى.

وفي (الكشاف): المحال المماحلة وهي: شدة المماكرة والمكايدة ومنه: تَمَحَّلَ لكذا إذا تكلف استعمالَ الحيلة واجتهد فيه، ومَحَل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه الحديث: «ولا تجعله علينا ماحلاً مصدَّقاً» انتهى المراد، ومثله في (الصحاح).

﴿١٤﴾ ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي له تعالى وحده دعاء الداعي الذي هو الدعاء الحق؛ لأنه الدعاء النافع؛ ولأنه من العبد لمالكه المستحق للعبادة بالدعاء وبغيره، فهو الحق والدعوة الواحدة من العبد لله هي الحق، ودعوة العبد لغير الله باطل والدعاء هنا بمعنى طلب الحاجة مثلاً بواسطة النداء، قال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان:٥٥] ولذلك استعمل في طلب النفس للحاجة، قال:

دعـاني إليها القلـب إني لأمره ... سميـع فما أدري أرشد طلابها

فأما مجرد لفظ النداء بدون طلب، فليس من معنى الآية، بل وإن كان معه صورة الطلب وليس المقصود الطلب، كقول الخنساء:

يا عـين جـودي بالدمـو ... ع المستهـلات السـوافح

وقول الآخر:

أيـا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنـك لم تجزع على ابن طريف

فأما دعاء الميت فما كان لطلب حاجة من المدعوّ لا يقدر عليها إلا الله فهو شرك، ومثله دعاء المخلوق الغائب إذا كان الطلب جدّاً لا هزلاً، وما كان لطلب حاجة من جنس مقدور المخلوق فهو جهل وباطل وليس من الشرك، ما لم يصحبه اعتقاد القدرة الخارقة، أو اعتقاد علم الغيب العام لكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ فالضمير في يدعون للذين كفروا، والمراد بالذين يدعونهم أصنامهم وأوثانهم ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم﴾ دعاءهم ﴿بِشَيۡءٍ﴾ مما يطلبون منهم كنصرهم على أعدائهم وشفاء مرضاهم وغير ذلك مما يطلبون منهم.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ استثناء من ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ منقطع أي لكن كاستجابة الماء لباسط كفيه إليه ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ بمجرد بسطه يديه إليه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي وما الماء ببالغ فاه لذلك البسط، فمثله دعاء الكافرين لشركائهم في أنه طلبٌ لا فائدةَ فيه ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ ضلال عن الحق والرشاد وغواية عن طريق الخير والصواب فهو في ضياع وبطلان لا يستفيدون به إلا العذاب ومعنى (من دون الله) أنهم اتخذوهم أقرب إليهم من الله لطلب حاجتهم منهم وسماعهم لدعائهم واستجابتهم لدعائهم جهلاً وضلالاً وشركاً بالله الذي هو ربهم الحق.

ويحتمل: أن معنى ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾: أي في ضياع؛ لأنه لا يستجاب وعلى هذا يكون عاماً لدعائهم لشركائهم ودعائهم لله في حال شركهم وكفرهم بالله ولا يستثنى من ذلك إلا دعوتهم لله عند الإضطرار؛ لأنهم عند ذلك مخلصون غير كافرين بقدرة الله وعلمه، وقد جاء في أهل النار ودعائهم لله ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ وذلك في آية [٥٠ من سورة غافر] وهو يُقرّب إلى أن دعاءَهم في ضلال في الدنيا والآخرة وإن دعوا الله في غير حالة الإضطرار.

﴿١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ العطف على ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أو ما بعده، ولله وحده يسجد يخضع وينقاد لصنعه فيهم من في السموات والأرض ﴿طَوْعًا﴾ وهو خضوع الملائكة والصالحين من أهل الأرض بعبادتهم له تعالى.

يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ

﴿وَكَرۡهًا﴾ وهو استسلام المخلوقين لقضائه وتصرفه فيهم؛ لأنه الغالب على أمره فله لذلك دعوة الحق؛ لأنه القادر على إجابة الدعاء وإعطاء المطلوب لا من يدعوهم المشركون.

وقوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ لعل الضمير لمن في الأرض فهو المتصرف في الظلال ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أوائل النهار بعد شروق الشمس ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أواخر النهار قيل: من بعد العصر إلى الغروب، فبتصرفه تعالى في الأرض والشمس تكون الظلال أول النهار إلى جهة وآخر النهار إلى جهة، وأيضاً في الصيف إلى جهة وفي الشتاء إلى جهة أخرى فظلالهم منقاد لله يحوله كيف يشاء.

﴿١٦﴾ ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ ﴿قُلۡ﴾ للمشركين ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المالك لهن؟ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله: اللهُ هو رب السموات والأرض، وهذا لا ينكره المشركون من العرب الذين كانوا في وقت رسول الله ﷺ فإذا كانوا يقرّون بذلك فكيف اتخذوا من دونه شركاء لا يقدرون على نفعهم ولا ضرهم؟ بل لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكونه لغيرهم ؟

وقوله: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ يحتمل معنى أرباباً مالكين لكم ويحتمل ولاةً لشؤونكم ولرعايتكم مع أنهم لا يستطيعون ذلك وذلك ضلال بيِّن حيث عدلوا عن

عبادة رب السموات والأرض القادر على كل شيء إلى عبادة من هو عاجز عن خلقهم ورزقهم وتولي رعايتهم.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ حيث رضيتم لأنفسكم بالعمى عن الهدى والحق ولَم تبالوا بذلك مع وجود الرسول الداعي لكم إلى الهدى، كأنه لا فرق بين العمى والإبصار ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ حيث اخترتم ظلمات الجهل على نور العلم بالله، ورسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والعلم بسبيل النجاة من عذاب الله، والفوز برحمته وفضله؛ وذلك لأنكم كفرتم بالله وبرسوله وكتابه ورضيتم لأنفسكم بالبقاء في ظلمات الجهل والباطل، كأنه لا فرق بين الظلمات والنور، وقوله: ﴿أَمْ هَلْ﴾ إضراب عن السؤال الأول للإنتقال عنه إلى السؤال الثاني كأنه قيل: بل هل تستوي الظلمات والنور.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فلم يدروا أين خلق الله وأين خلق شركائهم؟ وهذا انتقال إلى السؤال الثالث للإحتجاج عليهم فهم مقرّون أن الله الذي خلق السموات والأرض وخلقهم وخلق رزقهم، وأنه لا خالق غير الله خلَق كخلق الله، وحينئذ قررهم بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ وذلك يذكّرهم أنه ليس من يخلق كمن لا يخلق وأنهم في اتخاذهم أولياء من دونه قد ضلوا ضلالاً مبيناً، وقوله ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ تنبيه على أنه لا يقاس به شركاءهم المتعددون.

وقوله: ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ تنبيه على أن رحمته وعذابه لا يردهما شركاؤهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر:٣٨] تذكير لهم

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا
يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ
فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ

بأن شركاءهم لا يستطيعون أن يردّوا عن العابدين لهم عذاب الله كما لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً بل الله هو القاهر فوقهم وفوق شركائهم، وقوله: ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ بصيغة المبالغة تذكير لهم بقهره تعالى للأمم الماضين وقصمه لجبابرة الأولين، ليحذروا قهره لهم.

﴿١٧﴾ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفي هذا تذكير بقدرته تعالى ونعمته على عباده مع كونه ابتداء للمثل الآتي في الآية، وقوله تعالى ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ﴾ والأودية هي مجاري الماء العظيمة يجتمع إليها من الصبابات ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي بقدر الأودية بما قدر لها من الماء باعتبار تقدير المطر في الغزارة والكثرة وفي خلاف ذلك، وباعتبار سعة الصبابات وضيقها، وباعتبار قوة مرور الماء لانحدار الوادي كثيراً أو خلاف ذلك، وباعتبار سعة الوادي وضيقه، فالأودية تختلف في ذلك كله بما قدر لها من الأسباب ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾ لقوة مرور الماء وتلاطم أمواجه يعلوه الزبد الجافي الذي يتخلله الهواء ﴿رَّابِيًا﴾ منتفخاً بما يتخلله من الهواء ولتراكم بعضه على بعض وعلوه على الماء.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ ما ينتفع به من الآنية والآلات كالحديد والنحاس وغيرهما يوقد عليه لذلك الغرض وما ينتفع به من الماء والإدام فكل ذلك متاع إذا غلا كان منه الزبد مثل زبد الماء في قلة نفعه وكونه غير مطلوب ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ يجعل الله كذلك ويطبع الحق والباطل فيثبت الحق ويزهق الباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] فالمثل مأخوذ من كاف التشبيه لا من الضرب.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ﴾ ينعزل عن الماء أو يذهب يتلف ﴿جُفَآءً﴾ أي يذهب حال كونه جفاءً مرميّاً به متروكاً ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من ماء الوادي ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيبقى في الأرض لينتفع به الناس للشرب وسقي الدواب ولصلاح الأشجار والزروع.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ كذلك التمثيل للحق والباطل بالماء والزبد الذي يذهب جفاء يضرب الله الأمثال في القرآن وغيره من وحيه لما في التمثيل من الفائدة لفهم المراد كما يأتي من تمثيل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، فكذلك يطبع الحق بجعل طبعه الصلاح للثبات والإستمرار لمناسبته لطبع الكون وصلاح العالم ويجعل طبع الباطل الإستعداد للزهوق بتهيئة أسباب زهوقه ونفار الطباع السليمة منه، فهو بذلك كالمطبوع على الزهوق؛ ولأن معناه الفساد والإفساد.

هذا وقد فسّر الأكثر قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يمثل الحق والباطل ولعله يتحصل معناه: كذلك يمثل الله الحق والباطل، فيخرج الكلام عن بيان كون الماء والزبد مثلاً للحق والباطل إلى بيان أن الله يمثل الحق والباطل بمثل الماء والزبد ـ والله أعلم.

ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

﴿١٨﴾ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ لدعوته لعباده إلى عبادته وتقواه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي لهم الفائدة الحسنى أو الحالة الحسنى، فلهم في الدنيا حياة طيبة وذكر حسن ووصف جميل ولهم في الآخرة الأمن والثواب العظيم، وكأن هذ راجع إلى قوله تعالى **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾** كالتفسير للفرق بين المؤمن والعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لم يستجيبوا لربهم بل أعرضوا عن دعوته لهم وعصوا أمره سيندمون ندامة لا يعادلها ما نالوا في الدنيا وآثروه على الآخرة، بل ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ يوم القيامة ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ أي لطلبوا أن يقبل منهم فدية لهم من سوء مصيرهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ لما فيه من ذكر فضائحهم وتخزيتهم وتبكيتهم وكونه مقدمة للأمر بهم إلى النار ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ الذي يأوون إليه ويصيرون ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي هي الجزاء لهم بما فيها من العذاب الدائم فكيف لا يتمنون أن يفتدوا من ذلك ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي مهاد ذميم على أهله وكأن تسميتها مهاداً لهم مشاكلة تقديرية؛ لأنها صارت لهم بدلاً من المهاد الذي يمهد للإنسان للنوم عليه وللصبي ليحفظ فيه.

أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ

قال الراغب في (مفرداته): «والمهاد: المكان الممَهَّد الموطأ» انتهى. وقال في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه:٥٣] و﴿..مِهَادًا﴾ [النبأ:٦]: وذلك مثل قوله: ﴿الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة:٢٢]» انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ﴿أَفَمَن﴾ تفريع على بيان الفرق بين الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا، أي فإذا كان الفرق بينهما ما ذكر فهل يستوي من يعلم أن ما أنزل الله على رسوله هو الحق ومن هو جاهل بذلك أعمى البصيرة فهو لا يستجيب لربه؛ لأنه غير مؤمن بدعوته لعباده فيما أنزل على رسوله من القرآن وسائر الوحي، وأكد هذا بجعل الكلام في صورة السؤال بهمزة الإنكار في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ﴾ لأن الفرق واضح لأهل العقول معلوم عندهم إذا استعملوا عقولهم.

فكأنه قيل: كيف يكون مَن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى البصيرة جاهل معرض متمرد؟ فهو كالأعمى الذي لا يهتدي لطريق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي الذين يستعملون ألبابهم، واللب عبارة عن العقل كأن قلب الجاهل الذي لا يستعمل عقله فارغ لا لبَّ فيه، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩] ثم بيّن تعالى المراد بـ(أولي الألباب) فيما يلي من الآيات:

﴿٢٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي بما عاهدوا الله عليه أو بعهد الله الذي أقسموا به وجعلوا على

وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ

أنفسهم الوفاء به بقول قائلهم عليَّ عهد الله أو بأي قسم يقسم به لغيره بالله ليثق به في صلح أو غيره، قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة:١٢] فإضافته إلى الله على هذا المعنى لأنه موثق منه جعله لعباده ولأن المعاهد قد جعل اللهَ كفيلاً عليه فكان الوفاء حقاً لله عليه يوجب عليه رعاية العهد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل:٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ نقض الميثاق ترك الوفاء به وهو النكث كأن الموْثق عقدة بين المعاهِد ومن أعطاه العهد فإذا ألغاه ورفضه كان كأنه نقض العقدة، أو كالحبل المفتول القوي ونكثه كإرجاع الحبل إلى أصله ونقض فتله. قال الراغب في (المفردات): «ومن نقض الحبل والعِقد استعير نقض العهد» انتهى.

﴿٢١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ وصل العلاقة تجديدها بالإحسان أو بالحضور لصاحبها أو برعايتها بأي طريقة، والعلاقة تكون بالرحامة، وتكون بالمودة، وتكون بالعهد على الإخاء ونحوه وغير ذلك، وفي (معلقة لبيد) إحدى (المعلقات السبع):

أولم تكن تدري نوار بأنني ... وصّال عقد حبائل جذّامُها

قال في (شرح الزوزني) عليها: «الحبائل: جمع الحُبالة، وهي مستعارة للعهد والمودةِ هنا، الْجَذْمُ: القطع ـ ثم قال الشارح ـ : فقال: أولم تكن تعلم نوار إني وصّال عقد العهود والمودّات وقطّاعها، يريد أنه يصل من استحق الصِّلة ويقطع من يستحق القطيعة» انتهى.

فظهر: أنهم جعلوا العلاقة بمنزلة الحبل، ورعايتها وصل، وإهمالها قطع، ومن العلاقة علاقة العبد بربه، ولذلك جاء في الحديث: «وصِلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكره..» الحديث.

ومن العلاقة: علاقة الأمة برسولها فاتباعها إياه وطاعته وصل، ومعصيته قطع، ومن العلاقة: علاقة الأمة بإمامها الذي تجب عليها طاعته ونصرته، ومن العلاقة: علاقة المؤمن بالصادقين الذين وجب عليه الكون معهم، ومنها: علاقته بالمؤمنين الذين تجب عليه موالاتهم؛ ولذلك جاء في الحديث: «أفشوا السلام بينكم، وتواصلوا».

فأما ما أمر الله بوصله فيرجع فيه إلى الأدلة السمعية، كقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء:١] وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ [النساء:٣٦] وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ..﴾ الآية [محمد:٢٢-٢٣] وقول رسول الله ﷺ: «اللهم وال من والاه، وعادِ من عاداه» وقوله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي..» الحديث.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): الذي أمر الله بوصله النبي ﷺ والأئمة من ولدهم [كذا] لأن قطعهم كفر وضلال» انتهى.

وقال الشرفي ـ أيضاً ـ : «قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام في (الشافي): «إن المراد بذلك ولاء آل محمد ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ـ وإنما قلنا ذلك؛ لأن السعادة تثبت بثبات ولائهم عليهم السلام وتزول بزواله..» إلخ كلامه.

لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ
وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ

قلت: الراجح العموم لكل ما أمر الله بوصله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قال الراغب في (مفرداته): «الخشية: خوف يشوبُه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي ليتقوا أسباب سوء الحساب أي شدته وما فيه من المناقشة والتوبيخ والسؤال عن كل كبير وصغير وغير ذلك مما يسوء العبد المحاسبة لأجله.

﴿٢٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي على ما تكره النفوس من الطاعة والبلاء ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي ابتغاء رضوانه؛ لأن الراضي يقبل بوجهه كما أن الساخط يعرض، وقال إخوة يوسف: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جعلوها صلاة قيّمةً كاملة بإخلاصها وخشوعها مع تمام شروطها وأركانها وهذا من خواص المؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كذلك من شأن المؤمنين طلباً لرضوان الله وتثبيتاً من أنفسهم ينفقون من الحلال ﴿سِرًّا﴾ حيث ينبغي إخفاء الصدقة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ حيث ينبغي إعلانها للقدوة، والواجب من الإنفاق قد ينبغي إعلانه تجنباً للتهمة.

ومن الإنفاق ما ذكره الله في (سورة البقرة) في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [آية:١٧٧] ومنه الإنفاق في سبيل الله لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ [البقرة:١٩٥] والآية التي نحن في تفسيرها لم تعين المصارف، والتعيين في غيرها وما نزل بعدها من الزكاة والإنفاق في سبيل الله يصدق عليه إطلاقها، وهو من تطبيقها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بالحسنة وهي خصلة من خصال الإحسان ومكارم الأخلاق يدفعون بها السيئة، أي سيئة من يسيء إليهم لو لم يحسنوا إليه، وقد تكرر في القرآن الكريم الحث على هذا لأهميته وعظم فائدته وكثرة ثوابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ..﴾ ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي الدار الآخرة والدار الآخرة هي الجنة ـ وعقباها: عاقبتها وهي ما جعل الله لأوليائه فيها من النعيم الدائم والملك الكبير الذي هو عاقبة المتقين، أو المراد العقبى التي هي الدار الآخرة، كما قال تعالى ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ ويحتمل ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ العاقبة التي أدتهم إليها الدار الدنيا.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾: أي عقبى دار الدنيا وهي الجنة؛ لأنها هي الدار التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا» انتهى المراد، ومثله في (الكشاف) و(الميزان).

ودار الدنيا: دار الحياة الدنيا، وهي الأرض في حق البشر، والسماء في حق الملائكة، والراجح عندي الأول، سواء كانت الإضافة على معنى (في) أو على معنى (اللام) من إضافة الصفة إلى الموصوف.

عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿٢٣﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بيان لعقبى الدار، ومعنى جنات عدن في (تفسير القاسم عليه السلام) لـ(سورة لم يكن) قال: «وتأويل ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ هو جنات مستقرٍّ وأمن»، انتهى.

﴿وَمَن صَلَحَ﴾ والصالح: ضد الفاسد، فالصالح هو المؤمن المتقي لله؛ لأنه طيب غير خبيث وسليم من عيب المعاصي المهلكة، وقوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ يعم الأجداد الصالحين مع الآباء الأقربين ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ يدخل فيه الصالحات من الأمهات إذا كان أزواجهن من الصالحين، وقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يعم الذرية ما تناسلوا، وهذا ترغيب باجتماعهم في الجنة، وفيه دلالة على بقاء اعتبار النسب في حق الصالحين كما تبقى الخُلة في حقهم، فهو مخصص لعموم قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون:١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي لتكريمهم بزيارتهم وللسلام عليهم كما بينه قوله تعالى:

﴿٢٤﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي يقول لهم الملائكة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهي تحية لهم وتكريم، وقولهم: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي نسلم عليكم بسبب صبركم في الدنيا على طاعة الله وبلائه ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ مدح لعاقبة الصبر التي صاروا إليها في الدار الآخرة التي هي عقبى الذين اتقوا، أو فنعم عاقبة الأرض التي كنتم فيها في الحياة الدنيا.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ ينكثون أيمانهم ويحنثون فيها ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد أن وثقوا العهد وأحكموه وقوّوه، أو من بعد أن جعلوا العهد ميثاقاً لمن عاهدوه يثق بما عاهدوا عليه من أجل العهد ويركن إليه فبعد ذلك ينقضونه غدراً وخيانة ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهي العلائق التي كانت بسبب من الأسباب التي مر ذكرها والتي أمر الله أن توصل كالأرحام والوالدين والصادقين.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أبو الفتح الديلمي ـ وهو مؤلف (البرهان) ـ عليه السلام: «﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: هم الذين لا يوجبون محبة آل محمد صلوات الله [عليه و] عليهم، وينكرون فضلهم» انتهى المراد.

والقطع يكون بالهجر ويكون بالمباينة والمعاداة، وقطع علاقة العبد بربه: معصيته، والإصرار، والتمرد، وقطع علاقته بالرسول: الكفر، والنفاق، وبالإمام: رفضه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ينشرون الباطل في الأرض بالدعوة إليه والترغيب فيه، أو بالقوة والإرهاب، ومن ذلك مدارس أهل الباطل ومعاهدهم، ومن الفساد في الأرض: نشر الهلاك والدمار، كما فعلت التتار، وكما تفعل أمريكا وإسرائيل اليوم، ومن الفساد في الأرض: الجدال في آيات الله ونشر الشبه.

وقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذه الصفات ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ الطرد من رحمة الله ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ عذاب الدار التي هي دار الفاسقين وهي جهنم، أو سوء الدار سوء المستقر الذين سيكون لهم داراً وهو جهنم، فالفرق أن الدار في الأول مفهومها جهنم، وفي الثاني مفهومها مبهم ومصداقه جهنم، كما لو قيل: سوء المستقر.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ (٢٦) ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ هذا إبطال لدعوى الكفار الذين بسط الله لهم الرزق حيث فرحوا بما أوتوا من الرزق وظنوا أن حظهم وما يسمى اليوم (بختهم) جيد وأنهم إن رجعوا إلى الله من بعد الموت، فسيكون لهم في الآخرة مثل ما نالوا في الدنيا لأن حظهم جيد في ظنهم، فجعلوا ما نالوا من الرزق كالأمر الطبيعي.

فبيَّن الله أن الذي أوتوه من الرزق إنما هو من الله يبلوهم به، ولو شاء لقدر عليهم الرزق لأن الله هو ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ويقدر فقد اغتروا بنعمة الله عليهم، وبعض الكفار يظن أن الله يعطيه لأنه يحبه، فهو يعتقد أنه إن رجع إليه بعد الموت فله عنده الحسنى؛ لأن الله يحبه لغير عمل، وإنما يستدل على حبه إياه بتوسيع الرزق له، وبعضهم يعتقد أن سبب كثرة رزقه علمه بطرق الكسب وهذه الآية رد عليهم، وبيان أنه هو الذي يبسط الرزق لهم ولو قدر عليهم لأعيتهم الطرق إلى الرزق، كما قال الشاعر:

كم عالمٍ عالمٍ أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

وقد يكون الرجل البصير في التجارة أو غيرها غنياً مدة من الزمان ثم يصير فقيراً، وهو ذلك البصير بعينه، فالله هو الذي جعل الأسباب أسباباً وهيّأها لمن أراد، وزواها عمن أراد، وتقديرُ الرزق تقليلُه بقدْرٍ تقتضيه الحكمة.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي الكفار سرَّتهم هذه الحياة واطمأنوا إليها فجعلوها أكبر همهم ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي بالنسبة إلى الحياة الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ إلا بُلْغَةٌ قصيرة الأمد.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: «معنى ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي ما هي مع الآخرة إلا متاع إذا ذكرت معها، فقامت (في) مقام (مع) ومعنى ﴿مَتَٰعٞ﴾ أي بُلغة ومتعة إلى حين الموت ولا سلامة لأحد فيها من الفوت، وكل شيء بلّغ المَحَلّ قيل متع صاحبه إلى محل كذا وكذا» انتهى.

وهذا لأن الآخرة دائمة لا نهاية لها أبداً، والدنيا مؤقتة محدودة فانية، فالمؤقت المنتهى بالنسبة إلى الدائم قليل جداً؛ لأنها لو قوبلت كل ساعة من ساعات العمر بمليون سنة من مدة الآخرة لانتهت ساعات العمر ولم يقابل الخلود شيء منها بعد الملايين المذكورة، فالحياة الدنيا لا تستحق أن يفرح بها الإنسان بل تستحق أن يحذر من الإ غترار بها.

﴿٢٧﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ يريدون إن كان محمد رسولاً فلولا أنزل عليه ﴿ءَايَةٞ﴾ أي فهلاً أنزل عليه آية ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهذا منهم كفر برسالته وكفر بآيات الله يزعمون أنها ليست آيات وهم يسمعون هذا القرآن العظيم الخارق للعادة في حكمته وإحكامه، ومع ذلك يقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ وذلك التمرد والعناد والجدال في آيات الله استحقوا به أن يضلهم الله سبحانه بخذلانهم وإرسال الشياطين عليهم؛ فلذلك قال تعالى:

بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ فتكذيبكم بآيات الله ضلال وسبب للإضلال عقوبة لكم ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ فلا تضلونه بكفركم وجدالكم في آيات الله، ومعنى ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ مَن رجع إلى الله فالإنابة سبب للهدى، كما أن الجدال في آيات الله سبب للضلال.

﴿٢٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ هذا تفسير لـ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ أي تسكن ويذهب عنها الإضطراب والقلق يذهب ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي ذكره بقلوبهم؛ لأنهم يذكرون أنه الرازق، وأنه الكافي لمن توكل عليه، وأنه مجيب دعوة الداعي، وأنه يثيبهم على ما عملوا من خير ويعوضهم بما أصابهم من ضر، وأنه لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وأنه الرحيم بعباده فما أصابهم من فقر أو مرض أو غير ذلك من البلاء فهو خير لهم في العقبى، ونحو ذلك من الإطمئنان الذي سببه معرفة الله وذكره بالقلوب.

وقوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تنبيه لمن غفل عن ذكر الله أنها بـذكر الله ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ إرشاداً إلى ذكر الله وحثاً عليه.

﴿٢٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ ﴿طُوبَىٰ﴾ حياة طوبى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] و(طوبى): مؤنث أطيب، مثل (حسنى) تأنيث أحسن.

أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي سرور لهم، والطوبى: هو السرور، وطيب الحياة والحبور» انتهى المراد، وكأنه أرجع طوبى إلى طيب النفوس، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء:٤].

والراجح: أنه وصف للحياة أو العيشة أو نحوهما، كما قال: ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] وكيف لا تطيب حياة من هو مطمئن القلب بذكر الله متوكل على الله راضٍ بما كتبه الله قانع بما رزقه الله كما هو شأن المؤمن الكامل الإيمان؟

وقوله تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي حسن مرجع يؤوب إليه يوم القيامة فاجتمع لهم خير الدنيا والآخرة.

قال في (الصحاح): «وطوبى: فُعْلَى من الطيب قلبوا الياء واواً للضمة قبلها، وتقول: طوبى لك، وطوباك بالإضافة - ثم قال -: وطوبى اسم شجرة في الجنة» انتهى.

قلت: شجرة طوبى داخلة في حسن المئآب، فإن صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفسيرها في الآية بشجرة طوبى تعين، ولعل الأقرب: أنه بيان لبعض مصداق طوبى، فيكون مفيداً لطيب حياتهم في الدنيا والآخرة - والله أعلم.

﴿٣٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي أرسلناك به من هذه السورة وتلوته عليهم وفيه البيان الكافي لآيات الله الدالة على قدرته، وعلى أن هذا القرآن من الله،

ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ
يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ
وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ

وعلى صدقك في كل ما جئت به ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ بما أوحينا إليك كله لتتلو عليهم القرآن وقد خلت من قبلهم أمم فيهم عبرة لهم وتذكير بعقوبة التكذيب بآيات الله ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك كله ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي يدعوهم إلى رحمته والنجاة من عذابه فيزعمون أنه لا يقدر على تجديد خلقهم بعد أن يصيروا في القبور تراباً وعظاماً.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الرحمن ربي المالك لي؛ لأنه خلقني ورزقني ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ لأنه المتولي لأمري وأنا أرضى بما كتب لي ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ في الآخرة أي مرجعي ـ والمآب والمتاب واحد في المعنى ـ فأنا أؤمن بتوحيده وصدق وعده بالبعث من القبور والرجوع إليه في الآخرة وحده، وأنا بريء مما أنتم عليه من الشرك والتكذيب بالآخرة والكفر بالرحمن وتكذيب رسله فقد جئتكم بهذا القرآن حجةً عليكم ودليلاً على صدقي.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ..﴾ الآية، وهو في كفار مخصوصين قد تمردوا وبعدوا عن الإيمان وخذلوا

واستحوذ عليهم الشيطان، فقد كان يكفيهم آية هذا القرآن، لكنهم ضلوا فقالوا: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ جحداً منهم لكون هذا القرآن آية.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقوته وعظمته وشدة خرقه للعادة لما آمنوا به، كقوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام:١٠٩-١١٠] وذلك أنه لم يبقَ عندهم صلاحية للإيمان فالسببُ في كفرهم ضلالهم، لا عدم الآية، فقد جاءهم القرآن وهو يكفي للإيمان لو كان عندهم إنصاف.

وقوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فهو الذي تركهم في ضلالهم يعمهون لأنه أراد بحكمته أن يتركهم وما اختاروا لأنفسهم ولم يُعصَ مغلوباً ولو شاء لهداهم أجمعين.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أفلم يعلم ويتبيَّن، وهي لغة النَّخَع» انتهى المراد.

وقال الراغب في (تفسيره): «وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قيل: معناه: أفلم يعلموا، ولم يُرد أن اليأس موضوع في كلامهم للعلم، وإنما قصد أنّ يأسَ الذين آمنوا من ذلك يقتضي أن يحصل بعد العلم بانتفاء ذلك، فإذاً ثبوت يأسهم يقتضي ثبوتَ حصول علمهم» انتهى.

وفي (الصحاح): «ويئِسَ ـ أيضاً ـ بمعنى عَلِم في لغة النَّخَع، قال سحيم بن وَثِيل اليربوعي:

أقول لهم بالشِّعب إذ يأسرونني ... ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ انتهى.

ونحوه في (لسان العرب) إلا أنه في تفسير الآية، حكاه عن (صاحب الصحاح). وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يريد تعالى التقرير لهم أي: ألم يوقِنِ الذين آمنوا، واليأسُ هاهنا هو اليقين، قال الشاعر:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنُهُ وإن كنت عن دار العشيرة نائيا

أي [أ]لم يوقنوا، وقال آخر:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني حريث بن جابر»

انتهى. قال في (لسان العرب): «ويُروَى: يأسرونني من الأسْر، وذكر للبيت رواية ثالثة:

أقول لأهل الشعب إذ ييسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس لازم»

انتهى المراد.

وقد اتفقت روايات هذا البيت في إثبات الشاهد منه، وقال في (لسان العرب): «في سحيم، وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم، بدليل قوله: أني ابن فارس زهدم، وزهدم فرس سحيم» انتهى.

قلت: فلعل حريث بن جابر ابنه المذكور في رواية الحسين بن القاسم عليه السلام، وذكر الطبري في تفسيره البيت:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

فتحصل: أن المعنى: أفلم يتبيَّن ويعلم الذين آمنوا سواء كان (ييأس) مفهومها يتبين ويعلم، أم كان كناية عن العلم كما قدَّمتُ عن الراغب الأصبهاني أي: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله أن يهدي الناس جميعاً

على أي حال لهداهم، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء:٣-٤] ولكنه سبحانه أراد أن لا يُلجأهم الجاء، بل يتركهم يختارون ما شاءوا من إيمان أو كفر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي لا يزالون في الدنيا تصيبهم بجرائمهم مصيبة عقوبة لهم، وسميت قارعة تشبيهاً لها بما يضربهم ضرباً لينتبهوا من غفلتهم عن الله والقارعة ما يصيبهم من مصائب الدنيا مثل الأمراض والخوف ونقص الثمرات وتسليط أعدائهم عليهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي أو تحل قارعة قريباً من دارهم أي: أو تنزل في مكان قريب من دار الذين كفروا بمن هو مثلهم في الكفر، فهو عبرة لهم، وربما لحقهم أثر تلك المصيبة كفوات بعض حاجاتهم التي كانوا من قبل ينالون من ذلك المكان ففاتهم بسبب هلاك أهله أو ذهاب ثمره أو شرَّد أهل ذلك المكان الخوف إلى هؤلاء الذين لم تلحقهم المصيبة فثقَّلوا عليهم وضيَّقوا حالهم بكثرتهم مع فقرهم كما هو معروف من كثرة اللاجئين.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ الموت أو البعث الذي جحدوه، ويحتمل: أن المراد بالذين كفروا هنا، هم الذين ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ..﴾ الآية، الذين كذبوا رسول الله ﷺ وكذبوا بالآيات التي جاء بها و﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ وعده لرسوله ﷺ بالنصر عليهم وإظهار دينه وإزالة الشرك والكفر من دارهم بفتح بلادهم للمسلمين التي هي مكة وما حولها.

فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ
عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ
وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ يعم الوعد بإظهار دينه والوعد بالآخرة والجزاء لكل نفس بما كسبب ووعدهم بأنها لا تزال تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم، وهذا المعنى الأخير قريب يؤكده اتباع هذه الآية بقوله تعالى:

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ولقد كذب رسل من قبلك واستهزأ بهم قومهم إفراطاً في تكذيبهم، والإستهزاء أن يقولوا كلاماً موافقاً وهم غير جادّين فيه بل مستخفُّون بالرسول كلو أوعدوه بالإيمان وهم مصرون على كفرهم، وكقول المنافقين: ﴿آمنَّا﴾وهم غير جادين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي أمهلتهم إلى أجل محدود ولم أعاجلهم بالعقاب على كفرهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أهلكتهم بالعذاب، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف كان عقابي لهم حين أخذتهم، فقد ظهر كيف كان بما بلغ الناس من خبر عقاب الله لقوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه.

﴿٣٣﴾ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ

لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ متولّ عليها معامل لها بما هي أهله من الخير أو الشر بسبب ما كسبت من طاعة أو معصيته يعاملها في الدنيا والآخرة لإحاطة علمه بكل نفس وقدرته على معاملتها بما هي أهله وعلمه بكل صغيرة وكبيرة من عملها، فهو الذي ينبغي أن يتقيه عباده ويرجوا رحمته وثوابه ويخافوا عذابه ومع ذلك فهم يجعلون له أنداداً أحجاراً منصوبة وتماثيل مصنوعة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، وتقدير الكلام على هذا: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت جعلوا شركاءهم أنداداً له، مع أنهم لا يصلحون أن يجعلوا أنداداً للحيوان، فضلاً عن أن يُجعَلوا أنداداً للحي القيوم.

ويحتمل التقدير بعد قوله تعالى: ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ تجرّأوا على الكفر به وجعل الأنداد لَه والتكذيب لرسله والجحد بآياته والجدال فيها مع أنهم أحوج إلى تقواه ومراقبته في كل أمورهم؛ لأنه قائمٌ على كل نفس بما كسبت، وهذا عندي أقرب من الأول؛ لقوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي تمرّدوا وتجرؤا عليه وجعلوا له شركاء وهو الله الذي له الأسماء الحسنى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي سموا شركاءكم، فإنهم يسمونهم تسمية الأنثى، فقد كان ينبغي لهم أن يستحيوا من جعلهم شركاء وهم إناث عندهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ [النساء:١١٧] وهم يكرهون البنات لأنفسهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف:١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سؤال تقريعٍ لهم وتوبيخ على قولهم إن أصنامهم شركاء لله وتجهيل لهم وإبطال لها بطريقة أنها لو كانت شركاء حقاً لعلمها الله شركاء له لكنه لا يعلم في الأرض شريكاً له، أفتعلمون ما لا يعلم وتخبرونه بما لا يعلم؟ وهذا إنكار عليهم وتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بمعنى بل أتنبئونه إضرابٌ عن قوله سموهم إلى ما هو أبلغ في الرد على المشركين للترقي في الجواب، وقوله تعالى: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي أم بسلطان من القول غالب وذلك لا يكون إلا كتاب منزل من الله أو معلوم علم اليقين من وحي الله جعله الله سلطاناً لكم غالباً لمن خالفكم، وهذا إضراب للترقي إلى ما هو واضح للمشركين لا يدّعونه، وإنما ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٣] وهذه الآية احتجاج مزعزع يحرك الضمائر ويوقض الغافل، لو كان بقي لهم ضمير وشيء من الإنصاف.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي قد وضح السبيل القاصد الحق وتبين الصواب فلم يتركوه لخفاء الحجة عليهم بل زُيِّن لهم مكرهم ضد الحق واستحسنوه لأنهم كارهون للحق فأعجبهم ما تخيروه من الإحتيال لإبطاله.

مثال ذلك: مكرهم حين اجتمعوا للتشاور على ما هو الرأي أن يقولوا في محمد ليقولوا فيه كلاماً يتفقون عليه ولا تختلف أقوالهم، فتخيروا أن يقولوا: ﴿سَاحِرٌ﴾ [ص:٤] فأعجبهم ذلك وزينه الشيطان لهم، والأولى: أنه عام لكل مكايدتهم ضد الحق كتكذيبهم بالقرآن، وقولهم: ﴿شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥] وقولهم:

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ

﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان:١٤] وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣] واحتيالهم لإبطال أمر الرسول بغير ذلك مثل شكواهم عند أبي طالب ليمنعه من الكلام في شركائهم وفي شركهم لأن قوله تعالى: ﴿مَكْرُهُمْ﴾ عامّ لمكرهم كله.

وقوله تعالى: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أما على قراءة [فتح الصاد] فالمعنى أنهم صَدُّوا غيرهم فخذلوا بسبب مكرهم وصدهم لمن صدوه من الناس؛ لأنهم بمكايدتهم للرسول وما جاء به استحقوا الخذلان فأصروا على شركهم ولم يقبلوا أي حجة، وأما على قراءة [ضم الصاد] فالمعنى أن الشيطان صدَّهم عن السبيل بسبب أن الله خذلهم وأرسل عليهم الشياطين تؤزهم أزاً؛ فلذلك لم يقبلوا الحق والهدى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ فهو يشير إلى أن الله أضلهم بخذلانهم الذي استحقوه بمكرهم حتى زُين لهم كيدهم وحتى صدوا عن السبيل، فقوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعبير عن إضلالهم بالخذلان الذي ترتب عليه تزيين مكرهم لهم وصدهم عن السبيل على قراءة [فتح الصاد]؛ لأن إمعانهم في الكفر حتى صدوا غيرهم هو بسبب الخذلان و[على قراءة ضمها] فهو الإضلال الذي هو نتيجة الخذلان زين لهم ﴿وَصُدُّواْ﴾ [بضم الصاد] وذلك لاستحقاقهم الخذلان بمحاربتهم لدين الله، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ماله هادٍ يهديه غيرُ الله، والله لم يهده فلم يكن له من هادٍ لا الله تعالى ولا غيره.

﴿٣٤﴾ ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ أي للذين كفروا المذكورين في الآية التي

وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ

قبل هذه، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي عذابهم في الآخرة إن لم يتوبوا في الدنيا أشق من عذاب الدنيا ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي مالهم مَن يقيهم من الله لأنه الغالب على أمره الفعَّال لما يريد فلا يستطيع أحد دفع عذابِ الله عنهم.

﴿٣٥﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي وصفها ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ التي وعدها الله المتقين الذين اتقوا ربهم بطاعته ولم يُصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون، وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ خبره إما ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وما بعده إلى قوله تعالى: ﴿وَظِلُّهَا﴾ وإما قوله ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ وما بعده إلى قوله: ﴿وَظِلُّهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جملة حالية، والأول أرجح.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي صفة الجنة أن فيها الأنهارَ والأكل الدائم والظل، وإنما الأصل في الأمثال أنها صفات في المقال، قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل:٦٠] وليس لله مِثْل، وإنما أراد وله الصفة العليا، فافهم أصل ضرب الأمثال، أو التوصل إلى الصفات بالمقال» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أي ثمرها المأكول دائم ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي دائم؛ لأن أوراقها لا تسقط في الشتاء كبعض أشجار الدنيا ولا يتخلف ثمرها في وقت من الأوقات كما يتخلف ثمر بعض أشجار الدنيا.

بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ أي الموصوفة بهذا الوصف ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي عاقبتهم أي عاقبة التقوى لأهلها، وقوله تعالى: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي عاقبتهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي نار جهنم نعوذ بالله منها.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ يترجح: أن هذه السورة مكية، فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ﴾ يَبِينُ حالهم وموقفهم من القرآن يومئذ ولا ينافي أن بعضهم تغيروا بعد الهجرة إلى المدينة المنورة فلعل سبب ذلك كان بعد الهجرة كنسخ القبلة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٥٢] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] وهذا أرجح من تأويل ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالذين فهموه تماماً واهتدوا بهداه الذي سبق لي في تفسير (سورة المائدة)؛ لأن نسبة الإيمان بالقرآن إليهم خاص بالسور المكية، وعلى هذا فهم كانوا يفرحون بما أنزل على محمد حين كان في مكة قبل هجرته إلى المدينة كما كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي ينكر بعض ما أنزل الله على رسوله من المعاني كنفي الشريك لله، وإسنادُ الإنكار إلى بعض الأحزاب من حيث هم بعض الأحزاب يشعر بسبب الإنكار وأنه تعصبهم لمبادئهم التي تحزبوا عليها، كقوله تعالى في عيسى ـ صلى الله عليه ـ: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم:٣٧].

جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا

ويحتمل: أن قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أراد به أحزاب الذين أوتوا الكتاب فيكون مخصِّصاً لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ﴾ وهذا قريب لأن أحزاب أهل مكة ومن حولهم حالهم معروف لهم لا موجب لإخبارهم به.

فالراجح: أن المراد بالأحزاب أحزاب أهل الكتاب ذكروا لتخصيص أول الاية وإن شمَل بعمومه غيرَهم ومثله يتعين فيه المخصص بالترجيح لأنه عمومان بينهما عموم وخصوص من وجهين: عموم الذين أوتوا الكتاب للأحزاب منهم وغير الأحزاب، وعموم الأحزاب لأحزاب الذين أوتوا الكتاب وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي قل للذين ينكرون بعضه إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، فهذا ديني فليس فيه ما يستحق أن تنكروه؛ لأن عبادة الله الخالق الرازق حق لا ينكره العقل واجتناب الشرك حق؛ لأن الله لم يأمر بعبادة غيره ولا برهان لكم بالشرك، فاجتنابه طريق الأمن ولا موجب لإنكاره.

وقوله ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ كذلك لا ينكر العقل الدعوة إلى الله وحده، وقوله ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي وإليه وحده مآبي أي مرجعي في الآخرة، فهو الذي يسألني عن عملي ويجزيني عليه فليس إنكار اتقائي له وحده إلا جهل منكم.

﴿٣٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أنزلنا ما في

هذه السورة من الهدى والحكم الحق ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن كله ﴿حُكْمًا﴾ بالحق وأنزلناه ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي بلسان عربي مبين يفهمه العرب حين تتلوه عليهم، فقوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾ حال بعد حال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي شركهم وما هم عليه من الباطل الذي لم يتبعوا فيه حجة إنما اتبعوا أهواءهم، وقوله تعالى ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي من الوحي والبرهان المفيد للعلم بأنك أنت على الحق وأنهم على الباطل، فقد قامت الحجة بذلك عليك، فإن اتبعت باطلهم ﴿مَا لَكَ﴾ حينئذ ﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى رعايتك وإصلاح أمرك ويرسل لك من الخير ما يمسك الله عنك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك عذابه إن اتبعت أهواءهم وحاشاه ﷺ فهو أطوع لله ربه من أن يكون كذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد سواه من الأنام، فقِسْ على هذا ما أشبهه من الكلام فيما لا يليق برسول ذي الجلال والإكرام» انتهى.

قلت: إن الله تعالى تعبده كما تعبد غيره من عباده ولو عصاه لعذبه فالكلام فيه حق وصدق وإن كان الغرض به زجر غيره فليس معنى ذلك أن الرسول المخاطب بهذا الكلام لم ينهَ ولم يشمله الوعيد الذي خوطب به؛ لأنه وإن كان لا يحتاج في ترك أهواء الكفار إلى هذا الوعيد فهو يصلح له من حيث هو عبد تعبَّده الله كما تعبّد غيره ولو عصاه لعذَّبه فلا يُصرَف خطابه هذا عن ظاهره، ولكن يقال: قد تعبد الله بهذا وزجر رسوله عن مخالفته وهو أطوع الناس لَه فغيره أولى أن يكون مثله متوعَّداً إن خالف ربه، نظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣] هو زجر عما هو أشد مع أنه باق على معناه الأصلي في النهي عن قوله: ﴿أُفٍّ﴾.

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ
ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كأن الكفار كما أنكروا بعض ما أنزل الله أنكروا أن يكون للرسول ﷺ أزواج، كما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان:٧] وكما أنكروا أن يكون الرسول بشراً مثلهم، فردّ الله عليهم بأنه قد أرسل من قبله رسلاً وجعل لهم أزواجاً وذرية؛ لأنهم إنما أرسلهم مبشرين ومنذرين، فلا مانع مع ذلك من أن ينكحوا النساء على سنة الله للبشر، بحيث يكون لهم ذرية كما كان لنوح وإبراهيم، وقد كان لإبراهيم ـ صلى الله عليه ـ من الأزواج اثنتان، وروي أنه كان لسليمان كثير من النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رد على قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فالآيات عند الله ينزلها على ما تقتضيه الحكمة، وهو غني عن إيمانهم ولا يريد أن يجعل لهم آية تضطرهم، وإذا أنزل آية غير ما قد أنزل ولم ينزل ما يضطرهم إلى الإيمان فهم لا يؤمنون لأنهم قد خذلوا بعنادهم وجدالهم في آيات الله، فإذا نزلت آية يجحدونها ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢].

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فلعل المراد به: آجال أمم الرسل المكذبين، لكل أمة أجل، ولكل أجل منها كتاب يحدّ الأجل، فإذا جاء أجلهم نزل بهم العذاب لا يتأخر ولا يتقدم ويدخل في عمومها سائرُ الآجال فهي تدفع توهُّم المكذبين أنهم لو كانوا مبطلين لعذبهم الله واغترارهم بالإمهال.

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (٣٩) ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من كتاب الآجال وغير الآجال ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ ما يشاء يجعله كتاباً ثابتاً لا يمحى ولا ينسخ، فله الحكم يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء، وكتاب الآجال الذي صح محوه هو ما كان مشروطاً فإذا تخلف شرطه محي، وفائدة ذلك للملائكة: بمشاهدة الكتاب، ولنا: بمعرفة الكتاب بالخبر النبوي ومعرفة أسباب محوه كذلك بالخبر النبوي.

مثل: ما رواه المرشد بالله عليه السلام في (الأمالي الخميسية) في هذه الآية [ج ٢/ ١٢٤] بسنده: عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، قال: أخبرني أبي، عن جدي، عن علي عليه السلام، أنه سأل النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «لأبشرنك يا علي تبشر بها أمتي من بعدي، وهي الصدقة على وجهها، وبر الوالدين، واصطناع المعروف، وصلة الرحم، تحوّل الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء» انتهى.

ومثل: ما رواه الإمام المرشد بالله عليه السلام في (الأمالي الخميسية) أيضاً [ج٢/ ١٢٩] بإسناده: عن جعفر بن محمد بن علي عليهم السلام ـ في قصة ذكرها ـ حدثني أبي محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن جده الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام، قال: «إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيمدها الله ـ عزَّ وجل ـ إلى ثلاث وثلاين سنة، وإن الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة فيبترها الله عز وجل إلى ثلاث سنين» انتهى.

ومثل: ما رواه في [ج٢/ ١٢٧] من (الأمالي الخميسية) أيضاً بإسناده: عن محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة عليهم السلام، قال: سمعت أبي، عن جدي

عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ

علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في قول الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ تفسيرها: «الصدقة على وجهها ـ أي يريد بها ما عند الله ـ وصلةُ الرحم، واصطناع المعروف، يحول الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء» انتهى، وبهذا تظهر فائدة الكتاب ومحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب كله المثبت والمحو والناسخ والمنسوخ، وهو كناية عن علمه تعالى المحيط بكل ما كان وما يكون فهو منزّه عن البَدَاء.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب سواء أريناك في هذه الدنيا بعض ما نعد هؤلاء المكذبين، أم توفّيناك فلم ترَه.

قال بعض المفسرين: «وفي الآية إيضاحٌ لما للنبي صلى الله عليه وآله من الوظيفة وهو الإشتغال بأمر الإنذار والتبليغ فحسب، فلا ينبغي لَه أن يتبع أهواءهم في نزول آية عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغي لَه أن ينتظر نتيجة بلاغه أو حلول ما أوعدهم الله من العذاب بهم» انتهى، وهذا جيّد.

ومعنى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أن تبلغ ما أرسلت به إليهم وإلى غيرهم ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أن نحاسبهم على ما عملوه من تكذيب ومن كل أعمالهم.

﴿٤١﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الراجح عندي في معناها: أنهم قد رأوا وشاهدوا أمر الله الغالب على أمره حين يأتي الأرض بمصائب تنقص الأرض، بأخذ بعض ما يكون من ثمارها وبعض زروعها وفروع أشجارها، كالبَرَد إذا أصاب أشجار العنب وغيرها، وكالبرْد من الريح الشديدة البَرْد الذي يحرق الأشجار وربما شقق بعض أعواد الشجر، وكإرسال الجراد تأكل الثمر والورق، فقد شاهدوا هذه المصائب التي يأتي بها الله، ومع ذلك لا يستطيعون دفعها، وهي تأخذ أموالهم وتتلف ثمارهم، ففيها عبرة لهم تذكّرهم بقدرة الله عليهم، كما كان في أخذ ثمر جنة أصحاب الجنة المذكورة في (سورة نون) عبرةً لهم حتى قالوا: ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [آية:٣١].

فأما إسناد المصيبة إلى الأرض فهو صحيح؛ لأن ما عليها زينة لها، وقد أسندت إليها في قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] فقد جعل إصابتها فيما أنبتت وما تزينت به من نباتها إصابة لها.

وأفاد بقوله تعالى: ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أن أخذها كان عقوبةً لأهلها أو تأديباً بعزته وحكمته وقهره لأهلها وقدرته، وقوله: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ظاهر في أخذ أطراف أشجارها وما فيها من ثمارها، وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ إنذار للكافرين بأنه حين يحكم عليهم بالشقاء الدائم في عذاب جهنم لا يكون لهم من يبدّل حكمه ويبطله وإن زعموا أن شركاءهم شفعاؤهم عند الله.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ دليل أنه لا يؤخر حكمه لطلب تحقيق الإستحقاق بطول مدة حساب الجرائم وتذكّرها للإحاطة بها كلها، ومعرفة جملتها، ثم الحكم بما يناسب الجملة.

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الكفار كاليهود مكروا بعيسى، وقوم إبراهيم مكروا به فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗا﴾ لأنه الغالب على أمره، فمكر هؤلاء الكفار الذين قالوا: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وقالوا: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مكرهم باطل، ومكر الله بهم هو المكر؛ لأنه أعدَّ لهم عذاباً أليماً، ومهَّلَهم في هذه الدنيا وأنعم عليهم، فله المكر كله مجتمعاً.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ يفيد بطلان مكر كل نفس تمكر على دين الله لإبطاله؛ لأن المكر لا يتم إلا ضد من يجهل احتيال الماكر به وتدبيره عليه ما لا يعلم، فأما مَن يعلم ما تكسب كل نفس فلا يتمُّ المكر لإبطال أمره ودفع ما أراد من إظهار دينه.

وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ﴾ تفريع على مكرهم كأنه قيل فمكَرَ بهم المكرَ الذي هو المكر هذا، ومكره بهم هم سببه؛ لأنهم أعرضوا عن النذير وكذبوا الرسل وكذبوا بالآيات فكان إعداده لعذابهم العاجل والآجل مكراً بسبب إعراضهم عن النذير وإهمالهم لعقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولم يكن مكراً مثل مكر الكافرين وغيرهم ممن يمكر بتدبير الحيلة وهو يكتم ما يريد.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أهي لهم أم للذين آمنوا، وهذه الآية تبيِّن أن عقبى الدار نعيم الجنة التي هي الدار الآخرة، فالإضافة هنا مثلها في قوله تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النساء:١٣٤] وهذا لأن عقبى الدار الأولى أكثرها كانت عذاب الأكثرين من أهلها الذين اغتروا بها، كما قال تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠] فمن البعيد إطلاق عقبى الدنيا على نعيم الآخرة، وقوله تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وعيد للكفار.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بنعمة الله وكفروا بآياته وكفروا باليوم الآخر وما فيه من الجزاء على الأعمال يقولون لجرأتهم على الباطل وأمنهم من عذاب الآخرة ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي لم يرسلك الله، أي فأنت كاذب في دعواك الرسالة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ شهيداً على أني مرسل منه قد بلغتكم آياته وقامت عليكم الحجة بها، وشهيداً على أنكم كذبتموني بعد بيان الحق ووضوح الدليل على أني صادق وأني رسول الله، ومرجعي ومرجعكم إليه يحكم بيننا فكفى به شهيداً بيني وبينكم؛ لأن الشاهد هو الحاكم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ فهو أيضاً شهيد بيني وبينكم، لأنه يعلم أني مرسل من الله لعلمه بالكتاب الدال على أني رسول الله فالكتاب أكبر دليل على أني رسول الله لما فيه من تعجيزكم بأن تأتوا بسورة من مثله، فلم تأتوا بشيء؛ لأنه كلام خارق للعادة في حكمته وإحكامه،

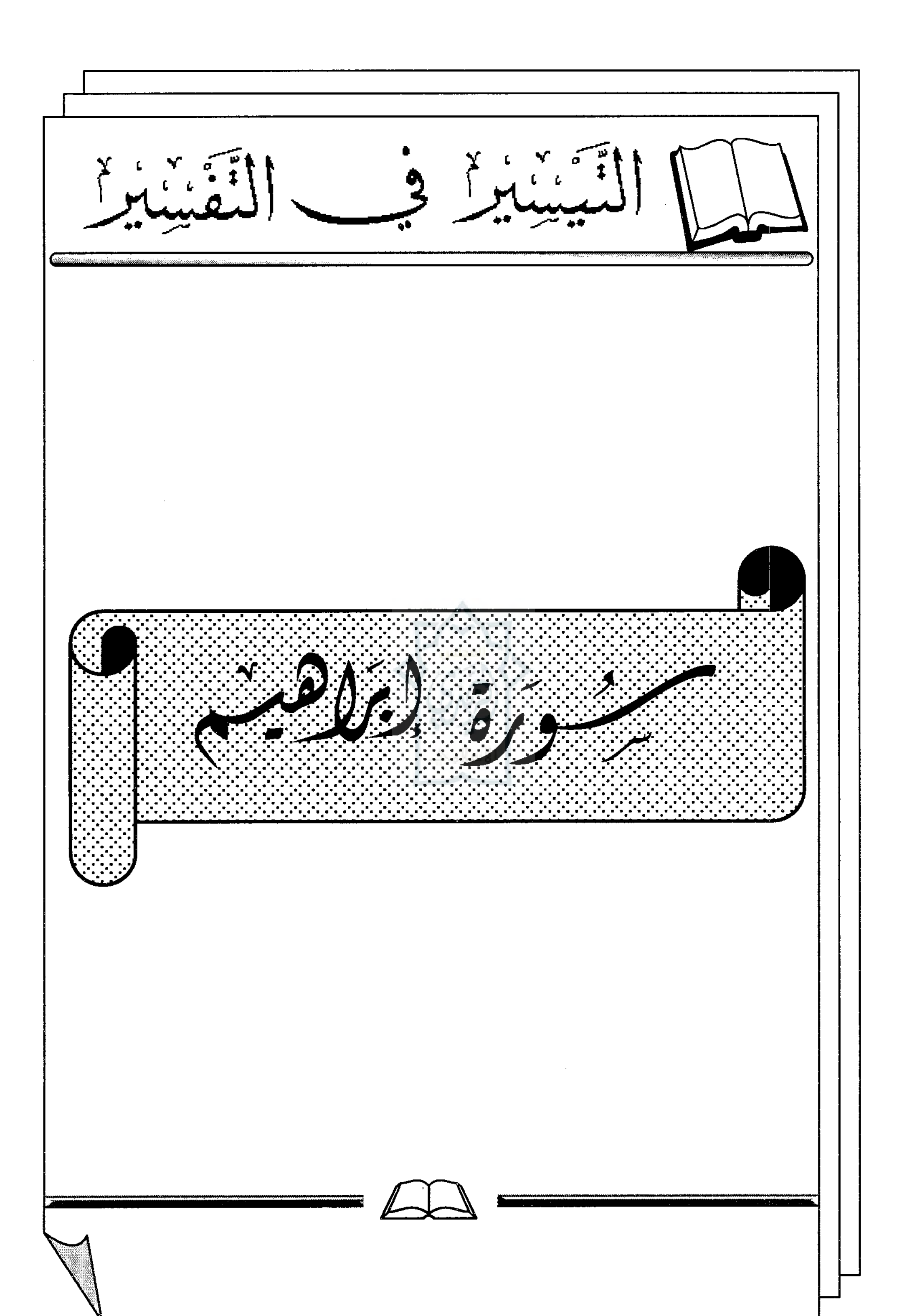
فمَن عنده علمه وعلم ما فيه من التعجيز المتكرر في سور وعلم ما فيه من الحكمة والإحكام، فهو شهيد بيني وبينكم لعلمه بأني قد بلغتكم وقامت به الحجة عليكم، وعلمه بأنكم كذبتموني، والشهيد الذي عنده علم الكتاب الذي انطبق عليه هذا الوصف: هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن شاركه في هذا الوصف بمكة، فهو ـ أيضاً ـ شهيد إن كان أحد شاركه يومئذ.

فأما علي عليه السلام فلا إشكال في أن عنده علم الكتاب لتوفر أسباب ذلك في حقه وقد قال بهذا فيما رُوي ابنُ عباس ومحمدُ بن الحنفية، وفي (التعليق الوافي) تأليف عمي الحسن بن الحسين الحوثي رحمه الله [ص٢٦] قال رحمه الله: «روى الحاكم ـ أبو القاسم الحسكاني ـ بإسناده إلى أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هو علي بن أبي طالب» ورواه عن ابن عباس، وعن محمد بن الحنفية، وعن أبي صالح من طريقين، وعن أبي جعفر الصادق، وقال أبو صالح: قال ابن عباس: والله هو علي بن أبي طالب» انتهى.

وأفاد عمي رحمه الله أنه في (مناقب الإمام علي عليه السلام) تأليف ابن المغازلي عن أبي جعفر عليه السلام، وقال: ورواه الثعلبي في تفسيره عن محمد بن الحنفية، وهذا في [صفحة/ ١٦٠] من (التعليق الوافي على الشافي) و(الشافي) تأليف الإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، و(التعليق) ما زال مخطوطاً إلا قليل من أوله، وهو مخطوط مستقلاً عن (الشافي) ـ وبالله التوفيق.




التيسير في التفسير
سورة إبراهيم



سُورَةُ إبراهيم

ترتيبها ١٤ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

تفسير (سورة إبراهيم) عليه السلام

يظهر من مواضيعها أنها (مكية) ولكن الشرفي حكى عن (صاحب البرهان): أنه قال فيها: مكية إلا آيتين، قيل: هما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً﴾ والتي بعدها ـ والله أعلم.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ﴾ أي هو كتاب أي القرآن المؤلَّف من الأحرف التي ينطق بها العرب هو كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي جعلناه كتاباً تتوارثه الأجيال محفوظاً.

وقوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي أنزلناه عليك يا محمد لتخرج الناس من ظلمات الجهل والعقائد الباطلة وسائر الباطل إلى نور الهدى، فالناس في أشد الحاجة إليه لعموم الجهل، وانتشار الشرك بأنواعه المختلفة في الأرض، وضلالات الجاهلية، وضلالات أكثر أهل الكتاب كما هو مفصل في القرآن، ولم يكونوا منفكين عن ذلك إلا برسول ووحي جديد يعلن الحق وينوره.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم يأبون الخروج من الظلمات إلى النور لتعصبهم لما ألفوه واعتادوه من التمسك بباطلهم إلا من أذن الله له أن يهتدي وهو من لا يدافع الحق وينصر الباطل ويجادل في آيات الله

ويحارب الدين بصد الناس عنه، فلم يستحق الخذلان، وكل الناس لو سلموا أسباب الخذلان لأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، فالهدى معدّ لهم كلهم ولكن أكثرهم أبوا الاهتداء.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تفسير للنور المذكور بأنه صراط الله؛ لأنه دينه الذي ارتضاه لعباده، وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أما قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ ففيها فائدتان:

الأولى: أن الله لعزته لا يهمل العصاة يفسدون في أرضه ويضلون عباده دون أن يقيم عليهم الحجة ويجزي من تمرد عليه بالعذاب الشديد الذي يستلزم تقديم إرسال الرسول لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

الفائدة *الثانية*: الدلالة على أنهم لا يضرونه بكونهم في الظلمات المذكورة أو امتناعهم من الخروج منها بل هو غني عن العالمين عزيز لا ينال.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ ففيه فائدتان:

الأولى: أنه بكرمه وفضله ورحمته أنزل الكتاب وأرسل الرسول ليخرج الناس من الظلمات إلى النور إنعاماً على عباده؛ لأنه الحميد المستحق للحمد على إنعامه.

الثانية: الدلالة على أنه الحميد المستحق للحمد سواء أطاعه الناس فخرجوا من الظلمات إلى النور أم أبوا؛ لأنه أنعم عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ودعوتهم إلى ما فيه هداهم وسعادتهم وتمكينهم من ذلك بالعقول والقدرة، وإن أبوا وكفروا باختيارهم فالله هو الحميد على كلا الحالتين إن أجابوا وأطاعوا، وإن أبوا وعصوا.

فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ

﴿٢﴾ ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿ٱللَّهِ﴾ أما على قراءة الجرّ فهو بيان للعزيز الحميد، وأما على قراءة الرفع: فهو مبتدأ خبره الموصول، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يذكّر بأنه أنزل الكتاب وأرسل الرسول إلى الناس؛ لأنه مالكهم له الأمر بما شاء والحكم بما شاء، فعليهم أن يطيعوه ويذكّر بأنه مالكهم المستحق لأن يعبدوه وحده لا شريك له فلذلك أنزل الكتاب إلى رسوله محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ لأن عبادته هي الحق والرشد والخير والصلاح للدنيا والدين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي الذين كفروا بالكتاب والرسول وجحدوا بآيات الله ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ في تفسير الهادي عليه السلام يحيى بن الحسين؛ لقول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم:٣١] والويل فهو الغم والطويل من الهم انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بيان لسبب الويل ومصدره، و﴿مِنْ﴾ للابتداء أو السببية.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ في هذه الآية بيان بعض مفاسد الكفر:

فالأولى: بيّنها قولُـه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فـإنهم لما كفروا بالآخرة اختاروا الدنيا وآثروها على الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بخير غير ما في الدنيا ولا يخافون العذاب بسبب إيثار الدنيا وترك السعي للآخرة وكانت الدنيا أحبَّ إليهم من كل شيء.

الثانية: بيَّنها قولُه تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإنهم لما كفروا لم يخشوا ربهم في صدهم عن دين الله الذي اصطفاه لعباده بل صدوا عنه بإعراضهم عنه وتركه وصدوا غيرهم بالتضليل والتغرير اتباعاً لهواهم، ولو أنصفوا لعلموا أن ذلك فساد كبير.

والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ فهم يتطلبون لسبيل الله العوج الذي هو خلاف الاستقامة، أي خلاف الصواب ليصدوا الناس عنها بحجة أن فيها عوجاً، وهذا إذا كان المقصود يطلبون لها العوج بما يدعون فيها كما يصنع بعض الكفار من القدح في الإسلام بأنه يوجب قطع يد السارق وهذا تشويه للسارق وضر شديد، ويعرضون عما في ذلك من الفائدة للمجتمع وللسارق إن انزجر عن معاودة السرقة.

فإن كان المقصود يبغون في سبيل الله العوج، يبغون أن يجعلوا العوج الذي هو القانون الفاسد سبيل الله، فمعناه: أنهم يرَغِّبون في غير سبيل الله بدعوى أنها سبيل الله، وهذا عندي تفسير ضعيف؛ لأن العوج صفة للأعوج والمبغي الأعوج الذي هو القانون، ويمكن أن يراد ويبغون سبيل الله العوج بأن يجعل الله ما ليس بحق من الدين بأن يشرع ما هو باطل مما يهوونه، كما طلبوا رسول الله ﷺ أن يطرد بعض المؤمنين من عنده.

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

وكما روي أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سَنَة ونعبد إلهك سنة، فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله غيره» فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك.. اهـ، أو نحو هذا من باطلهم، أرادوا أن يجعله من الدين فيكون عيباً في الدين وعوجاً.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي أهل هذه الصفات في ضلال أي غواية عن طريق الصواب كمن تاه في غير طريق وخفيت عليه الطريق، وقوله: ﴿بَعِيدٍ﴾ أي بعيد عن الصواب كمن ضل عن الطريق وصار بينه وبينها مسافة بعيدة لا يؤمل فيه لبعده عنها أن يهتدي لها.

﴿٤﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ كأنه عطف على قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ..﴾ الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي بلغتهم، أي بلغة قومه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليبين لقومه ما أرسل به إليهم وقومه الذين هو منهم خالطهم وعرفهم وعرفوه وعرف لسانهم معرفة أصيلة لا مجرد ترجمة للغة أخرى، سواء كانوا قرابته من النسب لأبيه أم قرابته من النسب لأمه، ويدل على ذلك ما تكرر في (سورة الشعراء) من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ [آية:١٠٦] قاله في نوح، وهود، وصالح، ولوط. فأما قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت:٢٦] فالراجح: أن الضمير لإبراهيم؛ لأن السياق في إبراهيم، وإنما عرض فيه ذكر لوط.

ويحتمل ـ إن كان الضمير للوط ـ إما أنها هجرته لقومه عند نزول العذاب عليهم، وإما أنه هاجر إليهم قبل فسادهم، وأن فسادهم إنما طرأ بعد كونه فيهم، فأرسله الله إليهم حين فسدوا، وعلى هذا تكون هجرته إليهم من بلد آخر كان فيه، إما بلد قوم إبراهيم وإما غيره.

وقال تعالى في شعيب في (سورة هود): ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود:٨٤] وكذا في (الأعراف) فأما (أصحاب الأيكة) فيحتمل أنهم (مدين) ويحتمل أنهم أخوال شعيب خالطهم وعارفهم حتى صار فيهم كأحدهم، فأرسل إليهم كما أرسل عيسى إلى (بني إسرائيل) وأما إرسال موسى وهارون إلى فرعون وملئه فقد كان موسى فيهم هو وقومه، وذلك يدل على أن لغة قوم موسى هي لغة فرعون وملئه، فإرسال موسى بلسان قومه هي بلسان فرعون وملائه؛ لأنه نشأ فيهم وتربى حتى هاجر إلى مدين.

وأرسل الله محمداً ـ ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ـ ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ الذين هم قريش أو كنانة كلهم، وهو لسان عربي تفهمه العرب، فبيَّن لهم ما أرسل به وفهمه من سمعه منهم، وقد كفى شيوعه في العرب وفهمهم له في تبيينه لسائر الناس الذين هم خارج بلاد العرب، لتيسر فهمه بواسطة تعلّم العربية، ولذلك كان منهم كبار المفسرين الذين تعلموا العربية وهم من بلاد العجم كالزمخشري، كما أمكن فهمه بواسطة تراجم الذين تعلموا العربية وهم من العجم، أو تعلموا غيرها وهم من العرب.

وعلى هذا: فالراجح في معنى ﴿قَوْمِهِۦ﴾: أنهم الذين هو قريب لهم من جهة أبيه أو من جهة أمه على المعنى الذي ذكرت فقد أرسل الله محمداً ﷺ إلى الناس جميعاً بلسان قومه، ولا يصح تفسير قومه بالذين أرسل إليهم كلهم؛ لأنه أرسل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] كما هو مبيّن في القرآن الكريم في (سورة الشعراء) و(سورة النحل).

وقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليبين لهم ما أرسل به إليهم فيدل على أن رسول الله ﷺ بيّن لقومه ولم يخص أحداً ببيان ما أرسل به إليهم وكتمه عن غيره، بل بينه لهم فهو مفهوم لهم كلهم من سمعه منه ومن بلغه عنه منهم ولم يكتم منه شيئاً عن أحد ليخص به غيره، وأما ما خص به الإمام علي عليه السلام من العلوم فهو إخبار عما يكون لم يكلف الناس بعلمها أو تكليف خاص لعلي عليه السلام فهو أرسل به إليه وحده.

وأما قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ فهو الإضلال الذي سببه التكذيب بآيات الله ومحاولة إبطال دينه ولذلك ترتب على إرسال الرسول وبيانه لقومه، وقد تكرر بيان معنى هذا الإضلال وأنه عقوبة وهو واضح؛ لأنه لو كان الله يريد إضلالهم على غير هذا الوجه لما غضب عليهم ولعنهم لحصول ما أوقعه بهم وأراده فيهم كما تزعم الجبرة، فالتحقيق أن هذا الإضلال هو الخذلان الذي ترتب عليه ضلالهم الزائد على ضلالهم الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فهو الهدى للإيمان بسبب النية الصالحة والنظر في دليل صدق الرسول أو هو ومن لا تقتضي الحكمة إضلاله، وكذلك إضلال الله لمن يشاء فيحتمل: أن يعم من ذكرت وغيرهم من الظالمين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يشير إلى أنه يجازي من كذب رسله وكذب بآياته كما هو شأنه تعالى في عزته وحكمته، فإرسال الرسل إنما هو مقدمة لجزاء المحسن بإحسانه وجزاء المسيء بإساءته، ولم يخيرهم الله بتمكينهم من الإيمان والكفر إلا لأنه يجزي كلاً بما يستحق.

ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

﴿٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كما أنزلنا إليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور أرسلنا قبلك موسى بآياتنا الدالة على صدقه ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فالدعوة واحدة إلى صلاح البشر وصلاح شأنهم وتخليصهم من ظلمات الشرك والكفر والجهل والظلم إلى نور الإيمان بالله والإخلاص له والعلم والعدل، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ تفسير للرسالة التي أرسل بها موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ أي ذكر قومك بني إسرائيل ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ ليحذروا من أن يحلَّ بهم العذاب كما حل بالأمم قبلهم، و(الأيام) هنا: أوقات العذاب النازل بالأمم، والعرب تسمي بأيام الحروب أوقاتها، أو الحروب نفسها وإن كان وقت الحرب أياماً مثل يوم صفين، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم في (معلَّقته):

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظِرنا نخبّرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً ... ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيامٍ لنا غرّ طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

وفي شرح الزوزني على (المعلقات السبع) يقول: «نخبّرك بوقائع لنا مشاهير كالغرِّ من الخيل..» إلى قوله: «..الأيام: الوقائع» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ﴾ الإشارة إما إلى الكلام نفسه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ ففيه آية تدل على صدق محمد ﷺ حيث جاء بهذا الخبر عن رسالة موسى وتفسيرها ولم يقرأ كتاباً ولا خطه بيمينه، بل نشأ بعيداً عن معرفة ذلك لولا أن الله تعالى أوحاه إليه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ

وفيه آية تدل على أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل، فهي ترد على من أنكر رسالة البشر، وفيه آية تدل على تشابه دعوة موسى ومحمد ﷺ في فائدتها وتشابه الإنذار، وفيه آية تدل على رحمة الله ولطفه بعباده من حيث إرسال رسله ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

وهذا الاحتمال لمرجع الإشارة أرجح عندي، وإما إلى (أيام الله) ففيها آيات، فهي تدل على قدرة الله تعالى، وعلمه بأحوال المكذبين للرسل واستحقاقهم للعذاب، وتدل على صدق الرسل، وعلى أن الله تعالى يجازي المجرمين ولا يهملهم، بل يمهل ولا يهمل.

وأما قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فالصبار: كثير الصبر، والشكور: كثير الشكر، فالصبار الشكور يطلب معرفة الحق من الله المنعم على عباده ليتبعه، ولا يصده عن ذلك خوف من أعداء الدين، أو من الفقر أو نحو ذلك؛ لأنه يخاف الوعيد فالآيات أنفع له من غيره فلذلك خص بالذكر مع أن الآيات دلائل لكل من فكر واستعمل عقله.

﴿٦﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تذكروها لتشكروها بطاعة الله واجتناب معصيته.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ ظرف للنعمة يفسرها ما أضيف إليه وهي إنجاؤه لهم من آل فرعون الجبارين الذين كانوا يستضعفون بني إسرائيل فيظلمونهم الظلم الشنيع.

وقوله تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال من ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ أي أنجاكم منهم في حال سومهم لكم سوء العذاب؛ لأنهم اتبعوكم بجنودهم ليأخذوكم فيرجعوكم إلى تعذيبكم سوء العذاب معاقبة لكم على اتباع موسى وفي حال أنهم مصرون على ذبح أبنائكم واستحياء نسائكم، كما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:١٢٧] فهم مستمرون في عادتهم الممقوتة فإنجاءُ الله لكم منهم نعمة عظمى يجب عليكم شكرها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يعرضون عليكم أشد العذاب، قال الشاعر:

فسامَه خِطَّتا خسف وقال له ... اختر وما فيهما حظ لمختار

أي عرض عليه خطتين من الذل» انتهى.

وفي (معلّقة عمرو بن كلثوم):

إذا ما الملك سام الناسَ خسفاً ... أبينا أن نُقِرَّ الذُّل فينا

قال (شارح المعلقات): «الخَسف والخُسف ـ بفتح الخاء وضمها ـ: الذّل، السوم أن تجشّم إنساناً مشقة وشراً، يقال: سامه خسفاً، أي حمله وكلفه ما فيه ذله» انتهى.

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ وفي (سورة البقرة): ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [آية:٤٩] بدون عطف؟

لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ

قلت: هنا يذكرهم موسى نعمة النجاة من آل فرعون في حال سومهم لهم ليأخذوهم فيعذبوهم لأجل اتباعهم لموسى، وهذه حالة يعظم فيها قدر النجاة ويعرف فيها قدر نعمة النجاة.

أما في (سورة البقرة) فاختصر الكلام، وذكر فيها الأمر العظيم العذاب المستمر الذي كانوا فيه الذي هو ذبح الأبناء، واستحياء النساء مستمراً عليهم زمناً طويلاً، فإنهم كانوا فيه يوم ولد موسى ولا أدري كم كانوا فيه قبله فهو زمان طويل والإنقاذ منه نعمة كبرى مع أن النجاة لأنفسهم من فرعون وقومه ذكرت في (سورة البقرة) في آية مستقلة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٠] وهذه معطوفة على آية الإنجاء من ذبح أبنائهم عقيبها، فأفادت هذه نعمتين والتي قبلها نعمتين.

وأما قوله تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فالبلاء يحتمل النعمة هنا كما مر في تفسير (سورة الأنفال) قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [آية:١٧] ويحتمل الاختبار لهم أيشكرون نعمة الله عليهم أم يكفرون، والأول أرجح لقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ واذكروا إذ تأذن أي آذن وأعلن.

قال الشرفي في (المصابيح): قال الحسين بن القاسم عليه السلام: «معنى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي تضمن ربكم وحكم بوعده ووعيده عليكم وأعلمكم بذلك وبيّنه لكم وآذنكم ولم يخفِهِ عنكم، وفي ﴿تَأَذَّنَ﴾ زيادة ليست في آذن كما أن توعد أبلغ من أوعد، كأنه قيل: وإذ تأذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي

عنده الشكوك وتنزاح الشبهة، فقال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ نعمة الإنجاء وغيرها بالإيمان والعمل الخالصين ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ نعمة إلى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم، ثم أوعد بالعذاب على الكفر فقال: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ﴾ يعني وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ لمن كفر نعمتي» انتهى.

قلت: في هذا كفاية في تفسير الآية إلا قوله: يعني وجحدتموها فإن كفر النعمة ليس مفهومه جحدها بل هو ضد الشكر فهو إما إخفاؤها بترك الشكر بأن يجعلها بترك الشكر كأن لم تكن، وإما إخفاؤها بالإساءة إلى المنعم فتعمد المعاصي أو ترك الطاعة كفر للنعمة وإن لم يجحدها العبد؛ لأنه بسلوكه جعل النعمة كأن لم تكن، وهذا هو المقصود بإخفائها لا جعلها خفية فهو غير ممكن، ولذلك قال عنترة:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبثة لنفس المنعم

فجعل ترك عمرو للشكر كفراً، وليس معناه: أنه جحد النعمة.

وفي (تفسير الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام) لـ(سورة البينة): «وتأويل كفروا فهو لم يشكروا؛ لأن من لم يشكر الله تبارك اسمه بترك عصيانه فكافر وإن كان مقراً ومعتقداً لمعرفة الله واتقائه كإبليس الذي ذكر الله سبحانه معرفته به وذكر كفره لما ارتكب من الكبائر بربه، وكذلك كل من ارتكب كبائر تسخط من أنعم عليه فقد كفره، ومن أتى ما يرضاه وتولى أولياءه وعادى أعداءه فقد شكره» انتهى.

﴿٨﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ نعم الله عليكم ﴿أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مجتمعين على كفرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عنكم وعن شكركم وعن كل شيء ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد فما تضرون بالكفر إلا أنفسكم.

يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ
مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا
بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

﴿٩﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يترجح أنه خطاب لقريش ومن حولهم ليعتبروا بمن كفر من قبلهم؛ لأن قوم موسى كانوا قد صدقوا به أعني بني إسرائيل الذين كانوا معه فقد انتهى كلام موسى في آخر الآية التي قبل هذه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي علم إحاطة بهم كلهم.

وقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فيه تفاسير راجعة إلى النظر والترجيح، والراجح عندي أن ردهم أيديهم في أفواههم إنكار لكلام الرسل ومنع لألسنة الكفار أن تنطق بمثله أو تصدق به وبعد ذلك أعلنوا كفرهم بقولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ الذي هو عبادة الله وحده والإيمان به وبرسله وباليوم الآخر، وقولهم: ﴿مُرِيبٍ﴾ أي مقلق كما قدمت، وكذبوا بل قلقهم من التعصب لشركائهم.

﴿١٠﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا

تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ اعلم أن المشركين وإن أقروا باستحقاق الله تعالى للعبادة، فإنهم لم يقروا بذلك عن نظر في وجه الاستحقاق، وإنما أقروا به لأنه الله الخالق، هذا في الأولين منهم، فأما الآخرون فهم مقلدون في عبادة الله وعبادة شركائهم ولذلك فقد أجروا إثبات استحقاق الله للعبادة مجرى الخرافات التي قالوها بلا حجة، ولذلك ساغ عندهم إثبات أن عبادة الله حق ودعوى أن عبادة غيره حق.

فلما لم يثبتوا استحقاق الله تعالى للعبادة بناء على معرفته بل سووا بينه وبين شركائهم كان شكهم في انفراد الله باستحقاق الله للعبادة معناه الشك فيه؛ لأن من عرف الله تعالى لا يشك في أنه ينفرد باستحقاق العبادة؛ لأن آلهتهم لم تخلقهم ولم ترزقهم فلم يعبدوها اعتماداً على حجة تثبت استحقاقها للعبادة، بل هم يعلمون أنها لم تشارك الله تعالى في خلقهم ورزقهم، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

تأمل كيف قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: أفمن لا يخلق كمن يخلق، وهنا قالت لهم رسلهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؟ حيث ارتبتم في انفراده باستحقاق العبادة، مع أنه الخالق للسموات والأرض لم تخلق شركاؤكم شيئاً منها ولا من غيرها، وأنتم لا تشكون في أنها لم تخلقكم ولم ترزقكم من السماء والأرض، فإن شككتم في الله فقد أهملتم عقولكم وقبح جهلكم.

فقول رسلهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ إنكار للشك في الله تعالى ودلالة على أنه ليس من شأنه أن يشك فيه لوضوح آياته الدالة عليه منها: أنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو هذا السؤال من رسلهم معناه نفي الشك في الله؛ لأن آياته قد دلت عليه والسامعون لا يجحدون أنه فاطر السموات والأرض وهذا أقرب.

وهو احتجاج عليهم في شكهم الذي سببه غفلتهم لا شكهم في الله، فرسلهم يذكرونهم أن شكهم في أن المستحق للعبادة هو الله تبطله المعرفة لله فاطر السموات والأرض، فإذا كانوا لا يشكّون في الله فعليهم أن لا يشكّوا في أنه المتفرد باستحقاق العبادة.

ثم كيف يكون في الله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ شك وهو ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ بإرسال رسله إليكم فيبلغونكم دعوته إليه ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فقد تعرضتم لعذابه العاجل بإصراركم على الشرك وعبادة غيره بلا برهان من ربكم، فإن أجبتم رسله غفر لكم من ذنوبكم بكف العذاب العاجل عنكم، وأخركم إلى أجل مسمى حتى يحسن إسلامكم وتتحقق توبتكم وتموتوا على ذلك فيغفر ذنوبكم كلها ويدخلكم الجنة إن متم على ذلك، أو تموتوا على غير ذلك فيجزيكم بما أسلفتم.

والحاصل: أن دعوة رسلهم لهم إلى ترك الشرك لم يمكن أن يعدوهم فيها بمغفرة ذنوبهم كلها وذلك إما لأنه يوهم الجاهلين أنهم إن أسلموا غفرت ذنوبهم كلها الماضي والمستقبل وهذا غير صحيح، بل هم بعد الإسلام إن أحسنوا وماتوا على التقوى غفرت ذنوبهم كلها وإلا فلا، وإما لأن وعدهم بغفران ذنوبهم كلها يحتاج إلى شرط صدق التوبة، وبيان أن الذي يغفر بها هو الماضي، وأن المستقبل لا يغفر إلا بالتوبة، والمقام لا يناسبه مثل هذا التفصيل بل المهم فيه بيان نجاتهم من العذاب العاجل الذي قد تعرضوا له وتأخيرهم إلى أجل مسمى، وذلك بمغفرة مؤقتة لما قد استحقوا به العذاب العاجل، فهذا هو الراجح عندي في فائدة الإتيان بـ﴿مِّن﴾ التي للتبعيض هنا وفي (سورة نوح).

يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي ما أنتم إلا بشر مثلنا، وهذا كفر منهم برسالة رسلهم، ودعوى أنه لا يصلح للرسالة إلا الملائكة، وقولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ جعلوا عبادتهم لشركائهم سببها أن آباءهم كانوا يعبدونها فتمسكوا بالتعصب لآبائهم لا بحجة، ولما لم تكن لهم حجة قالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة قاهرة غالبة لنا بينة، وهم يقترحون بذلك أن يأتوا بما لا تقتضي الحكمة جعله دليلاً على صدق الرسل؛ لأن الدليل يؤتى به للدلالة على الصدق ليؤمنوا به اختياراً لا ليضطروا إلى التصديق لهم اضطراراً لأن المقصود الاختبار لا الإكراه والاضطرار.

﴿١١﴾ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا ندعي أنا ملائكة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ ينعم ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يختصه بنعمته ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ من البشر أو غيرهم، فليس لكم أن تشرطوا على الله أن لا يمن على بشر أو تعترضوا عليه في إرساله لبشر ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ وليس من شأننا ﴿أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ بآية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فما أذن لنا أن نأتي به أتينا به وما لم يأذن به فليس من شأننا، فالأمر في هذا لله لا لنا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون، فعليكم أن تؤمنوا ومن آمن منكم فليتوكل على الله، فليكل أمره إلى الله

ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ

إن شاء حفظه ووقاه شر الكافرين، وإن شاء رزقه الشهادة وما عند الله خير للأبرار، وليس لأحد أن يترك الإيمان خوفاً من الكافرين، وهذا يشعر بأنهم قد عرفوا تمرد قومهم فعرَّفوا قومهم أنهم متوكلون على الله لئلا يطمعوا في صرفهم عن إبلاغ رسالتهم بالوعيد والتهديد كما عرفوا من يريد الإيمان أن عليه إذا آمن أن يتوكل ليثبت على إيمانه.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وليس لنا أن لا نتوكل على الله ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ وقد عرّفنا سبلنا التي هي سبل نجاتنا من عذابه وفوزنا بالسعادة الدائمة سبل الله التي ارتضاها لنا لتوصلنا إلى رحمته وكرامته، فحق علينا ووجب أن نسلكها واكلين أمرنا إليه فهو يختار لنا حينئذ ما هو خير لنا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فهو الذي ينبغي لمن أراد التوكل أن يتوكل عليه؛ لأنه بفضله ورحمته وكرمه لا يضيع من آمن وتوكل عليه ولا ينسى من توكل عليه ولا يغفل عمن توكل عليه ولا يهمل من توكل عليه بل يتولاه بحسن رعايته ويوصله إلى ما سعى له من رحمته وكرامته، أما من توكل على غيره، فقد يهمله عجزاً أو غفلة وسهواً أو بخلاً أو غدراً ولا سيما من توكل على صنم لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً بل على الله وحده فليتوكل المتوكلون، فهو القدير على كل شيء، وهو العليم بكل شيء، وهو الكريم الرحيم ذو الفضل العظيم، وبعد أجوبة رسلهم المفيدة لجأ قومهم إلى الوعيد والتهديد:

لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ

﴿١٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ وعيد بطردهم من أوطانهم وفراق الوطن شديد على النفس متى كان باسم فراق الأبد ولو سهل في أوله فإن النفس لا بد تحن إلى الوطن مدة الحياة، ولذلك أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل لا يخرجون بعضهم من ديارهم.

وقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يتضمن كذباً منهم على رسلهم يرمونهم بأنهم كانوا على ملتهم مشركين كافرين وحاشاهم ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ إلى الرسل ﴿رَبُّهُمْ﴾ الذي أرسلهم وكلفهم تبليغ الرسالة فأطاعوه وتوكلوا عليه أوحى إليهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المكذبين بآياتي المكذبين لرسلي فإنهم بذلك ظالمون مع ظلمهم بتهديد الرسل وظلمهم السابق بالشرك وسائر الجرائم، فالمعاصي كلها يجمعها اسم الظلم، والمراد لنهلكن قومكم المكذبين لأجل أنهم ظالمون وهذا هو الهلاك العاجل قبل بلوغ كل واحد أجله الذي كان يبلغه لو آمن واتقى.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ نورثكم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ فتسكنونها بعد هلاكهم وتعيشون فيها منصورين.

قال الشرفي ـ ونعم ما قال ـ: «ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف:١٣٧] انتهى.

وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن

فليس المعنى: أنهم يسكنون نفس أرض الكافرين ولكن يرثونها ويسكنون حيث شاءوا من الأرض، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي النصر على العدو والاستخلاف في الأرض ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي المقام لي يوم يقوم الناس لرب العالمين وهو موقف الحساب.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني المقام بين يديّ فأضاف إليه لاختصاصه به» انتهى.

والمراد لمن خاف فحمله الخوف على التقوى، ولا يبعد أن قوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ كناية عمن اتقى الله، وقوله تعالى: ﴿وَعِيدِ﴾ أي وعيدي، وخوف الوعيد خوف الموعود به في الوعيد بسبب الوعيد لإيمانه بالوعيد وبصدقه.

﴿١٥﴾ ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ الراجح: أنه عطف على: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ..﴾ أي توعدوا قومهم واستفتحوا أي طلبوا أن يفتح الله بينهم وبين الرسل وذلك ليوهموا أتباعهم أنهم واثقون بأنهم على الحق ولغفلتهم عن الله وظنهم أنه لا يستجيب لهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ غلبهم الرسل وخاب أمل الكافرين أنهم سيخرجونهم من ديارهم، قال في (الصحاح): «والجبار: الذي يقتل على الغضب» انتهى، وقوله: ﴿عَنِيدٍ﴾ أي معاند يخالف الحق وهو يعرفه.

﴿١٦﴾ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ فسَّروا ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ من أمامه وقبله؛ لأن جهنم مستقبلة، وأعتقد ـ والله أعلم ـ أن العرب إنما استعملته في المستقبل بعد تخييله طالباً؛ لأن الطالب في العادة يكون وراء الهارب، ولهذا لا يكاد يستعمل إلا في المكروه قد يعترض بقول الشاعر:

... يكون وراءه فرج قريب

وهذا سهو؛ لأن وقوع الفرج بعد وقوع الكرب حقيقة فهو وراءه أي بعده.

فالمراد بقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ الدلالة على أنها مأواه ومصيره يعذب فيها لا مجرد الإخبار أنها من قبله، وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي ويسقى في جهنم من ماء صديد أي قيح، وعطف عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لأن المراد أنه صائر فيها، فكأنه قيل: يصير في جهنم ويسقى، أو عطف على فعل أفاده قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي يعذب بها ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ما وجه قوله تعالى ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؟ قلت: صديد عطف بيان لماء، قال ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ فأبهمه إبهاماً ثم بينه بقوله: ﴿صَدِيدٍ﴾ وهو ما يسيل من جلود أهل النار» انتهى.

وعدّ بن هشام هذا من الوهم؛ لأن عطف البيان عند البصريين خاص بالمعارف، ثم قال: «وهذا إنما هو معترض على قول البصريين ومن وافقهم فيجب عندهم في ذلك أن يكون بدلاً، وأما الكوفيون فيرون أن عطف البيان في الجوامد كالنعت في المشتقات فيكون في المعارف والنكرات» انتهى.

وأظنه قد مضى ذكر كلام للرضي في هذا المعنى يرجح مذهب الكوفيين، قلت: وإن جعلناه بدلاً فهو بدل البيان، وبهذا يقول الإمام أبو الفتح في (البرهان) والإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) أعني إثبات بدل البيان وهو البدل الذي أريد به بيان المبدل.

كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ

﴿١٧﴾ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يشربه جرعة جرعة بشدّة لكراهته وحره لا يستمر في شرب الصديد كما يُشرب الماء البارد ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ إن كان معنى يسيغه يزدرده وينزله من حلقه بسهولة فالمعنى لا يقارب أن يسيغه، وكيف يكون ذلك مع أنه صديد شديد الحر، فقوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور:٤٠] واستعمال السائغ فيما ينزل بسهولة ظاهر، قال الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً ... أكاد أغص بالماء الفرات

وعلى هذا: بنى الحسين بن القاسم عليه السلام فيما رواه الشرفي في (المصابيح) حيث قال: «معناه: لا يقارب ولا يداني أن يستلذه ولا يجده طيباً ولا يودّه» انتهى.

وقال الراغب في (المفردات): «ساغ الشراب في الحلق: سهل انحداره، وأساغه [كذا]» انتهى، ومثله في (الصحاح) وإن كان معنى يسيغه ينزله من حلقه ولو بعد شدة وعناء ـ وهو الراجح ـ فقوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] أي كادوا أن لا يفعلوا، وهذا في معنى الإساغة قد حكى في (الصحاح) مثله عن العرب فقال: «يقال: أَسِغْ لي غُصَّتِي: أي أمهلني ولا تُعْجِلني، قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ والسِّوَاغ [بكسر السين] ما أسغت به غصّتك، يقال: الماء سِوَاغ الغُصَص، ومنه قول الكميت:

وكانت سِواغاً أن جازْتُ بغُصَّة»

انتهى، أي أن غصصت، وهذا عندي أرجح من الأول؛ لأنه أنسب للسياق، وأن بين ساغ وأساغ فرقاً.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمۡ

وقوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي أن أسباب الموت واقعة عليه من كل مكان إما بمعنى من كل مكان من بدنه لوجود الألم المميت في العادة في كل جزء من جسمه، وإما بمعنى من كل جهة لتضاعف الشدة التي من شأن كل واحدة منها أن تميته في العادة، وإتيان الموت له إيقاع شدة الموت عليه من الكرب الشديد وعدم تحمل الألم والنزع من دون أن يموت، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): «يعني من كل مكان من جسده، ويجوز ويأتيه الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه، ويحتمل: ويأتيه شدائد الموت وامتداد سكراته، ليكون ذلك زيادة في عذابه» انتهى.

قلت: الراجح: أن هذا الأخير هو معنى إتيان الموت سواء كان من كل مكان أي من جسده أم من كل جهة ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ أي من وراء هذا الجبار العنيد عذاب غليظ فهو لا يزال في عذاب غليظ أي شديد، ولعله سمي غليظاً لأنه لا رفق فيه ولا رحمة ولا إبقاء؛ لأنه عذاب استحقاق، وبعزة الله عز وجل وحكمته جعله غضباً على أعدائه الجبابرة.

﴿١٨﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وصفهم باعتبار خسرانهم الذين كفروا بربهم

لجحدهم قدرته على البعث بعد الموت وجزاء الآخرة ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يرجى في مثلها النفع لعاملها ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ والرماد ما خلفته النار من حراقة الحطب أدق من التراب وأخف منه ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ وقعت فيه الرياح بشدة وعصف شديد فاحتملته في الهواء وطيرته فتبدد وتفرق في الهواء.

﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ﴾ فعصفه عام يطير ما طار في الهواء ويضيعه إذ ليست شدة الرياح خاصة بمكان الرماد ولا بساعة اشتداد الرياح به بل عصف شامل لنواحي البلد الذي فيه الرماد مستمر طوال اليوم فكيف يبقى من الرماد شيء يقدر صاحبه على إمساكه؟ فكذلك عمل الذين كفروا يصير هباء منثوراً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكافر في أنه لا يحصل على شيء منها بالرماد الذي هو بقية النار الذاهبة إذا اشتدت [به] الريح العاصف وهي الشديدة، فأطارته فلم يقدر على جمعه كذلك الكافر في عمله» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ أي الذين كفروا ﴿مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ لا يقدرون على أن ينالوه أو يحفظوه لينتفعوا به؛ لأنه ذهب ضايعاً، وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي حبوط أعمالهم وخسرانهم لها ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ ضلال العاملين البعيد عن طريق الرشاد والصواب والخير؛ لأنهم بكفرهم معاقبون على سيئاتهم وخاسرون لحسناتهم، فبان بذلك غوايتهم البعيدة عن الرشد والصواب وما فيه الخير لهم، ويحتمل ذلك أي ضياع عملهم بالشكل المذكور في المثل هو الضياع البعيد الذي يبعد على صاحبه وجدانه ويتحقق فقدانه، والأول أرجح لأن أصل الكلام في الذين كفروا والمقصود بيان خسرانهم.

تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ
ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ
عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ

﴿١٩-٢٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا رسول الله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة لم يخلق ذلك لعباً ولا عبثاً ولا باطلاً، بل خلْقهما حق وصواب ليجزي الله كل نفس بما كسبت، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] فلا بد من البعث والجزاء.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يُعدمكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لأنه قادر على كل شيء ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وما إذهابكم والإتيان بخلق جديد ما ذلك على الله بصعب؛ لأنه القادر الذي لا يصعب عليه شيء الغني الذي لا يصعب عليه هلاك الناس لو أهلكهم؛ لأنه غني عنهم وعن أعمالهم فلم يخلقهم لحاجة إليهم ولا لينتفع بعبادتهم، فلا بد من جزاء المحسن بإحسانه والجزاء للمسيء على إساءته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧] ففي هذه الآية تذكير بقدرة الله تعالى وحكمته وغناه وعلى معرفة ذلك يترتب الإيمان بالبعث والجزاء وعلى الجهل به يترتب الكفر بالله واليوم الآخر.

﴿٢١﴾ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

هَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ ﴿وَبَرَزُواْ﴾ ظهروا على وجه الموقف ﴿لِلَّهِ﴾ ليسألهم عما كانوا يعملون ويحاسبهم ﴿جَمِيعًا﴾ مجموعين كلهم كبراءهم وضعفاءهم وغيرهم ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ الذين كانوا في الدنيا ضعفاء مأمورين ينقادون لكبرائهم المستكبرين قالوا ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ في الدنيا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ إنا كنا لكم تابعين في الكفر ونحوه فأنتم أضللتمونا وسببتم لعذابنا.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ كافون لنا أي شيء من عذاب الله تكفونا إياه عوضاً عن إضلالكم لنا ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾ لم تضلوا إلا لأنا ضللنا أي بحكم اتباعكم لنا لا أنا أردنا إضلالكم دون أنفسنا، فلو هدانا الله لهديناكم تبعاً لهدانا لأنا ما أردنا إلا أن تتبعونا فيما نحن عليه، ولم يكن ضلالكم من حيث هو ضلال غرضاً لنا.

وقولهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ كذب منهم قد رد الله عليهم في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٥٧-٥٩] فالكفار لم يعتبروا ذلك هدى، ولعلهم يريدون يوم القيامة أن الهدى ردُّهم عن غوايتهم إلى الصواب بالقسر والإكراه حين لم يقبلوا الآيات البينات، ولكنها هي الهدى ولم يكن لهم حق في القسر والإلجاء، فكانوا كاذبين في نفي هدى الله لهم الذي يفهم من قولهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾.

هذا وأما من قال: إنه لا يقع كذب في الآخرة من الكفار، فكلامه مردود بقول الله تعالى: ﴿فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨].

إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ

ثم قال الذين استكبروا في الجواب على الضعفاء: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ سواء علينا أي على الفريقين التابعين والمتبوعين أجزعنا من عذاب الله والجَزَع ضد الصبر فهو إظهار الضعف على احتمال المصيبة والقلق منها بالصياح والولولة ونحو ذلك كعض اليد من الندم، والصبر ضد ذلك وكأن الذين استكبروا يقولون للضعفاء: كلامكم لنا إنما هو جزع من العذاب ولا يفيد الجزع اليوم؛ لأنه لا محيص من العذاب أي لا مفرّ. قال في (الصحاح): «يقال: ما عنه محيص: أي مَحيد ومهرب» انتهى.

﴿٢٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي لما قضي الأمر صارح الشيطان أتباعه، والراجح: أنه في موقف الحساب بعد أن حكم الله بين العباد وقضى على أتباع الشيطان بالعذاب، وهذا لأجل العطف بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ حين أنذركم العذاب وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين وكان وعد الله هو الحق الذي لا خلف له ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ في الدنيا بأنواع من الغرور، قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي كذبتكم، والخلف هو الكذب قال الشاعر:

لعمرك ما يوافقني خليلي إذا ما كان ذا خلف كنودا»

انتهى، يعني: أن المراد بهذا الوعد مثل المراد بالوعد في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة:٢٦٨] فهو وعد الشيطان بالمغفرة من الله وإدراك أغراضهم النفسية بسبب الكفر كالعز والثروة وغلبة المسلمين، والمراد بقوله ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ على هذا المعنى: كذبتكم الوعد حين قلته، وقد قال في (لسان العرب): «الخلْف في المستقبل كالكذب في الماضي، وهو موافق للبيت المذكور، وعلى هذا يصح اشتقاق الإخلاف من الخُلْف بهذا المعنى» والله أعلم.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ يعني لم يكن لي عليكم قوة وقهر أجبركم على طاعتي فتطيعوني بالقهر والغلبة لأن له سلطاناً على الذين يتولونه والذين هم به مشركون لكنه ليس سلطانَ غلبة وقهر لو سلمت نفوسهم وبقيت على فطرتها وإنما سلطانه عليهم سلطان إغراء بالمعصية وتزيين وتخويف من الطاعة كالتخويف من الفقر والتخويف للمجاهد من القتل والتخويف للمسلم من غلبة الكفار، فإذا ضعفت النفس لأن صاحبها لا يريد أن يصبر على طاعة الله ولا أن يحتمل مشقة وعناء في سبيل الله فضعفت عزيمته وقويت شهوته بالتربية لها، كما تقوى سائر الغرايز بالتربية.

فمن هنا كان للشيطان عليه سلطان التغرير والتزيين والتخويف لا سلطان القسر والإلجاء، فقوله: ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ استثناء منقطع أي دعوتكم إلى معصية الله فاستجبتم لي بالمطاوعة ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً

على التسبيب لدخولكم النار ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ لأنكم إنما استجبتم لي اتباعاً لهوى أنفسكم ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمنقذكم حين تصرخون من العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ بمنقذين لي حين أصرخ منه.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم والإصراخ: الإغاثة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي بمغيثي، قال ابن الأعرابي: الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث» انتهى المراد.

وفي (الصحاح) مثل ما حكى عن ابن الأعرابي لـ(صاحب الصحاح) وقال: «الصراخ: الصوت» انتهى.

وقوله: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني: برئت منكم» انتهى، وهو تفسير بالغرض من الكلام؛ لأنه تبرأ مما أشركوه ليتبرأ منهم وإشراكهم له إما طاعته في الشرك بالله وإما طاعته أعم من الطاعة في الشرك وفي غيره، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي في الدنيا. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا بد منه كقول المستكبرين: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ وهذا عذاب لأعداء الله بالغيظ من كلام إبليس، والعذاب أنواع منها نفسي ومنها جسدي نعوذ بالله منه.

﴿٢٣﴾ ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ لما تم ذكر الوعيد لأعداء الله ذكر الله بعده الوعد لأوليائه بإدخالهم الجنات.

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي باقين فيها لا يموتون، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ دفع لما يستبعد بالقياس على الحياة الدنيا التي تنتهي، ودلالة على أنّ خلودهم يكون لأن الله أذن به وهيّأه لهم بقدرته، واقتصر الكلام على ذكر الإذن دلالة على أنه لا يصعب على الله، فالتعبير بالإذن كالتعبير بقوله: ﴿كُنْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي يُحَيَّون بقول القائل: ﴿سَلَامٌ﴾ أي سلام عليكم، كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] فهي بشرى عظيمة، وليست مجرد تحيتهم لبعضهم، بل يحييهم الله بالسلام والملائكة.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يترجح أن هذه الآية تابعة لما سبق من ذكر أحوال الكفار والمؤمنين، وأن الله تعالى ضرب ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي كلمة التوحيد الصادرة عن إيمان ويقين.

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «هي (لا إله إلا الله) أصلها ثابت في قلب المؤمن» انتهى.

وهي تفيد: فضل الكلام الطيب وعظم نفعه وثباته في الأرض بإذن الله وهو ذكر الله كله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ونحو ذلك مما هو أصل في دين الله، فالكلمة الأصل التي هي (شهادة أن لا إله إلا الله) مثل له يقاس عليها ويلحق بها.

وقوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ طيب الشجرة يكون بنفعها ومن أطيب الشجر الموصوفة هنا النخل؛ لأن ثمرها الذي هو التمر يقتاته أهل بلده وهو فاكهة لغيرهم، وفيه منافع كثيرة في التغذية، ونواه يبل ويدقّ طعاماً للغنم، كما أن سائر أجزاء النخلة ينتفع به يصنع الحصير من ورقها ويستعمل في سقف البيوت وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي في الأرض فهي ثابتة بثبات أصلها لا يقلعها عاصف أو نحوه ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي مرتفع في الهواء وذلك أكمل لها وأطيب لثمرها وأحصن له من تناول الدواب والسراق.

وقوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وهذا يدل على أن ليس المراد شجرة مما نعرف معينة لأن (النخلة) تؤتي أكلها في الخريف وكذا (التين) فإن كان هناك شجرة مما نجهل تؤتي أكلها كل حين إما (الزيتون) وإما غيره ينطبق عليها هذه الصفات صح التفسير بها، وإلا فهي شجرة مفروضة كما في المثل في (سورة النور) ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الآية [آية:٣٥] وهذا صحيح لأن المقصود بالتمثيل إيضاح المعنى وتقريره في ذهن السامع بكمال فهمه.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قد يشير إلى أنها غير موجودة وأن ذلك خارق لعادة الشجر ولكنه ممكن إذا أذن الله به؛ لأنه على كل شيء قدير.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهو يبين المراد بضرب الأمثال في القرآن وغيره من كلام الله تعالى، فالمراد بها أن يتذكر الناس الصواب ويتبعوه، فالكلمة الطيبة ثابتة في الأرض بنصر الله وإعزازه لها وإن كانت للباطل صولات فهي لا تُذهِب من الأرض الكلمةَ الطيبة وثبات الكلمة الطيبة بثبات الإيمان في قلوب المؤمنين الذين يقولونها

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى
ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى

عن إيمان ويقين لأن أصلها الحق اليقين، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف:٢٨] وهي كلمة (التوحيد) باقية في عقب إبراهيم عليه السلام، وتشبيهها بشجرة ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ يفيد أن فائدة كلمة التوحيد وثمرتها تبقى وتتكرر لصاحبها كل حين في الدنيا والآخرة، فالآية الأولى تفيد بقاءها في الأرض، والآية الثانية تفيد استمرار فائدتها.

﴿٢٦﴾ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كلمة الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ تضر الأرض بامتصاص عروقها لفائدة التربة، وبذلك تضر ما جاورها من الشجر الطيب مع أنها خبيثة كشجرة الدفلى التي هي سم أو غيرها مما يضر، ولذلك ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي بقاء في مكانها، وقوله تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: استؤصلت» انتهى.

أي أخذت من فوق الأرض بقلع أصلها لئلا تعود، فالباطل كذلك، الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

﴿٢٧﴾ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بأن يجعلهم ثابتين على الحق لا تزل أقدامهم بعد ثبوتها، وذلك بسبب

ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ

القول الثابت الذي قالوه عن إيمان ويقين، والذي أفادت آية التشبيه بالشجرة الطيبة أن له البقاء في الأرض فهو سبحانه وبحمده يثبتهم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ مدة تكليفهم، ولعل هذا يفيد: أن الكلمة الطيبة والقول الثابت سبب لثبوتهم، وليس معناه: نفي المانع من ذلك إن حدث من أحدهم من المعاصي والإصرار ما يوجب الخذلان، أو أن الله يثبتهم ما داموا على القول الثابت فإذا تحولوا عنه أو عن بعضه لم يثبتهم، وهذا أظهر على معنى أن من التحول الإصرار على المعاصي؛ لأنها ضد معنى القول الثابت، أو ضد ما يلزم من معنى القول الثابت.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يدل على سلامتهم من الزلل عند السؤال وعند جسر جهنم على القول به، وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عقوبة لهم على الظلم وقد مضى تفسيره، وقوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ دليل على أنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده، وفيه تخويف للكفار من تعذيبهم وخيبتهم.

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تعجيب للسامع من هؤلاء الذين عدلوا عن مقتضى الفطرة وعما يدعو إليه العقل السليم من مقابلة النعمة بالشكر إلى تبديلها بالكفر، وعن النصح لأنفسهم وقومهم إلى إدخالهم النار بما أسسوا لهم من الشرك والكفر.

وقوله تعالى: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ فمن نعم الله: أن جعل الإنسان حراً لا يحق لغير الله أن يستعبده فجعلوا أنفسهم عباداً لشركائهم، ومن نعم الله: الأنعامُ التي أحلها للإنسان ليأكل منها وينتفع بها، فحرموا من الأنعام

فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

ما ذكره الله في (سورة الأنعام) و(المائدة) فبدلوا بالتحريم الذي هو كفر من حيث جعْلِ الحكم لغير الله من حيث هو تشريع على عباد الله لم يأذن الله به، ومن حيث هو جحد لنعمة الله فيما أحل؛ لأنهم حرموه فهو كفر نعمة جعلوه بدل النعمة.

وقوله تعالى ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي أتباعهم من قومهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي دار الهلاك، وفسرها قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ من الحلول في المحل الذي هو الإستقرار فيه، قال عنترة:

حلّت بأرض الزائرين فأصبحت عَسِراً على طلابها ابنةَ مخرَمِ

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي جهنم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦].

﴿٣٠﴾ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ﴿وَجَعَلُواْ﴾ أي هؤلاء الذي أحلوا قومهم دار البوار جعلوا ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وأسَّسوا الشرك؛ ليضلوا أتباعهم عن سبيل الله، وهكذا أهل الأهواء المحتالون للرئاسة يقررون الباطل في أنفس أتباعهم حتى يعتقدوه ويتعصبوا له فينصرفوا بذلك عن الحق وأهله، فالإضلال لأتباعهم غرض لهم، لأنها تتوقف عليه رئاستهم وكونهم متبوعين.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بأغراضكم الدنيوية ورئاستكم الباطلة ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فقوله: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ تهديد لهم، وبيان لحقارته من حيث أنه سبب لمصيرهم المحتوم جهنم.

وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

﴿٣١﴾ ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾ أمر بما فيه كرامة عباد الرحمن ورفع درجاتهم وسلامتهم من الخسران ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) ـ ونعم ما قال ـ : «يقيموا مقول القول أي ليقيموا، قيل: وجاز حذف اللام منه، لأن الأمر الذي هو ﴿قُل﴾ عوض منه» انتهى المراد.

قلت: الأقرب أنه مجزوم؛ لأنه في معنى الأمر فهو قسم من المجزوم وإن لم تقدر فيه (لام الأمر) كما جزم ما دخلت عليه (لام الأمر) وليس مما جزم في جواب الأمر، الا ترى أنه أكد أمرهم بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي ليغتنموا مهلة الأجل لصالح العمل المذكور من قبل أن يفوت الأوان في ذلك اليوم الذي هو يوم حساب ولا عمل، ولو كان المعنى: إن تقل لهم يقيموا وينفقوا، لكان زيادة قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ في غير محلها، وخَص الأمرين بالذكر إقامة الصلاة والإنفاق من الحلال لعظم فائدتهما في إصلاح الضمير والتسبيب لحسن الخاتمة ولعظم ثوابهما وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لم يخص السر بالذكر وإن كان أفضل لمن يكثر الصدقة أو هو الواجب إذا خاف المتصدق على نفسه الرياء، وذلك لأن العلانية يدعو إلى الإقتداء بالمنفق فيكون له أجر صدقته وأجر التسبيب للصدقة من غيره ويكون ذلك أنفع للفقراء أو أنفع في نصرة الإسلام إذا كان الإنفاق في سبيل الله.

فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ

وقوله تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي ليس كالدنيا تستفيد ما تحتاجه بالبيع لك، وتستعين على بعض الأمر بالخليل الصالح، ذلك يوم لا ينفع فيه إلا العمل الصالح، وما يحصل من فضل الله إنما هو تابع للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:٣٠].

﴿٣٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ في الآية الكريمة ردٌّ على المشركين الذين جعلوا لله أنداداً وعلى من اتبعهم في شركهم فهم غافلون عن الله جاهلون بعظمته وجلاله وكمال قدرته وعلمه ولذلك جعلوا له أنداداً قرنوا بين عبادتهم وعبادة الله جل جلاله فسوّوا بين الحق والباطل بين الصدق والخرافة، فهذه الآية تذكر بالله تعالى وقدرته على كل شيء، وأنه الخالق الرازق.

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يذكرهم بعظيم قدرته وعلمه وفضله على عباده من حيث أنهما أساس خلق من فيهما وما فيهما من نعمه، وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يذكر بنعمة الماء وذكر من فوائده إخراجَ الثمرات التي هي رزق للإنسان يعيش بها ويتمتع في هذه الحياة، وجمع الثمرات يشير إلى الحبوب والفواكه على كثرة أنواعها واختلافها في الفائدة واللذة، كما أن ذلك يذكر بقدرته وعلمه وتدبيره لأمور عباده ومنافعهم مما يدل على سفاهة من جعل له أنداداً.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ وهي السفائن التي يسافر بها في البحر، وقوله: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ يذكر فائدتها التي هي صلاحيتها للسفر عليها، فهو سبحانه جعل الخشب الذي منه ألواحها والحديدَ الذي به تنسق ألواحها حتى تكون على شكل صالح لحمل ما عليها، وسخر لها الريح لتسوقها، وعلم الإنسان صنعتها وصنعة ما تدخله الريح لتسوقها فصلحت للسفر للتجارة ونقل حاجات الإنسان من أرض إلى أرض كما فصّل ذلك الله تعالى في آيات من القرآن في (سورة النحل) و(سورة الشورى) وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ جعلها مأمورة بالسير؛ لأنه سخر لها الريح تسوقها، فكأنها مأمورة مطيعة، وكذلك الريح كالمأمورة المطيعة، لأنه الذي سخرها فانقادت لتسخيره.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ فهو الذي يسوقها في بطون الأرض والجبال من مسالكها الباطنة حتى تخرج من منابعها فتجري في مجاريها الظاهرة وينتفع الناس بالماء منافعَه المعروفة، وربهم هو الذي جعل مسالك الماء الباطنة ومجاريها الظاهرة لينتفعوا به لأنفسهم وأنعامهم وحرثهم وغير ذلك.

﴿٣٣﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أما منافع الشمس فتدفئة الناس والمواشي، وإصلاح الأشجار والتربة للزرع والضياء، وقتل بعض الجراثيم الضارة، كما يحكى عن أهل الطب العصري وتوليد فيتامين (د) في أجساد الناس كما يقولون ولا نحصي فوائدها.

وأما فوائد القمر: فالنور لمن يحتاج السري ومن لا يجد المصباح، وهو يقتل الدَّبَا إذا جاء عليه في نصف الشهر إما غالباً وإما مستمراً، ومن فوائده: الشهور العربية فإنها محدودة بالهلال، ولولا هو ما كانت الشهور العربية، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩].

وفي الشمس والقمر آيتان عظيمتان واضحتان تدلان على قدرة الله تعالى وعلمه؛ لأن سيرهما بمقدار محدود كتحديد الساعة المصنوعة فالشمس تقطع البروج في سنة والقمر تقطعها في شهر ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ على ذلك السير المحدود في عادة مستمرة.

قال في (الصحاح): «دأب فلان في عمله: أي جدّ وتعب» انتهى المراد.

وقال (شارح المعلقات السبع) في شرح قول امرئ القيس:

كدأبك من أم الحويرث قبلها

«الدأب والدأَب [بتسكين الهمزة وفتحها] العادة، وأصلها متابعة العمل والجد في السعي» انتهى.

وقال الراغب: «الدأب: إدامة السير، دأب في السير دأباً، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ والدأب: العادة المستمرة دائماً على حالة، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران:١١] أي كعادتهم التي يستمرون عليها» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فيهما نعمتان، فالنهار للعمل وكسب الرزق، والليل للسكون وترك عمل الدنيا والراحة منه لتعود القوة ويذهب التعب، ويخلو أولياء الله في بعضه للعبادة والاستغفار في الأسحار.

وفي الليل والنهار آيتان حيث جعلا لمنافع الناس بتحديد مناسب لحالهم مستمر دقيق، كتحديد الساعة، وطول أحدهما وقصر الآخر بنظام محدود متقن دقيق، فهما دليل على الخالق المدبر لمصالح عباده، ذلك تقدير العزيز العليم الذي سخر هذه الأشياء بقدرته وعلمه. قال الراغب في (المفردات): «التسخير سياقة إلى الغرض المختص قسراً» انتهى المراد.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ نعماً كثيرة ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ فأنتم تسألون الله حاجاتكم فيعطيكم، وفي هذا إشارة إلى نعم يحتاجها الإنسان فيسأل ربه فيعطيه، فالإنسان يعلم في قرارة نفسه أن الخير بيد ربه الذي خلقه ورزقه، ولذلك يسأله كلما احتاج أو اضطر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي بعض ما سألتموه وهي نعمة كثيرة وإن لم نعط كلَّ ما سألنا؛ لأن الحكمة في بعض المطلوب أن لا نؤتاه بعينه، وقد نسأل شيئاً وهو شر لنا ولكن لا نعلم، ومن ذلك بسط الرزق، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ..﴾ الآية [الشورى:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لعلنا لا نستطيع إحصاء أنواع النعم فضلاً عن أفرادها، وهذا في النعم الظاهرة غير الباطنة، والنعم الظاهرة التي يخفى على الإنسان كونها نعمة عليه إلا إذا فكر أو درس التشريح والطب.

رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ قرار بعد تعديد النعم على الإنسان تدل على كثرة النعم وسوء تصرف الإنسان حيث يقابل نعم الله بالإساءة والعصيان، فالإنسان ظلوم لأن إساءته إلى مالكه المنعم عليه حيف وجور لأن مقتضى العدالة أن يشكر ربه ويطيعه فهو لهذا ظلوم، والإنسان كفار كثير الكفر لنعم الله تعالى، فأما كفر المشركين والكفار لنعم الله فظاهر، وأما غيرهم فأكثرهم أهل الغفلة والجرأة على الظلم وغيره الذين لا يبالون ما فعلوا، وكثير من الناس إلا النادر لا يخلو أحدهم عن المعصية إلا أن الأخيار يحاسبون أنفسهم ولا يصرون على ما تعمدوه أو انكشف لهم أنه ذنب.

وقد روى الإمام أبو طالب عليه السلام في (أماليه) وهو في (الباب السابع والأربعين بإسناده: عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله ـ عزّ وجل ـ : يا بن آدم ما تنصفني أتحبب إليك بالنعَم وتتمقّت إلي بالمعاصي، خيري عليك منزَل وشرّك إلي صاعد، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك في كل يوم وليلة بعمل قبيح، يا بن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تدري مَنِ الموصوفُ لسارعت إلى مقته» انتهى، وهو في (صحيفة الإمام الرضا).

فظهر بما بيَّن الله من نعمه ظلم الإنسان وأنه كثير الظلم كثير الكفران لنعم الله تعالى، هذا وقد كان بعض أهل مكة ومن حولها يعبدون الأصنام وذلك أقبح الكفر وكانوا كلهم أو بعضهم يدَّعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام فبين تعالى دين إبراهيم عليه السلام وما أوتوا من النعمة بسبب دعائه عليه السلام.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي ما حول الكعبة وهو الحرم المحرم،

إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ

والبلد يفسره المفسرون بمكة، ولعل مكة اليوم قد تجاوزت حد الحرم، والمقصود بالدعاء هو مكة التي في الحرم، فهي البلد الآمن بحكم الله عز وجل، وقد ذكّرهم الله بنعمة الأمن في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧] وبالأمن فيه يتهيأ الحج والعمرة والتجارة في مكة، فهو نعمة عامة لأهل مكة وغيرهم.

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي اصرفنا بلطفك عن أن نعبد الأصنام، قال في (الصحاح): «وجَنَّبْتُهُ الشيء وجَنَبْتُه: بمعنى نحيته عنه» انتهى، ومثله في (لسان العرب) ولا يبعد أن فيه معنى باعدني، والمراد ببنيه أول درجة من ذريته أي بنيه من صلبه، فهو فيهم أظهر، ولأنه حين دعا لذريته قال هو وابنه إسماعيل: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨] فجاء بـ﴿مِنْ﴾ التي للتبعيض، فظهر: أنه هنا دعا لبنيه لصلبه، أن يعصمهم الله بلطفه من عبادة الأصنام.

﴿٣٦﴾ ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «واتفق كل الفرق على أن قوله: ﴿أَضْلَلْنَ﴾ مجاز، لأنها جمادات لا تفعل شيئاً البتة» انتهى.

قلت: يعني اتفقوا على أن المراد ضلوا بسببها، لا أنها فاعلة لإضلالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان:٣٣] إلا أن هذا نهي وكلام إبراهيم عليه السلام إثبات.

ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا

وقوله ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي كالبعض مني له ما لي وعليه ما عليّ وهو في الإختصاص بي كبعضي، وهذا نهاية العطف عليه والحب له، وقوله: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فأرجو له من المغفرة والرحمة ما لا ينافي العزة ولا الحكمة وذلك المغفرة بترك المؤاخذة العاجلة والرحمة بذلك من حيث هو نعمة وتعريض على التوبة المؤدية إلى الرحمة في الآخرة والمغفرة المطلقة، وقد قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

﴿٣٧﴾ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بعضهم وهو إسماعيل، ولعله كان وجد له ولد في عهد إبراهيم ﵇، فيكون داخلاً في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ أي جعلتهم ساكنين ﴿بِوَادٍ﴾ وهو مكة شرفها الله ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ فالقوت منها معدوم فدعا لهم وقدم وسيلة الدعاء بقوله: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و(البيت المحرم): هو الكعبة شرفها الله أضافها إلى الله؛ لأنها قبلة عبادته، وإليها الحج والعمرة، فأسكنهم عنده ليقيموا الصلاة في جوار بيت الله حيث لا زرع ولا حرث يشغلهم عن إقامة الصلاة في أوقاتها أو يشغل ضمائرهم بالوسوسة حال الصلاة، فدعا لهم بالرزق ليتمّ لهم هذا الغرض الديني كما أسكنهم لهذا الغرض نفسه عند البيت.

نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ

وقوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ الأفئدة القلوب أو باطنها وذلك مركز العقل والحب وغيره نسب الهُويّ إليها، لأن شوقها إلى بيت الله وأوليائه هو يبعث أهلها على هبوط مكة وذلك سبب لنشر العلم والدعوة إلى دين الله، ولولا ذلك لصاروا معزولين عن الناس لأن مكانهم ليس فيه مرغّب دنيوي إلا إذا أهوى إليه الناس من كل بلد فإنه يصير موضع تجارة.

وقوله: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ فجعل الدعاء لهم بالرزق ليشكروا فهو لغرض ديني من حيث هو إقامة الصلاة، ومن حيث هو الشكر أعم من الصلاة، فإسكانهم لغرض ديني يكمل ويتم بهوي الناس إليهم وبالرزق الذي لا يعيش الإنسان بدونه، وبذلك صلاح دينهم ودنياهم، وحياة مكة بعبادة الله وحده لا شريك له، ولكن المتأخرين غيروا بمكة فجعلوها مركزاً لبعض الأصنام وأشركوا بالله فكان من الضروري تجديد دعوة إبراهيم بإرسال الرسول من ذريته ودعوته إلى ما دعا إليه أبوه إبراهيم عليه السلام وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿٣٨﴾ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿مَا نُخۡفِي﴾ أنا ومن أسكنت من ذريتي فأنت تعلم نياتنا وإخلاصنا لك وعقائدنا في توحيدك وكل ما نخفي ﴿وَمَا نُعۡلِنُ﴾ وما نظهره من صلاتنا ومناسكنا وغير ذلك ومن كل عملنا فاستجب دعاءِ ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ لا من الأعمال ولا غيرها لا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه علام الغيوب وبكل شيء عليم، فلذلك ندعوك ونرجوك ونعبدك ونخشاك.

لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَـٰعِيلَ وَإِسۡحَـٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ
﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا

﴿٣٩﴾ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَـٰعِيلَ وَإِسۡحَـٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ شكراً لأنه ﴿ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَـٰعِيلَ وَإِسۡحَـٰقَ﴾ ليرثا ديني ويبلغا رسالتي إلى أهل عصرهما، وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ أي على تقدم سنِّي وبلوغي حدّ الشيخوخة، وليس من العادة أن يولد لمثلي في الشيخوخة ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فقد سمع دعائي حين قلت: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] فوهب لي إسماعيل ثم إسحاق.

﴿٤٠﴾ ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِى﴾ في المستقبل ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بأن تحببها إلي في بقية عمري وتيسر لي إقامتها بأركانها وخشوعها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ اجعل مقيمي الصلاة؛ لأنها عظيمة في العبادة ومصلحة للضمير ولذلك تنهى عن الفحشاء والمنكر، وعنايته عليه السلام بإقامة الصلاة ينبغي لذريته أن يجعلوها سبباً لإقامتها اقتداء بأبيهم إبراهيم عليه السلام بل ينبغي للناس كافة لأنه عليه السلام إمامهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ يحتمل: استجب دعائي فاعطني وذريتي ما سألت، ويحتمل: تقبل مني دعائي لتكتب لي ثوابه، فاجعله من حيث هو عبادة اجعله مقبولاً أي عبادة متقبلة يكتب لي ثوابها، وهذا أقرب ولذلك يكرر ذكر الربوبية الذي يفيد إقراره بأنه وذريته عباد لله، وبأن العبادة لا تحق إلا لله؛ لأنها اعتراف بالعبودية، فهو يكرر ذلك الاعتراف والإقرار بتكرير لازمه، فليكن لنا قدوة في عبادة الله بالدعاء.

ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ
غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ
﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

﴿٤١﴾ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى﴾ ذنوبي ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ ذنوبهما، وكأنه عليه السلام استمر على استغفاره لأبيه وفاء بالوعد، مع أنه قد تبرأ منه في آخر الأمر، فلا تنافي ما دام ذلك مأذوناً له من الله تعالى، ولمجرد الوفاء بموعدته كما جاز مصاحبة الوالدين المشركين معروفاً في الدنيا.

وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف عليهم؛ لقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وحبّاً لهم في الله، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ طلب لهم بالمغفرة يوم يقوم الحساب أي يوم الحساب، وهي أفضل من المغفرة المؤقتة في الدنيا فمغفرة يوم الحساب لازمها دخول الجنة والنجاة من النار، بخلاف مغفرة الدنيا التي معناها ترك تعجيل المؤاخذة، كما مر في تفسير قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ قيام الحساب قوّته وكثرته وظهوره مثل قيام السوق إذا تحرك البيع والشراء، وهو يشير إلى ذلك الموقف الرهيب الذي يحتاج فيه إلى المغفرة أشد من الحاجة إلى المغفرة بترك تعجيل المؤاخذة.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ عطف كما أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عطف.

والراجح: أن ذلك راجع إلى ما في سياق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ من وعيد قومهم، فذكر الله كلام إبراهيم عليه السلام رداً عليهم، ثم ذكر ما في هذه الآية وعيداً لهم على ما يعملون ضد الإسلام من المكر والمعاداة الخفية، وبين حالهم يوم القيامة وذلتهم بعد تكبرهم في الدنيا وعنادهم عند دعوة الرسول لهم إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ الخطاب إما للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو تقدِمة لذكر وعيدهم، وليس من شأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يحسب الله غافلاً فليس نهيه لذلك، بل لئلا يحسبوا هم أو غيرهم، لكن وجه الخطاب إليه لأنه العالم بأن كفرهم باطل، فهو الذي يصلح خطابه في جزائهم لماذا لا يعجل، وإما للسامع كائناً من كان.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي لم يترك اليوم عذابهم على ما يعملون غفلةً عما يعملون من أنواع الظلم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي ليوم القيامة فعذابهم كاف في العدل والحكمة إن لم يرد لهم العذاب في الدنيا بعد حين، وقوله: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ كما يشخص بصر المحتضر عند الموت.

قال في (الصحاح): «يقال: شخص بصره، فهو شاخص: إذا فتح عينيه وجَعَل لا يَطرِف» انتهى، ومثله في (لسان العرب) وزاد: «شخوص البصر: ارتفاع الأجفان إلى فوق وتحديد النظر وانزعاجه» انتهى.

(٤٣) ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مهطعين إلى الداعي أي مسرعين إليه استسلاماً وانقياداً وخضوعاً وذلة ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ فسروا إقناعهم رؤوسهم برفعها ولكن الإشكال فيه أن الخوف والذلة وانحلال القوى من شدة الخوف يستدعي إمالة الرؤوس إلى أسفل.

وقد قال في (الصحاح): «وأقنع البعير: إذا مدّ رأسه إلى الحوض ليشرب، وأقنعت الإناءَ إذا أَمَلْتَه لتصب ما فيه واستقبلت به جِرْيَةَ الماء ليمتلي، قال الراجز ـ يصف ناقته ـ: تُقْنِع للجَدْوَل منها جَدْوَلا.. شَبَّهَ فاها وحلقها بالجدول تستقبل به جدولاً إذا شربَت» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح) في قول الله تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: «أو معناه: ناكسي رؤوسهم بلغة قريش، قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد خاضعين مرخين لرؤوسهم ـ قال ـ: وقد قيل إن المهطع: هو الرافع، وهذا خلاف قول السلف صلوات الله عليهم، والإقناع مأخوذ من القناع وتقنيع الرأس إنما يراد به ستره لا رفعه، وإنما يقنع رأسه مَن يريد التغطي والتذلل، وكذلك إقناعهم رؤوسهم: هو تغطية وجوههم بنكس رؤوسهم إلى الأرض» انتهى.

وفي (المصابيح) أيضاً في تفسير (سورة اقتربت الساعة): «عن الهادي عليه السلام: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [آية:٧] أي يوم يدع الداع تراهم خشعاً، معنى خشعاً: فهي مغضوضة لا يرفعون رؤوسهم، ولا يمدُّون أبصارهم أمامهم من الفزع والخوف والإيقان بالبلاء العظيم» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي أن أعينهم لا يغمضونها بل لا تزال مفتوحة لشخوصها، والطرف غطاء العين الذي يغطيها عند النوم وعند غمض العين، قال الراغب: «وطرف العين: جفْنُه» انتهى من تفسيره لـ(مفردات القرآن).

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ كأن انفتاح الجفون بسبب أن الرعب والفزع قد غلب عليها وخرجت عن اختيار صاحبها فكأنها مأخوذة عليهم لأنه قد اضطرها الفزع إلى الإنفتاح.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ

وقوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي خالية من الألباب، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ [الحج:٢] وكقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص:١٠] شبه اللب بالجسم مثل لب الحبّة، فاعتبر ذهاب اللب فراغاً للفؤاد، فلذلك جعلت هواء مع أنها مملوءة بالرعب والخوف.

﴿٤٤﴾ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ذكر في الآية الأولى هول يوم القيامة وفزع الظالمين ولم يذكر فيها العذاب وإن أفادته.

ففي هذه الآية ذكر إتيان العذاب فقيل: المراد به عذاب عاجل عام ينجو منه المؤمنون، والدليل على ذلك: قول الظالمين: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فهذا يناسب أنهم ما زالوا في الدنيا؛ لأن أهل الآخرة إنما يطلبون الردّ لا التأخير، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام:٢٧] وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ..﴾ إلى قوله: ﴿.. أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ﴾ [الأعراف:٥٣].

أما من كان في الحياة الدنيا فإنه يطلب التأخير، قال تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون:١٠] ويشكل على هذا التفسير آخر الآية التي ترد عليهم طلب التأخير ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ لأن هذا العذاب لم ينزل في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في وقت نزول الوحي فيقال لهم ذلك الجواب، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد انقطع الوحي.

وظاهر الآيتين: أن الله تعالى يجيب عليهم بما ذكر في الآيتين، أما في الآخرة فذلك واقع الاحتجاج عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧] ويشكل عليه ـ أيضاً ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فإنه إما أن يراد به ما لكم من زوال من الدنيا، أو ما لكم من زوال من بطن الأرض بعد الموت، والأول لا نعلمهم أقسموا أنهم لا يزولون من الحياة الدنيا، وكيف يقسمون وهم مقرون بالموت؟

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] فبقي أنهم أقسموا ما لهم من زوال من بطن الأرض، وهذا قد حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨] ولو قال: أقسمتم ما لقوتكم من زوال لساغ تفسيره بأنهم أقسموا لا يزالون في قوة وأنهم لن يغلبوا.

فأما تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ بنفي ذهاب القوة والعزة فخلاف الظاهر؛ لأن ذلك لا يسمى زوالاً للأشخاص وإنما يقال: زالت قوتهم، فظهر أن قسمهم معناه أنهم لا يبعثون فكأنه قيل لهم ذلك لأنه تكذيب للنذير الذي جاءهم مصحوباً بالبينة، فهو يذكر جريمتهم العظيمة.

فأما قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فيمكن أن يطلبوا تأخيرهم في الآخرة ليعملوا، ومعناه: إنظارهم بتأخير العذاب الذي قد أتاهم، وقد نفاه الله بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل:٨٥].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذه فيمن ظهر له الحق في الآخرة فأراد أن يستدرك فارط ذنوبه، وليست الآخرة دار توبة فتقبل توبتهم، كما ليست دار تكليف فيستأنف تكليفهم» انتهى المراد.

وعلى هذا: يكونون طلبوا الإمهال في الآخرة ليعملوا فيها يجيبوا دعوة ربهم ويتبعوا رسله كلهم بدلاً من تكذيبهم كلهم أو بدلاً من تكذيب بعضهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ وهذا خطاب لمن في عهد رسول الله ﷺ أولهم ولمن بعدهم يذكر لهم ما شاهدوا من آثار الأمم الظالمة التي نزل بها العذاب مثل قوم لوط فمساكنهم تذكّر بهم وبما نزل بهم، وفي ذلك عبرة لهم أي لمن في حياة الرسول ﷺ ولمن بعدهم تدلهم على أن الله لم يهمل عباده وأنه يعاقب المجرمين، كما قال تعالى في سياق إثبات يوم الفصل ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات:١٦-١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي كيف عذبناهم، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي في القرآن وعلى لسان الرسول ﷺ فقد بيَّن لهم ما يوجب إجابة دعوته واتباع الرسل في الدنيا ولم يقبلوا، وجاءت الأمثال زيادة في إيضاح الحق، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١] ومثل قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ..﴾ إلى قوله: ﴿..إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس:١٣-٢٩] ومثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا..﴾ الآية [النحل:٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ..﴾ الآية [النحل:٧٦].

وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أفادت الآيات الماضية أنهم يعملون ما يوجب عليهم العذاب في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وعطف في هذه الآية بيان بعض ما يعملون، فقال ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ﴾ أي احتالوا لإبطال أمر الرسول ﷺ ودبروا إما قتله وإما غير ذلك من كيدهم.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ لا ينساه ولا يضيع جزاه ولا يهمله بل هو محفوظ في كتاب وفي علمه تعالى ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ لشناعته وقبحه وكونه ضد الحق جملة وضدّ رسالة الرسول جملة يحق له أن تزول منه الجبال إنكاراً له وضعفاً عن تحمله، فقوله تعالى ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ كأنه قيل: وإنّ مكرهم كان لتزول منه الجبال أي أنه سبب لزوالها لولا حفظ الله لها؛ لأن ذلك هو الذي يليق به لشناعته، كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠-٩١].

﴿٤٧﴾ ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ هي مثل ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ وقد مرّت ﴿مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ فهو يتقدس عن ذلك، وكيف يخلف وعده بنصره رسله على أعدائه الماكرين ضد أمره، وهو عزيز لا ينال، وإهمالهم وترك جزائهم ينافي عزته لأنهم سعوا في أرضه فساداً وحاربوه فلم يتركهم يعملون جرائمهم ويمكرون برسوله إلا على شرط أنه ينتقم منهم ويجزيهم بما قدموا جزاء وفاقاً، ولولا ذلك الجزاء ما جاز في عزته وحكمته.

ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي لا تحسبه مخلف وعده؛ لأنه عزيز ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه أي يعاقبهم.

﴿٤٨﴾ ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ ظاهر قوله تعالى ﴿تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ تبديل الأرض وجعل مكانها غيرها، وحمله على تبديل الأرض بجعل غيرها قراراً لأهلها قريب من ناحية صحة التعبير، ومن ناحية الواقع فأولياء الله يبدلون بها أرض الجنة، وأعداء الله يبدلون بالأرض جهنم، فكانت دار القرار بدل هذه الدار.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي تبدل، ومن الجائز أن تبدل بقرار للملائكة غيرها؛ وهذا لأن معنى التبديل جعل شيء بدل غيره، كقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠] فقد كان جزاؤهم السيئات لو لم يتوبوا فلما تابوا صار جزاؤهم الحسنات، فكانت الحسنات بدل السيئات لأنها صارت مكان السيئات، ولا ينافي هذا بقاؤهم على الأرض في موقف الحساب؛ لأنهم يساقون منه إلى الدارين ويحكم في موقف الحساب لكل فريق بدار غير الأرض، وهذا على فرض أن الحساب يكون على هذه الأرض.

يوضح هذا: أن السموات يومئذ تمزّق وتكشط، فليس التبديل في موقف العرض للحساب وتبديل السموات بسماوات أخرى لا بد منه، ويحتمل أنه المراد وذلك بسماوات الجنة والنار أو الجنة وحدها، أما مفهومه في الآية فهو محتمل؛ لأن تبديل السموات في الآية إن أريد به تبديلها من حيث هي مقر للملائكة فتبديلها بخلق مقرّ للملائكة غيرها.

وإن أريد بها تبديلها من حيث هي سماوات بالنسبة إلى الأرض، فتبديلها بسماوات للجنة، أو لها وللنار، أو لهما وللمحشر بعد تشققها وتنزيل الملائكة منها، أو للجنة والمحشر أعني الموقف وحدهما فالله أعلم أيّ ذلك يكون، ولا مانع أن السموات تبدل تبديلاً جامعاً للمعنيين فيكون البدل سماوات مقرّاً للملائكة دار ثواب لهم يصيرون إليها بعد نزولهم إلى الموقف وقيامهم بأعمالهم التي يؤمرون بها في الموقف.

وحاصل هذا الكلام في تبديل الأرض: أنها تبدل بأرض الجنة ودركات جهنم، والأولى أن تبديلها يكون بذلك وبموقف الحساب.

قال القاسم عليه السلام في تفسير (إذا زلزلت): «تأويل إخراج الأرض لأثقالها فهو طرحها لما كان عليها من أحمالها ـ ثم قال ـ : وكيف لا تكون مخرجة لهم منها وكلهم فمنتقل إلى دار القرار عنها، وأرض الحياة الدنيا فأرض بائدة فانية، وأرض دار القرار خالدة باقية، ومن أثقال الأرض من في قبورها ومن كان من الموتى على ظهورها فمِن كلٍّ ذلك طائعةً تتخلّى من قبل أن تبيد وتبلى» انتهى المراد.

وحاصل الكلام: أن الأرض تتخلى من أهلها بإخراجهم عن ظهرها إلى دار القرار، وفسر عليه السلام بهذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشقاق:٤] قال عليه السلام: «تأويل ذلك: أوحشت الأرض من أهلها وأخلت، فنشر موتاها نشراً، وحشر الموتى إلى الموقف حشراً» انتهى المراد، فظهر: أن تبديل هذه الأرض يكون بأرض الموقف وأرض الجنة ودركات النار.

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ أي ظهروا في موقف العرض على الله والحساب، برزوا لله ليسألهم ويحاسبهم، ويحكم فيهم بما شاء.

ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ

فإن كان الضمير للناس كلهم أي لأهل هذه الأرض الفانية فهو بيان لحالهم عند تبديل الأرض، باعتبار أولها وخروجهم من هذه الأرض، وإن كان الضمير خاصاً بالظالمين لأن السياق فيهم فهو ابتداء للكلام في إنجاز وعد الله لرسله فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ يبين أنه تعالى هو الذي يسألهم ويحكم فيهم وحده، وأنه واحد غير متعدد، وهو رد على من جعله ثلاثة وتوهم أن عيسى يومئذ يشفع له وأنه شريك لله تعالى في إلهيته، فالآية هذه تقطع طمعهم وتنفي دعواهم التثليث.

وقوله ﴿ٱلۡقَهَّارِ﴾ فيه دلالة على كثرة قهره وهو غلبته وإذلاله لأعدائه، وقد تكرر منه القهر لهم في الدنيا ويكون في الآخرة أشد وهو القاهر فوق عباده عموماً قهراً مستمراً، فأما المتكرر الذي عبر عنه بمثال المبالغة فالظاهر أنه قهره لأعدائه بتعذيبهم - والله أعلم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الذين أجرموا في الدنيا أي فعلوا الجرائم وهم الظالمون كلهم، وقوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي يقرن بعضهم إلى بعض في صفَد واحد.

قال في (الصحاح): «وقرنت الشيء بالشيء: وصلته به، وقرَّنت الأسارى في الحبال شدد للكثرة، قال الله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن عليه عليه السلام) للأصفاد: «السلاسل والأغلال» انتهى. وفي (مفردات الراغب): «الصفَد والصِّفاد: الغل، وجمعه: أصفاد، والأصفاد: الأغلال، قال تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾» انتهى.

وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ

فأما (صاحب الصحاح) فجعل الأصفاد القيود سواء كانت أغلالاً أم غير الأغلال، وكأنه يجعل الغل خاصاً بقيد العنق، فإنه قال: «والصفاد: ما يوثق به الأسير من قِدّ وقيد وغُل، والأصفاد: القيود» انتهى.

﴿٥٠﴾ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ جمع سربال وهو القميص، والراجح عندي ـ والله أعلم ـ : أن هذا القطران عصارة تخرج من أجسادهم عند احتراقها تسود من النار، فتكون كالقطران الذي يؤخذ من الشجر بواسطة إحراقها، وقد قال تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ [الحج:١٩] وفي (معلقة عنترة) يذكر إقدامه بفرسه:

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولَبانه حتى تسربل بالدم

وقوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إشارة إلى أن أيديهم مقيدة لا يتقون بها عن وجوههم النار مع أنها تغشاهم كلهم، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ..﴾ الآية [الأنبياء:٣٩].

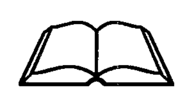
﴿٥١﴾ ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي يعذب المجرمين ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ولا يخص بالجزاء بعض الأنفس؛ لأن الحكمة تقتضي جزاء المسيء بإساءته كما تقتضي جزاء المحسن بإحسانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا يغفل عن سيئة ولا ينساها ولا يقصر جزاؤه لأحد على بعض ذنوبه دون بعض ولا يحتاج في علمه بجملة المعاصي ومقدار المستحق عليها إلى نظر وتفكير بل يعلم الجملة كما يعلم كل واحدة من السيئات وحدها وكذلك الحسنات لأنه علام الغيوب.

وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

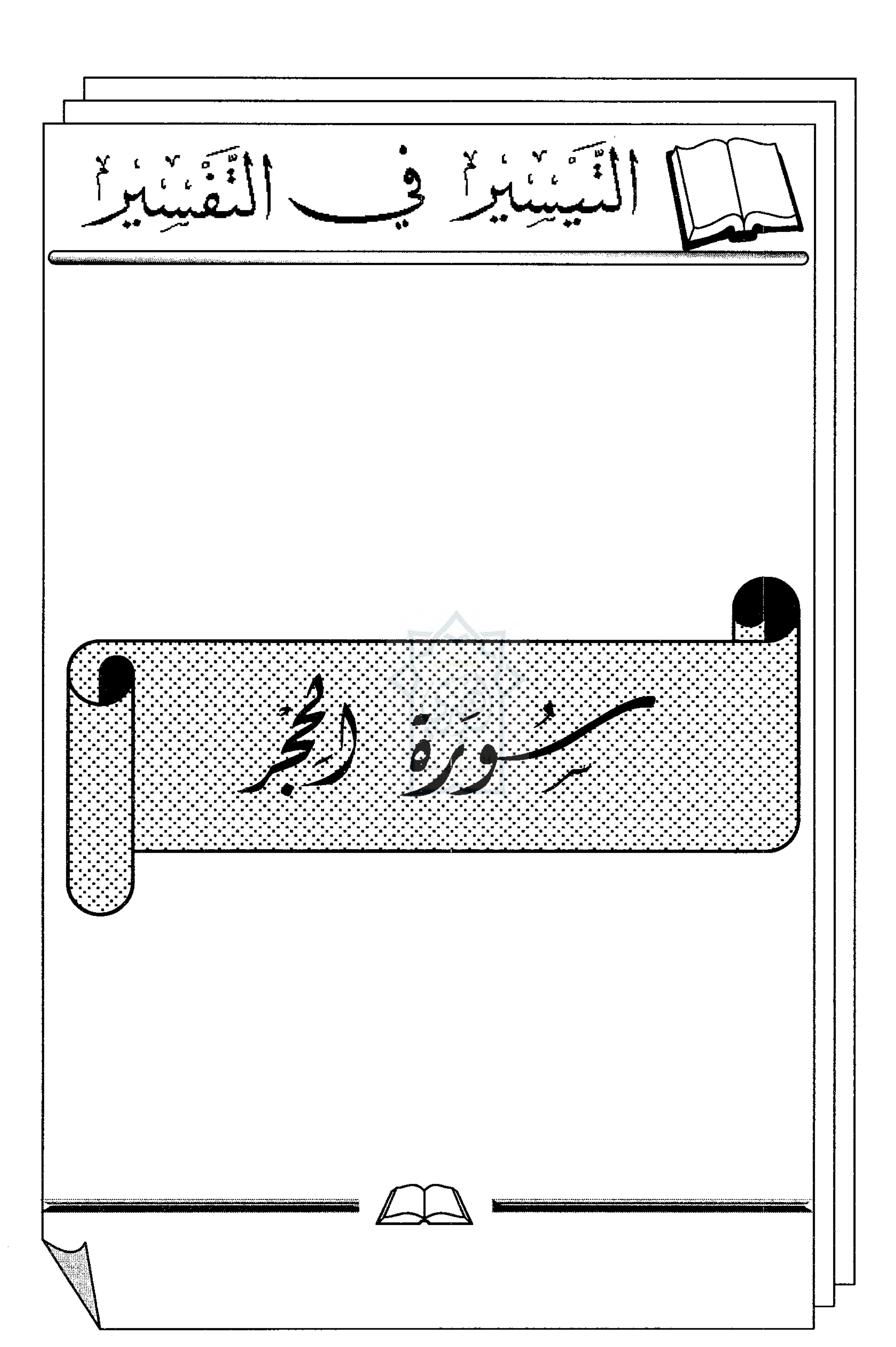
﴿٥٢﴾ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ يبْلغهم به الإنذار والتبشير والتحذير من الشرك والضلالات التي هم فيها لتقوم به الحجة عليهم ويخرجوا من الغفلة التي لا يعذب الله أهلها إلا بعد البلاغ، ودليل على الرسول من الله وكل الهدى ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ العذاب الشديد؛ لأن الإنذار به قاطع للعلة من حيث أنه معجز يتبين بإعجازه أنه كلام الله ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾ بهذا القرآن ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كذلك لأنه معجز يتبين بإعجازه أنه كلام الله أصدق القائلين، وهو مبطل لزعمهم أن الله يشاء منهم الشرك ويرضاه، وفيه الاحتجاج الكامل لإبطال شركهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ليتذكر أهل العقول ما نسوه مما يهم العقلاء من أمر دينهم وغفلوا عنه من معرفة ربهم وعبادته، فقوله تعالى ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ بيان لمقاصد قصدت بهذا القرآن وأنزله الله لأجلها لشدة حاجة الناس إليها فهو رحمة من الله وفضل على عباده وحجة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

والحمد لله رب العالمين


المجلس
الإسلامي


التيسير في التفسير
سورة الحجر


المجلس
الإسلامي

سورة الحجر

ترتيبها ١٥ — آياتها ٩٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ
كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

تفسير (سورة الحجر)

قال الشرفي: «مكية باتفاق القراء»

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓر﴾ ذكر كلام في هذه الأحرف التي في أوائل بعض السور في تفسير (سورة المص).

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ إذا كانت الإشارة إلى الأحرف فمعناه فيما أرى والله أعلم أنها أصل آيات الكتاب أوحاه الله إلى نبيه بحروفه ليس مجرد المعنى، أو أوحاه الله بالحروف التي تستعملها العرب في كلامها فليأت الكفار بمثله إن كانوا صادقين والله اعلم، وكذلك مرَّ تفسير الكتاب.

أما قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ فهو عطف صفة على صفة والموصوف واحد كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة في المزدحم

فالقرآن باعتبار أنه يقرأ ويتلى والكتاب باعتبار أنه يكتب ويحفظ بالكتابة.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بيِّن الدلالة واضح لا لبس فيه، فهو مفهوم للعرب الذين نزل بلسانهم، وبه تقوم الحجة عليهم في إعجازه وفي إنذاره، وتبشيره بالآخرة والعقاب والثواب.

﴿٢﴾ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ قال الراغب: «رُبَّ لاستقلال الشيء ولما يكون وقتاً بعد وقت». وقال في (لسان العرب): «رُبَّ وضعت للتقليل» انتهى.

﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا
وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾

﴿يَوَدُّ﴾ أي يحب ويتمنى في نفسه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالرسول والقرآن المبين الذي علموا أنه معجز يودون في بعض الحالات ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ لأنهم علموا أن الإسلام الحق ورأوا تتابع النصر للرسول ﷺ وإظهار الله لدينه، ولكن هذا خاطر يخطر ببال الواحد منهم ويمنعه حبُّ الدنيا والتعصب للآباء، وهذا التفسير قريب مما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وقد تركت نقله لأن فيه غلطاً من الناسخ، فأما في الآخرة فإنهم يتمنون أن يُرَدُّوا ويكونوا مؤمنين محسنين، وودهم لو كانوا مؤمنين كثير غير قليل.

﴿٣﴾ ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ مثل دعهم واتركهم ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ ولعل هذا قبل الأمر بقتال المشركين والمراد أن لا يتعب نفسه في مطالبتهم بالإسلام، وتكرار الاحتجاج والتفكير في وسيلة تحملهم على الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ يبين أنهم ليسوا بأهلٍ للنظر الصحيح وتدبر قول الناصح واستعمال العقول؛ لأن همهم الشهوات والأغراض الدنيوية، وليس همهم النظر لأنفسهم إذ قد جاءهم النذير، فهم في الأكل والشرب والإلتهاء بطول الأمل في الحياة وأغراضها واغترار بذلك حتى يموتوا ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ضلالهم وسوء تدبيرهم لأنفسهم حين يرون العذاب، أو فسوف يعلمون حين يرون العذاب العاجل.

(٤) ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ من القرى التي أهلكهم الله من قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ﴾ أي كتاب لأجلها ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ حده وقدر مدته أي أن الله لم يهلك قرية قبل أن يجعل لها أجلاً فيه تقام الحجة عليهم وينذرون بالعذاب ويوعظون ويمهلون عرضاً لهم على النظر في النذير وما جاء به من الآيات فكذلك هؤلاء المكذبون المعاندون لم نؤخر إهلاكهم إلا لأجلهم، لا لأنا نهملهم يكذبون بآيات الله ويحاربون دين الله ويعاندون الحق.

(٥) ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ ما تسبق أي أمة صغيرة أم كبيرة ضعيفة أم قوية ما تسبق أجلها المكتوب لها والأجل هنا موعد هلاكها، فهي لا تسبق إلى الهلاك قبله ونسبة السبق إليها؛ لأنها هي سببت له بأعمالها، ويحتمل ما تسبقه ما تفوته، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤] وعلى هذا فالمعنى: لا تنجو أمة عند إتيان أجلها ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ بأن يتأخر هلاكهم عن وقت أجلهم إلى وقتٍ بعده بقوة لهم أو حيلة أو أي وسيلة.

(٦) ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ نداء مؤكد بالتنبيه مناسب لدعواهم أنه مجنون، وقولهم: ﴿ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي القرآن تهكم بالرسول، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] تشابهت قلوبهم.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ دعوى مؤكد بـ(إنَّ) واللام وجعلها جملة اسمية وهي عناد واضح وجهل فاضح؛ لأنهم في كفرهم واستهزائهم متعرضون لأخذة العزيز المقتدر ومزدادون عذاباً في النار، وكلامهم واضح البطلان؛ لأنهم تكلموا به في أرجح الناس عقلاً وأكملهم حلماً، ونطقه بالحق والحكمة يبين كذبهم وعنادهم.

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿لَّوْ مَا﴾ بمعنى هلاّ ﴿تَأْتِينَا﴾ فهو حث على أن يأتيهم ﴿بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إن كان صادقاً في دعواه نزول القرءان عليه وكلامهم مجرد اقتراح بلا حجة؛ لأن صدقه لا يتوقف على أن يأتيهم بالملائكة إنما يتوقف العلم بصدقه على الإتيان بالحجة، وقد أتى بها ولكنهم جحدوا الحق الواضح.

﴿٨﴾ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بأمر الله، قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم:٦٤] وأمر الله لا يكون إلا بما فيه الحكمة، ولم يكن من الحكمة إنزالهم لمجرد اقتراح الكفار الذين ليس لهم حق في نزولهم؛ لأنها تكفيهم الآيات الدالة على أنه صادق ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ لو نزلت الملائكة لما أنظرهم الله بل لعاجلهم بالعذاب.

﴿٩﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ إن الله بعظمته وجلاله وحكمته ورحمته أنزل ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ على محمد، فهو دليل على أن محمداً من الصادقين، وأنه غير مجنون لأن الله الحكيم أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فهو باق لأنه حجة الله على عباده تولى سبحانه وتعالى حفظه ليكون نذيراً للأولين والآخرين ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى﴾ [البقرة:١٨٥] ولأن الله حفظه فلا يزيد ولا ينقص ولا تبديل لشيء منه ولا تحريف.

ولم يتمكن أعداء الإسلام من تغيير شيء منه بحيث يخفى على المسلمين ويبقى فيه؛ ولذلك لما كتب اليهود (ومن يبتغ الإسلام ديناً) افتضحوا بسرعة

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ

وأزيل ما كتبوه وأظهر للمطلعين عليه كذبهم، وكيف لا وهو مرجع المسلمين وإمامهم وأساس دينهم وبرهانهم.

ألا ترى أن الكعبة لو نقلت من مكانها إلى مكان آخر أو بدلت ببيت آخر ما خفي ذلك على المسلمين ولسارعوا إلى إبطاله وبيان الحق فكذلك القرآن ولم يأت أهل الباطل لتغييره بأي وسيلة، وإنما لجئوا إلى الروايات المكذوبة واتبعها أهل الجهل وتركوا القرآن فضلوا، ولو اعتصموا بحبل الله وتمسكوا بالكتاب ما ضلوا.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الشيع: جمع شيعة.

قال الشرفي: «والشيعة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب واحد» انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «والشيعة: من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه» انتهى. وقوله: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي من مضى من الأمم.

﴿١١﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ أي يأتي الشيع ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما استهزأ الذين قالوا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام وهذا يفيد: أن الشيع كذبوا بالآيات النازلة على رسلهم ولم يؤمنوا بهم بل استهزءوا بهم وكذبوهم.

﴿١٢﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ ندخله أي ندخل الذكر الذي هو القرآن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين قابلوه بالإجرام والعناد فكما أرسلنا ﴿فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ لإقامة الحجة عليهم وكذبوا رسلهم أنزلنا القرآن ونسلكه في قلوب المجرمين لتقوم به الحجة عليهم بمعرفة قلوبهم له.

وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿١٣﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نسلكه في قلوب المجرمين حال كونهم لا يؤمنون لأن كونهم لا يؤمنون به لا يمنع إقامة الحجة عليهم، كما قال تعالى في (سورة الزخرف): ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ [آية:٥-٨].

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: معنى ﴿نَسْلُكُهُ﴾ فهو ندخله ونثبته في قلوبهم حتى يوقنوا به ـ وتثبيته له في قلوبهم فهو الحجة النيرة البالغة نزلها مع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يثبت بها الحق عليهم وتشهد عقولهم أنه حق، فإذا كابروا بعد إثبات الحق نزل بهم العذاب، وذلك قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

وأما قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهو منهاجهم وسبيلهم، والمعنى الذي هلكوا به فهو التكذيب بآيات الله» انتهى.

وقوله: (فهو) لعل الأصل (وهو) التكذيب بآيات الله يعني أنه سنة الأولين، والأرجح: أن سنة الأولين سنة الله في الأولين؛ لأنه تعالى قد ذكر استهزاءهم برسلهم ولم يذكر هلاكهم، ولو كان المراد بسنتهم طريقتهم في التكذيب لكفى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وإذا كان المراد بسنة الأولين سنة الله فيهم كانت فيه فائدة جديدة، وهذا المعنى حكاه الشرفي عن (البرهان) أحد احتمالين: الأول: هذا، والثاني: «لا يؤمنون برسلهم» انتهى.

وعلى كون سنة الأولين إهلاكهم قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة، تكون هذه الآيات مثل الآيات من (سورة الزخرف) ففيها تسلية لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتخويف للمكذبين به.

(١٤) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي أنهم معاندون مستمرون فلو فتح الله باباً من السماء فوقهم يقابل جهتهم ومكانهم ليصعدوا فيه ﴿فَظَلُّواْ﴾ الظلول في النهار فهم فيه يصعدون في ضياء النهار حين يرون السماء وآياتها التي لم يكونوا يرونها من الأرض، و(العروج): الصعود إلى جهة فوق.

(١٥) ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي لجحدوا طلوعهم في باب السماء ونفوا الرؤية له، وقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ وخيِّل لها ما يخيَّل للسكران.

قال في (الصحاح): «والمُسكَّر: المخمور» انتهى.

هذا المعنى هو المناسب للسياق، وقد حكى الشرفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم عليه السلام أنه قال: «أراد ـ عزّ وجل ـ بهذا القول أنهم كابروا عقولهم، فهم لا يوقنون حتى لو أطلعهم إلى السماء لقالوا: ما طلعنا، ولكن سكرنا حتى عميت من السكر أبصارُنا، ولكن قد خدعنا وسحرنا حتى أعمينا وسكرنا» انتهى.

وتفسير السكر: بأنه أدى إلى تخيل غير الواقع أولى من تفسيره بأنه أدى إلى عمى البصر ونفى الرؤية بالكلية، وهو المناسب لقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ فإن السحر يؤدي إلى تخيل خلاف الواقع، قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦] وكذلك السكر.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

قال الشاعر يصف السكر:

كأن الديك ديك بني نمير أمير المؤمنين على السرير

﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ ﴿بُرُوجًا﴾ منازل الشمس والقمر، وفيها دلالة على الخالق القادر العالم؛ لأن الشمس تنزل فيها بتوقيت وتحديد محكم لا يتغير كما تتغير الساعة المصنوعة بل هو باق على إحكامه ونظامه لفصول السنة على طول الزمان، تنزل الشمس في البروج فتقطع كل برج في شهر، وتقطع البروج الإثني عشر في سنة، والقمر يقطعها في شهر.

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي وزينا السماء للناظرين إليها فهم إذا نظروا إلى السماء فوقهم رأوا زينتها التي هي الكواكب، وفي هذا دليل على قدرة الله وعلمه؛ لأن صنع الكواكب فيه آيات منها كثرتها وكونها مشرقة وكونها مسخرة في سيرها على نظام محدود ولا تتصادم ولا تتغير أشكالها التي بها تعرف وتسمى بأسمائها حتى تعرف بها الأوقات كما تعرف بالساعة المصنوعة ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿١٧﴾ ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي وحفظنا السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ يرجم بالكواكب إذا طلع لاستماع ما تقول الملائكة ليبلغه إلى الكاهن ليدعي علم الغيب ويعتقد فيه ذلك فحفظ الله السماء منهم برجمهم بالشهب.

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ
﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا

﴿١٨﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ الإستراق: الأخذ بخفيه لما يخطفه الشيطان، وهذا بتمكين الله لهم ولو شاء ما غفل الحرس عنهم لحظة واحدة، وفي آية: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠] فهي خطفة يخطفها بسرعة فيطرده الشهاب وهو شعلة من نار.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ يراه الناس في الليل حين ينزل بسرعة، ولعل الكواكب لا تزال مشتعلة كالشمس فتؤخذ الشعلة منها من نارها أو هي تنقدح وتؤخذ منها بالقدح والله أعلم، وفي نزول الشهاب آية تدل على فاعل الرمي بها من فوق إلى أسفل، ولولا ذلك لكان من شأنها أن تصعد كما نرى النار تصعد، ونسب الإستراق إلى السمع، لأن غرض الشيطان سمع كلام الملائكة، وحرس السماء تمنع الشياطين من دخولها ومن الحصول بحيث يسمعون الملائكة، لكن يسترق الشيطان السمع خلسة فينتبهون لَه ويرمونه بالشهاب بعد أن قد خطف الخطفة.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ أوسعنا ساحتها وأطولنا مسافاتها وكأنه تشبيه بمد البساط وفرشه تعبيراً عن سهولة ذلك في قدرته، أي جَعلها عظيمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ والرواسي: هي الجبال الراسيات كأنه تعالى ألقاها في الأرض إلقاء؛ لأنها متخللة للأرض راسبة أسافلها في الأرض، وإلقاء الشيء طرحه بلا إمساك لَه حتى يقع، فقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ تمثيل بطرحها مع ثقلها بحيث ترسخ في الأرض.

عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ

وقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي أنبتنا في الأرض من كل زوج كريم بمقدار محدود، فذكر سبحانه دلائل قدرته وعلمه بخلق السماء وبالبروج وتزيينها بالكواكب وبخلق الأرض ومدّها وإلقاء الجبال الرواسي فيها وإنبات نباتها الذي هو نعمة للإنسان وغيره وجعله بمقادير محدودة في علمه وحكمته.

﴿٣٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ ﴿مَعَـٰيِشَ﴾ ما به تعيشون وتبقون في الحياة حتى تموتوا أو تقتلوا، وذلك الطعام والشراب واللباس والفراش والمساكن والهواء الذي يحيى فيه الإنسان بالتنفس والأدوية وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ جعلنا لكم في الأرض من لستم له برازقين والأقرب أنهم الحفظة فهم يحفظوننا ولا نرزقهم، وقد فسر بالخدم من العبيد والأولاد، ويشكل عليه قوله تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨] فالإنفاق عليهم رزق في اللغة ونفيه مجاز.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لما ذكر سبحانه المعايش في الأرض وهي مقدرة يبتلى فيها الإنسان بالسعي وبالإقلال في بعض الحالات بيّن تعالى أن عنده خزائنها فلم يقدّرها لقلتها في خزائنه إنما قدرها لحكمة في التقدير، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧] فقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ وهذا عام لكل شيء من مخلوقاته تعالى فهو في خزائنه لا ينفد، والراجح أنه تمثيل وأن المراد أن في قدرته الزيادة على ما خلق بلا حد بدون أي مشقة حتى كأنه موجود ينزّله متى شاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي بتقدير أو مقدار معلوم على ما تقتضيه الحكمة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى:٢٧].

﴿٢٢﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ تثير التراب فيبلغ الجو فيصير سحابا يتولد فيه الماء الذي ينزله الله من السماء، أي من الجو الذي هو في جهة فوق، قال في (شرح المعلقات السبع) في شرح قول زهير يحذر من الحرب:

فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتَلقح كِشافاً ثم تُنتَج فتُتْئم

اللقح، واللقاح: حمل الولد، ثم قال (الكشاف): «أن تلقح النعجة في السنة مرتين» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «يقال: لقِحت الناقة، تَلْقح لقحا ولَقَاحاً، وكذلك الشجرة، وألقح الفحل الناقة، والريح السحاب، قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي ذوات لَقاح وألقح فلانٌ النخلَ ولقّحها» انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): «ألقحَ الفحلُ الناقة، والريحِ السحاب، ورياح لواقح، ولا يقال: مَلاقح وهو من النوادر، وقد قيل: الأصل فيه ملقحة ولكنها لا تُلقح إلا وهي في نفسها لاقح، كأن الرياح لقحت بخير فإذا أنشأتِ السحابَ وفيها خير وصل ذلك [الخير] إليه» انتهى.

قلت: هذا تفسير لـ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جيد لا تكلُّفَ فيه، والريح اللاقح بالخير تقابل الريح العقيم، وقوله تعالى ﴿لَوَٰقِحَ﴾ مطلق يصلح تفسيره بكل ما فيها من الخير أصل المطر ولقاح الشجر أوهما وغيرهما.

نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ
عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ

وقوله تعالى: ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ يبين نعمة المطر المهمة فهو عذب يشرب منه الناس وأنعامهم وأشجارهم ومراعيهم ففيه يعيشون من حيث أن شرب الماء ضروري للإنسان، ومن حيث أن الماء ينبت الزرع وغيره مما فيه طعام الإنسان الضروري أيضا للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ إما معناه: أن الله أنزله من خزائنه وما لكم خزائن تنزلوه منها متى شئتم فالنفي متوجه إلى ما قبل إنزال المطر، وإمّا ما أنتم له بخازنين بعد نزوله لأن الله هو الذي يخزنه لكم في بطن الأرض ويخرجه لكم ينابيع من الآبار وغيره، وهو الذي هيأ لكم آلات خزنه في الخزانات سواء منها ما بني كالسدود أو حفر في الأرض وجعل له ما يحفظ فيه الماء من الإسمنت وغيره، فهو الذي خلق المواد لحفظ الماء وهي الأصل في حفظه.

والأقرب عندي الوجه الأول لأن النفي في الثاني مجاز؛ لأنه في اللغة العربية ينسب إلى صاحب الخزان حقيقة إذا جعل الماء فيه ليدخره وهذه الآيات المذكورة قد أفادت دلائل تدل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله على عباده من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ فهي تدل على أن الله تعالى قادر على البعث والنشأة الآخرة وما فيها.

﴿٢٣﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ وهذه من دلائل قدرته تعالى على الحياة الآخرة أيضا، وقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ أي لما خلقنا من السموات والأرض وغيرهما أي أن الناس سيهلكون ويبقى الله مالك العالم كله، فهو المالك للعالمين المتصرف فيهم كيف شاء لا شريك له.

خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ
مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ ﴿مِنكُمۡ﴾ خطاب للأحياء فالمستقدمون منهم السابقون، والمستأخرون التابعون، والسين تناسب حمله على التقدم الإختياري والتأخر الاختياري كأن المستقدم طلب التقدم والمستأخر طلب التأخر، وهو صالح لكل متقدم في أي أمر اختياري، وكل متأخر في أي أمر اختياري، ولكن يناسب السياق المتقدم في العمل الصالح، والمتأخر فيه ليشير إلى أنه تعالى لا يضيع عمل متقدم ولا متأخر؛ ولذلك فهو يحشرهم ويجزي كلاً بقدر عمله.

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ ﴿هُوَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ وحده لايشاركه شركاء المشركين ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ فمن حكمته أن يحشرهم: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١] ولعلمه بالمحسن والمسيء وعلمه كيف يعيدهم وعلمه بالحكمة في جزائهم وعلمه بمقادير ما يستحقون من الجزاء وغير ذلك.

والضمير في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ للناس كلهم، وبهذا تم الاحتجاج على قدرته تعالى على البعث وتقرير أنه سيكون، وبعد هذا قصة خلق آدم ومعصية إبليس ووعيد من اتبعه بجهنم وهي أيضاً من دلائل الآخرة؛ لأن الله تعالى لا يترك إبليس ليغوي الناس وهو لا يجازيه ولا يجازي من اتبعه؛ لأنه حكيم فلا بد من الجزاء كما قرره تعالى في آخر القصة.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي بدأنا خلق الإنسان من طين، فالإنسان في الجملة خلق من طين؛

لأنه أصله كله والصلصال قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «فالصلصال: اليابس الذي لم تصبه نار، فإذا نُقِر صَلّ أي صوّت والـ﴿حَمَإٍ﴾ الطين الأسود المتغير» انتهى.

ويدل على صحة ما فسر به الصلصال قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤] فأصل الإنسان طين قد يبس، وهذا الطين من حمإ، والحمأ يكون في أسفل الماء يتغير لطول مكثه في الماء، ولعل سَنّه إجالته من جهة إلى جهة كأنه صب من جهة إلى جهة ليصير لازباً متيناً صالحاً لبناء جسد آدم منه كما يسن الحديد بإمراره على المسن، أوصبه بإجالته وهو رقيق من جهة إلى جهة.

قال في (شرح الشيخ محمد عبده) على قول الإمام علي عليه السلام في (صفة خلق الإنسان): «تربة سنها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلّة حتى لزبت» قال في شرحه: «سنّ الماء: صبُّه، والمراد صبّ عليها أو سنّها هنا بمعنى ملّسها، كما قال:

ثم خاصرتها إلى القبّة الخضراء تمشي في مَرمَرٍ مسنون»

انتهى.

والراجح: أن علياً عليه السلام أراد سنّها، أي التربة أسالها بالماء من بين الحصى ونحوه، وذلك أن الماء امتزج بها فسالت معه خالصة من الحصى ونحوه، ثم صفا الماء برسوب التراب من بينه في أسفله وصار حمأً، وهذا هو المناسب لترتيب الكلام.

فأما تفسيره: بالمتغير المنتن، فلعله تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي تفسير الحمأ المسنون لا المسنون وحده، فظن بعض المفسرين أنه تفسير المسنون وحده، وأنا أستبعده؛ لأن المسنون (اسم مفعول) والمتغير المنتن (اسم فاعل) فكان مظنة أن يقال: متسنن أو متسنّه، أي متغير بمر السنين تغير ونتن بمرور السنين عليه.

فالحاصل: أن الراجح: أنه مسنون بمعنى ممتَّن بسَنّه وإجالته من جانب إلى جانب، كما قال الإمام علي عليه السلام: «ولاطها بالبلَّة حتى لزبت» وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات:١١] في لَوط الجدار [أي تليوسه] بالإسمنت ـ والله أعلم.

فأما فائدة قوله تعالى: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ فعلى الوجه الأول: ظاهر لأنه يصير متيناً بإجالته، وعلى الثاني تعبير عن ضعفه بكونه سائلاً لم يكن يستمسك قبل العمل فيه، وأما على ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام ففائدته: بيان أنه طين خالص لا يشوبه حصى ولا غيره، ويحتمل: أنه كان يجال الحمأ وهو رقيق حتى يصير متيناً، ثم يصب في مكان نظيف لا يعلق به شيء منه، فيجعل صورة إنسان يحفظ مكانه عن أن يسيل بحيث تتغير الصورة، فإذا صلب صب الحمأ عليه مرة أخرى حتى صار ذا حجم كامل مجوف، ثم ترك حتى صار صلصالاً قوياً يرنّ رنيناً إذا نقر وأعد لنفخ الروح بالتسوية المناسبة ثم نفخ فيه الروح ـ والله أعلم.

(٢٧) ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ الجانّ: مقابل الإنسان اسم للجن إلا أن الفارق أن الجن اسم جمع والجان مفرد كالإنسان، ولذلك قال: ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ بالإفراد للضمير، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل خلق الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ هي نار شديدة الحر يكون منها سموم حر شديد في الهواء المجاور لها يدخل في المسام للطافته، وذكروا أن ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ هو الريح الحارة وهو يفيد: حر الهواء الحار أعم من أن يكون ريحاً أولا؛ لأن السبب شدة حر النار بل حر الهواء الساكن أشد من حر الريح؛ لأن الساكن أطول مجاورة للنار الشديدة الحر، والنار المذكورة في الآية هي اللهب، كما قال تعالى: ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن:١٥].

مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن

﴿٢٨﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أخبر الله تعالى الملائكة بأنه سيخلق إنساناً من الأصل المذكور، قال الراغب في (مفرداته): «وعبّر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر..» إلخ.

﴿٢٩﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ جعلته سوياً صالحاً لنفخ الروح فيه وبقائه حياً، ولعل معنى ذلك تصوير القلب والدماغ وسائر ما يعيش به كالعروق والدم والعصب ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ جعلت فيه الروح، والتعبير بالنفخ دلالة على سهولة جعله كأنه مجرد نفخ، أو أن نفخه بسطه ونشره في جسد آدم بعد بلوغه القلب، كما تنفخ النار لتنتشر في الوقود ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ وإضافة الروح إلى الله لشرفه من حيث يحصل به العقل والحواس، ويحصل فيه العلم والقدرة والإرادة وقدرة الكلام وآلة الكمال؛ ولأن الله تعالى هو المالك للروح المعطى له وإذا شاء أخذه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟﴾ (الفاء) رابطة جواب (إذا) وقوله: (قعوا) أمر من الوقوع في المكان بعد الطيران أو السير، ويقال: وقع إذا سقط فوقع على الأرض، وللوقوع معنى الحصول في غير هذا السياق.

وقوله تعالى ﴿سَٰجِدِينَ﴾ خاضعين تكريماً لآدم عليه السلام من حيث هو آية الله بكمال خلقه وعلمه؛ ولذلك أنِف إبليس نعوذ بالله منه، وقال: ﴿هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢] وهو غير سجود العبادة لآدم بل هو سجود تكريم لآدم وطاعة لله تعالى، ومن حيث هو طاعة لله تعالى هو عبادة لله، وقد مر كلام في السجود ليوسف عليه السلام.

يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ
﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾

﴿٣٠﴾ ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ أي سجدوا لآدم لعلمهم أن الله حكيم وأن ذلك حق وصواب لأمر الحكيم به.

﴿٣١﴾ ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿أَبَىٰٓ﴾ امتنع بشدة، قال الراغب: «الإباء: شدة الامتناع» انتهى.

ولشدة امتناعه من السجود امتنع وأنف من أن يكون مع الساجدين، وذلك كان أهون عليه مما لو كان مأموراً بالسجود فسجد وحده، بل كأنه خطّأ الملائكة في سجودهم لآدم، ولذلك أبى أن يكون معهم سواء تخطئة عقلية يزعمها أو تخطئة نفسية، فالآية تبين ما في نفسه من الإباء والأنفة من السجود لآدم والرفض له.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ أي قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ ما شأنك وما حالك في أن لا تكون مع الساجدين أي ما منعك من أن تكون معهم، وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حال، أي مالك في حال كونك لست معهم وهو سؤال يستثير كامنه المانع من السجود.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ ليس ذلك يليق بشأني أي أني أكبر من أن أسجد له وأرفعُ قدراً، وعلق ذلك على كون آدم بشراً من صلصال من حمإ مسنون، فنظر إلى أصل آدم وتناسى أنه قد شرف بخلقه ونفخ الروح فيه، وما صار له من العلم وأنه بذلك قد صار خلقاً آخر، فقد صرح باستكباره ومعصيته لربه واعتراضه على حكمه.

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾
قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ

﴿٣٤﴾ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أخرج منها فهي مسجد الملائكة: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣] والراجح: أنه كان في السماء فطرد منها ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ترجم بالشهب كلما حاولت البقاء أو الرجوع فيها.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ اللعنة هنا: الطرد من الرحمة بسلب التوفيق للتوبة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨] فهو يبقى في كبره وإصراره إلى يوم الدين يوم الجزاء الذي هو يوم حساب ولا عمل، فلا تقبل فيه توبة ولا تنال رجعة إلى التكليف بالتوبة ولا إنظار للتوبة والعمل.

والحاصل: أنه يوم الدين لا يكون إلا للدين الذي هو الجزاء، ومعنى ذلك: أنه يصير في يوم الدين وهو ما زال في معصيته مستحقاً لجزائها الأوفى، وقد مر بيان: أن إبليس قد كان صار من الملائكة، وإن كان أصله من الجن وأنه لا تعارض بين ذلك.

﴿٣٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾ تفريع على اللعنة إلى يوم الدين، فيترجح به قول القاسم بن علي العياني عليه السلام: إنه طلب الإنظار بمعنى تأخير العذاب عنه إلى يوم الدين.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام القاسم بن علي العياني عليه السلام: وإنما سأل إبليس بالنظرة بالعذاب الذي علم أنه قد استحقه فأنظره الله جل اسمه إلى يوم البعث ولم يكن استنظارُ اللعين من موت؛ لأن الجن معمرون خلقهم جميعاً ويميتهم إذا شاء جميعاً» انتهى.

يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿قَالَ﴾ الله لإبليس: ﴿فَإِنَّكَ﴾ تفريع على سؤال لا إجابة له إلى ما طلب بسبب دعائه ولكن تفريع لإخباره بأنه ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وفي (سورة الأعراف): ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [آية:١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي أنه يوم مؤجل يكون في وقت معين في علمه تعالى لا يتأخر عنه وليس مؤجلاً بدون حد معين ولذلك فأجله تنقصه الأيام والليالي بمرورها، كما قال طرفة:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وما تنقصِ الأيام والدهر ينفدِ

وقد قال بعض المفسرين إن المراد بالوقت المعلوم وقت ظهور الحق في الأرض وامتلائها عدلاً كما ملئت جوراً، فهو عنده في ذلك الوقت قد انتهى إنظاره وأطاع الناس كلهم، وهذا عندي بعيدٌ؛ لأن الظاهر أن اليهودية والنصرانية باقيتان إلى يوم القيامة، لقول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة:٦٤] وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة:١٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧] ولا موجب للتأويل؛ لأن الظاهر من العدل العدل بين العباد، كما أن الظاهر من الجور الجور بينهم، مع أن الظاهر في الحديث من الضمير في «يملأها عدلاً» غير محقق؛ لاحتمال أن المراد بلاد الإسلام أو بلاد العرب أو المسكونة في وقت الرسول ﷺ ولو سلم أنها الأرض كلها، فظهور الحق بغلبة أهله وقهر أعدائه، وتسليم أهل الكتاب للجزية، وحكم الإمام بينهم بما أنزل الله ـ والله أعلم.

وعلى هذا: فإنظار إبليس إن كان تأخير عذابه فإلى يوم القيامة، وإن كان تأخير موته فاليوم المعلوم يوم هلاك العالم أول القيامة أو بعده قبل إحياء الموتى - والله أعلم.

(٣٦) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ إبليس يا ﴿رَبِّ﴾ بسبب أن ﴿أَغْوَيْتَنِى﴾ أقسم ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ في قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِى﴾ احتمال: أنه يعني أن الله أغواه لأنه كلفه السجود وهو يعلم أنه لا يسجد فكأنه يقول حملتني على الغواية حين أمرتني بما لا أستطيع لأن نفسي تأباه ولا تطاوعني عليه فهو قريب من المستحيل وكذب عدو الله فهو لو عرف ربه وأذعن لحكمته وأذعن لربوبيته لسهل عليه الأمر ولكنه استكبر واعترض على حكمة الله فغوي هو، ولو كان أمرَه بما لا يستطيع لما استطاع الملائكة السجود لآدم.

فقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ..﴾ إلى آخره، كالوعيد بالانتقام من آدم وذريته؛ لأنهم بزعمه كانوا سبب غوايته أو كالوعيد بصرفهم عن عبادة الله التي خلقهم لها وعن شكرهم لنعمة الله الذي يريده الله منهم كأنه يقول: بما أغويتني لأفسدن عليك عبادك، ولأصرفنهم عن عبادتك وشكرك، كأن عدو الله يتخيل أنه بذلك يفوّت على ربه حاجة فيهم، وذلك غاية المحادة لله والعناد الذي يستطيعه، وهو بذلك يحقق اللعنة عليه، واحتمال أنه يعني الإغواء بلعنته إلى يوم الدين أو بمجموع ذلك؛ لأن غوايته استمرت من حين استكبر عن السجود لآدم وعزم على الإباء منه، فهي غواية مستمرة دخل في أولها ويبقى فيها إلى يوم الدين.

وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الأولى حمله على ظاهره فإن بني آدم يقتتلون تارة على الأرض الحرث، وتارة على الأرض التي هي مرتع للأنعام، وتارة على المحاجر التي فيها حطب أو غيره، وذلك تابع لحبّهم للأراضي،

صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ

وهو تابع لتزيين الشيطان لهم، وقد حملت على الظاهر قول الله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٧٦] بل قد قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ..﴾ إلى قوله: ﴿.. وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤] فظهر: أن تفسيره بالظاهر أرجح.

وقوله: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي لأغوين آدم وذريته أجمعين.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثناهم لأنه يعرف عجزه عن إغوائهم، والمخلصون: هم الصالحون الثابتون في الإيمان والتوكل، بدليل قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩] أخلصهم الله بهدايته، فذهبت عنهم أسباب المعاصي التي هي العيوب الباطنة، كالحسد الشديد، والكبر، والبخل، وسائر العيوب التي يدخل بها الشيطان على الإنسان، فإبليس يقسم ليغوينهم إلا المخلصين الذين هم عباد الرحمن الذين عبّدوا أنفسهم لله وأذعنوا بالعبودية وعلى زعمه لا يكاد ينجو منه إلا المعصومون.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ ظن أن له سلطاناً عليهم كلهم إلا المخلصين، فردّ الله عليه أوّلاً بأن عجزه عن إغواء المخلصين طريقٌ حكم الله بها وكتبها على نفسه؛ لأنهم بصبرهم وإيمانهم وإحسانهم استحقوا من ربهم الألطاف، والتوفيق، وزيادة الهدى، فلا سبيل عليهم لإبليس، وثانياً ردّ الله عليه توهمه أن له سلطاناً على سائرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ أي كلهم المخلصين وغيرهم.

لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾
ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فالناس ثلاثة أقسام ذكر الله له قسمين: قسم المخلصين أفاده بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ وقسم المتبعين لإبليس من الغاوين فله سلطان عليهم، وطوى القسم الثالث الذين ليس لإبليس عليهم سلطان ولا هم من المخلصين، وهم الذين ﴿لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا خلاف قول إبليس؛ لأنه جعلهم قسمين: المخلصين، وغير المخلصين، فأقسم ليغوين غير المخلصين، وكأنه توهم أن له سلطاناً على غير المخلصين كلهم، وهو إن أغوى بعضهم فتابوا ليس له سلطان إلا على المتبعين له الذين لا يتوبون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١-٢٠٢] فجعل إخوان الشياطين هذا القسم الأخير.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ موعد الغاوين المتبعين لإبليس أي المكان الذي وعدهم الله أن يجعلهم فيه، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يشير إلى كثرتهم وتنوعهم في اتباع إبليس.

﴿٤٤﴾ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ لجهنم ﴿سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ ويجزئ الله أهلها أجزاء ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ بقسمة الله تعالى ويدخله من باب معين له وذلك يشعر باختلاف شدة العذاب في جهنم وأنه تابع لاختلاف الأبواب.

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في الجنة وهي البساتين التي أشجارها تغطي أرضها وعيون ماء يسقي الجنات فهي خضراء أبداً، ويجتمع جمال الجنات وجمال الماء الجاري تحتها، ويحتمل عيون ماء وغيره.

سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞
نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ

﴿٤٦﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ كأنه يقال: لهم ادخلوها، أي الجنات ﴿بِسَلَـٰمٍ﴾ مصحوبين بسلام، أي سالمين من كل شر وكل منغص و﴿ءَامِنِينَ﴾ لكل شر وكل منغص.

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ ﴿وَنَزَعْنَا﴾ حاصل معناه: أخرجنا وأذهبنا، وعبارة (النزع) تشعر بتمكن ما في صدورهم حين كانوا في الدنيا من غل. في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: من عداوة» انتهى، وهي: الحقد، والبغض الشديد الباعث على ضر المبغوض. وفي (الصحاح): «والغِل ـ بالكسر ـ الغِشّ والحقد ـ أيضاً ـ وقد غَلَّ صدره يغِل بالكسر غِلاً، إذا كان ذا غش أو ضِغْن وحقد» انتهى.

قلت: والراجح: هوا لمعنى الثاني؛ لأن المؤمنين لا يغشّون أما الحقد فيمكن أن يقع وهو يؤذي صاحبه فصدور أهل الجنة سليمة منه ليستريحوا منه، وهو يحتمل الحقد على الظلمة أهل النار. ﴿إِخْوَٰنًا﴾ متآلفين لا متنافرين ولا متقاطعين، ولعلها الأخوّة في الله ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ على سرر متكئين على سرر متقابلين يُواجه بعضهم بعضاً، وهذا مرغوب بين المتحابين ليرى بعضهم بعضاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يتقابلون الدهر جميعاً، وإنما هذا عند زيارتهم لإخوانهم ومجالستهم لأصحابهم» انتهى.

قلت: الراجح: أن لهم سرراً معدة للتقابل، فأما التحول عن السرر، فلا مانع منه لغرض آخر، ويمكن أن لهم سرراً للتقابل، وسرراً لغيره من أغراضهم، فالآية لا تمنع من ذلك؛ لأن سرراً نكرة لا تعم السرر، وكذلك يتحولون إذا مشوا أو ركبوا أو نحو ذلك.

﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ

﴿٤٨﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿نَصَبٌ﴾ أي تعب من العناء، وهذا بخلاف جنات الدنيا فأهلها قد يصيبهم تعب من العمل فيها لإثارة الأرض مثلاً؛ لأنهم إذا لم يعملوا فيها فقد تضعف ويقل ثمرها وفي الأخير لا تثمر.

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ أبلغ من: لا يصيبهم فهي تنفي أدنى تعب يلحقهم ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي باقون فيها أبداً وهذا النفي مؤكد بـ(ما) و(الباء).

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أمر الله رسوله ﷺ أن ينبئ عباده بهذا النبإ العظيم، قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن..» الخ.

فتحصل: أن النبأ: هو الخبر المهم، ومنه قول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثمد ... وبات الخلي ولم ترقد

إلى قوله:

وذلك من نبأ جاءني ... وخُبِّرته عن بَني الأسود

وقوله تعالى: ﴿عِبَادِىٓ﴾ يعم الجن والإنس، والمراد أن يبلغهم أن الله تعالى يرحم أولياءه ويقبل التوبة عن عباده ليتوبوا ولا يقنط مَن قد أسرف في العصيان، وأن يبلغهم أن عذاب الله ﴿هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ ليتقوه وليعلموا أن رحمته لا تنافي عذابه؛ لأن رحمته لها أهل وعذابه له أهل وهم المجرمون الذين ماتوا مصرين.

أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا

﴿٥١﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أضيافه الذين هم الملائكة الذين قرب لهم العجل الحنيذ.

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ هنا اختصر الكلام، وقد مر في (سورة هود) تفصيل القصة، وأنه أجاب سلامهم، وأنه نكِرَهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى العجل، فيؤخذ من هذا أن الشيء قد لا يذكر وهو واقع فلا يدل عدم ذكره على عدمه، وقوله: ﴿وَجِلُونَ﴾ أي خائفون؛ لأنه لم يكن قد عرف أنهم ملائكة، وأنكر تركهم للأكل من ضيافته.

﴿٥٣﴾ ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ أي رسل من الله ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ﴾ يولد لك ﴿عَلِيمٍ﴾ يبلغ درجة العلم وهو غلام وعليم يفيد كثرة علمه؛ لأنَّ صيغته من المثال.

قال الشرفي في (المصابيح): «إنا نبشرك بغلام عليم عظيم العلم» انتهى، هو يفيد: أن إبراهيم عليه السلام يعيش حتى يبلغ ابنه أن يكون غلاماً، قال الراغب في (المفردات): «الغلام: الطارّ الشارب» انتهى، يعني الذي قد نبت شاربه.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ سؤال عن تبشيرهم له بغلام فهل هذه البشارة على ما هي عليه من تبشيره مع كبره؟ أو هم يبشرونه بالتحول عن هذه الحال التي جرت عادة الإنسان أن لا يلد وقد صار فيها ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟ مع تبشيري بالغلام، أتبشروني برجوع القوة؟ أم بماذا تبشروني حتى أصلح لأن يكون لي غلام؟

ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ
قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا

فحاصل سؤاله عليه السلام عن البشرى: أهي على حاله هذه مجردة؟ أم يضاف إليها بشارة أخرى تصيره صالحاً لأن يكون منه ولد؟ ومعنى هذا: استبعاد أن يكون لَه ولد وهو على حالته هذه، فأجابوه: بدفع الاستبعاد، وهو قرينة أنهم أرادوا أنه يكون له ابن وهو على حالته هذه من الضعف بسبب الكبر.

﴿٥٥﴾ ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ فهو الحق أنه يلد لك وأنت على هذه الحال رحمة من ربك، فلا تقنط من رحمته.

﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ فلا أقنط لأني قد عرفت الله وعلمت أنه على كل شيء قدير، وأنه الرحيم ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون عن طريق الحق.

﴿٥٧﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وما مهمتكم التي أرسلتم بها.

قال الراغب في تفسيره (للمفردات): «والخطب: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب» انتهى.

قد عرف إبراهيم عليه السلام أنهم جاءوا لمهمة عظيمة لا لمجرد البشرى، فسألهم عن ذلك الأمر العظيم ما هو؟

﴿٥٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ قال الملائكة عليهم السلام: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يفعلون الجرائم لنعذبهم، أي إلى قوم لوط.

﴿٥٩﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ لوط وأهله.

ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ

﴿٦٠﴾ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿قَدَّرْنَآ﴾ قدر الله أي كتب وحكم عليها بالهلاك مع الهالكين والغابرين هنا بمعنى الماضين في الهلاك، والإتيان بضميره تعالى في ﴿قَدَّرْنَآ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه:٥٣] ولعل سببه أن كلام الملائكة عليهم السلام عن الله تعالى، فناسب أن يأتي الله بالضمير؛ لأن الحاكي هنا يحكي حكايتهم عنه.

وأما (صاحب الكشاف) فجعل الضمير في ﴿قَدَّرْنَآ﴾ للملائكة قال: فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا: قدَّر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا أو أمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم، وأنهم لا يتميزون عنه» انتهى.

والراجح عندي: هو الأول، وأن الأصل قدر الله إلا أن الله حكاه، فناسب أن يقول: ﴿قَدَّرْنَآ﴾ بضميره تعالى؛ لأن المثال الذي ذكره يبعد تطبيقه على الملائكة عليهم السلام؛ لأن شأنهم التعبد لله، لا رفع أنفسهم إلى درجة الوزراء له تعالى.

﴿٦١-٦٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الملائكة المرسلون لتعذيب قوم لوط، قال لوط لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وكانوا في صورة بشر، ومعنى ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ضد المعروفين والإنكار نفار قريب من الوحشة.

﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ
وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود:٧٠] وهو قد يتفرع على عدم المعرفة، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩] فجعل انتفاء المعرفة سبباً للإنكار، أما لوط عليه السلام فلعل سبب إنكاره لهم أنه رأى في وجوههم علامة الغضب بسبب أنهم مرسلون لتعذيب قومه وعازمون عليه؛ ولعلهم ـ أيضاً ـ لم يأكلوا عنده كما لم يأكلوا عند إبراهيم عليه السلام.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ فسبب الإنكار أنا أرسلنا لهلاك قومك الذي ﴿كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون وجئناك به لنبشرك به ونعدك له بإخراجك وأهلك من بينهم.

﴿٦٤﴾ ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ بالحق إما تعذيبهم أي أنه الحق من الله تعالى؛ لأنه حكم به عليهم وإتيانه به إتيانه مصحوبين به أو إتيانه بخبره ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ فيما نقول لك وفي غيره.

﴿٦٥﴾ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال في (الصحاح): «والقِطع ـ بالكسر ـ ظلمة آخر الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قال الأخفش: بسواد من الليل، قال الشاعر:

افتحي الباب وانظري في النجوم　　　كم علينا من قطع ليل بهيم»

انتهى. قلت: الأول هو الراجح، فهو قطعة باقية من الليل، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤].

إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ

﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أي قدّمهم أمامك في سيركم، وسر بعدهم قريباً منهم لا تفارقهم ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ لعله ليُسرعوا في السير إن كانوا مشاة. وقال الشرفي في (المصابيح): «عن القاسم بن إبراهيم عليه السلام قال: وتأويل ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ لا يُعَرِّج منكم أحدكم تلبيثاً، وسيروا كلكم سيراً حثيثاً، وليس تأويل ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ﴾ ما يظن الغمر الميّت من الإلتفات في النظر إلى وراء الظهر أو إلى ما على الميامن والمياسر، ولكنه استحثاث واستعجال كما يقول الرجل المستحث المعجال إذا أبدر الرجل أحداً وأرسله فاستحثه واستعجله: لا تلتفت إلى شيء ولا تعرّج عليه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ أي انفذوا في سيركم، واذهبوا ﴿حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ فسوف تؤمرون أين تذهبون، وإلى أي جهة تتوجهون؛ لأن الملائكة تدلكم وتأمركم في سيركم.

﴿٦٦﴾ ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ أبلغناه أي أبلغنا لوطاً عليه السلام أن قومك هالكون كلهم في الصباح، فقوله ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كناية عن عموم العذاب لهم كلهم صغيرهم وكبيرهم فلا يبقى لهم دابر أي خالف يخلفهم بل هو ﴿مَقۡطُوعٞ﴾ بإهلاكه و﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح أي وقت الشروق كما يأتي إن شاء الله.

﴿٦٧﴾ ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ ﴿أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ قوم لوط ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ جاء أهل المدينة لوطاً يستبشرون بوجود الأضياف عنده، وما تمنيهم أنفسهم من غلبتهم لنبيهم على أضيافه، وذلك لسكرتهم في سفاهتهم كأنهم قد بلغوا حدّ الجنون.

ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ
إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن

﴿٦٨-٦٩﴾ ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ كأن هذا عند وصول الملائكة عنده بصورة آدميين قبل معرفته أنهم ملائكة؛ وذلك ليعظم أجره على ما ينال من الغم بسببهم ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ لا تفضحوني في أضيافي، وارعوا حرمتي ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ واتقوا عذاب ﴿ٱللَّهَ﴾ فاتركوا الجرائم، وتوبوا وآمنوا ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ لا تهينوني بإهانة أضيافي.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قوم لوط لنبيهم ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾ أي قد نهيناك سابقاً عن ضيافة أي أحد من العالمين فأنت لم تنته وأضفت هؤلاء.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ فداء لأضيافي ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ النكاح لهن، قال هذا وقد علم أنهم لا يقبلون بناته ليبين لهم إفراطهم في أذيته وشدة اهتمامه بدفعهم عن أضيافه ليرجعوا عن مطالبته بتسليم أضيافه.

﴿٧٢﴾ ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ قسم لتأكيد ما بعده لأنه مستبعد أن لا يؤثر فيهم ما قاله نبيهم، إما لخوف عقوبة عاجلة، وإما لمروءة، وإما لرحمة وعطف ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ إهمالهم لعقولهم وإصرارهم على جرائمهم كأنهم سكارى لا يفهمون ما يقال لهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يترددون لا يتخلصون من حيرتهم.

﴿٧٣﴾ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ إما صيحة ملك، وإما بمعنى العذاب المهلك أو الفزع، أخذتهم: أهلكتهم، وفي (الصحاح): «والصيحة: العذاب، وأصله من الأول» انتهى، أي من الصوت، وفي التعبير بالأخذ تحقير لهم.

سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي حين طلعت عليهم الشمس، قال الشرفي في (المصابيح): «﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في الشروق، وهو بزوغ الشمس» وفي (مفردات الراغب): «شرقت الشمس شروقاً: طلعت» انتهى.

﴿٧٤﴾ ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَا﴾ تفريع على الصيحة، فيظهر: أنها صيحة حقيقية أي صوت شديد رجفت منه أرضهم، وتساقطت رؤوس قريتهم في أسافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ أرسلناها عليهم كأنها مطر في غزارتها وسرعتها، وقوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يفيد أنهم خرجوا من البيوت عند الصيحة فأمطر الله عليهم الحجارة، وقوله ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ بيان لنوع الحجارة، ولعل معناه من مسجل بالخطوط، كقوله: ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود:٨٣].

وفي (مفردات الراغب): «والسجيل: حجر وطين مختلط، وأصله فيما قيل فارسي معرّب، والسجِلّ: قيل حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجِلاً، قال تعالى: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] أي كطيّه لما كتب فيه حفظاً له» انتهى.

وقوله: حجر وطين، صوابه: حجر أصله طين، كما قال تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣] قال الشرفي رحمه الله: «واعلم أن هذه الآية تدل على أنه تعالى عذّبهم بثلاثة أنواع من العذاب:

أحدها: الصيحة الهائلة المنكرة، *وثانيها*: أنه جعل عاليها سافلها، *وثالثها*: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل» انتهى.

وقد ذكرت فيما مضى أن الراجح عدم صحة الرواية في حمل سبع قرى إلى حول السماء وقلْبها؛ لأنه يفوت به وقوع الحجارة عليهم، والمذكور في القرآن قرية واحدة لا سبع، ولو كانت سبعاً لذكرت لما فيها من العبرة ولَمَا ذكرت واحدة وأخفيت ست.

(٧٥) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال في (الصحاح): «وقد توسمت فيه الخير: أي تفرست» انتهى. وقال في الفراسة: «والفراسة وهو يتفرس: أي يتثبت وينظر» انتهى.

فالتفرس: التعرف بالعلامات بالنظر فيها والتفكير؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ فالمتوسم يعرف بالآيات، وليس معنى التوسم علم الغيب بغير استدلال بما يدل على الأمر المغيب أي في إهلاك قوم لوط بما وقع عليهم آيات للناظرين الذين يعرفون بالنظر في الآيات ما تدل عليه، فقصة قوم لوط تدل على الخالق القادر العالم، وتدل على أنه لم يهمل عباده بل يرسل إليهم رسلاً، وأنه لم يهمل العصاة بل ينتقم.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي بقايا قرية قوم لوط للاصقة بسبيل أو في سبيل أي بطريق ﴿مُّقِيمٍ﴾ باق مسلوك لم يهجره الناس.

(٧٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ في جعل آثارهم بسبيل مقيم آية من حيث أنها على ممر المسافرين في الليل وفي الصباح تذكر المؤمنين، وتدل على أن الله يجعل لعباده العبر ليحذروا مثل ما نزل بمن قبلهم، وأنه تعالى جعلها بالسبيل ليراها الناس ويعتبروا.

(٧٨) ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ أرسل الله إليهم شعيباً، وكأنهم غير مدين أو بعض منهم ساكنون في غير قريتهم، قال في (الصحاح): «الأيك: الشجر الكثير الملتفّ، الواحدة: أيكة» انتهى.

فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ

ولعل محلتهم سميت (الأيكة)؛ لأنها كانت شجراً كثيراً ملتفّاً فصارت بلداً لهم وبقي اسمها، وقوله تعالى: ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ أي بتكذيب الرسل وغيره، وقصتهم في (سورة الشعراء).

﴿٧٩﴾ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ قوم لوط وأصحاب الأيكة أو آثارهما، قال الشرفي في (المصابيح): «وأما الهادي عليه السلام فقال: هما قريتان هلكتا ودمّرتا لما طغتا وعصتا، فكانتا على طريق قريش في الرحلتين، في رحلة الشتاء ورحلة الصيف، والإمام: فهو الطريق الواضح والأعلام التي يستدل بها على مسالكها ومياهها..» إلخ، ونحو هذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والراجح عندي ـ والله أعلم ـ: أن المعنى ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أي في كتاب مبين لا يُنسى منهم أحد ولا يضيع ليبعثوا يوم القيامة ويعذبوا في الآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس:١٢] وقول موسى صلى الله عليه: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] ولو كان الإمام هنا الطريق إحداهما في طريق الشتاء والأخرى في طريق الصيف لقيل: لبإمامين، مع أنه قد كفى في قوم لوط قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ فإعادة ذكرها مع قرب العهد بعيد، فكان يكفي أن يقول: وإنهم لبإمام، أو وإنها ـ أي الأيكة ـ لبإمام، والله أعلم.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿ٱلۡحِجۡرِ﴾ سد بني بالحجارة لحفظ الماء، ولعل أصحاب الحجر بَنَوه ليحفظ لهم ماء أو ماشية أو غير ذلك أو كانوا يمرون عليه إذا كان في الوادي ماء يجري.

مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهو بين الحجاز والشام على مرحلة من وادي القرى، روي أن آثارهم فيه وبيوتهم» انتهى المراد، وذكر الشرفي أن ﴿ٱلۡحِجۡرِ﴾: وادٍ كان يسكنه ثمود، ويناسب هذا قول الله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٩].

﴿٨١﴾ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أعطيناهم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ نِعَماً لأنها بها يهتدون فهي نعَم من الله آتاهم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩] ﴿فَكَانُواْ عَنۡهَا﴾ عن آيات الله ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ لا يتفكرون فيها ليهتدوا بها.

﴿٨٢﴾ ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ ينحتون الجبال، بحيث يجعلون لهم فيها تجاويف واسعة بيوتاً يسكنونها، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي آمنين في البيوت لقوّتها. قال الشرفي في (المصابيح): «﴿ءَامِنِينَ﴾ من تهدّمها، أو من نقب اللصوص، أو من حوادث الدهر، أو من عذاب الله يحسبون أنها تحميهم» انتهى.

قلت: قوله: أو من عذاب الله هو الأقرب؛ لأن قوم عاد قبلهم دمرتهم الريح، فكان ثمود يرون مساكنهم تحميهم من الريح إن جاءتهم كما جاءت عاداً.

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ الراجح: أنها صيحة ملك رجفت منها أماكنهم بشدة فائقة فأهلكتهم ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

﴿٨٤﴾ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فما دفع عنهم وكفاهم العذاب ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من أسباب القوة والسلامة كالبيوت في الجبال.

بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ

﴿٨٥﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة والصواب فلذلك أرسلنا الرسل مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الله ومبلغين عنه لأمره ونهيه وهداه كله من تعليمهم لعبادته وغيرها، فالمكذبون للرسل معارضون لهذا المبدأ الكريم.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ وفيها جزاء المكذبين الأوفى ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ اعرض عن قومك المكذبين لك الإعراض الجميل. قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ العفو عن المجرمين عفواً جميلاً حسناً، والصفح: هو العفو، قال الشاعر:

صفوح عن الإجرام حتى كأنه ... من العفو لم يعرف من الناس مجرما»

انتهى.

قلت: الراجح: أن ﴿ٱلصَّفْحَ﴾ هو الإعراض تكرماً، إما لعفو، وإما لحلم، وإما لغير ذلك، والدليل على تغاير العفو والصفح، قول الله تعالى ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة:١٠٩] وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣] ولعله عليه السلام أراد أن الصفح كناية عن العفو، كما قال الراغب: «الصفح: ترك التثريب وهو أبلغ من العفو» انتهى.

قال في (الكشاف): «فاصفح: أعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء» انتهى، وقال في (الصحاح): «وصفحتُ عن فلان إذا أعرضتَ عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحاً إذا أعرضتَ عنه وتركته» انتهى. و﴿ٱلْجَمِيلَ﴾: ما ليس معه شكاية.

ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ
عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ

﴿٨٦﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فلا يعجز عن الإتيان بالساعة التي فيها إثابة الرسول ﷺ على تبليغه وصبره وصفحه وعقاب الكفار على تكذيبه وسائر جرائمهم.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ برهاناً يدل على صدقك ونعمة عظمى ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ إما سبع آيات كما روي أنها فاتحة الكتاب، وإما سبع سور.

﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ الذي يثنى ويكرر لحكمة في ذلك وزيادة في البيان وإيقاظ للغافلين مثل ما في (سورة الرحمن) و(سورة المرسلات) وغيرهما ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ إما كل القرآن وإما الفاتحة أيضاً إن صحت الرواية.

﴿٨٨﴾ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ لا تنظر نظر تأمل وتحقق، كما هو شأن المعجب بالشيء المستحسن له؛ لأن النظرة قد تزرع الشهوة؛ ولأن زهرة الحياة الدنيا حقيرة فشأن الصالحين الإعراض عنها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا تأديب للناس والمخاطَب رسول الله ﷺ والمعنى سواه، وإنما هذا نهي من الله للعباد أن يمدوا أعيانهم طول الدهر وأنفسهم إلى متاع الناس وحطامهم ويكثروا و[يـ]شتغلوا بالتمني عن ذكر الله وسؤاله، ولعل الله لو رزقهم ذلك أن يكون سبب هلاكهم وسلماً إلى ذهابهم، والله أبصر بعباده وبما ينفعهم، وهو أولى بالخيرة لهم.

﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾
فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ

وأما قوله: ﴿أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فمعناه أصنافاً من الكفار، والزوج في اللغة الصّنف، والحاصل قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ نهي لَه عن الإلتفات إليهم وأن يحصل لهم في قلبه قدر ووزن ـ ثم قال ـ: ولا تحزن عليهم حيث لم يؤمنوا فيقوى بهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ تقليل لما عند الكفار من حاجات الدنيا وأغراضها من حيث التنبيه على أنه متاع لا يبقى، وأنه مع ذلك شاغل عما يبقى من الثواب.

وقوله: ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ يحتمل اعتبارهم أصنافاً بكون بعضهم تاجراً وبعضهم صاحب أنعام وبعضهم صاحب حرفة مفيدة لَه وبعضهم حارث، فمتاعهم قليل بالنظر إلى نعمة الدين والهدى بالقرآن وغيره وبالنظر إلى أنه فتنة لأهله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ يحتمل النهي عن الحزن بسبب هلاكهم ومصيرهم إلى عذاب الله، وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي تواضع لهم ولِنْ لهم.

﴿٨٩﴾ ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وأنذر الكفار مع إعراضك عما متعوا به، وقل للناس ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ بالعذاب الشديد ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ البيّن في إنذاره لتبليغه وتبيينه وإيضاحه بالحجة الدالة على صدقه.

﴿٩٠-٩١﴾ ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ * ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾
﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ أي أنذركم مثل ما أنزل الله ﴿عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ وفسّر

المقتسمين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ فهم من الكفار نزل بهم العذاب العاجل، ولعلهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ فأنذر الباقون مثل ما نزل بهم وكلهم من الكفار بالقرآن، فأما سبب تسمية المقتسمين ـ فالله أعلم.

والذي أفهم: أنه إذا كان المعنى: أنذركم كما أنزلنا على المقتسمين كما يرشد إليه كون السورة (مكية) فالذي أفهم: أن هذا الإقتسام كان جريمة هي سبب تعجيل العذاب عليهم، فإما أنهم اقتسموا القرآن فجعل كل منهم لقسمه تكذيباً بدعوى مثلاً جعل أحدهم قسمه سحراً، والآخر شعراً، والآخر تعلمه من بشر ونحو ذلك مما حكاه الله في القرآن من أقوال الكفار، وإما أنهم اقتسموا طرق مكة وجعلوا لكل طريق واحداً منهم يقف عليها ويحذر المارة من تصديق محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو غير ذلك مما كان معروفاً معهوداً عند نزول هذه الآية.

وحكى الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام: أنهم الذين اقتسموا بالأزلام وهو قريب إذا كان المقتسمون جعلوا ذلك تكذيباً للرسول وعناداً وصداً عنه، مثل أن يكونوا اقتسموا جزوراً بالأزلام وتصدق بها الذي غلب في القمار تصدق بها على الفقراء، ليدعي أن دينهم خير من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم».

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ ففيه تفاسير أقربها عندي وأوفقها للسياق أنهم جعلوه أعضاء موزعة بين سحر وبهتان وأساطير ، وأما قول بعضهم: إنهم جعلوه أعضاء، أي أجناساً مختلفة فجعلوا بعضه سحراً، وبعضه شعراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، فهو جيد إن صح أنهم فعلوا ذلك.

وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ

فأما قول الكفار: تارة (سحر) أي القرن جملة، وتارة (شعر) ونحو ذلك، فهو كلام مختلف فيه كله وليس تفريقاً للقرآن، بل كلامهم فيه هو المفترق ـ والله أعلم. ومعنى ﴿جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ادّعوا وقالوا فيه: هو (عضون) كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام:١٠٠].

﴿٩٢-٩٣﴾ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لنسألن الناس أجمعين، أو لنسألن هؤلاء الكفار الذين فيهم السياق، لنسألن الماضين منهم المهلكين والباقين، لنجزيهم بما عملوا في الدنيا.

﴿٩٤﴾ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أصل الصدع الشق وهو هنا بمعنى إبلاغ الكفار ما أرسل به ﷺ وإن شق عليهم وكرهوه امتثالاً لأمر الله الذي أمره أن يُبلغه، وكذلك ما يشق عليهم من توحيد الله وإخلاص العبادة له، فهو ﷺ مأمور بإخلاص العبادة والدعوة إلى قول لا إله إلا الله، ومأمور بتبليغ ما أرسل به ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تشتغل بجدالهم ولا تجالسهم ولكن بلغهم ما أمرت بتبليغه ثم ذرهم واحتج عليهم بآيات الله ثم اتركهم.

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قال في تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام لـ(غريب القرآن): «وهم سبعة نفر من قريش: الوليد بن المغيرة بن خالد المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، وأبو زمعة الأسود ابن المطلب، والأسود بن [عبد يغوث] الزهري، والحارث بن قيس السهمي وهو الحارث بن عيطَلَة وهي أمّه، وهبار بن الأسود الأسدي، وعبد يغوث بن وهب الزهري» انتهى.

صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾
وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾

وقيل: هم خمسة أهلكهم الله جميعاً قبل يوم بدر لاستهزائهم، كل منهم أصيب بمصيبة أهلكته، ذكر هذا الشرفي في (المصابيح) وتفصيل القصة في (حاشية الكشاف) تخريج أحاديثه.

﴿٩٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ فأهلكهم الله لجمعهم بين الشرك والاستهزاء إما بالرسول ﷺ وإما بما أرسل به أو بعضه وفي إهلاكهم تقوية لرسول الله ﷺ على الصدع بما أمر به، وقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أي حين يرون العذاب يوم القيامة.

﴿٩٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لأنهم يكذبون بما أنزل الله وبالرسول وباليوم الآخر وذلك منكر عظيم يضيق به صدره ﷺ أي يضيق بسببه لشدة الغم منه ومن مبالغتهم في التكذيب باستهزائهم.

﴿٩٨﴾ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ إما نزهه وبعِّده عن كل نقص تنزيهاً وتبعيداً مصحوباً بحمده، وإما سبحه بنفس الحمد فحمده تسبيح لَه؛ لأنه يدل عليه باللزوم.

قال الشرفي في (المصابيح): «أي قل: سبحان الله وبحمده» انتهى.

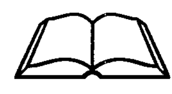
﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي الذين يكثرون السجود، ويتكرر منهم على الدوام، والسجود يكون في الصلاة، ويكون في غيرها كسجود الشكر.

﴿٩٩﴾ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ بالصلاة وبكل ما أمرت به فكله عبادة ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: الموت» انتهى.

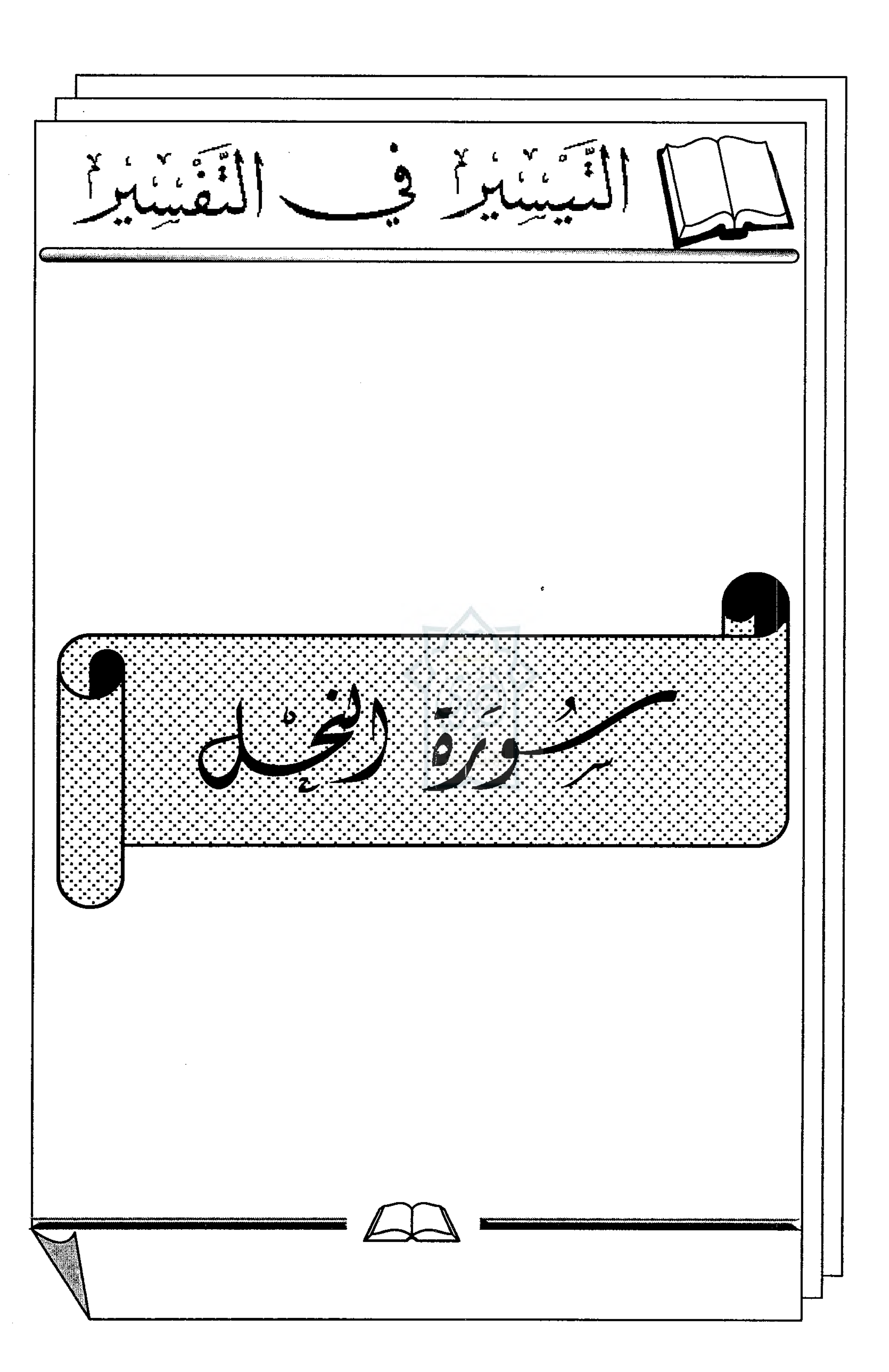
فالمعنى: اعبد ربك ما دمت حياً، وربط الأمر بالتسبيح وما بعده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ لأن ذلك من الصبر على ما يقولون؛ أو لأنه يعين على تحمل مشقة الرسالة، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥] أو بمعنى: قابِل ما يقولون بذكر ربك، وعبادتك له، اشتغالاً به عما يقولون، وإعراضاً عنهم، واشتغالاً بمهمتك ـ والله أعلم.

وبهذا تم تفسير (سورة الحجر) والحمد لله رب العالمين




المجلس
الإسلامي


التيسير في التفسير
سورة النحل



سورة النحل
ترتيبها ١٦ — آياتها ١٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا

تفسير (سورة النحل)

وأكثر مواضيعها يظهر بها أنها (مكية) وفيها آيات يظهر أنها (مدنية) وقيل: ((كلها مكية))

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَتَىٰٓ﴾ قرب حتى كأن قد أتى مثل قد قامت الصلاة و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ القيامة فهي الأمر العظيم الذي يأتي به الله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لأنه أمر عظيم قريب ليس لكم فيه إلا الجزاء الأوفى، وليس فيه مرغب للمجرمين فيستعجلوه من أجله ماذا يستعجل منه المجرمون وهو آتٍ لا محالة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ تكذيباً، كقولكم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزّه وارتفع شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فشركاؤهم عاجزون لا يستطيعون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، أما الله فسبحانه عن أن يقاس بهم، وتعالى عن أن يُقرَن بهم؛ لأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم فوعده بالقيامة حق وصدق.

﴿٢﴾ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ تشير هذه الآية إلى إثبات الرسالة وعلى القيامة وإلى التوحيد، فقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ تثبت رسالةَ الملائكة ينزلهم الله إلى الرسل من الناس ينزل الله إليهم الملائكة فنزلت ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بحياة القلوب وحياة الدنيا والدين ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ من وحيه بيان للروح، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾
وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ فهو الذي يختار للرسالة من الناس من يشاء وكلهم عباده يختار منهم من يشاء ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ تفسير للروح لأنه يتضمن الإنذار ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أي فاتقوني أي اتقوا عذابي فسبحانه وتعالى عما يشركون، فالله يهدي للحق ويدعو إلى دار السلام ويرسل الرسل وينذر ويجزي كل نفس بما تسعى وشركاؤهم لا يكون منهم شيء.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أي أعلِموا وأخبروا وبلّغوا أيها الرسل الناسَ أنه لا إله إلا أنا فاتقون، وفيه وجوه: إما أنَّ الإنذار هنا بمعنى الإخبار، كما قال (صاحب الكشاف).

وإما أنه إنذار حقيقي ليحذروا الشرك، ويعلموا أن الله يعذبهم عليه، ولا ينفعهم شركاؤهم بشفاعة ولا غيرها، فقوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ يبيِّن للمشركين أنهم على خطر، وإما أنه إنذار مضمن للأخبار؛ لأنه خبر بأنه لا إله إلا الله ليتقوه أي ليتقوا عذابه كما أمر، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ واتقاؤه: بعبادته التي هي طاعته فيما أمر وفيما نهى عنه، وإخلاص العبادة له وترك الشرك، وذلك المنجي من عذابه، فهو إنذار من حيث إفادته: أنه يعذبهم إن لم يتقوه.

﴿٣﴾ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ بالحكمة فليس عبثاً ولا لعباً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الدخان:٣٨-٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧].

فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ
لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ

وقوله: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فشركاؤهم لم تخلق شيئاً وهي أضعف من ذلك، فالله تعالى عنها بجلاله وقدرته وعلمه، فالمشركون بها الذين جعلوها أنداداً لله تعالى قد ضلوا ضلالاً بعيداً.

﴿٤﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي آية عظيمة تدل على قدرته وعلمه وعلى أنه قادر على إحيائه بعد الموت ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ مخاصم مجادل في قدرة الله تعالى على إحيائه بعد الموت وهو نفسه حجة عليه فناسب ذلك الإتيان بـ(إذا) التي للمفاجأة، لأنه لا يحتاج في معرفة قدرة الله على إعادته إلا أن يتذكر أنه خلقه من نطفة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٧-٧٨] فهو ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الخصومة لخالقه، فقد كفر نعمة الله عليه بخلقه، وكفر نعمة الله عليه بما جعل له من النعم في السماء والأرض.

﴿٥﴾ ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ آية ونعمة آية تدل على قدرته وعلمه ونعمة للإنسان ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالدفء: ما استدفئ به من أوبارها» انتهى.

وليس الدفء خاصاً بأصوافها وأوبارها وأشعارها فإن الحليب يحصل به نفع من البرد وكذلك اللحم والمرق، وقوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ﴾ يأتي في السورة هذه تفصيل لبعض منافعها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهذه آيات ونعم.

﴿٦﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ جمال في الرواح إذا أرجعوها من مراتعها لتبيت، فهي جمال لأهلها من حيث هي مال نافع

وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ

﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ [المؤمنون:٢١] ومنفعتها في حال الرواح أظهر لتوفر درّها وشبعها وريها وجمال في حال السرح حين تبرز ماشية إلى مراتعها.

﴿٧﴾ ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذا في الإبل يركبها الناس وتحمل لهم الأثقال من البضائع للتجارة وغيرها، وقوله تعالى: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ أي لولا الأنعام تحمل أثقالكم لما كنتم بالغيه بقوّتكم إلا بمشقة الأنفس ولم يكن من شأنكم أن تبلغوها ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: بمشقتها» انتهى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ولذلك يسَّر لكم ما يحمل أثقالكم فذلك دليل مع كونه نعمة على أنه رءوف رحيم ومع كونه دليلاً على قدرته تعالى وعلمه، والجمع بين الوصف بالرأفة والرحمة لعله لاختلاف مواقعهما.

قال في (لسان العرب): «والرأفة: أخص من الرحمة وأرق» انتهى، والمراد: أنه يفعل للناس ما يفعله الرءوف الرحيم، فهو يدل على نعمته على الإنسان بذلك.

﴿٨﴾ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾ عطف، أي وخلَق الخيلَ، وهي آية عظيمة ونفعها كبير في الجهاد ﴿وَٱلۡبِغَالَ﴾ وهي أقوى من الحمير، فهذه الثلاثة الأنواع خلقها ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ وهي نعمة عظيمة وتكريم للإنسان، وقوله تعالى: ﴿وَزِينَةٗ﴾

أي خلقها زينة وهي زينة لمالكها عند ركوبها وهي في حال قوتها وسلامتها من تشويه خلقها بالجوع والإهمال فإنها في حال قوتها ونشاطها جمال لصاحبها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قد كشف بعض المخلوقات التي لم تكن معلومة آلةٌ حديثة تكبّر الأشياء الصغيرة فيرى بها مخلوقات لم تكن معلومة، واكتشف الطب العصري أدوية وموادَ لم تكن معروفة فقدرته تعالى واسعة لخلق ما نعلم وما لا نعلم وعلمه كذلك فكذلك يعيد الإنسان بعد الموت وإن لم يكن يعلم.

(٩) ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: بيان الهدى» انتهى.

فالتقدير: وعلى الله بيان قصد السبيل، أي الطريق المستقيم الذي يوصل إلى السعادة الدائمة، والقصد: بيان الطريق القاصد بحيث يصل السائر فيه إلى المطلوب، ولذلك قابله بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ ويحتمل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ عليه إيجادَ قصد السبيل أي أن يجعل للإنسان سبيلاً يوصله إذا سار فيه إلى سعادته والفرق دقيق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي ومن السبيل جائر غير قاصد وهي الطرائق التي أحدثها أهل الباطل فما كل طريق قاصداً، وعلى العاقل أن يعرف القاصد ليختاره لنفسه وينجو من السير في الجائر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي هو قادر على ذلك لكنها اقتضت حكمته أن يمكن الإنسان ليختار لنفسه السبيل القاصد أو الجائر، هذا فأما تيسير الطرق في الأرض وجبالها فهو يهدي له البرَّ والفاجر ويسلكاه كلاهما، ولعل ذلك غير مراد في هذه الآية، ويأتي قوله تعالى: ﴿وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾
يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ

﴿١٠﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ هو المنعم عليكم بإنزال الماء من السماء ولولا إنزاله ما لحقتموه بعد وجوده في السحاب ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ لأنه عذب يروي معدّ للشرب والسقي، ومنه ينبت شجر من منافعه أنكم ﴿تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون إبلكم فيه وينبت منه المرعى للبقر والغنم.

﴿١١﴾ ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ﴾ أي بالماء المذكور ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ الذي يكون منه الحب الذي هو طعام الإنسان المهم ﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ الذي يثمر فيؤكل من ثمره ويعتصر منه زيت الزيتون الدهن الجيد والإدام.

﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ بأنواعها ﴿وَٱلْأَعْنَـٰبَ﴾ بأنواعها كل ذلك نعم من ربكم عليكم ودلائل على قدرته وعلمه ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المختلفة منها: المأكول فاكهة، ومنها فوائد أخر فيه كالجلجلان يعتصر منه السليط، ومنها المأكول: كالجلجلان، والعدس، ومنها أدوية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله الدالة عليه وعلى قدرته وعلمه وسعة فضله لعباده الدالة على أن الله ربَّهم المستحقُّ لأن يعبدوه ولا يشركوا به.

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟

﴿١٢﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال في (الصحاح): «كلَّفه عملاً بلا أجرة، ثم قال: والتسخير: التذليل» انتهى باختصار، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «التسخير: سياقة إلى الغرض المختص قهراً» انتهى.

ولعلَّه جمع الحقيقة، والمجاز: أي هو الذي يأتي لكم بالليل لتسكنوا فيه والنهار لتبغوا من فضله وذلَّلهما لهذا كل يجري في وقته لا يتخلف وسخر الشمس لمنافع الناس تأتي بقدر ثم تغيب عنهم وعليها حساب السنين الشمسية، والقمر عليه حساب الشهور والسنين القمرية.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ كأنه يأمرها أن تسير على نظامها المحدد وعلى قراءة (رفع) النجوم ومسخرات، قد عدل بها عن سياق ما قبلها ولعله للنص على أنها مسخرة مذللة بأمر الله خلاف ما يزعم عباد النجوم، أما على (النصب) لهما فزيادة مسخرات الدالة على أنها مذللة منقادة لأمر الله ترد على المنجمين والعطف على الليل والنهار وما بعدهما يفيد تسخير النجوم للإنسان، فكأنه تعالى يقول وسخر لكم النجوم في حال أنها مسخرات بأمره لا تمتنع من تسخيره لها بأمره؛ لأنه ربها المسخر لها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من تسخير الليل والنهار وما بعدهما للناس ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلائل على أن الله ربُّ العالمين المستحقُّ للعبادة وعلى قدرته وعلمه وغير ذلك من صفاته وعلى فضله على الناس وعظم نعمه عليهم.

مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿١٣﴾ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ففيه آية ونعمة، أما الآية فلأنه يدل على أنه صنع فاعل مختار جعل له ألواناً مختلفة كما يشاء، ولو كان أثر علة لكان سواء؛ لأن تأثير العلة تأثير إيجاب، وأما النعمة فلما في اختلاف الأنواع والألوان من زيادة النعمة ومطابقة الأغراض المختلفة لأن منافع الثمرات تختلف وكل ثمرة تمتاز بلونها.

والتذكر: الانتباه لما كان قد نسي فهي آية يعرف بها الخالق عند تذكر الإنسان لاختلافها، وأن الاختلاف أثر فاعل مختار، ويعرف بها نعمة الله على الإنسان وأن الله ربه لا ما أشرك به المشركون.

﴿١٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ ذلَّله ليمكن الانتفاع منه وبه ولو كان شديد التموج والاضطراب لما تهيأ الانتفاع به فلتسخيره يسبح السمك فيه فيمكن اصطياده ليؤكل ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لذيذاً بطراوته، لأن الذي تقادم عهده يتغير ريحه ويكره وخصوصاً قبل وجود الثلاجات التي تحفظ بعض خصائص الطري، وبتسخيرٍ يُمكّن الغواصين استخراج أنواع الحلية البحرية وهي المرجان واللؤلؤ.

قال في (الصحاح): والدرَّة: اللؤلؤة، فأفاد أنهما شيء واحد، والصدف كأنه من أخبية الدر والودع ولا أدري إن كان غير ذلك من حلية البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفائن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي في البحر وهي آية ونعمة لأن نفعها بتسخير البحر وإرسال الريح الطيبة تسوقها وتشق بها الموج على البحر، فإن كان المخر هو كما قال (صاحب الصحاح) «مخرت السفينة تمخَرُ وتمخُرُ مَخراً ومُخُوراً: إذا جرت تشق الماء مع صوت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ يعني جواري» انتهى، أو كان معنى ﴿مَوَاخِرَ﴾ خالية كما في كتاب (الدليل الكبير) للإمام القاسم [ص٦٠/خ].

وحكاه الشرفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم عن الإمام القاسم بن إبراهيم، ولفظ كتاب (الدليل الكبير): «وحمل سبحانه على ظهورها ـ أي البحار ـ مع خلافه بينها في أمورها الفلك المشحون السائر وردها بعد التفريغ فيه مواخر ليعلم من عجيب تدبيرها وباختلاف الحال في مسيرها، إذ تسير شاحنة مالِيَة كما تسير ماخرة خالية، وإذ تسير بحاليهما جميعاً في أجاج البحار كما تسير بهما في فرات الأنهار إن لها لمسَيِّراً لا تختلف في قوته الأشياء، ومدبّراً قوياً لا تساويه الأقوياء..» الخ.

وهو كلام مفيد ويقرّب له في تفسير المخر قول (صاحب لسان العرب): «ومخر البيت يمخره مخراً: أخذ خيار متاعه فذهب به ومخر الغُرْزـ كذا ـ الناقةَ، إذا كانت غزيرة فأكثِر حلبها وجهدها ذلك وأهزلها» انتهى.

وعلى هذا يكون معنى ﴿مَوَاخِرَ﴾: ممخورات، كأنه على النسب أي ذوات مخر، والراجح الأول هنا وإن كان صحيحاً في اللغة، وذلك لأمرين:

الأول: أن الآية الظاهرة في جري الفلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ﴾ [الشورى:٣٢].

رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

الثاني: أن ذكر فراغها لا يفيد أنها تجري لأنها مع فراغها قد تقف لانتظار حمولة أو راكبين، ولو قال: وترى الفلك تجري مواخر لصح ذلك؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ والإبتغاء من فضله بجري الفلك في البحر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وهي السفن التي تشق الماء شقاً ذاهبة وجائية» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ ابتغاء الحاجة: التوصل إليها وهذا يفيد نعمة تيسير السفر لتحصيل الحاجات وهو يدل على شرعية السفر لغير الثلاثة المساجد، وأن الحديث في شد الرحال إنما هو في السفر للصلاة في المسجد الذي يسافر إليه فلا تشد الرحال لهذا الغرض إلا إلى الثلاثة المساجد، فأما لغير الصلاة فلا مانع، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون هذه النعمَ فتعبدوا الله وحده، أو هذه النعم وسائر نعم الله عليكم.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿وَ﴾ هو الذي ﴿أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ الإلقاء: الطرح بقوة، وفي هذا تمثيل لقدرة الله تعالى أي بيان لعظمها، كأنه ألقى الجبال في الأرض وطرحها، وهو يناسب جعل الجبال راسخة في خلال الأرض.

وقوله ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً رواسي ثابتات في أماكنها، وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تميد بكم، قال الراغب في (المفردات): «الميد: اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض» انتهى.

﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا

﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾ ألقى في الأرض أنهاراً مجاري للماء أو المراد الماء الجاري في الأنهار ﴿وَسُبُلٗا﴾ طرقاً في الأرض ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ في تنقلكم في الأرض بواسطة السبل فتبلغوا ما قصدتم من النواحي وتسلموا التيه والضَّياع.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ﴾ من الجبال ونحوها يهتدي بها المسافرون، والعلامات يعرفها من قد سافر فيتخذها علامات لنفسه ويَعرفها غيرُه بتعريفه.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فالنجم يتخذونه علامة في الليل يعرفون به الجهة، والنجم: إما مطلق يصدق بأي نجم، وإما خاص بالثريا لكثرة الاهتداء بها في الشتاء؛ لأنهم كانوا يسافرون في الشتاء إلى الحبشة فيركبون البحر الأحمر وفيه يحتاجون العلامات من النجوم، والثريا تكون أول الليل في جهة المشرق فيعرفون بها الجهات.

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ وهو الله الذي خلق ما مرّ ذكره في السورة وغيره مما هو آية ونعمة وهذا إنكار على المشركين الجاهلين بالله الذين جعلوه كشركائهم وألحقوه بخرافاتهم، ولذلك نزلوه منزلتها وجعلوها أنداداً له سبحانه وتعالى ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ من غفلتكم عن الله فتتفكرون في آياته وتعبدونه وحده.

﴿١٨﴾ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي نعم الله كثيرة جداً لا نستطيع احصاءها بعدٍّ، وهذا يوجب شكره وإخلاص العبادة له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لأنه ينعم على عباده حتى في حال كفرهم لأنعمه ولا يعاجلهم بالهلاك أو قطع الرزق، وذلك مغفرة في العاجلة ورحمة.

تَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم

﴿١٩﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فهو الذي يرجى ويخشى؛ لأنه يسمع الدعاء ويقضي الحاجات ويعلم بكفر من كفر نعمته فهو الذي ينبغي أن يعبد خوفاً وطمعاً.

﴿٢٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ والذين يدعوهم المشركون أي يعبدونهم بالدعاء ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ فكيف رجوا منهم النفعَ أو دفع الضرر وليس لهم دليل على أنهم يقدرون على نفع أو دفع ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يُصنَعون تماثيل أو أنصاباً يُنحَتون منها حتى تصير مستوية.

والخلق هنا بمعنى التقدير، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة:١١٠] لأن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الفعل فيه يفيد التجدد والتكرار ولو كان المعنى خلق الله لهم لكان التعبير عنه: وهم مخلوقون أو خلقهم الله، والتعبير عنهم بعبارة العقلاء لا يدل على ذلك، وإنما هو من لغة العرب، وليس معناها أنهم يعلمون؛ ولعل السبب اعتقادهم أنهم يعلمون فجعلوا لها ضمير من يعلم، وليس الضمير هذا معبِّراً عن العلم، ولكنه في الأصل ـ والله أعلم ـ خاص بمن يعلم ثم صار لمن يعلم ولأصنامهم التي لا تعلم.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ شركاؤهم أموات لأنها جمادات أحجار أو من المعادن أو نحوها ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ فهي لا تسمع دعاءهم ولا تعلم ما يصنعون لها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ﴾ أي متى

مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ

﴿يُبْعَثُونَ﴾ أي يبعث العابدون لها لأنها لا تعلم شيئاً فضلاً عن أن تعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، قال الشرفي في (المصابيح): «وفيه تهكم بالمشركين».

﴿٢٢﴾ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ كالنتيجة التي أفادها ما سبق من الاحتجاج من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وما بعدها من تعداد النعم وذكر الرزق وآيات قدرته، فأفاد أن الله رب الناس الخالق لهم الرازق لهم وأنه المستحق لأن يعبدوه، فأفاد أنه الإله وأن شركاءهم إنما هم عباد أمثالهم ليس لها فيهم شرك ولا تستحق عبادة، فتبين أن إلههم وإلهنا إله واحد هو الله ربنا.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ تفريع على قوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي أن قلوبهم منكرة هذا القول وهم مستكبرون من أن يقال هذا القول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥] والراجح في معنى الإنكار هنا: أنه إما انقباض من هذا الكلام، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود:٧٠] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩] وقول الشاعر:

وأنكرتني وما كان الذين نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ

وإما ﴿مُّنكِرَةٞ﴾ تظنه منكراً فتكرهه، وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في (نهج البلاغة): «أيها المؤمنون إنه من رأى عُدواناً يعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه..» الخ، وسبب جرأتهم على الباطل أنهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فأعرضوا عن النذير واستكبروا.

٢٣ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «أي حقاً» انتهى. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ ما يسر المشركون من كراهة الحق وسوء العقائد والنيات وغير ذلك من المنكرات وغيرها ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ من الكفر والشرك وغيره، وهذا في معنى الوعيد بعقابهم، ولذلك علل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ والمستكبر: المترفع عن الحق؛ لأجل الكبر الذي في نفسه.

٢٤ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي إذا سئلوا ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ﴾ إنما هذا القرآن ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي لم ينزله الله تعالى ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أسطرة، وإضافتها إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لينسبوها إليهم أي سطرها الأولون أي كتبوها.

٢٥ ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ﴾ اللام لام العاقبة فهم لا بد أن يحملوا ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾ يوم القيامة، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: آثامهم» انتهى.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوۡمَ

وأصل معنى الوزر: الثقل والذنب يشبَّه به، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١] وقوله: ﴿كَامِلَةً﴾ دليل على أنه لا يحمل عنهم بعضها أو يسقط عنهم بالعفو مثلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ يحملها المضلون؛ لأنهم سببوا لها فكانت من آثارهم وهذا من غير أن ينقص شيء عن المضلين من إثمهم، وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي اتبعوا المضلين بغير علم بل تقليداً كما هو شأن الأتباع.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه لما بعدها و﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ﴿سَآءَ﴾ ما يحملون من الأثقال، وفيه إشارة إلى أن الأصل في الحمل أن يحمل لفائدته للحامل، مثل: حب، أو فاكهة، أو بضاعة، أو أي متاع، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ ولكن هؤلاء الكفار يحملون ثقلاً ضاراً لهم غير نافع، فما أسوأ ﴿مَا يَزِرُونَ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ احتالوا في الكيد ضد نبيهم ولعلهم قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام مكروا حين ألقوه في النار.

وقوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي من قبل هؤلاء الكفار ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ أي دمره الله ﴿مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ أي قواعد البنيان، وهي الأسس أي المواثر، وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر:٢] فإتيانه فِعْلُه.

ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي فسقط فوقهم سقف بنيانهم ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ العاجل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مفاجئاً لهم من بحث لا يعلمون لأنهم لم يكونوا يتوقعون سقوطه عليهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: وكان نمرود هذا معاصراً لإبراهيم عليه السلام وهو الذي حاجّ إبراهيم في ربه تعالى، فلما غيّر الله ما به وفارقه إبراهيم عليه السلام مهاجراً إلى ربه أتى الله عز وجل بنيانهم هذا العظيم من القواعد في يوم غيم ومطر وفي برد ورياح، جمعهم بذلك من كل ناحية تدبير الله تعالى إلى ملجأهم هذا الذي اتخذوه من دونه سبحانه عناداً، فخرّ عليهم السقف من فوقهم، التأكيد لكونهم تحته إذ قد تسقط - في الأم سقط - بنيان القوم فلا يكونون تحته، فيقال: انهدم عليهم بنيانهم، ولا يقال: من فوقهم حتى يكونوا تحته فتأمل»!! انتهى.

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي بعد عذابهم العاجل ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ يهينهم ويفضحهم ويذلهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بزعمكم مالهم لا يدفعون عنكم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ﴾ من الشقاق ﴿فِيهِمْ﴾ أي من أجلهم فلم يعرفوا لكم مشاقتي فيهم ولم يكافئوكم عليها وهذا توبيخ للمشركين شديد ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ في الدنيا فعملوا بعلمهم واستعدوا ليوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ الذلة والهوان والفضيحة ﴿ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ
مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟

قال الشرفي في (المصابيح): «والمراد: أنهم يشمتون بهم؛ لأنهم كانوا يدعو[نـ]ـهم إلى الإيمان فلا يجيبون» انتهى.

﴿٢٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم وهم على كفرهم لم يتوبوا فهم ظالمون لأنفسهم بذلك؛ لأنهم سببوا لعذابهم في الآخرة، وفي هذا دلالة على أن كفرهم فعلهم واقع منهم لأنهم لو لم يكونوا هم أوقعوه لما كانوا ظالمين لأنفسهم ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي استسلموا وانقادوا لهم وذلوا قالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ لم يجدوا ملجأ إلا جحد ما عملوا، وهذا عند التوفي كقول الآخرين لما قالت لهم الملائكة فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴿بَلَىٰٓ﴾ ردٌّ لكلامهم أي بل عملتم سوءاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم جحده.

﴿٢٩﴾ ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ قالت لهم الملائكة ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ طويت مدة مابين موتهم وبعثهم، كأنها لم تكن وكأن كلامهم لهم في الآخرة متصل بكلامهم لهم عند الموت وذلك لقصر المدة حيث لم يعلموا بعد موتهم بمرور السنين فلذلك وصل به في السياق، ولعل ذكر ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ لإفادة كثرة أهلها أو اختلاف عذابهم في شدته على قدر اختلاف سببه ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أي مستقر

مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين ترفعوا في الدنيا عن عبادة ربهم وطاعة رسله، ولعل التصريح بالخلود لئلا يتوهموا أنهم يموتون حين يُلقون في النار كما هو شأن من يلقى فيها في الدنيا.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ آمنوا وأطاعوا ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون فبذلك اتقوا عذاب الله، سُئلوا ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ﴾ أنزل ﴿خَيۡرٗا﴾ وفسروا الخير بقولهم: للذين أحسنوا آمنوا واتقوا لهم في هذه الدنيا حسنة، كما وعد الله تعالى في قوله: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ فحياتهم طيبة في العاجل.

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهي الجنة ﴿خَيۡرٞ﴾ للذين اتقوا لأنها مأواهم ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مدح لها، ثم فسّر الدار المذكورة بقوله تعالى:

﴿٣١﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فالدار المذكورة تشتمل على ﴿جَنَّٰتُ﴾ بساتين ﴿عَدۡنٖ﴾ مستقر وأمن ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ من تحتها من تحت أشجارها الأنهار، فهي كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥] ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ولما كان الوعد المذكور للذين آمنوا برسول الله محمد ﷺ وبالقرآن، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ كلهم في كل عصر من الأولين والآخرين.

ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ
يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم

﴿٣٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ **لأنهم ثبتوا على الإيمان والتقوى حتى ختم لهم بذلك** ﴿يَقُولُونَ﴾ **أي الملائكة لهم عند قبض أرواحهم** ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ **تبشير لهم برضوان الله تعالى ورحمته** ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **يقولون في الآخرة ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وكأنه كلام واحد لقرب المدة لأن ما بين موتهم وبعثهم كلا مدة.**

﴿٣٣﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ **هل ينتظر الكفار المذكورون في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي لا ينتظرون بإيمانهم** ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ **فتخبرهم بصدق الرسول وأن القرآن من الله** ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ **وهو العذاب ليؤمنوا حين يرونه.**

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ **أي الكفار من الأمم الماضين الذين عذبهم الله بكفرهم ولم ينفعهم إيمانهم حين رأوا عذاب الله** ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ **بتعذيبه لهم** ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ **لأنهم هم الذين سببوا لأنفسهم العذاب بكفرهم وجرائمهم فاستحقوا العذاب فلم يكن ظلماً، بل كانوا هم الذين كانوا يظلمون أنفسهم بفعل ما يستحقون به العذاب، وهذه الآية من أوضح الدلائل على بطلان قول الجبرة كما قدمت في تفسير مثلها من (سورة التوبة).**

مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

﴿٣٤﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ أي الكفار من الماضين ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ الإضافة في قوله تعالى: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ إما بمعنى السيئات أي العقوبات التي ساءتهم التي سبّب لها ما عملوا من الكفر وغيره، وإما على معنى السيئات مما عملوا أي أصابتهم جرائمهم نسَب العذاب إليها وجعلت موقعة له بهم لأنها سببه.

وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي وقع بهم وأحاط بهم بحيث لم يجدوا سبيلاً للفرار منه والمراد غلبهم وقهرهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي الحق الذي كانوا يسخرون منه في الدنيا عذبوا اقتصاصاً وإنصافاً من أجله، فكأنه هو أصابهم بالعذاب أو حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون حين يكذبون به والاستهزاء بالحق الذي جاءهم في الدنيا أظهر ولا أذكر أو أعلم أنهم كانوا يستهزئون بالعذاب نفسه فينظر إن شاء الله.

﴿٣٥﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ احتجاجاً على أن الله رضي منهم بالشرك قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ لأنه قادر على أن يمنعنا ولو قسراً حتى لا نشرك ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ فلما تركنا على الشرك دل ذلك على أنه لا يكرهه.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ

ومثل الشرك: تحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، فقالوا: لو شاء الله ما ﴿حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ لأنه لو شاء ما تركنا نحرم ذلك ولكان يمنعنا ويمنع آباءنا من الشرك والتحريم من دونه؛ لأنه يعلم ما نفعل.

والجواب: أن هذا الاحتجاج مبني على الكفر؛ لأنه مبني على دعوى أن الله لم يمنعكم وقد منعكم بما بلغته الرسل ولكنكم كفرتم بهم وليس على الرسل أن يمنعوكم بالقسر وهم لا يستطيعون ما عليهم إلا أن يبلغوكم عن الله آياته ونهيه عن الشرك وتحريم ما أحل الله.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فقد نهى الله عن الشرك وعن اتباع الطاغوت، فبطل قول المشركين: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] لأنه قد بين بالرسل وبما أرسلهم به أنه لا يرضى ذلك ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي يقول كل رسول عن الله: اعبدوا الله ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ والطاغوت كل داعي ضلالة وطغيان من شياطين الجن والإنس واجتنابه أن لا يُقرب ولا يسمع كلامه ولا يتبع.

قال الشرفي في (المصابيح): «روي عن القاسم بن إبراهيم عليه السلام أنه قال: الطاغوت: كل ما أطغى وأضل عن الحق» انتهى.

هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ

فلو اجتنبوا الطاغوت ما أشركوا ولا حرموا من دون الله من شيء فما بقي حجة للمشركين ولا لآبائهم، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ حق عليه الخذلان؛ لتمرده وجداله في آيات الله فحق عليه أن يخذل حتى يضل.

﴿٣٧﴾ ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا رسول الله على أن يهتدوا وتشتد رغبتُك في ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ لأن الله لا يضل إلا من هو مستحق بفسقه، فإذا أضله الله بخذلانه تسلطت عليه الشياطين وفي قلبه قابلية للضلال واستعداد فلم يبقَ عنده استعدادٌ للهدى بالأسباب العادية فلا يستطيع الرسول ﷺ أن يهديه.

وبهذا تبين أن ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف:١٨٦] هذا على قراءة ﴿يُهْدَى﴾ ـ بضم الياء، وفتح الدال ـ أما على قراءة ﴿يَهْدِي﴾ ـ بفتح الياء، وكسر الدال ـ فالمعنى: أن الله قد أضلهم فهداهم في حال إضلالهم خلاف الحكمة؛ لأنه تناقض، وكذلك هداهم وقد أضلهم الله برفع الضلال وجعل الهدى مكانه لا يصح؛ لأن الله إنما أضلهم لأن ذلك مقتضى الحكمة فلا يهديهم ما داموا تحق عليهم الضلالة وليس من الحكمة هداهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يهدونهم بالقوة أو ينقذونهم من عقاب ضلالهم، قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ دالٌ على أن المراد بالإضلال: الخذلان، الذي هو نقيض النصرة» انتهى.

حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ
فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ
أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا

﴿٣٨﴾ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ حلف الكفار أيماناً ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ بالغوا في أيمانهم وتغليظها بقدر طاقتهم ليُضِلوا من يصدقهم أو ليبطلوا بذلك خبر الله بذلك لجهلهم، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ وهذا إبطال لنفيهم أي بلى إن الله يبعث من يموت، وعد بذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ أن يفي به وعداً ﴿حَقًّا﴾ صدقاً لا يتخلف وصواباً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده الحقَّ أو لا يعلمون أنه يبعث من يموت ولا يبطل الحق جهل الجاهلين به.

﴿٣٩﴾ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ أي يبعثهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ في الآخرة ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي الحق بأن يبينه وينصر أهله فيبين بذلك الحق أنه الحق، ويبين لهم به خُبْر الحق وفضله على الباطل ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ حين تكشف الحقائق ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ كاذبين في حلفهم لا يبعث الله من يموت، وكاذبين في تكذيب الرسل، وكاذبين في نفي إنزال الله الآيات، وكاذبين في غير ذلك فيعلموا أنهم كانوا مستمرّين على الكذب.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فبعث من يموت سهل ليس فيه أي صعوبة على الله سبحانه إنما هو كأمره أن يكون فإذا قال له: ﴿كُن﴾ فعند ذلك يكون ـ والله أعلم.

ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا

﴿٤١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي من أجل الله لطاعته ونصرة دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ في بلاد الكفر.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في المهاجرين، الذين عُذّبوا بمكة، منهم: عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصهيب، وخباب بن الأرت، وبلال، وسميّة أم عمار..» إلخ.

قلت: الأولى: أن لا تعد سمية، لأنه ذكر أنه قتلها أبو جهل، فلا تعدّ في المهاجرين وإن كانت من المعذبين في الله، وقد ذكر أنها أول شهيد استشهد في الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لنجعلن لهم في الدنيا مباءة حسنة أو تبوأة حسنة، وهي إما مسكنهم الذي يهاجرون إليه يجعله الله حسناً لهم، وإما حالتهم بعد الهجرة يجعلها حالة حسنة بعزة الإيمان والنصر على أعداء الله والرزق ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من المباءة الحسنة أو التبوأة الحسنة؛ لأنه نعيم الجنة وملكها الدائم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ الضمير إما للذين ظلموهم فيكون المعنى لعلموا أنهم سببوا لهم السعادة الدائمة، أو الضمير للذين هاجروا أي لو كانوا يعلمون أجر الآخرة على التفصيل لهان عليهم ما وقع عليهم من الظلم ومن مشقة الهجرة.

رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ

﴿٤٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿صَبَرُواْ﴾ على التعذيب والظلم بأن ثبتوا على الإسلام، وصبروا على مشقة الثبات على الإسلام وعلى مشقة الهجرة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيهاجرون لا يمنعهم خوف الجوع، ويثبتون على الدين لا يمنعهم خوف غلبة الكفار لأنهم على ربهم يتوكلون، فقد وكلوا أمورهم إليه ورضوا لأنفسهم في طاعة الله بما كتب لهم من فقر أو غنى أو أمن أو خوف أو حياة أو قتل.

﴿٤٣﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فإرسال الرجال إلى الناس سنة الله في الذين خلوا، فمطالبة هؤلاء الكفار بإرسال الملائكة واستبعادهم لإرسال رجل منهم إنما هو جهل منهم ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ﴾ العلم القراء للذكر عن هذا، هل كانت الرسل رجالاً أو ملائكة، فهي من أوضح وأظهر ما ينقل من التاريخ يعرفه الكفار من القراء ومن قد أسلم، وسؤالهم للكفار في هذا الذين يجيبون فيه بالحق وهو إقرار منهم بالصدق مع كفرهم بمحمد ﷺ لا مانع منه، وليس المراد بسؤالهم في غير هذا.

فأما تفسير أهل ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ بآل محمد ﷺ فهو من التطبيق، لا أنه المفهوم بل بطريق القياس، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذا خطاب لمشركي قريش أنه ما بعث رسولاً إلا من رجال الأمة، وأنه ما بعث إليهم ملكاً» انتهى.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا

﴿٤٤﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي الكتب، فالبينات الآيات الواضحات في دلالتها على صدقهم وعلى ما جعلها الله بينات له، والزبر يحفظ ما أراد الله حفظه بها من العلم والدين والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن الدال على أنك رسول من الله ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتبلغهم بلاغاً بيّناً ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من القرآن وسائر الوحي ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إذا سمعوا آيات الله فيعلمون أنه الحق من الله فيؤمنون.

﴿٤٥﴾ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنَ﴾ سؤال توبيخ للذين مكروا ضد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وضد الذكر الذي أنزله الله إليه أي ءأنزلناه إليك فأمِن ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ﴾ المكرات ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كإقسامهم بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت احتجاجاً بذلك على كذب الرسول في دعوى الرسالة.

وكقولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَافْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ:٧-٨] وكمكرهم في (دار الندوة) المذكور في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠] أفأمنوا بعد وضوح الحق بهذا القرآن الذي هو معجزة كبرى ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ عقاباً عاجلاً.

هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ
سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ﴾ من الله ﴿ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا يعلمون بإتيانه كما أتاهم يوم بدر وهم كثير وافروا العُدة من الخيل والسلاح والمؤمنون قليل في عددهم مع قلة عدتهم من الخيل والسلاح فنصر الله رسوله وهزمهم وقتل بعضاً وأسر بعضاً ورد الله الذين كفروا بغيظهم وقمع كبرهم وخيَّب أملهم وأذلهم بعد أن كانوا يظنون أنه لا غالب لهم من الناس فكان ذلك عذاباً من حيث لا يشعرون.

﴿٤٦-٤٧﴾ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ أو أمنوا أن يأخذهم ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ في البلاد في بعض أسفارهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله أن يأخذهم في أي حال من أحوالهم شاء فهو على كل شيء قدير لا يعجز سبحانه عن شيء ﴿أَوْ﴾ أن ﴿يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وحذر من أخذه؛ لأن الله غالب على أمره لا يدفعه حذرهم إذا أتاهم عذابه ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث أمهلكم وأنتم تمكرون برسوله وكتابه ولم يعاجلكم بالعذاب فوراً حين مكرتم وقد ارتكبتم منكراً عظيماً تستحقون به العذاب العاجل والآجل.

﴿٤٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أمكروا السيئات ولم يروا ما يدلهم على قدرة الله وقهره لما خلق بل رأوا ذلك ولكنهم معرضون عن آيات الله وعن التفكر فيها فما أجهلهم لأنهم قد وقعوا في الخطر وهم في سكرتهم يعمهون.

مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ

وقد ضمن ﴿يَرَوْاْ﴾ معنى ينظروا فعدي بـ﴿إِلَىٰ﴾ أي ينظروا إلى ذلك في حال أن تلك المخلوقات ساجدة لله داخرة صاغرة ذليلة تحت قهره تعالى وسلطانه وملكوته.

وقوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ التفيؤ: التردد من فَاءَ إذا رجع لأن الظل يأتي ويذهب ثم يرجع في اليوم الثاني حيث كان في اليوم الأول، أو حيث كان وَحَوله فهو يرجع ويتكرر منه الرجوع.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ تذكير بالظل الذي يكون أول اليوم والذي يكون في آخر اليوم، وظِلاله: جمع ظل، والشمائل: جمع شِمال، وإفراد اليمين مناسب لإفراد كلمة ما خلق الله من شيء، وكذا إفراد الضمير في ظلاله، وأما جمع الشمائل فعلى المعنى لتعدد الظلال، ولعل فائدة الإفراد أن كل فرد آية كاملة، وفائدة الجمع: التذكير بتعدد الآيات.

و﴿سُجَّدًا﴾ أي خاضعات حالٌ من شيء لتخصصه بالوصف بجملة يتفيؤ ما بعده، ولعل ذكر الظلال لإفادة أنها تضربه الشمس أول اليوم وآخره لإصلاح الأرض والشجر والجبال والحيوان تضربه الشمس عن يمينه وشماله، فهو يتصرف فيها وهي خاضعة لتصرفه، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي أذلاء صاغرون، والجمع بالواو مناسب لنسبة السجود إليهم لله.

﴿٤٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده خضعت كل دابة، وذلك لأنه يتصرف فيها كيف يشاء لا تمتنع من تصرفه فيها، كتصرفه بالمرض بعد الصحة، والهرم بعد الشباب، والحياة بعد الموت.

وهذا السجود غير خاص بالدواب إلا أن الجماد قد أفادته الآية الماضية، وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لعله عبارة عن النيرات فهي خاضعة لتسخير الله لها وتصرفه فيها.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي يسجدون لله وخضوعهم لله بعبادتهم لله ربهم وباستسلامهم لصنعه فيهم وتصريفه لأحوالهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢] وفيه تعريض بالمستكبرين من الناس واحتجاج على الذين يعبدون الملائكة.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَخَافُونَ﴾ فمصدر خوفهم أنه من فوقهم بالقهر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨] في إثبات الخشية وهي خشية منه أن يعصوه أي خوف من عذابه لأجل خوفهم من أن يعصوه كقول رسول الله ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:١٥] ولعل خوفهم من الله هو سبب عصمتهم من الذنوب، فلا يقال: كيف يخافون وهم معصومون؟

وذلك لأن العصمة ليست جبراً إنما هي تيسير أسباب التقوى، والخوف من أعظم أسبابها، فأما إسناد خوفهم إلى ربهم، فلأنهم يذكرونه كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] وذكرهم لعزته وحكمته وقهره فوق عباده يسبب خوفهم من عقابه أن يقع عليهم لو عصوه فهو خوف من ربهم؛ لأنه يعذب فخوفهم من ربهم يبعثهم على اجتناب ما نهى عنه واجتناب دعوى ما ليس لهم بحق كدعوى الإلهية التي يدعيها بعض المشركين.

إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا يعم مثل ما أمر به ملك الموت من قبض الأرواح وما يؤمر به خزنة جهنم من تعذيب أهل النار وغير ذلك ولعله زيدَ قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ للتنبيه للمشركين على ذلك أو للتصريح بطاعتهم لله في الأمر كما يطيعونه في النهي؛ لأن ذكر الخوف في الدلالة على اجتناب المنهي أوضح ـ والله أعلم.

﴿٥١﴾ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ ﴿وَقَالَ﴾ عطف، ولعله عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وإن طال الكلام؛ لأنه طال في الردّ عليهم والاحتجاج على بطلان الشرك ونحو ذلك ﴿إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ تحقيق للنهي عن التثنية ولا يتضمن النهي عن إثبات إله واحد؛ لأن الحكم على المثنى قد يتضمن تشريك الواحد في الحكم من حيث أنه بعض المثنى كما إذا قلت: أطعم الزيدين، فإنه يتضمن الأمر بإطعام زيد بحيث لو وجد أحدهما دون الآخر لزمه إطعامه، بدلالة التضمن.

فقوله ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ يدفع توهم النهي عن إثبات إلهين أو إله واحد، وعلى أقل تقدير أن يكون التعبير حسناً من حيث وضوح المراد به كما لو قال تعالى:لا تشركوا، ولعل ذكر الاثنين لزجر من اتخذ النور والظلمة، ومن اتخذ يزدان وأهرمن، ومن اتخذ مع الله إلهاً واحداً، وبالأولى من اتخذ أكثر من اثنين؛ لأنه قد تضمن الاثنين، وزاد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إنما الإله إله واحد، أو الضمير مبهم يفسره إله واحد، مثل: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ التفات يبين أن المراد بالإله الواحد الله تعالى.

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي فارهبوني وحدي، وفيه دلالة على وجوب عبادته من حيث تقدير أنه الإله تعالى، وذكر الرهبة إما لأن عبادته عبادة رهبة من عذابه أي أن الرهبة تبعث على عبادته طلباً للنجاة من عذابه، والحصر؛ لأن غيره من شركائهم لا يضر ولا ينفع ولذلك فلا يُرهب.

فالحاصل: أن المعنى الأمر بإخلاص العبادة له، ويحتمل فإياي فارهبون فاتركوا الشرك حذراً من عذابي تفريع على إبطال الشرك، ويمكن حمل الجملة على المعنيين؛ لأنه لا تنافي بينهما والتفريع صحيح لكل منهما والرهبة معناها الخوف أو خوف مخصوص.

قال الراغب: «الرهبة والرهب: مخافة مع تحرز واضطراب» انتهى.

ولعله يعني بالاضطراب القلق وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز الخوف ممن يعتقد فيه أنه يضر من دون الله بما لا يقدر عليه إلا الله، وأن الواجب دفعه بالإيمان.

(٥٢) ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾

﴿وَلَهُۥ﴾ أي لله ما في السموات فالملائكة عباده والأرض، فكل من يعبدهم المشركون من دون الله هم عباد لله وهو ربهم، فالمشركون عبدوا من دون الله عباداً أمثالهم في العبودية ليس لهم شيء من الربوبية ﴿وَلَهُ﴾ أي ولله ﴿ٱلدِّينُ﴾ العبادة فهو الذي يستحقها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] وهو الذي تنفع العابد عبادته بخلاف شركاء المشركين فلا تنفع عبادتهم بل تضر مع أنها باطل لا حق لهم فيها.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني دائماً» انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «ومعنى الواصب: الدائم أي حق الإنسان أن يطيعه دائماً في جميع أحواله كما وصف به الملائكة، حيث قال: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]» انتهى.

ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ
يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): و﴿ٱلدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًا﴾ أي واجباً خالصاً يدوم ولا يزول» انتهى.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ فتشركوا به اتقاء لضره، وهذا يشير إلى الحجة التي آتاها إبراهيم على قومه، حيث قال: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨٠-٨١].

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي وحده فهو المستحق للعبادة شكراً على نعمه التي لا يحصيها العبد ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ مثل المرض والجوع والخوف من غرق أو زلزلة أو نحو ذلك ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي فإليه تلجئون بالدعاء أو نحوه بصوت رفيع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ ترفعون أصواتكم» انتهى، وفي (لسان العرب): «جَأَرَ يَجْأَر جَأْراً وجُؤَاراً: رفع صوته مع تضرع واستغاثة» انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): «الجؤار مثل الخوار، يقال: جأر الثور يَجْأر أي صاح وقرأ بعضهم عجلاً جسداً له جؤار ـ بالجيم ـ حكاه الأخفش، وجَأر الرجل إلى الله ـ عزَّ وجل ـ أي تَضَرَّع بالدعاء» انتهى.

قلت: ولعله عُدّي بـ(إلى) لتضمنه معنى التضرع.

وقال في (الكشاف): «والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والإستغاثة، قال الأعشى يصف راهباً:

يراوح من صلواتَ المليـ ـك طوراً سجوداً وطوراً جُؤَارا» انتهى

لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

وقد شاهدت جؤار الناس في بلادنا حين وقعت الرجفة الشديدة في يوم السبت خامس عيد الأضحى سنة (١٣٥٩) هجرية، فارتفعت الأصوات الكثيرة بالتهليل والتكبير وفي تلك الأيام رجع الناس إلى الله وشاع الصلاح وتلاوة القرآن.

﴿٥٤﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الذي هو سبب اللجوء إلى الله فاجأ الشرك من بعض الناس ولم يكن من حقه أن يشرك بعد ما جاءته الآية المسببة للجؤار ولا إشكال في نسبة الشرك إلى فريق إذا كان الخطاب عاماً للمكلفين من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ أي يشركون ليكفروا بما آتاهم الله من نعمه وآياته ويستمروا على طريقتهم في اتباع هواهم وما ألفوه من الإقبال على الدنيا والإعراض عن الشكر وعن التقيد بطاعة الله في أي شيء مما تهواه أنفسهم وما اعتادوه من باطلهم وكفرهم، ثم خاطب الله هؤلاء الكفار المشركين بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ وهو تهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] وكذا قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون عاقبة ما اخترتم من الشرك والكفر والباطل كله.

﴿٥٦﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ لشركائهم لأنهم يجعلون لآلهتهم نصيباً كما ذكره الله تعالى في (سورة الأنعام) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ

وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [آية:١٣٦] فجعلوا لآلهتهم ﴿نَصِيبًا﴾ بناءً منهم على أنهم آلهة وهم لا يعلمون أنهم آلهة وقد علموا أن الله الخالق لذلك الذي جعلوه لشركائهم أنعم الله به، فكفروا نعمته بجعله لشركائهم، وجمعهم بين الشرك ومعصية الله بنفس نعمته.

ثم توعَّدهم الله تعالى على ذلك بقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ﴾ وهو قسم فيه تعجيب من حالهم وغفلتهم عن مصيرهم وجرأتهم على أسباب العذاب ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أي يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ كله كافترائهم الشرك وافترائهم بإثبات نصيب من رزق الله لشركائهم، وهذا السؤال يترتب عليه الحكم عليهم والجزاء الأوفى.

(٥٧) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ فكانوا مبطلين بإثبات الولد لله، وبجعل الملائكة إناثاً، وبجعل ما يكرهون لله، فجمعوا بين ثلاثة أقوال باطلة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له تعالى عما جعلوا له لأنه سبحانه الغني وكل المخلوقين عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولهم البنون نعمة من الله عليهم فقابلوا نعمته بكفرهم المذكور وهذا على فرض أن (الواو) للحال في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم﴾ وهو أرجح من جعلها للعطف، وإدخال البنين في جعلهم لأن جعلهم البنين لأنفسهم هو صدق وحق، كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩] فمن البعيد أن يعد من جهالاتهم إثبات البنين لأنفسهم.

ويمكن أن يجاب عن هذا بأن حكاية جعلهم لأنفسهم ما يشتهون ليس على معنى تجهيلهم في هذا، وإنما هو على معنى الإحتجاج عليهم،

بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا
بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ
﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

كأنه قيل: يجعلون لله البنات مع أنهم يجعلون لأنفسهم البنين؛ لأنهم يشتهون البنين، ونظيره: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] ليس إنكاراً للأمر بالبر، وإنما هو احتجاج عليهم في نسيانهم لأنفسهم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿بُشِّرَ﴾ بالأنثى أُخبِر بها ـ أي بولادتها ـ وقيل له: وُلِدت لك أنثى ولعل سبب جعل إخبار الوالد بالمولود تبشيراً لأنه كان يُسَرّ به الوالد ثم صار عبارة عن إخباره بالمولود وإن كان لا يستبشر به.

وقال في (الصحاح): «والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾» [آل عمران:٢١] انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ كناية عن غيظه أو غضبه أو كراهته الشديدة لما بشر به التي اسود وجهه من أجلها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي شديد الغيظ أو الحزن أو نحو ذلك كأن قلبه مملوء بذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): الكظيم الحزين المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغم مأخوذ من الكظامة وهو سدّ فم القربة» انتهى، وعبارة (الراغب): «وكَظْمُ السقاء شَدّهُ بعد مَلئِه مانعاً لنَفَسه» انتهى.

﴿٥٩﴾ ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يكون حيث لا يرونه،

ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا

ولعل ذلك يفعله فراراً من ضحكهم وسخريتهم بسبب البنت المولودة له، فهو توارى من القوم من سوئها في اعتقاده.

قال الراغب في (المفردات): «السُّوءُ: كل ما يَغمُّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مال وجاه وفقد حميم» انتهى.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ أي يفكر في حال تواريه أيمسكه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ على هوان وذلّة لعله لخوف الفقر من زيادة النفقة؛ أو للخوف من كلام السفهاء وسخريتهم منه؛ أو للخوف من أن تنهب عليه في حرب فتسبى ويكون ذلك عاراً عليه؛ أو للخوف من أن يضطر إلى تزويجها من غير كفؤ أو نحو ذلك مما يخوفه الشيطان ليدسها في التراب أي يدفنها لتموت في التراب ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ تنبيه للسامع ليصغي للقرار بعدها ﴿سَآءَ﴾ قَبُح ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث جعلوا لله ما يكرهون، أي جعلوا له البنات وهن عندهم سوء.

﴿٦٠﴾ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي لهؤلاء الذين جعلوا لله البنات لأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فكان عدم إيمانهم بها سبباً لتجريهم على الجرائم من الشرك وجعل البنات لله سبحانه ووأد البنات وغير ذلك، فلو كانوا يؤمنون بالآخرة لردعهم الخوف من عذاب الله، فلهم ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ فهم المستحقون له، أو هو عام لكل من لا يؤمن بالآخرة، والمثل هنا بمعنى قول الواصف الذي يضيف إلى من يقول فيه أمراً.

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ
أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ

والسَّوءُ: مصدر ساء ضد سَرَّ، كما أفاده في (الصحاح) فمثل السوء: المثل الذي يسوء، فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم المستحقون أن يقال فيهم القول الذي يسوءهم لاستحقاقهم الذم والإهانة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ فهو الذي يستحق التحميد والتكبير والتسبيح والتهليل وكل ما تفيده أسماؤه الحسنى ينسب إليه في السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُنال ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يتخذ ولداً لا ذكراً ولا أنثى؛ لأنه الغني.

﴿٦١﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

﴿يُؤَاخِذُ﴾ فعل مضارع للحال، وقد يكون هذا الحال مدة طويلة؛ لأنه يعبر عن العادة المتكررة التي هي غير محدودة، مثل: «الحسد يأكل الحسنات» ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ أي لو كانت عادته في هذه الدنيا أن يؤاخذ الناس بظلمهم وظلمهم هو المعاصي كما حققته فيما مرّ ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على المسكونة ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ فكان يهلك الناس أينما كانوا من الأرض ويهلك ما حولهم من الدواب، وهذا يشعر بعذاب يعم الناس والدواب كلها فهو عذاب شديد، كالغرق لقوم نوح أو غيره، والدواب لها أعواضها فيما لحقها من ذلك العذاب وكذلك الأطفال ولكن يؤخرهم هذا في العادة الغالبة، وقد يهلكهم في حالات نادرة إذا كذبوا الرسل وحاربوا الدين كما دل عليه في القرآن في سور متعددة ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ في العادة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ وهو الموت أو العذاب الذي أخرَّ عنهم وأُمْهلوا قبله ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ﴾ في الحياة ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ الموتَ قبل أجله لأن الله غالب على أمره؛ ولذلك يموت الأطباء الكبار والملوك الذين تجتمع الأطباء للتوصل إلى دفع المرض عنهم حرصاً على حياتهم.

(٦٢) ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ ﴿مَا يَكۡرَهُونَ﴾ إما البنات وأعيد ذكره ليرتب عليه ما بعده، وإما كل ما يكرهون مما حرموه على أنفسهم فلم يجعلوها لله إلا لأنهم يكرهونها وهذا من لؤمهم وبعدهم عن شكر نعمة الله ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿تَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ﴾ الوصف ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ أي يقولون في أنفسهم الكذب الذي لا أصل له، إنما هو اختلاق ألسنتهم له وهو دعواهم أن لهم الحسنى أي أنهم يستحقون الحسنى وأنهم أهلٌ لأن يؤتيهم الله الحسنى، كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ حقاً أن لهم النار، فهي التي يستحقونها، قال الشرفي في (المصابيح): «﴿لَا جَرَمَ﴾ يعني قطعاً ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ وحقاً أنهم يعذبون بها، ثم قال: وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه ـ كذا ـ لا جرم أي لا شيء ألزم من أن لهم النار» انتهى المراد. وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً» انتهى.

ومحل هذا التفسير ﴿لَا جَرَمَ﴾ الماضية في هذه السورة، والحاصل: أن لا جرم تفيد تأكيد ما بعدها ﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ ـ بكسر الراء ـ مسرفون، ـ وبفتح الراء ـ مقدمون إليها قبل أتباعهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩] فالمعنى مع ـ فتح الراء ـ وأنهم مفرطون إليها أي إلى النار.

أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى

قال الشرفي في (المصابيح): ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا فرطكم على الحوض» أي متقدمكم، انتهى المراد.

﴿٦٣﴾ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مخالفة الرسل ومعصية الله، وهو أعم من الشرك ومن تكذيب الرسل ﴿فَهُوَ﴾ أي الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ قد حرموا ولاية الله لهم وخذلوا فتولاهم الشيطان ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٤] فهو وليهم في حياتهم، واستمر حكم الولاية بعد موت من قد مات منهم، لأنه لم يخرج من طاعة الشيطان ولم يبدل بولاية الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] فلا ولي لهم إلا الشيطان وهو لا يفيدهم شيئاً، وإنما بقي عليهم حكم ولايته هذا فيمن قد مات منهم، أما من لم يزل حياً من أهل الكتاب وغيرهم فظاهر، فقوله تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ معناه أنهم تحت ولاية الشيطان حتى اليوم نعوذ بالله منه.

قال الشرفي في (المصابيح): «وهذا تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم» انتهى، قلت: وفيه تحذير من معصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيان لنتيجة ولاية الشيطان وعصيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهي عذاب جهنم، ففيهم عبرة لمن أرسل الله إليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا رد على المكذبين بالقرآن الذين قالوا أساطير الأولين فما أنزله الله إلا نعمة ورحمة وهدى لمن آمن، فما كان ينبغي لهم لو استعملوا عقولهم محاولة ردِّه وإبطاله؛ لأن ذلك جهالة وحماقة إذ عَرَض عليهم الخير فلم يقبلوه واستبدلوا به طاعة الشيطان وولايته والذي اختلفوا فيه شيء معروف معهود عندهم؛ ولذلك جعل صلة الموصول قولَه: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ ولعله البعث، قالوا: كانت العرب مختلفة فيه منهم من يثبته ومنهم من ينفيه، وبيانه فيه إنذار وتبشير، فهو مطابق لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ إما بمعنى: من شأنهم أن يؤمنوا؛ لأنهم منصفون طالبون لمعرفة الحق وما تبين لهم من الحق آمنوا به، وإما بمعنى: مؤمنين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] والأول أقرب هنا ـ والله أعلم.

﴿٦٥﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾ المطر ففيه آية تدل على قدرته وعلمه وعلى أنه الرزاق لعباده، وعلى أن الحياة بعد الموت حقّ بقدرة الله تعالى وعلمه فكما أحيى الأرض بعد موتها يحيى الأجساد بعد موتها وهذه الآية احتجاج على الكفار؛ لأنهم يقولون: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل:٦٧] وقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ يفيد: أن الآية هذه واضحة إذا أصغى لها الكفار أسماعهم كفتهم ولكنهم يعرضون.

لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا
خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ

﴿٦٦﴾ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ آية تدل على قدرة الله تعالى على ما يستبعده الإنسان، وهذه العبرة فسرها قوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ فاللبن يتكون من غذاء الأنعام سواء كان من الفرث قبل أن يتكون منه الدم أم كان من الفرث بعد أن يتكون منه الدم، ويتكون اللبن من الدم، فكل ذلك عبرة تدل على قدرة الله تعالى على ما يستبعده الإنسان؛ لأن اللبن خالص ليس فيه شائبة فرث ولا دم مع مرور أصل اللبن من بين الفرث والدم، فإذا عرف الإنسان هذا وفكر فيه فليعرف قدرة الله على إحياء الموتى، وليعرف أن مجرد الاستبعاد لا ينافي قدرة الله القدير العليم لما شاهد من صنعه لما استبعده الإنسان.

﴿٦٧﴾ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَ﴾ نسقيكم ﴿مِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ كما نسقيكم اللبن الخالص نسقيكم عصير العنب ونبيذه وكذلك لب الرطب ونبيذه ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ مسكراً محرماً عليكم ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً طيباً، ومنه الخل يجعل في الإدام، وروي فيه الحديث عن النبي ﷺ : «نعم الإدام الخل». وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «السَّكر الحرام والحسن الرزق الحلال» انتهى.

إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام في تفسيره لهذه الآية ما لفظه: هذا إخبار من الله تبارك وتعالى بما رزقهم من ثمرات الأشجار التي يتخذون منها الأرزاق ويدخرونها من التمر والزبيب وغير ذلك من الحبوب التي هي معيشة لهم وحياة، ويتخذون - أيضاً - السكر الذي نهاهم الله عنه وحرمه عليهم فوقفهم هاهنا في هذه الآية على كفر من فعل ذلك لنِعَمِه إذ صرفوا رزقه في السكر الذي حرمه.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فأخبر أن فيما فعل وفعلوا من حسن رزقه وجميل فعله بهم واتخاذهم له سكراً وصرفهم عن الطاعة إلى المعصية ﴿لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾» انتهى. آية لأهل العقول الذين يستعملون عقولهم تدلهم على قدرة الله تعالى وعلمه وكرمه وسعة فضله وحلمه.

﴿٦٨﴾ ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ ﴿وَأَوۡحَىٰ﴾ علمها وهداها لاتخاذ بيوت كما هدى سائر الطير لاتخاذ بيوت، ولكن هدى النحل لاتخاذ بيوت تناسب إنتاجها للعسل فلو اتخذت بيوتها في الأرض كالنمل لاختلط العسل بالتراب عند التماسه، وكذلك لو صنعت لها أعشاشاً من جنس أعشاش الطير لكان يختلط بأعشاشها ويسيل خلالها، ويمتزج بالخيوط والريش والأعواد ونحوها، وهذا مع ما جعله تعالى لها من تدبير اجتماعها واتباعها ليعسوبها حتى تتعاون على إنتاج العسل في بيوتها.

مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي خلايا النحل التي تجعل على العريش، وجعلها سبحانه مأمورة لأنه جعل لها رغبة لوظيفتها فهي تقْبل عليها إقبال المأمور، وذلك لتحصل فائدتها للإنسان فتسخيرها لنفعه كالأمر.

﴿٦٩﴾ ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كُلِى﴾ أيها النحل ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وهذا هو الأصل في طلبها لرزقها وبه يكون العسل جيداً، أما إذا جعل لها نوع مخصوص كانت جودة العسل ونقص جودته تبعاً لذلك ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ سبله إلى الثمرات وسبله إلى الخلايا وإلى الماء فهي ملهمة لأرزاقها ومائها ملهمة للعودة إلى بيوتها ﴿ذُلُلًا﴾ قد ذلَّلها الله وسخرها لذلك، فهي في خدمة الإنسان عاملة مستمرة.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ اختلف السياق فلم يجعل هذا مما أمرت به؛ لأنه يخرج من بطونها اضطرارياً ﴿شَرَابٌ﴾ كما جعل من الثمرات شراباً ومن الأنعام شراباً ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أسود وذلك بتدبير الخالق البصير ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وهذا واضح بالتجربة.

قال بعض الأطباء: «العسل سيد الأدوية» وقد صنف بعضهم كتاباً في منافع العسل، فهو نعمة عظيمة للإنسان ولم يذكر لذته لأنها معروفة، ونعمة الشفاء به أهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ آية تدل على الله الذي خلق النحل وعلمها وظيفتها وسخرها لنفع الإنسان وإنتاج ما فيه شفاء للناس فهي آية كالآيات التي سبق ذكرها يهتدي لها ويعرفها الذين يتفكرون في آيات الله ودلائله، والإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكر في الآية من أولها وهو تهيئة أسباب حصول العسل للإنسان نعمة من الله عليه وآية له.

عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ
فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ

﴿٧٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فخلقنا دليل على علم الخالق وقدرته، وقد نبه تعالى على ذلك بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] فقليل من تفكُّرِ الإنسان في خلقه يحصل له به العلم بقدرة الخالق وعلمه، بل تفكره في عضو واحد من أعضائه يكفيه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ كذلك دليل على قدرته تعالى وعلمه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت ولو كان ملكاً أو طبيباً ماهراً؛ ولأن الموت مقدّر بين الناس على ما تقتضيه الحكمة حيث يموت القرن من الناس في أوقات يموت فيها فرد منهم ثم في وقت آخر فرد آخر حتى يذهب القرن وقد خلفه قرن آخر من دون أن يهلك القرن كله في وقت واحد، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة:٦٠] ولأن الموت تختلف آجاله فمن الناس من يموت طفلاً ومنهم من يموت في شبابه إلى غير ذلك وذلك بتقدير الله تعالى للحياة والموت.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ﴾ يرد إلى حالة الضعف الشديد في أرذل عمره وأدناه وأخسه لاجتماع الهرم وشدة ضعف البدن وذهاب العقل وكون أكثرهم مكروهاً ليس كالطفل يحبه أبواه وتنظفه أمه برغبة ليدل نكس خلقه على أن مراحل وجودة كانت بصنع الخالق الذي حدد نموه وجعل لنموه مقداراً مختلفاً كما أراد خالقه الفعال لما يريد العليم القدير.

سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ

﴿٧١﴾ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ جعل لبعضكم من الرزق أكثر مما رزق البعض الآخر لحكمة، فالرزق نعمة وآية، وعلى المفضَّل أن يشكر، وعلى المفضَّل عليه أن يشكر على ما رُزق ويرضى بقسمة الله تعالى، ويصبر على الإقلال إن كان فقيراً، وهذا فيه رد على من قال بالإشتراكية، وعلى من ادعى أن الله تعالى ساوى بين عباده في الرزق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ الراجح: أنه كقوله تعالى: في (سورة الروم): ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨] فهي ردّ على المشركين تبين أن الله العزيز الحكيم لم يجعل لنفسه شركاء في عباده؛ لأنه نقص من العزة منافٍ للحكمة، فبيّن تعالى في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ اي في الرزق ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾ بجاعلين له لعبيدهم يملكونه كما تملكه سادتهم فهم في ملكه سواء؛ لأن هذا من سوء التدبير والتصرف الذي لا يرضاه لنفسه عاقل، فظهر بهذا: أن الله تعالى عدد نعمه في هذه السورة ليشكره عباده ويعبدوه وحده.

ألا ترى إلى الآيات في أوائل هذه السورة التي فيها تعداد كثير من نعم الله كيف عقبها بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟

واحتج كذلك في أثناء السورة هذه فقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فكذلك سياق الآيات التي نحن في سياق تفسيرها من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً..﴾ إلى قوله فيما يأتي: ﴿.. أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا..﴾ الآية، فبان بذلك صحة تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟..﴾ الآية، بأنه احتجاج على المشركين بأنا لا نرضى أن نجعل مماليكنا شركاء لنا في رزقنا بحيث نصير نحن ومماليكنا سواء في ملكه وولاية التصرف فيه، فالله تعالى العزيز الحكيم لا يرضى أن يجعل لنفسه شركاء في عباده.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ينكرون ما هو معلوم، يبين أن عليهم أن يشكروا، أفبنعمه يجحدون حين كفروا وعبدوا غيره؟ فإن كانوا يقرون بنعمة الله عليهم فكيف لا يشكرون فيعبدونه وحده.

﴿٧٢﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني من بعضكم» انتهى المراد.

أي جعل للناس من جنسهم أزواجاً للذكور من الإناث وللإناث من الذكور وبذلك يسكن الزوج إلى زوجه ونعمة الزواج عظيمة للذكر والأنثى

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ وهي نعمة، قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] وإذا كانوا أبراراً فالنعمة بهم أعظم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾ هم أبناء الأبناء القائمين على خدمة أجدادهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «الحفدة الخدّام والأعوان» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «حفدة: جمع حافد، وهو المتحرك المتبرع بالخدمة أقارب كانوا أو أجانب» انتهى.

وهذه نعمة عظمى، وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ لعل الضمير للآباء والأبناء والحفدة فهو سبحانه الرازق لهم كلهم، وكون الرزق من الطيبات نعمة عظيمة؛ لأن الإنسان لا يعيش إلا به فلو لم يكن من الطيبات لكان أكله شاقاً ومع ذلك ضرورياً فالحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ كإيمانهم بمن جعلوهم شركاء لله وبما جعلوا لهم من رزق الله كما مر في سورة الأنعام، وبتحريم البحيرة وغيرها كما مر في سورة المائدة، وقوله تعالى: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بمعصيته وتكذيب آياته وإيمانهم بالباطل.

(٧٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ ليس بيده شيء من رزق صادر من السموات والأرض كالمطر من السماء والنبات من الأرض فيرزقهم إياه ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ملك شيء.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الأخفش: جعل قوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ بدلاً من قوله: ﴿رِزْقًا﴾ والمعنى: لا يملكون رزقاً قليلاً ولا كثيراً» انتهى المراد.

لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ﴾ الفاء للتفريع على ما سبق من الاحتجاج على المشركين والخطاب لنهيهم عن ضربهم لله الأمثال، وضرب المثل تحصيله ولعلهم احتجوا لبعض باطلهم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] فالمثل قوله: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وضربه: صياغته وتحصيله فردّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فقوله تعالى هو الحق، ومثلهم جهل وتضليل.

ولعل المثل الذي ضربوه لتبرير شركهم قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] فهم مبطلون وعليهم أن يؤمنوا بالله وحده ويكفروا بشركائهم، ولا يفيدهم قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا﴾ لأن الله علام الغيوب فقوله الحق، وهم لا يعلمون فمثلهم الباطل.

﴿٧٥﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هذا المثل يبين ضلال المشركين في جعلهم شركاءهم أنداداً لله سبحانه فأصنامهم كالعبد المملوك؛ لأنها لله مملوكة لأنه خالقها وهي مع ذلك كالعبد العاجز الذي ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ فلا يعمل ولا تحصل منه أي فائدة.

ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ

والله تعالى هو المالك لكل شيء القادر على كل شيء وهو الذي يرزق عباده الخير كله، فكيف جعلوا شركاءهم أنداداً له ـ جلَّ جلاله ـ مع أنهم يعلمون أنه لا يسوى بين العبد العاجز وبين من هو حرّ رزقه الله رزقاً حلالاً ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا﴾ لرغبته في فعل الخير وحبه للإحسان لا لأجل سمعة في الناس، وينفق ـ أيضاً ـ ﴿وَجَهْرًا﴾ كما ينفق سراً لكثرة إنفاقه، فالحمد لله الذي منه الخير كله، والذي هدى عباده إلى توحيده وإلى طريق مستقيم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لإعراضهم عن الحق وكراهتهم له فليس عندهم استعداد لعلم بالصواب.

﴿٧٦﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في (الصحاح): «الأبكم: الأخرس» انتهى باختصار، وفي (مفردات الراغب): «أبكم وهو الذي يولد أخرس، فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم» انتهى.

ومثله في (مصابيح الشرفي): «قال: الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يُفهِم لعدم السمع والنطق» انتهى.

فهذا مثل كالمثل الأول في إفادته، مُثِّل شركاؤهم برجل جمع صفات:

الأولى: أنه ﴿أَبْكَمُ﴾.

الثانية: أنه ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فهو عاجز عن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره.

الثالثة: أنه ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾.

إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ

في تفسير (الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: عَيَال عليه» انتهى، وفي (الصحاح): «الكَلّ: العيال والثِقْل، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾» انتهى، وفي (الصحاح): «وعيال الرجل: مَن يعوله» انتهى فهو مع عجزه ثقل على مولاه.

الرابعة: أفادها قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أينما يوجهه مولاه لتحصيل نفع لا يأت بخير؛ إما لعجزه، وإما لكسله عن تحصيل أي فائدة يتوصل لها بإشارة أو غيرها، وبذلك يثقل على مولاه وييأس من نفعه لنفسه أو لغيره.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هل يستوي ذلك العاجز ومن هو كامل في عقله ونطقه وسلوكه، فهو لكماله يأمر بالعدل الذي هو ضد الجور والظلم وهو على صراط طريق واضح مستقيم حق لا عوج فيه، هذا سؤال لا شك في أن جوابه: (لا يستويان) فكيف جعل المشركون أصنامهم التي لا تفيدهم شيئاً، بل هم لها جند محضرون لحمايتها؟! يجعلونها أنداداً لله العزيز الحكيم هذا منهم ضلال مبين.

﴿٧٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ما غاب فيها فلا تعلمه الملائكة ولا غيرهم من الخلق ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غاب في الأرض فلا يعلمه أهلها ولا غيرهم من الخلق، فالله يعلمه وحده؛ لأنه علام الغيوب فهو الرقيب على أهل السموات وأهل الأرض لأنه بكل شيء عليم.

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ من لمح البصر في سهولته وسرعته، وأمرها إيجادها والأمر هنا، إما بمعنى الشأن وهو الراجح، وإما بمعنى قوله: كوني الذي هو تمثيل لإيجادها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين ابن القاسم عليه السلام: يعني بذلك المثل بلمح العين، ويريد ـ تعالى ـ أن سهولة قيام الساعة كسهولة النظر بالعين عند المخلوقين» انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): «لَمَحَهُ وألمحه، إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم اللمْحةُ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ أي أقرب من لمح البصر و(أو) هنا للترديد لا للشك؛ لأن الله علام الغيوب لا يجوز عليه الشك، وفائدتها: بيان السرعة والسهولة بالنسبة لأفهامنا وتصورنا، أي أنه في غاية السهولة وغاية السرعة؛ لأنا لا نتصور فرقاً بين لمح البصر وبين أقرب منه، وإنما نفهم غاية السرعة والسهولة وهو المراد منا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليل للسهولة أي عدم المشقة وللقدرة على تحصيل الساعة في مثل لمح البصر أو هو أقرب؛ لأنه لا يصعب عليه شيء لأن كل شيء مقدور له من غير فرق بين ما هو سهل بالنظر إلى قدرتنا وما هو صعب، أو لا نستطيعه أصلاً، فلا فرق بين الممكنات في قدرته عليها بلا كلفة ولا عناء ولا مشقة لأنه قادر لذاته وقدرتُه غير محدودة فهو قادر على الممكنات على سواء لا فرق بينها في قدرته تعالى.

وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ

﴿٧٨﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه آيات تدل على قدرته تعالى وعلمه وسعة فضله وعظم نعمه علينا وهذه نعم وهبها لنا تعريضاً لنا على شكره ليثيبنا على شكره في دار كرامته ورحمته، والأفئدة محالّ العقول سواء كان الفؤاد باطن القلب أم هو القلب فالمراد أنه جعل لنا آلة الفهم والعلم.

قال الراغب في تفسيره (لمفردات القرآن): الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤّد أي التوقد..إلخ ونحوه في (لسان العرب).

﴿٧٩﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ بتسخير الله لها ولعله اعتبر تسخيراً من حيث جعلها الله تطير لتكون آية ودليلاً على قدرته، حيث يمسكها في الجو دون الدواب، والجو الهواء أو ما ارتفع من الهواء، وإضافته إلى السماء تدل على ارتفاعه في الهواء.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأنه خالق الطير على صفة تصلح لذلك، فجعل له الريش الخفيف الذي يبسطه في الهواء وجعل رئتيه مخالفتين لرئات الدواب وكذا كليتاه وجعل الهواء صالحاً لحمل الطير سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إما يؤمنون بالقوة أي من شأنهم أن يؤمنوا إذا رأوا آيات الله، وإما يؤمنون بالفعل لأنهم يتفكرون في آيات الله فيزدادون إيماناً.

ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا
وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ

ففي هذه الآيات حجة على المشركين في جعلهم أندادا لله ولم يفكروا فيعرفوا أن لا يستوي من يخلق ومن لا يخلق بل ومن هو عاجز عن كل نفع، وحجة عليهم في استبعادهم القدرة على إحياء الموتى.

﴿٨٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ ﴿سَكَنٗا﴾ تسكنون فيها لفوائد المساكن من ضر البرد والشمس وغيرهما، فهي نعمة عظيمة، ولم يمكن الحيوانات من بناء البيوت كما مكن الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ هي الجلود المدبوغة تجعل قباباً وخياماً للبدو والمسافرين ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ تنتفعون بخفتها حين تعتبرونها خفيفة لنقلها عند الظعن وهو الانتقال إلى ناحية أخرى كما يفعل البدو حين يطلبون لأنعامهم مواضع المرعى والماء، فينتقلون له من موضع إلى موضع فيسهل عليهم حمل بيوتهم على دوابهم، بخلاف البيوت التي تبنى من الطين أو من الأحجار، فهذه نعمة خفة البيوت التي من جلود الأنعام لنقلها معهم ولضربها حيث يقيمون بأن يضعوها فتحصل بسرعة بواسطة أعواد تحتها تنصب في الأرض وحبال في أطرافها تمد وتمسك بأوتاد في الأرض فيكتفون بها عن بناء بيوت بطين أو بأحجار.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ أي وجعل لكم من أصوافها، قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: الصوف:

ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ

هو شعر الضأن، والوبر: هو شعر الإبل، والشعر: هو شعر المعزا، وهذه عبارة مني وبيان، فأما العرب فلا تجيز أن يسمى الوبر والصوف شعراً..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا﴾ أي جعل لكم من هذه الثلاث أثاثاً كالفراش واللباس والغرائر والحبال، وهذه نعم لحاجة الإنسان إلى ما يقيه البرد من هذه وإلى سائر منافعها، وفيها تكريم للإنسان حيث جعل له ذلك من الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي نفعاً محدوداً في هذه الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهو ينتهي بالموت أو غيره كما أن الجلود والأصواف والأوبار والأشعار تبلى حتى يذهب نفعها ويحتاج الإنسان إلى تبديلها، فما أعظم نعم الله على الإنسان وأكثرها!!

﴿٨١﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ﴿مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ يظلكم من الشمس والمطر وذلك كالشجر التي تظل الإنسان والكهوف التي في الجبال وما يظل الإنسان من الجلود والأشعار والثياب.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ كالكهوف والبيوت المنحوتة في الجبال، تُكِنُّ من المطر وفيها منافع أخرى كالوقاية من القنابل والصواريخ التي تكون في الحروب.

نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن
كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا

﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ﴾ لباساً من القطن وغيره ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ لأن جلد الإنسان إذا باشره شعاع الشمس آلمه وقد يضره؛ لأن الإنسان ليس له شعر كالدواب ولا ريش كالطيور فجعل له اللباس وفيه نفع من البرد إلا أن السورة مكية ومكة حارة فكان المناسب تذكيرهم بنعمة ما يقي من الحر.

وقوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ هي ملابس من الحديد تصنع لتقي من سلاح كانوا يستعملونه في الحرب سيوف ورماح وسهام ترمى بالأقواس، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ فهو يدل على نعم غير هذه النعم المذكورة مثلها يتم بها علينا نعمته وتفضله وإحسانه.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ تعريضاً لكم على أن تسلموا وجوهكم لربكم شكراً على نعمه، فمن حق العاقل إذا عرف النعمة أن يشكرها ولا يكفرها، وإسلام الوجوه: إخلاص العبادة لله، واجتناب الشرك.

﴿٨٢-٨٣﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ * يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أبوا الإسلام بعد هذا الاحتجاج الكامل والتذكير بنعم الله والإنذار ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ليس عليك أن يهتدوا والمبين البلاغ الواضح المبين لما بلغه بحيث يُسمع تماماً ويفهم فهماً كاملاً ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ آياته التي هي نعمة لإنقاذها لمن آمن بها من الضلال وما يؤدي إليه من العذاب وإخراجها لمن آمن بها من الظلمات إلى النور، فقد سمعوا هذا القرآن العظيم، وعرفوا أنه

رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا
ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا

معجز خارق لا يأتون بمثله ثم ينكرون هذه النعمة ويقولون: ما نزل الله من شيء ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لنعم الله بعبادة غيره، وتحريم بعض ما أحل الله وجعله نعمة لهم من الأنعام وغيرها وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال فيه الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا الدلالة على [أن] إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن من حق مَن عرف النعمة أن يعترف بها فلا ينكرها» انتهى، وآخر الكلام ملتبسٌ خطه إنما صححته أنا. قلت: ونظير هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة:٢٢].

﴿٨٤﴾ ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ ﴿وَيَوۡمَ﴾ واذكر ﴿يَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾ بعد تعداد النعم والآيات الماضية اذكر لهم الموعظة ذكر يوم البعث وحالهم فيه ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ أي نبعث شهيداً عليهم منهم، وهو يكون النبي على من كان في عصره ورآه فعلم بإيمانه أو كفره، وأما بعد وفاة النبي فمن كل أمة خيرهم، كما قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣] يشهد على من شاهده وعرف عمله، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «أي لا يقال لهم: ارضوا ربكم» انتهى، فالمعنى: لا يستتابون؛ لأنها لا تقبل منهم توبة.

﴿٨٥﴾ ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إما الذين كفروا وأصل الكلام وإذا رأوا لتقدم ذكرهم إلا

نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ
إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

أنه ذكر الظلم؛ لأنه سبب العذاب؛ لأن الكفر ظلم وحيف وجور وكذا سائر المعاصي المتعمدة كلها ظلم، وإما الذين ظلموا عام لكل من ظلم سواء بالكفر أم بغيره، والعذاب: ما يعذبون به في الآخرة وهوا لنار فلا يخفف عنهم بتخفيف حرّها مثلاً.

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون وإنما يحاسبون ويسألون فإذا انتهى السؤال والحساب وقضي عليهم بالعذاب لم يمهلوا، وهذا على فرض أنهم يسألون وهم يرون الجحيم، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٦-٨] فأما إذا كانوا لا يرونها إلا بعد فصل القضاء فظاهر.

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ كأنهم يدعون الله بهذا ليجعل بعض عذابهم على شركائهم فيخف عنهم، أو أرادوا أن يعذب شركاءهم بغضاً لهم منهم، وقولهم: ﴿ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ﴾ هو دعاءهم الذي لم يكن ينفعهم وكان عبادة لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾ أي شركاؤهم ﴿إِلَيۡهِمُ﴾ إلى المشركين ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي ما كنا شركاء لله كما زعمتم أو ما كنا وحدنا شركاءكم لأن الشياطين أمروكم بعبادتنا فأطعتموهم فصاروا شركاء في إثم شرككم وفي عبادتكم لنا بالأمر والرضى، كقولهم: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣].

وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ

﴿٨٧﴾ ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة وقد رأوا أهوالها ألقوا ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ إلى الله كأنه شيء كانوا يأبون أن يسلموه، فلما رأوا أهوال القيامة ألقوه لشدة الباعث عليه ـ والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَأَلْقَوْاْ﴾ يعني الذين ظلموا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ أي الاستسلام والانقياد لأمره وحكمته، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع عنهم فلم ينفعهم ولم يدفع عنهم ﴿مَّا كَانُواْ﴾ يفترونه من شفاعة شركائهم وغير ذلك من الأماني التي كانوا يقولونها كاذبين مختلقين أمانيهم بلا مستند، كقول بعضهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠] ونسبة الضلال إلى ما كانوا يفترون والمراد معناه كقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:٨٠].

﴿٨٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صدوا غيرهم عن دين الله الذي شرعه لعباده، ومعنى صدهم لهم إغواؤهم لهم بأي أسباب الغواية ﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الذي استحقوه بكفرهم ومعاصيهم الأخرى ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ غيرهم فالإفساد سبب للعذاب مع السبب الأول.

وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ

﴿٨٩﴾ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿نَبْعَثُ﴾ أي يوم الخروج من القبور والسوق للحساب ﴿نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي مع كل أمة بينهم ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قد رآهم في الدنيا وشاهد ما كانوا يعملون من خير أو شر في الجملة بحيث ميز المطيعين من العاصين وهي كالأولى إلا أن في هذه زيادة تحقيق أنه يبعث فيهم الشهيد عليهم، والتصريح بأنه من أنفسهم.

فقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ﴾ أي جئنا بك يا محمد شهيداً على هؤلاء الموجودين حولك من قريش أو منهم ومن كنانة ولم يقل على أمتك لا هنا ولا في (سورة النساء) وهذا يوافق قول عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ..﴾ الآية [المائدة:١١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي هذا القرآن ﴿تِبْيَٰنًا﴾ أي نزلناه ﴿تِبْيَٰنًا﴾ إما منصوب على الحال، وإما مفعول مطلق أي لنبين كل شيء من الدين وأصوله والإنذار والتبشير وما يتعلق به من القصص والحجج، ونحو ذلك كقوله تعالى في (التوراة): ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٤] فالعموم هنا ما دل عليه السياق والقرائن، كما أن العموم في قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣] المراد به: توابع الملك ولوازمه من الثروة والآلات والسلاح ونحو ذلك.

وحكى الشرفي في (المصابيح): «عن القاسم عليه السلام أنه قال بعد تفسيره لـ(سورة الفلق): فليعلم من قرأ تفسير هذه السور الثلاث وما بعدها من التفسير أن كلما فسرنا من ذلك كله فقليل من كثير، وأن كل سبب من كلمات الله فيه فموصول بأسباب عند من خصه الله بعلمها من أولي النهى والألباب لا ينتهي فيه إلى استقصائه ولا يوقف منه على إحصائه» انتهى المراد.

ونحو هذا في مقدمة تفسيره عليه السلام التي هي (مديح القرآن الصغير) ذكرها الشرفي في (المصابيح) قبيل تفسير (فاتحة الكتاب) وهذا أولى من تفسير تبيانه لكل شيء بإحالته على سائر الأدلة لأنه لا يسمى تبياناً لكل شيء على طريق الوصف للكتاب وإلا لزم قولنا: الأدلة أربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس تبياناً لكل شيء، ويلزم أنه يصح أن تقول ألّفت كتاباً بينت فيه كل شيء وأنت إنما كتبت الإحالة على الأدلة.

فإذا كان هذا لا يسمى تبياناً لكل شيء صح أنه لا يصح تفسير الآية الكريمة بذلك وأن الله وصف كتابه بهذا الوصف أي تبياناً لكل شيء مدحاً له ودلالة على عظم فائدته لمن تعلم منه الدين وتفهم ما فيه من الهدى، فلا مجال من إبقاء النص على ظاهره وحمل خفاء ما خفي علينا بأنه بسبب قصورنا عن بلوغ الغاية في فهمه، من حيث أن بعض الأحكام يتوصل إلى فهمه من القرآن بضم آية إلى آية أو إلى أكثر، كما حصل لنا أن أقل الحمل ستة أشهر من ضم الإمام علي عليه السلام آية إلى آية، وذلك يتوقف على عنايةٍ بالقرآن كاملة، وعلى كمال الإستعداد لفهمه بكمال معرفة اللغة العربية، وكمال الزهد في الدنيا والورع، وكمال اللجوء إلى تفهم القرآن عن شعور بشدة الحاجة إلى فهمه، كما هو المناسب لعزته أن لا يهتدي به من يرى أنه مستغن عنه بغيره.

والله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١] فهو لا ينال بجرح أو تنقيص أو تحقير فكذلك لا ينال بتقليل فائدته؛ لأنه من التحقير المنافي لعزته وقد وصفه الله بالبركة في أربع آيات، وقال فيه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] كل ذلك يفيد إحاطته بأحكام الله تعالى.

ويناسب هذا ما رواه الإمام أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) وهي في (الباب الثالث عشر) وهو الحديث الخامس عشر، فيه حديث عن علي عليه السلام فيه بعض الطول قال فيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دار بلاء وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن..» إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وهو الدليل الذي يدل على خير سبيل، وكتاب تفصيل وبيان وتحصيل، والفصل ليس بالهزل، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنارات الحكمة، والدليل على المعرفة لمن عرف الطريقة، فليُولج رجل بصره، وليُبلغ الطريقة نظره، ينج من عطب، ويتخلص من أشب، فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور بحسن تخلص وقلة تربّص» انتهى.

وفيها في الباب المذكور وهو (الحديث التاسع) أسنده عن عبد الله - وهو ابن مسعود - قال: قال رسول الله عليه السلام: «إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا مأدبة الله ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله المتين، وهو النور المستنير، والشافع، والدافع، عصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه، لا يعوجّ فيقوَّم، ولا يزيغ فيثبّت، ولا تنقضي عجائبه..» الحديث.

وفي هذا الباب المذكور بإسناده: عن معاذ بن جبل قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفتنة فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: «فما المخرج منها»؟ قال: «كتاب الله فيه حديث ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم..» إلى قوله: «..وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم..» الحديث.

وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] ويناسب قوله في الحديث: «وهو حبل الله المتين» قوله صلى الله عليه وآله وسلم في (حديث الثقلين): «كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به لا تزلوا ولا تضلوا» و(حديث الثقلين) دليلٌ واضح على ما نحن فيه؛ لأن قوله: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي» يفيد: إحاطة القرآن بعلوم الدين فتأمل!

يؤكد ذلك ما رواه الإمام أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) في (الباب السابع) في فضل الإمام زيد بن علي عليه السلام بإسناده: عن أبي هاشم الرماني [رحمه الله] تعالى يقول: طلب زيد بن علي من أخيه عليه السلام كتاباً فأُغفِل عن ذلك أبو جعفر عليه السلام ثم ذكره فأخرج إليه الكتاب، فقال له زيد بن علي عليهما السلام: قد وجدتُ ما أردتُ منه في القرآن، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فأسألك؟ فقال له زيد عليه السلام: نعم سلني عما أحببت. فقال أبو هاشم: ففتح أبو جعفر الكتاب وجعل يسأله ويجيبه زيد بجواب عليّ عليه السلام كما في الكتاب، فقال له أبو جعفر عليه السلام: بأبي أنت وأمي يا أخي، أنت والله نسيج وحدك بركة الله على أمٍ ولدتك، لقد أنجبت حين أتت بك شبيه آبائك عليهم السلام أجمعين» انتهى.

وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟

هذا والسنة هي الدليل الثاني، وقول أمير المؤمنين علي عليه السلام، وإجماع آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبيان علة الحكم في أحد الأدلة، وإجماع الأمة كل ذلك من دلائل الدين عندنا، وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يحتمل أن قوله: ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي الذين أسلموا وجوههم لله وأخلصوا دينهم لله وتجنبوا الشرك راجع إلى قوله: ﴿تِبْيَـٰنًا﴾ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ كلها وهو الراجح عندي، ويحتمل تعلقه بالأخير وحده.

﴿٩٠﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أنه تعليل لقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وأنه ابتداء كلام، وكل ذلك صحيح، والعدل: ضد الجور والظلم، والإحسان ضد الإساءة، والأمر به لا ينافي كونه إحساناً غير مستحق كاستحقاق الدين، ولعل حده ما تقتضيه المروءة ويكون تركه نقصاً في التارك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إعطاء القريب من النسب وحده بقدر حاجة القريب الضرورية وما تقتضيه المروءة وقد مر ترجيح وجوبه وأنه غير خاص بالوارث إلا أن الوارث يجب عليه قبل سائر القرابة فإن غاب وتعذر منه الإنفاق أو تمرد وتعذر إجباره فعلى غيره من القرابة أن ينفق ومع عدم الاضطرار يصله صلة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ هي الفعلة الفحشاء الزائدة في قبحها، وقد استعمل اسم (الفحش) في بعض القول، وفي قصيدة النابغة:

لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار

وفي (لسان العرب): وفي الحديث:«إن الله يبغض الفاحش المتفحش» فالفاحش: ذو الفحش والخنا من قول وفعل، والمتفحش: الذي يتكلف سب الناس ويتعمده، وقد تكرر ذكر الفُحْش والفاحشة والفاحش في الحديث وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، قال ابن الأثير: وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا. انتهى من (لسان العرب).

قلت: وحيث ورد بمعنى الزنا فهو على حذف الموصوف كناية عن الزنا؛ لأن الله تعالى قال في (الزنا): ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢] فليس مفهوم اسم الفاحشة وإنما اسم الفاحشة وصف له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما تنكره العقول، قال الراغب في (تفسيره): «والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشريعة» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ أي ينهى عنه، وهو التعدي على عباد الله، أو محاولة الظلم لهم، وقال الشرفي في (المصابيح): «والبغي: طلب التطاول بالظلم» انتهى المراد. وفي (الصحاح): «البغي: التعدي، وبغى الرجل على الرجل: استطال» انتهى المراد.

وفي (أمالي المرشد بالله عليه السلام الخميسية) [١/١٥٣]: أن عمرو بن شعيب لما أسقط عمر بن عبد العزيز من الخُطَب على المنابر لعن أمير المؤمنين عليه السلام

ﭐلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا

قام إليه عمرو بن شعيب وقد بلغ إلى الموضع الذي كانت بنو أمية تلعن فيه علياً عليه السلام فقرأ مكانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ فقام إليه عمرو بن شعيب ـ لعنه الله فقال ـ : يا أمير المؤمنين السنّةَ السنَّةَ، فقال عمر: أسكت قبّحك الله تلك البدعة تلك البدعة لا السنة، وتمم خطبته» انتهى، وقد سقط من المطبوعة تكرار «تلك البدعة»وهو ثابت في (الأمالي) مصحح.

وفي أمالي أبي طالب عليه السلام رواية خطبةٍ عن علي عليه السلام في آخرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ..﴾ إلى آخر الآية، وهي في الباب الرابع عشر من (تيسير المطالب).

وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمۡ﴾ أي بأمره ونهيه المذكورَين أو بنهيه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ تعريضاً لكم على التذكُّر وهو الانتباه من الغفلة المسبب لاجتناب ما نهى عنه؛ لأن تذكر نهي الله تعالى يصرف المؤمن عن المعصية.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ ليس المراد منه الترجي والتمني فإن ذلك محال على الله تعالى فوجب أن يكون معناه أنه تعالى يعظكم لكي تذكروا طاعته، وذلك يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل خلاف ما افتراه المجبرة» انتهى.

﴿٩١﴾ ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ عهد الله: ما عاهد اللهَ به المعاهدُ والعهد القول الموثّق المؤكد، ومثاله: أن يقول أعاهد الله على كذا، هذا مثال عهد الله المذكور هنا.

وكذا لو قال: أقسم بالله لأطيعن الله أو نحو هذا، فهو من عهد الله.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في بيعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس على الإسلام، وهي عامة في كل عقد عقده الإنسان في يمين على نفسه مختاراً فإنه يجب الوفاء به ما لم تدع ضرورة إلى حَله» انتهى.

فجعل الآية تعم ما بين العبد وربه وما بين الناس من بعضهم لبعض، ويمكن تخصيص عهد الله بما عاهد العبد ربه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة:٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ [الأحزاب:١٥] وغير ذلك، فأما ما بين الناس، فيشمله قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وقوله تعالى في (سورة الإسراء): ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الآية [٣٤].

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي تقويتها ليوثق بها وتوكيدها بقصدها وتعمدها المخرِج لها عن يمين اللغو التي تجري على اللسان بغير قصد الحلف، وتوكيدها مع القصد بكونها قسماً بالله يوجب لها حكم اليمين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ أي حين حلفتم به ليكون ذلك عهداً جعلتم الله كفيلاً عليكم بالوفاء؛ لأنكم جعلتموه ملزماً لكم بالوفاء من أجل الحلف به كما يطلب الكفيل الغريم بالوفاء بل أشد منه؛ ولأنكم جعلتم اليمين بالله موثقاً لمن عاهدتموه، كما تجعلون الكفيل موثقاً له وذلك من جهة إيمان المعاهِد والمعاهَد بعزة الله وتعرض الناكث لليمين لعقوبته، فصار التوثيق بالعهد راجعاً إلى التوثيق بالتعرض لعقوبة الله إن نكث فبهذا يكون قد رضي على نفسه في العهد بعقوبة الله له إن نكث، ومعنى ذلك: أنه قد جعل الله عليه كفيلاً بالوفاء.

تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ
إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ
﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان إن الله يعلم ما تفعلون فهو يجزي بالوفاء ويعاقب على النكث.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ إما بالنكث للعهد وإلغائه، وإما بإحباط أعمالكم بسبب الغدر، والأول معناه التنفير من النكث بالتشبيه للناكث بالتي نقضت غزلها، ولا يصح هذا بمجرده، والأولى حمله على معنى: أن العهود يحتاج إليها الناس لتحصيل الثقة بينهم في الصلح حيث يعاهد عليه بعضهم بعضاً فيتم الصلح ويستمر الأمن في مدة الصلح، وفيه نفع لمعايشهم ولمن يضعف عن الحرب، فإذا نكثوا العهد بطلت الثقة وصار العهد قليلَ الفائدة وكذا العهد في سائر الأمور.

وبهذا المعنى يستقيم التشبيه على معنى إبطال المنفعة من العهد فيفيد التشبيه للناكث بالتي نقضت غزلها؛ لأنها أبطلت فائدة الغزل ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ في الخيوط حصلت بالغزل فحين نقضت غزلها الذي فتلته وحولته إلى أنكاث أي غير مغزول بعد غزله من الصوف أو غيره أبطلت فائدة غزله.

وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «فالقوة: الكُبَّة، والأنكاث: المنقوضة منها» انتهى. وأما تفسير التشبيه بالتي نقضت غزلها أنه لإحباط العمل فظاهر لكن لم أجد أحداً فسرها به مع أنه مناسب للتحذير من نكث العهد ـ والله أعلم ـ ويمكن تفسيره بالمعنيين لعدم التنافي بينهما.

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ فهو تفسير للمنهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ﴾ أي باتخاذ أيمانكم دخلاً بينكم، والدخل في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «هو الفساد» انتهى، أي يتوصلون بها إلى الغدر.

وفسر (صاحب الصحاح) (الدخل): بالعيب والريبة، وقال: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أي مكراً وخديعة» انتهى [وفي كتابة الآية في (الصحاح) غلط مطبعي] أما في (مفردات الراغب) فقال: «والدخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة كالدَّغَل» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي دغلاً ومفسدة، بمعنى: غشاً وخديعة» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ الراجح فيه: أنه بمعنى (لئلا) كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ [البقرة:٢٨٢] وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦] فالمعنى لا تتخذوا أيمانكم دخلاً كراهة أن تكون أمة هي أربى من أمة، ولئلا تكون التي تغدرون بها أربى من أمة أخرى كثيرة العدد فتنكثوا عهدكم، رغبة في بقاء الأمة التي عاهدتموها قليلة العدد بالنسبة إلى الأمة الأخرى، فهذا لا يبرر نكث العهد، ويمكن في مثل هذه الحالة إبلاغ المعاهَدين نهاية الصلح بغير غدر بهم كما نزلت براءة لإعلان حرب المشركين بعد أربعة أشهر من البلاغ.

يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا
بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي بحذر أن تكون أمة هي أربى من أمة أو خوف ذلك أو بمثله مما يرغب في نكث العهد فهو ابتلاء من الله واختبار يتميز به من يثبت على عهده ومن ينكث، وقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وقد مرَّ، وبيانه يوم القيامة بالتمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل فيما كانوا فيه يختلفون، وقوله: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ أي أقسم ليبينن.

﴿٩٣﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ بالجبر أو القسر ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ غير مختلفين؛ لأنه على كل شيء قدير فلم يُعصَ مغلوباً ولكن لم يشأ ذلك، ولكن أراد أن يجعل التكليف مع اختيار العبد، حتى يتميز الخبيث من الطيب، وتبع ذلك أن استحق الإضلال بعضهم بمحادته لله وتمرده فأضله أي خذله وتركه للشياطين فأضلته، واستحق الهدى بعضهم بإجابته دعوة الله وصلاح نيته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أي يوم الحساب ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من حق أو باطل ليثيب الله أولياءه ويعاقب أعداءه ليجزي الله كل نفس ما كسبت.

وفائدة التعليق على المشيئة في قوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أو من فائدته: الدلالة على أنه القاهر فوق عباده الغالب على أمره الذي يفعل ما يريد لا ينازعه منازع ولا يعارضه أحد، وفي هذا ترغيب في اللجوء إليه للهداية وترهيب من إضلاله ليحذر العبد أسبابه.

وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا﴾ لا تتخذوا العهود خداعاً لمن تعاهدونه وسيلة إلى الدغل والفساد عليه، وقوله تعالى: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ أي في المعاملة بينكم مثل الصلح إذا عاهدتم على ترك القتال بينكم أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ هذا مَثَل لخروج فاعل ذلك من طاعة الله إلى معصيته ومن استحقاقه الثواب إلى استحقاقه العذاب، وزلولُ القدم زوالُها من مكانها لأجل زَلَق في المكان مثلاً أو غيره مما يسبب سقوط الإنسان الذي زلت قدمه.

وقوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي بعد كونه على الحق والصواب وسبب الهدى والثواب، وتلك حالة ينبغي للعاقل أن يكون حريصاً على أن يبقى عليها؛ لأنها سبب سعادته الدائمة إذا بقي عليها حتى يموت، وقوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العقاب تذوقونه تجدون ألمه، والسوء الشر.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب في الدنيا» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ إن كان من الصدود أي بما أعرضتم عن سبيل الله أي عن دينه وشريعته فالمعنى أن اتخاذكم أيمانكم دخلاً بينكم هو من الإعراض ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فتذوقوا السوء بسبب الإعراض عن سبيل الله، وإن كان صددتم هو الذي مصدره الصدُّ فمعناه: بصدكم غيركم عن سبيل الله بما سننتم لهم نكث العهد واتخاذه دخلاً، والأول أرجح، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي في الآخرة، أو فيها وفي غيرها.

وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ عوضاً من أغراض الدنيا تجعلونه بدلاً من حفظ العهد والوفاء سواء كان البدل رشوة تنالونها بنكث العهد أو غلبة لعدوكم تظفرون بها أو غنائم تحرزونها أو غيره، فأغراض الدنيا كلها قليل بالنسبة إلى ما عند الله من الخير لمن أوفي بعهد الله.

وهذا الخير يعم فوائد كثيرة؛ لأنه قد ينال المتمسك بالميثاق نصراً من الله في حين يكون قتال العدو حقاً لا نكث فيه فينال غنائم وعزّاً وإعلاءً للحق وأهله وإخمالاً للباطل وأهله، كما أن المتمسك بالميثاق قد يرزقه الله رزقاً حلالاً غير الغنائم التي يؤمل أن ينالها بنكث العهد وثواب الله خير من ذلك كله لمن يعلم وشأنه أن يعلم، فأما من أعمى حبُّ الدنيا بصيرَته وغفل عن الله ورجاء فضله فالأعمى عن ذلك غافلٌ عن العلم بذلك وبغيره من العلم النافع.

﴿٩٦﴾ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من عرض الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾ ينتهي وينقضي فلا يبقى منه شيء ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفد؛ لأن نعيم الجنة لا ينقطع أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وليَجْزِيَنَّ﴾ [بالنون أو بالياء المثناة من تحت] أي نُثِيبَنَّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على الوفاء بالعهد وعلى مشاق التكاليف كلها من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك وصبروا على بلاء الله تعالى ﴿أَجْرَهُم﴾ وهو يعم أجر الصبر وأجر كل سبب للأجر، وهذا الجزاء هو خير وأبقى؛ لأن ما عند الله باق.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى

وهذا مبني على أن قوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعم الواجب وكل قربة؛ لأن ذلك أحسن أعمالهم لأن بعض أعمالهم ليس واجباً ولا مستحباً، ويحتمل أن المراد بالأحسن أفضل أعمالهم الصالحة كالجهاد فيكون هذا الوعد نصّاً في الثواب عليه ويدخل ما دونه؛ لأنه دون أجره بمفهوم الأولى أو بدليل آخر، والأول أظهر، وتأكيد الوعد بالقسم في قوله تعالى: ﴿ولَيَجْزِيَنَّ﴾ أي أقسم ليجزين زيادةٌ في الترغيب في الصبر.

﴿٩٧﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من واجب أو مستحب صالحاً غير فاسد ولا محبط بمخرج من التقوى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان لا يجتمع مع اقتراف الكبائر وتعمد المعاصي، وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ لا فرق بينهما في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في قبول العمل؛ لأن الفاجر يُحبِط عملَه الفجورُ، وقد تكرر هذا الشرط فتقدم في (سورة النساء) في [آية:١٢٤] ويأتي في (سورة الإسراء) في [آية:١٩] وفي (سورة الأنبياء) في [آية:٩٤] وذلك يدل على أنه لا ينفع العمل إلا مع الإيمان، كما قال تعالى في المجرمين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] وقال تعالى في الذين كفروا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٢٨] وقال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فعلى الإنسان أن يكون مؤمناً تواباً ليحفظ عمله الصالح.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ وعدٌ غير مقيَّد فهو صالح للحياة الدنيا وللآخرة، وطيب الحياة الدنيا القناعة والرضا بما كتب وكونها مزرعة للآخرة سليمة من رجس المعاصي، وطيب الآخرة السلامة من الفزع الأكبر ومن سوء الحساب ومن عذاب النار ومقدماته ومع ذلك رضوان الله والفوز بالجنة فهي تمام طيب الآخرة، وهذا يجمع طيب الحياة.

ويمكن اعتبار أبعاضه طيباً كالقناعة في الحياة الدنيا والسلامة في الآخرة من كل شر فتفسير الحياة الطيبة بالحياة الدنيا صحيح وتفسيرها بالآخرة صحيح، ولا بد من التفسير بهما؛ لأن الآية لم تعين أحدهما ولا ينافيه قوله تعالى:﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لأن الأجر أكثر من طيب الحياة الآخرة، وبه تطيب الحياة أكثر.

﴿٩٨-١٠٠﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ ﴿فَإِذَا﴾ تفريع بـ(الفاء) على الوعد بالحياة الطيبة والجزاء بأحسن العمل؛ لأن القرآن يبين العمل الصالح ما هو فيقرن المعرفة بالعمل الصالح، فكان الحث على العمل الصالح حثاً على تعلمه، فكان حثاً على قراءة القرآن؛ ولأن قراءة القرآن هي من العمل الصالح، وفي الحديث الصحيح: «قراءة القرآن في صلاة أفضل من قراءة القرآن في غير صلاة، وقراءة القرآن في غير صلاة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصيام، والصيام جنة من النار..» الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أمر بطلب الإعاذة من الشيطان بأسبابها ليس بمجرد قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان، وأسبابها الإيمان والتوكل والدعاء، وذلك لأن قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ معناه توسَّل إلى أن يعيذك الله، كأنه قيل: اجعل الله معيذاً لك بفعل سبب ذلك؛ لأنه قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فأتى بـ(الباء) ولو قال: فاستعذ الله لكان معناه أطلبه أن يعيذك، ونظير (الباء) هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ في (سورة الأعراف) [آية:١٢٨] وعلى هذا فالإستعاذة بالله هي معها في ظرفها كله غير مختصة بوقت ابتداء القراءة.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي الذي يرجم بالشهب دفعاً عن سماع الملأ الأعلى؛ لأنه شرير يستمع توصلاً إلى أن يفسد في الأرض؛ لأن الخير قد يستعمل وسيلة للتغرير والإفساد، كما قال تعالى: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٣] فهم يتوسلون به ليقبل كذبهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ أي ليس له قوة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فليس له قوة على إغوائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بيان للوسيلة الثانية إلى دفع الشيطان، والإيمان الوسيلة الأولى، فالإيمان يسبب الانتفاع بالقرآن واتباع محكمه والإيمان بمتشابهه، ويسبب الإيمان عطف الهوى على القرآن لا عطف القرآن على الهوى؛ لأن التعلق بالمتشابه دون المحكم وعطف المحكم على الهوى هو شأن أهل الزيغ، فالمؤمن ينتفع بالقرآن لذلك.

والوسيلة الثانية: التوكل على الله، فهو يدفع الشيطان عند تخويفه من أوليائه وعند تخويفه من الفقر وعند تخويفه من مشاق التكليف، فالمؤمن

ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾
قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى

يتوكل على الله عند ذلك كله فيعزم على طاعة الله وامتثال أمره ونهيه والعمل بالقرآن والتمسك به في العسر واليسر؛ فيتقبل ما في القرآن بنية صالحة ويذهب عنه وسواس الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يتخذونه ولياً بأن يطيعوه ويتركوا الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يَـابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّـيْطَانُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّـا جَعَلْنَـا الشَّـيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ لِلَّـذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧] وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي مشركون بطاعته إما في كل ما سوّل لهم من الباطل، وإما في الشرك، والأول أظهر، وهو قول الناصر عليه السلام في (البساط).

﴿١٠١﴾ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ جعلناها في التكليف بدل آية؛ ولذلك قال: ﴿مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ لأنه صار المشروع العمل بالآية الثانية بدلاً من العمل بالأولى، فكانت مكانها في التكليف والتشريع، ولا يجب أن تكون مكانها في التلاوة؛ لأن اعتراض الكفار إنما هو على تبديل الحكم لا على تبديل التلاوة، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَـتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢]

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فهو أعلم بالحكمة في ذلك.

وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ

وقول الكفار: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أرادوا تفتري الكذب أي كاذب عمداً لاختلاف كلامك حيث دلَّ أولاً على شيء ودل آخراً على خلافه، فرد الله عليهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم أهل جهل ليس من شأنهم أن يعلموا، ولذلك حملوا اختلاف التشريع على الافتراء ونسوا أن التشريع من الله لا مانع من اختلافه لاختلاف الحكمة فيه مع اختلاف الوقت والحال، ومن الواضح: أنه يجوز أن يأمر الله بإكرام زيد اليوم لأنه مؤمن ثم يأمر بإهانته غداً لأنه فاجر غير مؤمن، فهكذا تختلف الأحكام لاختلاف الأسباب.

﴿١٠٢﴾ ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ أي نزل القرآن الذي زعمتم أنه افتراء على الله أفتريه أنا فقد كذبتم إذ كذَّبتموني؛ لأنه نزل القرآن على قلبي روح القدس من الله، وروح القدس: روح الطهارة أو روح البَركة وهو جبريل الأمين عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي هو الذي قاله فـ﴿مِن﴾ للإبتداء كقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (من) الثانية للإبتداء، وقوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إشارة إلى أنه اختارك لإنزاله عليك وخصك بهذه الكرامة العظمى.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتمل معنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الإسراء:١٠٥] ومعنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] أو كليهما فإنزاله الحق ومعانيه الحق.

١٠٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

وقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إشارةً إلى حكمة اختلاف التشريع فهو التثبيت للذين آمنوا على الهدى، فقد تكون الحكمة في التشريع الأول للتخفيف عليهم فيه لقلة تحملهم لما هو أشق ففي ذلك تثبيتهم بالتخفيف حين كان سبباً لتثبيتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ هدى لهم يهتدون به إلى الحق، وبشرى لهم بالثواب وبنصر الله لدينه وغير ذلك، وقوله ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يحتمل للذين أسلموا أنفسهم لله فدخلوا في السلم كافة انظر[آية:٢٠٨] وتفسيرها، وهو أظهر ليوافق قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وغيرها، ويحتمل: للذين خرجوا من الشرك بالشهادتين، فهو هدى لهم إن اهتدوا به وبشرى لهم ان اتبعوه، والأول أظهر.

١٠٣ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ أي محمداً ﴿بَشَرٌ﴾ وأرادوا بهذا البشر من غير الأميين الذين لا يحسنون الحكمة وتعليم الدين لأنهم نشئوا في جاهلية جهلاء فأرادوا رجلاً متعلماً، ولكنه ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ اللسان قيل: هو (سلمان الفارسي).

وأجيب عنه: بأن الآية (مكية) وسلمان لم يأت إلى رسول الله ﷺ إلا بعد هجرته فآمن به سلمان في المدينة والذي يلزم المفسر أن يبين أن الكفار أرادوا رجلاً أعجمي اللسان فأما تعيينه فلا يلزم؛ لأنه لا حاجة إليه في فهم معنى الآية الذي هو ذكر كذبهم والرد عليهم بالحجة الواضحة، وهي قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ معناه: يعدلون إليه» انتهى، ونحوه في (مفردات الراغب).

وقوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا﴾ أي القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي يبين المعاني للعرب أو مبين بيِّن العروبة لا يشتبه بأعجمي وإذا كان عربياً فلا يستطيعه الأعجمي، فتبين بطلان دعوى الكفار أنه تلقن القرآن من بشر فقد كذبوا.

﴿١٠٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عادتهم أن لا يؤمنوا ومن خُلُقهم وشأنهم أن لا يؤمنوا عناداً وتمرداً، فأي آية شاهدوها لم يؤمنوا بها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ لأنهم لا يستحقون إلا الإضلال، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾.

﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ يتعمده ويختلقه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنه لا وازع لهم من الكذب يمنعهم بالتخويف من الله فهم الذين يفترون الكذب لا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو معصوم.

فقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ باطل هم أهله وأولئك الذين لا يؤمنون بآيات الله وبسبب عدم إيمانهم بآيات الله ﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ كذباً مستمراً لأنهم يكذبون ويصرون على الكذب فهم الكاذبون باستمرار.

مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

﴿١٠٦﴾ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ إما بالكفر بدينه أي برفضه والبراءة منه كقوله تعالى: حاكياً عن إبراهيم والذين معه ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] فجعل البراءة من دينه كفراً به تعالى وبراءةً منه كما جعل محاربة دينه محاربةً له، وإما بالجحد به ككفر الطبائعية، أو الجحد بقدرته مثل كفر من جحد البعث استبعاداً لقدرة الله عليه من بعد إيمانه أي ارتد عنه إلى الكفر.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على النطق بكلمة الكفر ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ﴾ غير متردد في الإيمان فهو ثابت عليه فلا ريب فيه ولا قلق فاطمئنان القلب سلامته من الريب، فذلك سكون القلب المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وهذا الاستثناء يخرج المكره من عموم ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ لأنه أكره على النطق بالكفر فنطق به لينجو من تعذيب الكفار له أو قتله، فكان إكراهه مع سلامة قلبه عذراً له.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي رضي بالكفر وطابت به نفسه فهو المراد بالوعيد ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي غاية الغضب وهي لعنة الله لهم وخذلانه لهم وحكمه عليهم بكلمة العذاب وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الراجح: أنه جواب الشرط المذكور في أول الآية.

قال بعض المفسرين: «وقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا﴾ أي بسط صدره للكفر فقبله قبولَ رضا ووعاه، والجملة استدراك من الاستثناء فيعود إلى معنى المستثنى منه، فإن المعنى: ما أريد بقولي من كفر بالله من بعد إيمانه من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن أريد به من شرح بالكفر صدراً، وفي مجموع الاستثناء والاستدراك بيان كامل للشرط وهذه هي النكتة لاعتراض الاستثناء بين الشرط والجزاء وعدم تأخيره إلى أن تتم الشرطية» انتهى.

هذا هو الراجح في معنى الآية، وإذا كان حذف جواب الشرط ضعيفاً فيمكن جعل (مَن) الثانية موصولة أي: ولكن أعني من شرح، أو ولكن مَن شرح هو المعنيّ ـ والله أعلم ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مناسب لعظم الجريمة.

(١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إما إلى غضب الله عليهم ووعدهم بالعذاب العظيم، وإما إلى سببه الذي هو شرح صدورهم بالكفر بعد إيمانهم وهو أرجح عندي، فهم إنما ارتدوا لإيثارهم الغرض الدنيوي وهو استبقاء الحياة والسلامة من مشقة الثبات على الإيمان والراحة من عنائه في ذلك الظرف، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ..﴾ الآية [الحج:١١].

فهو قد آثر الحياة الدنيا والراحة ورضا قومه عنه وهما من أغراض الحياة الدنيا، وحبها هو الباعث على ترجيح جانب السلامة من الفتنة والمؤدي إلى ترجيح رضا قومهم الذين خافوهم، وكل نفس في الأصل تحب الحياة الدنيا، إلا أن المؤمن لا يكون حبها في نفسه أرجح من حب الآخرة وحب تقوى الله بل العكس.

وهؤلاء ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي جعلوا الحياة الدنيا أرجح في الحب من الآخرة، واختاروا ترجيح حب الحياة العاجلة على حب الآخرة. فـ(السين) تفيد: أنهم اختاروا ذلك الحب ورضوه راجحاً على حب الآخرة وذلك لأن تصديقهم بالآخرة ضعيف فلم يكونوا مؤمنين عند أن رجحوا الردة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي وبأن الله لا يهدي أي وبسبب أن الله لا يهدي ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ والكفر هنا على الوجه الثاني الذي رجحته هو كفر نعمة الدخول في الإسلام والإيمان وذلك بالمعاصي التي كانوا فعلوها قبل الردة، فقد كانوا فارقوا الإيمان الصحيح فلم يستحقوا من الله الهدى والتثبيت على الإيمان، ولو كانوا ثبتوا على الإيمان والصدق فيه ما رجحوا الحياة العاجلة على الآخرة، فظهر: أن قلوبهم قد كانت مريضة من قبل الردة، وأنهم كانوا كافرين لنعمة الله بترك التمسك بالدين وإيثار تقوى الله. قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «الكفر في اللغة: ستر الشيء» انتهى.

قلت: التعبير بالتغطية أنسب؛ لأن الستر يستعمل لتغطية ما يعاب أو ما يعاب كشفه، ولعله السبب في ترجيح كلمة كَفَر على كلمة سَتَر، وكافر على كلمة ساتر مع اتفاقهما في الوزن، كما في قول لبيد:

في ليلة كفر النجومَ غمامُها

أما الكفر فهو ظاهر في تغطية النعمة وإخفائها بالمعاصي.

قال الراغب: «وكُفْر النعمة وكُفْرانها: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء:٩٤] وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوءة، والكفرانُ في جحود النعمة أكثر استعمالاً» انتهى.

وصواب العبارة: في تغطية النعمة وإخفائها أكثر؛ لأن الواقع من كفار النعمة هو هذا لا النطق بجحود النعمة ـ ثم قال الراغب ـ : «والكفر في الدين أكثر» أي أكثر من الكفران.

ثم قال الراغب: «والكفور فيهما [أي في كفر الجحود للدين، وكفر الجحود للنعمة] جميعاً أي يستعمل هذا المصدر في كفر الجحود وكفر النعمة، ثم قال: ويقال منهما كفر فهو كافر..» إلخ، أي من كفر الجحود ومن كفر النعمة.

فالحاصل من هذا: أن المرتد ارتد واستحق بذلك غضب الله ووعيده بالعذاب العظيم لإيثاره الحياة الدنيا على الآخرة وكفره بنعمة الله فالمعاصي تجرُّ العاصي إلى ما هو أكبر منهما، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١] ولا يبعد أن إيثار الحياة الدنيا بالحب كان سبباً من حيث هو معصية أيضاً مع كونه سبباً مباشراً من حيث أن الباعث الكبير على الردة هو الخوف من الكفار.

أما إذا كانت الإشارة إلى غضب الله تعالى والعذاب العظيم فالمعنى ذلك الغضب والعذاب بأنهم استحبوا الحياة الدنيا فهو عقوبة عليه؛ وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين فلم يهدِهم للتوبة فاستحقوا الغضب والعذاب، ويمكن على هذا الوجه ذلك الغضب والعذاب بأنهم استحبوا الحياة فوقعوا في سببهما، وعلى هذا يتحد المعنيان معنى ذلك الارتداد ومعنى ذلك الغضب والعذاب.

ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي من شرح بالكفر صدراً هم ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخلها الإيمان، وقد مر تفسير الطبع في تفسير أول (سورة البقرة) ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ أي ختم عليه ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي سد عليها فلا يهتدون لسمع الحق ولا لطريقه.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ لأن أسباب الانتباه مقطوعة عنهم لإقبالهم على الدنيا ورفض ما يشغل عنها ورين المعاصي على قلوبهم وإظلامها بها وعظم أسباب خذلانهم وإرسال الشياطين عليهم، فالهدى عندهم والسعادة تحصيلهم أغراض الدنيا، والشقاوة عندهم فوات بعض أغراض الدنيا بالفقر أو بالمرض أو بالخوف ولا ينظرون إلى غير الأغراض الدنيوية، فهم مستمرون على غفلتهم المطبقة عليهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون؛ لأنه فاتهم فيها كل خير ومع ذلك صاروا إلى عذاب عظيم دائم وذلك الخسران الذي لا يقاس به ضعف حال المؤمنين في الدنيا حين كانوا مستضعفين خائفين من الكفار مقهورين يؤذون في الله ويفتنون فذلك ليس من الخسران بل هو في الحقيقة خير لهم؛ لأنه سبب للسعادة الدائمة بالنجاة من النار وللثواب الدائم في جنات النعيم والملك الكبير الدائم.

إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ
عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ

﴿١١٠﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الوعيد الشديد أن باب التوبة ما زال مفتوحاً لمن أكره على الكفر فكفر فراراً من الفتنة لقلة صبره لا لانشراح صدره بالكفر وكذا من فتن واتقى بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فكلاهما، ربُّ رسول الله غفورٌ رحيم لهما، إذا هاجروا الكفارَ وجاهدوهم، وصبروا على مشاق الهجرة والجهاد، حتى ماتوا على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ من بعد تكامل الشروط ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لهم ما سلف منهم بسبب الفتنة.

والراجح: أن هذه الآية هي فيمن كفر ولم ينتبه للتقية بكلمة الكفر بل حمله التعذيب على الكفر مع أنه غير منشرح الصدر له ولكنه كفر تقية وغفل عن المحافظة على الإيمان بقلبه؛ لأنه ظن أنه قد كفر بمجرد النطق، والحاصل: أن المفتونين ثلاثة أقسام:

قسم: شرح بالكفر صدراً وفيه الوعيد الشديد.

وقسم: أكره وقلبه مطمئن بالإيمان فهو باق على حكم السبق إلى الإيمان وفيه [آية:٤٠،وآية٤١] من هذه السورة كمن صبر على الفتنة حتى قتل.

وقسم: كفر فراراً من الفتنة ثم تاب وهاجر وجاهد وصبر وفيه هذه الآية، فهذا هو الراجح.

أما دخول عمار في هذه الآية فهو لدخوله في عمومها؛ لأنه فتن وإن صبر واتقى ولم يكفر؛ ولأنه هاجر من بعد ما فتن ثم جاهد وصبر؛ فلذلك هو داخل في الوعد بالمغفرة والرحمة وذلك خير عظيم.

ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ

وقد دخل فيه بعمومها وفرق واضح بين عمار وبين من تغفّل فكفر جاداً في الكفر، إلا إنَّه غير منشرح الصدر بالكفر، فراجع في عمار [آية:٤٠،وآية ٤١].

﴿١١١﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ هو الآخرة الذي يخسر فيه الكافرون كلهم المرتدون منهم وغيرهم، ولعل ﴿يَوْمَ﴾ هنا بيان لقوله تعالى: ﴿**لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ**﴾ [هود:٢٢] ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ تأتي موقف السؤال والحساب وهي ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ لا تلتفت إلى النظر في حال غيرها أو إلى الجدال عن غيرها، وهو يشير إلى من ارتد من أجل أهله الذين أبوا أن يسلموا معه فغلبته العاطفة فارتد، ويشير إلى من لم يسلم لأن أهله لم يسلموا، وإلى أشباههم ممن آثر طاعة المخلوق على طاعة الله.

فلشدة الهول من عذاب الله المتوقع أن يحكم الله به عليهم ﴿تُجَٰدِلُ﴾ كل نفس ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ خاصة لأنه موقفٌ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه الآيات ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يظلم المجرمون بزيادة في العذاب ولا ينقص المتقون مثقال ذرة من الثواب فهو يوم يستحق أن يجعله العاقل أكبر همه في هذه الحياة الدنيا.

﴿١١٢﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ في هذه الآية تحذير من العقوبة العاجلة في الدنيا بعد التحذير

من سوء المصير يوم الحساب، فيبين: أن كفر النعمة بالكفر بالله ورسله أو بغيره يسبب تغير الحال، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣] فضرب الله مثلاً ليعتبر بها أهل القرى ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا خائفة ولا قلقة، والسلامة من الخوف والقلق من أهم مطالب الإنسان في هذه الحياة.

ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ولعل ذلك من أجل التجارة فيها فيجلب إليها رزقها من الأقطار الكثيرة ليباع فيها فهي نعمة الرزق مع نعمة الأمن ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ اتباعاً للهوى وانقياداً لأكابر مجرميها فانقلبت حالها عقوبة عاجلة ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (أذاقها) جعلها تحس بألم الجوع والخوف كما يحس من ذاق المأكول طعمه وجعلها بتأثرها من الجوع والخوف قد زال عنها أثر النعمة، وظهر على إبدالها أثر الجوع والخوف من صفرة الألوان وكدرها وهزال الأجساد فكان الجوع والخوف بظهور أثرهما عليهم كأنهما لباس على أجسامهم لاشتمال أثر الجوع والخوف على ظاهر أجسامهم كما يشتمل اللباس؛ ولعله قدم الجوع هنا لأنه في الواقع وقع عليهم قبل الخوف إما لأن عدوهم طمع فيهم لظهور ضعفهم بما أصابهم من الفقر فأغار عدوهم عليهم أو لغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي جزاء لهم بما كانوا يعملون؛ ولعله سماه صنعاً لأنه كان عملاً دبروه لمحاربة الدين وأهله وكادوا به أهلَ الحق فدبروا ذلك وحاولوا إتقانه كما يتقن الصانع صنعه ليؤدي إلى غرضهم الباطل.

وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ
نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ
وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أرسله الله إليهم ليطيعوه فتبقى لهم نعمتُهم فكذبوا رسولهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ العاجل ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيب رسولهم وغير التكذيب من ظلمهم وبطرهم.

﴿١١٤﴾ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فكلوا واشكروا، واحذروا مثل ما حلّ بالقرية التي كفرت بأنعم الله ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ ولا تحرموا منه شيئاً افتراءً على الله وكفراً لنعمته ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ عليكم بما رزقكم من المأكول الذي كانت الجاهلية تحرمه ومن غيره من المأكول وغيره.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم تعبدونه وحده لا تشركون بعبادته أحداً فإن من عبادته وإخلاصها جعلَ الحكم له وحده لا يحرم غيرُه حلالاً ولا يُحِل حراماً، لأن الله هو المالك للناس ولما رزقهم فليس لغير الله حكم فيهم ولا فيما رزقهم، وجَعْلُ الحكم لغير الله شركٌ في العبادة.

﴿١١٥﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ الحصر إضافي أي: لا ما حرمته الجاهلية من الأنعام التي هي حلال كالوصيلة، وقد مر تفسير هذه في تفسير (سورة البقرة).

حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ

﴿١١٦-١١٧﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم أي فيما تصفه ألسنتكم وتتكلمون فيه بغير حجة لا تقولوا فيه الكذب ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي لا تقولوا القول الكذب الذي هو قولكم: هذا حلال وهذا حرام.

فقوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدل من الكذب أو بيان له، وقوله تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُوا۟﴾ أي أنكم إذا حللتم الحرام وحرمتم الحلال كنتم قد افتريتم ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ لأن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله، فمعنى ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾ أحله الله، ومعنى ﴿وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ حرمه الله فهو افتراء للكذب على الله. و(اللام) قال الزمخشري: «من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض» انتهى.

وهي غير (لام العاقبة) أراد الزمخشري أن ما بعدها معلل بما قبلها؛ لأنه سبب له لا لأنه غرض فيه، أما (لام العاقبة) فالمراد فيها: إفادة العاقبة، والفرق بينهما دقيق، ولعل (لام العاقبة) داخلة في عموم التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي للذين يفترون متاع قليل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والعذاب يعجل بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢] فالمتاع القليل لا ينافي تعجيل الذلة في الحياة الدنيا، ولتعجيل الذلة لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة.

هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ
تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ

﴿١١٨﴾ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ وعلى اليهود ﴿حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا﴾ تحريمه من قبل في (سورة الأنعام) في [آية:١٤٦] وما أفاده في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [آل عمران:٩٣] ولعله لحوم الإبل، ولكن التحريم الذي هو عقوبة لهم تحريم ما ذكر في (سورة الأنعام) فهو المراد هنا بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ وقد يقال تحريم ذلك عليهم ليس ظلماً ولو لم يكن عقوبة؛ لأن الأنعام ملكه واليهود ملكه فله أن يحرم عليهم ما يشاء؛ لأن تحليل ما أحل لهم إنما هو نعمة وتفضل عليهم.

والجواب: هذا صحيح ولكن وقوع التحريم عقوبة لهم يستدعي استحقاقهم للعقوبة لما فيه من الإهانة لهم؛ ولذلك جحدوا كونه عقوبة، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٣-٩٤] وبقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦] فهم الذين ظلموا أنفسهم ببغيهم الذي كان سبباً للتحريم.

﴿١١٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ السوء القبيح، وقوله تعالى: ﴿عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ يبين أن عمل السوء الموجب للعقوبة هو جهالة وسفاهة؛ لأنه مخالفة لمقتضى عقولهم، فإذا تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ما قد أفسدوا بعمل السوء، كبيان ما قد كتموا ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ﴾ بعد التوبة والإصلاح ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ورجع الضمير إلى التوبة؛ لأن الإصلاح هو جزء من التوبة.

إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا
لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ

وقوله تعالى: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة مؤكد بالدلالة على أنه من صفة الله تعالى فمن تاب وأصلح من الذين هادوا وغيرهم غفر له ورحمه وأحل لهم ما كان حرمه عليهم.

﴿١٢٠-١٢٢﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وسمي أمة لقيامه بأمر الأمة كلها» انتهى، أي أنه عمل عمل أمة في جهاده للمشركين وإرشاده لمن اتبعه.

وقوله تعالى: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي مطيعاً حنيفاً خاشعاً ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ ولم يكن ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإن زعم بعض المشركين أنهم على دين إبراهيم ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي كان إبراهيم شاكراً لأنعم الله ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ اصطنعه لنفسه أو اختاره للرسالة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فثبت على دين الله حتى توفاه الله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ التفاتٌ من الجلالة وضميرها إلى اسم القائل الذي يعبر به عن نفسه، ولعل الحسنة في الدنيا ذكره بالخير في الأولين والآخرين وهو لسان الصدق.

وكذلك أنه تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب والإمامة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لا يفوته شيء من ثواب الصالحين بما نال في الدنيا فله الجنة والثواب العظيم ودرجته فيها بقدر سبقه إلى الخيرات وسبقه فيها.

إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى
ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ

﴿١٢٣﴾ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ في هذا الزمان المتأخر عن زمان إبراهيم عليه السلام وبعد أن اجتباه الله وهداه إلى صراط مستقيم ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والملة الشريعة.

وفي الحديث: «لا يتوارث أهل ملتين» فالملة أصول الدين التي تتمايز فيها وبها الملل، وهي دين الأنبياء كلهم لا تختلف فيها أديانهم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ حال يبين: أنه أمر محمداً باتباعه، لكونه ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا كما يدعي المشركون.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿ٱلسَّبْتُ﴾ ما وجب على اليهود في يوم السبت تبعاً لذلك اليوم من تعظيمه واجتناب ما نهوا عنه فيه من الأفعال، فهو لم يجعل أي لم يشرع إلا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وهم اليهود فليس من ملة إبراهيم عليه السلام ولا من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كما ذكر في غير هذه الآية أنهم تفرقوا، وأنه تعالى سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ولعل اختلافهم في السبت كان في أحكامه بين تشديد وترخيص، وفي عقوبة من تعدى فيه، ونحو ذلك مما يتعلق بالسبت.

وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ

وقيل: اختلافهم فيه ما ذكره الله عن القرية التي كانت حاضرة البحر، وفيه نظر لأن الذين اصطادوا الحوت اصطادوه جرأة على التعدي فيه لا بناء على أنه لا إثم في التعدي، والذين اختلفوا في عظتهم اختلفوا في فائدتها أو في وجوبها لا في السبت، فلم يظهر منهم اختلاف في السبت إلا أن يكون الاختلاف بالصيد فيه وتركه، ولكن فيه إشكال وهو أن السبت قد جعل عليهم وشرع لهم من قبل ذلك التعدي، فالأولى أن الخلاف فيه نوع مما حكاه الله عنهم في غير هذه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧].

ويحتمل: أنهم اختلفوا في تشريع السبت عند نزول حكمه عليهم فمنهم من قبله، ومنهم من رده بعد ما جاءهم العلم بشرعه، وهذا أقرب لأجل الحصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ فيدخل فيه اليهود كلهم ولا يختص بأهل الخلاف العارض في أحكام السبت ـ والله أعلم.

﴿١٢٥﴾ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿ٱدْعُ﴾ يا رسول الله ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى دينه الذي هوا لهدى، ادع إليه ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالعلم النافع الذي تفيده الحجة البينة التي تبينها لمن تدعوه إلى سبيل ربك أو المعنى ادع بالحكمة بموجب الحكمة وما تقتضيه الحكمة من حسن البيان للحجة وجعل الخطاب بقدر احتمال من تدعوه في الإيجاز والتطويل والإجمال والتدقيق، وباستعمال ما يدعو إلى إجابتك وهو أولاً

ما يلفت المدعو إلى الإستماع، ثم ما يدعوه إلى النظر والتفكير في الحجة، ثم ما يدعو إلى الإجابة من الترغيب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾ وهي بالتخويف من عذاب الله، وقوله ﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ وذلك بإحسان أسلوب التخويف، كما فعل (مؤمن آل ياسين) في قوله: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣] أو كذكر الوعيد والوعد بصورة العموم، أو غير ذلك من حسن الحوار الذي لا يثير غضب المدعو.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فالجدال المغالبة بالحجج وإبطال الشبه ببيان الدليل على بطلانها، وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن مثل أن تستمع لما يقول الخصم حتى ينهي كلامه ثم ترد عليه في كلامه بنقض أوله وأثنائه وآخره إذا كان يستدعي النقض، وتحسن الحوار بحيث لا تثير غضبه بل تستدعيه إلى تأمل ما تقول، وقد كفى في الموعظة أن تكون (حسنة) ولم يكف في الجدال إلا أن يكون ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ لأن الموعظة تدعو إلى غرض واحد هو حسن النية، أما الجدال فيدعو إلى طلب الاستماع مع حسن النية ثم التفكير فيما تقول مع حسن النية ثم القبول منك ودفع ما يمنع القبول من التعصب وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي لا يقبل ولا يهتدي ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الذين يقبلون الدعوة الحسنة فلعلمه سبحانه أمر باتخاذ أسباب قبول الدعوة ليهتدي من يقبل ويهلك من هلك عن بينة.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿١٢٦﴾ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ مَن اعتدى عليكم أو ظلمكم ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أي ما ظلمتم به، وعبر بالمعاقبة إما لوقوع المبادلة بالعدوان والإساءة كالنوبة في الركوب التي يقال لها عقبة، وإما للمناسبة للفظ (عاقبتم) والمعنى: اقتصروا على الحق ولا تزيدوا عليه؛ لأن الزيادة باسم المعاقبة قبيحة ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة ﴿لَهُوَ﴾ أي الصبر ﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ أي خير لهم من المعاقبة وأفضل لما في الصبر من الثواب للصابرين.

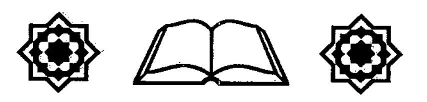
﴿١٢٧﴾ ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الله على مشاق الرسالة والجهاد للأعداء وسائر ما كلفت به وما ابتليت به ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ بمعونة الله وتوفيقه، وهذه جملة معترضة ليستعين بالله على الصبر لمشقة الصبر لعظم ما كلف به وما يعرض له من البلاوي، فالأمر بالصبر هنا مطلق وقع في خواتم السورة لمناسبة ما مضى فيها من التكاليف وما حكي فيها من خلاف الكفار وفتنتهم لمن أسلم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تحزن على الكفار حيث لم يؤمنوا برسالتك إما لاستحقاقهم العذاب العظيم الدائم فليسوا أهلاً لأن يُحزن عليهم لأنهم أعداء الله ورسوله وهم الذين أوجبوه على نفوسهم، وإما لفوات كثرة المسلمين في الحال وحرصك على سرعة قوة الإسلام بكثرة أهله فالله معك وسينصرك ويظهر دينه على الدين كله.

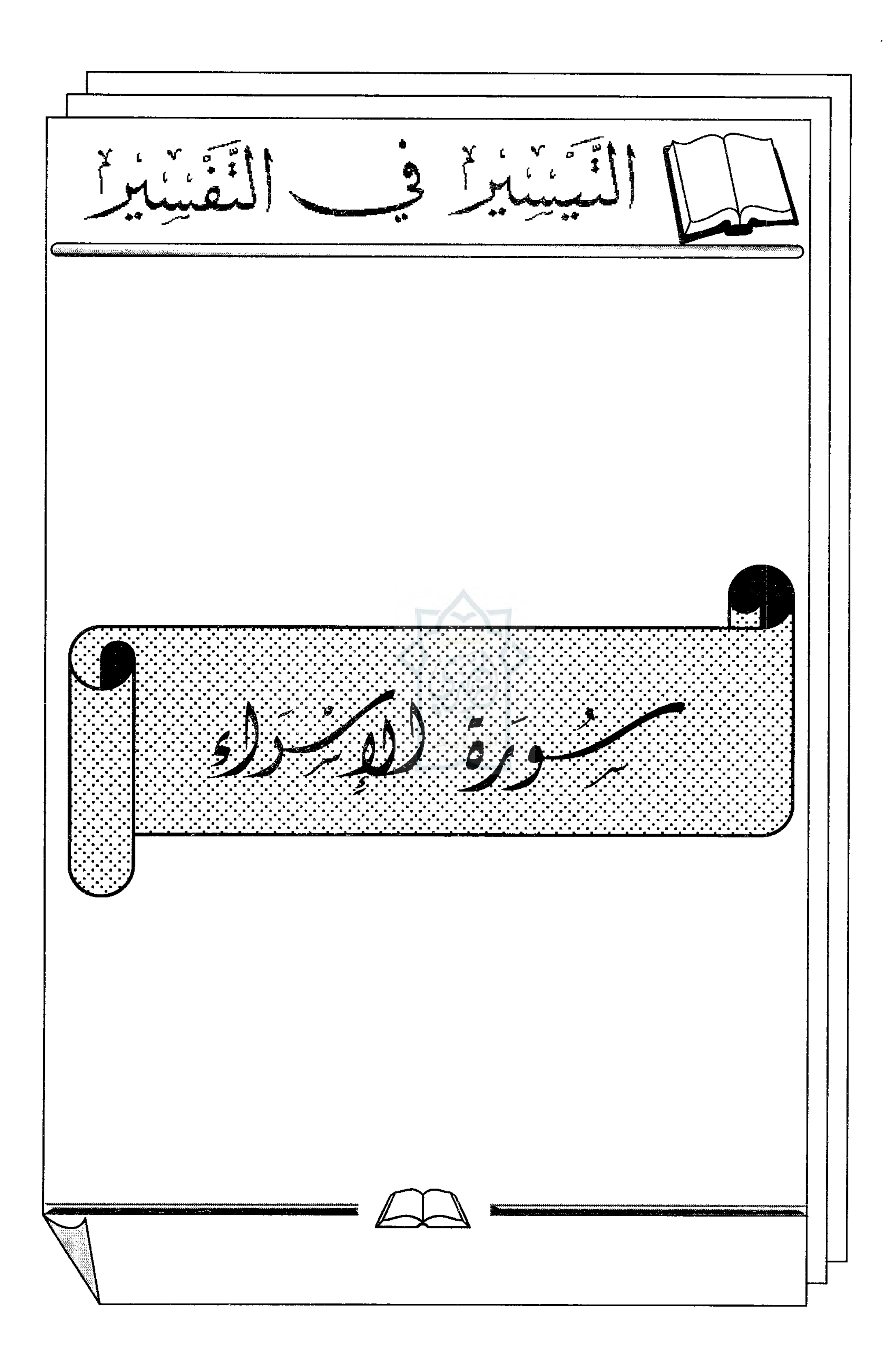
وقولــه تعــالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي ولا تكــن في ضــيق ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ الضيق ضد السعة أي لا تكن في حال ضيق أي لا تبـال بما يمكرون بالإسلام وأهله وما يمكرون بك أي يكيدون بـك وبمـن معـك؛ لأن الله معكم فهو ناصركم ومبطل لكيدهم.

(١٢٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ فـالله معـك ومـع المؤمنين بك لأنكم اتقيتموه بطاعته، والله معكم لأنكـم ﴿مُّحْسِنُونَ﴾ وإذا كان الله معكم فلا يضركم مكـرُ المـاكرين؛ لأنكـم المنصـورون الغـالبون، أو لأن الله يدبر لكم ما هو خير لكم، فتوكل عليه ولا تبال بمكر الماكرين.

تم تفسير (سورة النحل) والحمد لله رب العالمين






التيسير في التفسير
سورة الإسراء



سُورَةُ الإِسْرَاءِ

ترتيبها ١٧ — آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ
﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن

تفسير (سورة الإسراء) وهي (سورة بني إسرائيل)

قال الشرفي في (المصابيح): «مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ..﴾ إلى قوله ﴿.. سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [٧٢-٨٠] قال: قال في (البرهان) وهو قول ابن عباس» انتهى.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تسبيح وتنزيه للذي ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وهو الله جل جلاله سبحانه عما يقول الظالمون كما يأتي في السورة، فالمشركون جعلوا لَه أنداداً لا تقدر على شيء والله منزه عن ذلك؛ لأنه القادر على كل شيء؛ ولذلك أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي عبّد نفسه لربه وأخلص لَه العبادة فكرَّمه الله بهذا الإسراء وجعله عرْضاً لآيات يطلع عليها في هذا الإسراء.

وإسراؤه به: نقله ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ الأبعد، وهو مسجد بيت المقدس، فقوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ يحقق أن قطع المسافة كلّها كان في الليل.

قال الشرفي في (المصابيح) عن الناصر أحمد بن الهادي إلى الحق عليه السلام من كلامٍ ذكره الشرفي: «وأما قوله ﴿لَيْلًا﴾ فإنه يعني: قدرته وتعجيل بلوغه إلى الشام من مكة، والمسجدُ [الحرام] مسجدُ مكة، والمسجدُ الأقصى مسجدُ بيت المقدس المبارك الذي بارك الله فيه وفيما حوله وأعظَمَ النعمةَ على خلقه والإحسانَ إلى بريته، ويعني بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ ليلة واحدة؛ لأن قريشاً لم تفقد رسول الله إلا ليلة واحدة» انتهى.

قلت: فكانت مشاهدتهم له في اليوم الثاني دليلاً على قطع المسافة كلها في ليلة واحدة.

وفي (المصابيح): عن الحسين بن القاسم من كلام ذكره الشرفي: «وروي أنه أتى إلى أهل مكة بأخبار من سافر منهم إلى الشام فلما وصل أصحابهم سألوهم عن ذلك فوجدوه حقاً» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ (البركة): الخير الخفي ولعل المراد بركات الرسالة والوحي في عهد إبراهيم وموسى وعيسى وبركات الأرض هناك لما فيها من الثمرات والماء، وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ تعليل للإسراء به أي أنه أسرى به ليريه بعض آياته، فهو تثبيت لقلبه وزيادة في إيمانه.

وهنا التفات لأن أول الكلام كان ذكرَ آيةٍ تدل على القادر على كل شيء بعبارة الإبهام الذي يفسره الواقع؛ لأنه لا يقدر على ذلك في ظرف إسراء رسول الله ﷺ إلا الله القادر على كل شيء، أما التعليل بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ فهو خبر لعلّة الإسراء بعد تمام ذكره من حيث هو آية، ففائدة الإلتفات واضحة جلية؛ لأن الآية قد انتهى ذكرها من حيث هي آية ودليل على الله، وبعدها ذكر التعليل لتلك الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ رجوع إلى أسلوب الآية لأنه تابع لها، من حيث أن الإسراء آية ترتبت على أن الله هو السميع البصير؛ ولعل ذلك يشير إلى ما كان قبل الإسراء من طغيان الكفار وتجبرهم على المسلمين واستضعافهم فقد سمع الله أقوالهم وأقوال رسوله لهم وذكره لله، ولعله أيضاً كان يدعو الله فأشار بذلك إلى أنه سمع دعاءه قبل الإسراء.

دُونِي وَكِيلاً ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ

وكذلك قد رأى سبحانه ما لحق بالرسول ﷺ والمؤمنين من الأذى من الكفار وما هم فيه من الضعف، فكل ذلك كان سبباً للإسراء هذا، وسمعه تعالى أنه يتجلّى لَه المسموع بغير حاسة، وبصره أنه يرى المبصَر بغير حاسة، ولعل علم الغيب للمسموع سمع وللمبصر بصر؛ لقول الله تعالى: ﴿**أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ**﴾ لأن إحاطة العلم بالمعلوم على أكمل وجه يكون مشاهدة للموجود.

وقد فسر السمع والرؤية: بالعلم، ولعل الأولى في التعبير أن العلم المحيط بكل شيء وبظرفه وكل أحواله هو رؤية وسمع للمرئي والمسموع فليس المراد أن مفهوم الرؤية والسمع هو العلم بل المراد أن العلم تحصل به الرؤية والسمع أعني أنه رؤية للمرئي وسمع للمسموع؛ لأنه يتجلى به المرئي والمسموع، ولذلك صح الجمع بين الوصف بالعلم والسمع في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**﴾ [آية:٤] في (سورة الأنبياء).

﴿٢﴾ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلاً﴾ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ عطف على ﴿**أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ**﴾ لأن الإسراء آية، وأراه الله فيه من آياته، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، أو هي وسائر صحف موسى ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلاً﴾ لا تشركوا بي غيري تكلون إليه أموركم أي تتوكلون عليه.

وقوله تعالى ﴿مِن دُونِى﴾ نهي عما يقع من المشركين من اتخاذ آلهة من دون الله كالوسائط بينهم وبين الله، أو يتوسلون بها لتقربهم إلى الله؛ لأن كلمة ﴿مِن دُونِى﴾ تفيد: اعتبارهم أن شركاءهم أقرب إليهم من الله، فهي عندهم بينهم وبين الله.

عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا

وجعل ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ مفسرة للكتاب؛ لأن حاصله الأمر بعبادتهم لله وحده وما هو راجع إلى الدعوة هذه من المواعظ والوعد والوعيد والأحكام في المعاملات والعبادات وغير ذلك؛ لأن اتباعها في ذلك كله عبادة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ..﴾ الآية [البينة:٦].

﴿٣﴾ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿ذُرِّيَّةَ﴾منصوب على الإختصاص وهذا إما من تمام تفسير الكتاب فيكون هذا مذكوراً في التوراة، وإما راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقد وعد الله تعالى نوحاً بالبركات عليه وعلى أمم ممن معه؛ فلعل ذكرهم تنبيه على أن الله أنزل البركات على بني إسرائيل كما وعد بذلك نوحاً ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يشير إلى أن شكره كان سبباً لحمله وحمل من آمن معه في السفينة لينجيهم من الغرق وإن كان سبب حملهم معه إيمانهم فلا تنافي إذا كان سببُ إيمانهم رسالةَ نوح إليهم مع الآية من ربه، وسبب رسالته كونُه عبداً شكوراً، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣] وبعد هذه الآية بيان اختلاف حال بني إسرائيل في الصلاح والفساد وبيان أن الجزاء يتبع العمل.

﴿٤﴾ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أنهينا إليهم وبلغناهم ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ أي بلغناهم هذا الخبر عما سيكون من الفساد والطغيان، والفساد في الأرض الفساد المنتشر في الأرض ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ تتكبرُنَّ وتتجبرُنَّ ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ تكبراً وتجبراً عظيماً.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ ﴿وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ موعود أولاهما أي المرة الأولى من المرتين الموعود بهما في التوراة، أي فسادهم في الأرض المرة الأولى وطغيانهم ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أثرنا أي سلَّطنا عليكم ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ لعله سماهم عباداً له تعالى، لأنهم ذهبوا لما سلطهم عليه ذهاب العبد الممتثل، أو لأنهم في حال قوتهم وقهرهم لبني إسرائيل تحت قدرة الله تعالى وقهره، وقوله تعالى: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أهل شر شديد وهو شر قتلهم وقتالهم لبني إسرائيل.

وقوله تعالى ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي خلال دياركم أي دخلوا بلدكم وتخللوا دياركم وجاسوا خلالها، قال في (الصحاح): «أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني قتلوهم بين الدور والمساكن» انتهى. وفي (الكشاف): «وأسند الجوس وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: قتلوا و﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ معناه: بين الديار» انتهى.

والجمع بين المعاني: تخللوا الديار تخلل إفساد، فطلبوا بني إسرائيل ليقتلوهم وقتلوهم بين ديارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ أي كان ذلك الموعود بوقوعه في المرة الأولى وعداً مفعولاً أي موعوداً به مفعولاً فعله بنو إسرائيل وهو فسادهم وطغيانهم، وفعله المسلطون عليهم أي وقع من بني إسرائيل المرة الأولى الذي هو فسادهم وطغيانهم ووقع التسليط على بني إسرائيل كما وعدوا على ما هو مفصل في الوعد.

لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ

فقوله تعالى ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [الإسراء:٤] أي قضينا ووقع ما قضينا، أي أخبرناهم بما سيكون منهم وما سيعاقبون به في العاجل فوقع ذلك كما أخبرنا بأنه سيكون.

﴿٦﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ يظهر أن هذا من حكاية ما قضاه الله إلى بني إسرائيل في الكتاب؛ لأنه خطاب لهم، فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾ جملة معترضة والكرَّة الرجوع بعد التأخر عن العدو أو بعد الإنهزام وهي من التكرار، وحاصل المعنى نصرناكم عليهم.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أعقبنا لكم الدولة» انتهى، وهذا بالنصر من الله لهم حين ذلوا فرجعوا إلى الله فأعاد لهم عزهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ يحتمل قبل النصر لترجع لهم شجاعتهم ويعزموا على القتال كما في (قصة طالوت) ولم يكن النصر فيها بكثرة المقاتلين انظر الآيات من (سورة البقرة) من قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلاَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [البقرة:٢٤٦].

ولعل هذا أي كون ردِّ الكرة لبني إسرائيل لم يكن بكثر المال ولا كثرة النفير قدَّم في الذكر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ وعطف عليه قوله تعالى ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم﴾ أما إذا كان المراد وأمددنا بعد رد الكرة عليهم فهو تقوية لهم للمستقبل واختبار لهم أيشكرون أم يطغون كما طغوا أول مرة، وقد كان ذلك مقدمة لقوتهم التي عندها وقعوا في المرة الثانية.

ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـٔۥُا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر جنداً ينفرون للقتال، وظاهره أكثر من العدو الذي سلط عليهم في الماضي.

﴿٧﴾ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـٔۥُا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ حين ترجع لكم قوتكم ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن النعمة تبقى مع الشكر كما أن عاقبة الإحسان ثواب الآخرة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فأفسدتم في الأرض فلأنفسكم تضرون أنفسكم ويكون العقاب الموعود به عليكم، هذا بالنظر إلى السياق والجملة صالحة لما قبل رجوع قوتهم ولما بعده ولكل حين ما دام التكليف، فهو داخل في عموم الجملة أعني في عموم قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ والمعنى الأول الخاص بحال قوتهم المردودة داخلٌ دخولاً أوّلياً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي الموعود به الذي هو المرة الآخرة من المرتين الموعود بهما في الكتاب، وقوله تعالى: ﴿لِيَسُـٔۥُا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ يحتمل أنه متعلق بـ﴿جَآءَ﴾ وأما جواب (إذا) فهو محذوف لدلالة المذكور عليه تقديره: وقع ذلك الجزاء أو نحوه، وهذا من التعليل بغير غرض بل لمجرد التسبيب. وقال في (الكشاف): «التقدير: بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، حذف لدلالة ذكره أولاً عليه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لِيَسُـٔۥُا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي يظهر على وجوهكم أثر هجومهم عليكم وتأثيره في قلوبكم الهم والغم والحزن، ومعنى (ساء) ضد معنى (سر).

وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ
أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ أي الأقصى ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولعل الضمير لعبادٍ لله سلطهم من غير تعيين العباد الأولين، كما قدمتُ عند قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] وهذا هو الراجح، ولا نعلم أحداً قال إن المسلطين في المرة الثانية هم المسلطون في المرة الأولى. وقوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: ليدمروا» انتهى.

قلت: ويستعمل في تدمير الناس أي إهلاكهم، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان:٣٩] وكذلك التدمير، والراجح في معنى ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ أنه ما داموا عالين عليكم لا يقتصر بأسهم على يوم دخولهم أرضكم واستيلائهم عليها فهي مصيبة طويلة الأمد على شدتها نعوذ بالله.

﴿٨﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فيفرج عنكم بعد الشدة ويرفع عنكم دولة المسلَّطين، وهذا إطماع لهم ليرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه ليفرج عنهم كربهم وقام هذا مقام الوعد الصريح، بدليل قوله تعالى ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ولا يكون العود إلا وقد ذهب العذاب الأول وعادوا إلى الطغيان.

تنبيه: هذا الوعيد لبني إسرائيل غير خاص لليهود لأن بني إسرائيل انقسموا في وقت عيسى عليه السلام فآمنت به طائفة وكفرت طائفة وصاروا نصارى ويهوداً، والآيات في بني إسرائيل لم تخص اليهود منهم فإذا عادوا للفساد في الأرض والعلو الكبير أو كان ذلك قد وقع فلا بد من تحقق ما وعد الله به من بَعْث عبادٍ عليهم أولي بأس شديد.

وكذلك لا يؤمن أن يسلط الله على الإسلاميين إذا أفسدوا وعلوا، لأن الله تعالى قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٢] وقد سلط الله في المرة الأولى على الإسلاميين التتار ولا يؤمن أن يسلط الله عليهم مرة ثانية والعياذ بالله، ودفع ذلك إنما هو بتمسكهم بالدين وتحكيمه في كل شيء وترك الفساد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي جعلناها لهم سجناً يحصرهم ويحبسهم أبداً وهذا لئلا يتوهموا أن العذاب العاجل بدل من العذاب الآجل بل لا بد للكافرين لنعمة الله من جهنم.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يهدي للسبيل التي هي أقوم، وهي سبيل الله التي هي أقوم السبل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] وأقومُ تفضيلٌ يدُلُّ على أنه لو كان غيره قيما لكان ما يهدي إليه القرآن أقوم، وهذا يتصور في المنسوخ فالناسخ في وقته أقوم، فأما قوانين المخلوقين المخالفة للقرآن فهي غير قيمة أو أنها لو كانت قيمة باعتبار ففيها عوج أعظم يوجب طرحها فتعتبر غير قيمة، والتفضيل عليها ناظر إلى جهة المصلحة المرجوحة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ وهم الذين صدق إيمانهم فبعثهم على التقوى وامتثال أمر الله فكانت أعمالهم صالحة، وقوله: ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ إذا حمل على العموم فهو عموم الواجبات عليهم، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي ثواب الآخرة كما هو مفصل في غير هذه الآية.

ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ
بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولاً ﴿١١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ

﴿١٠﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي هم مستمرون على ترك الإيمان بالآخرة لاستمرارهم على الكفر بدلائلها ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب النار، فحصل من الآيتين أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر وينذر لتقوم به الحجة على الناس، وينتفع بذلك المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ علامَ عُطف؟ قلت: على أن لهم أجراً كبيراً على معنى أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بثوابهم، وبعقاب أعدائهم» انتهى المراد.

﴿١١﴾ ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولاً﴾ فالإنسان محتاج إلى ما يهديه للتي هي أقوم وإلا ساءت أحواله فقد يدعو بما يتوهمه مصلحة لنفسه أو للمجتمع وهو غلط، من ذلك: مطالبة بعض الجهال بالقوانين المخالفة للقرآن وهي في الواقع شر، وإنما زيّنها لهم شياطين الإنس والجن كمن يطالب بترك المرأة للحجاب، وبأن تبدي زينتها للأجانب وتخالطهم كمخالطة الرجل لهم.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولاً﴾ كثير العجلة التي معها يقل التثبت في الأمور ويكثر الغلط، فالملتزم لهدي القرآن المتمسك به في كل حال هو الذي يهتدي للصواب ويوفق للخير.

ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾

ومن الدعاء بالشر: دعاء العبد على نفسه أو أهله أو ولده أو نحو ذلك عند الغضب أو الضجر، وقد يكون ذلك شراً له، وهذا في دعائه لله تعالى، وكذلك قد يطلب من الله حاجة هي شر له وهو يظنها خيراً.

وقوله تعالى: ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي كدعائه بالخير فهو يجدّ في الطلب كما لو كان يطلب خيراً، وقد يَعْجَل على قضائها ولو عجلت له لكانت شراً له، فهذا تذكير للإنسان ليترك العجل على قضاء ما دعا اللهَ به وليتثبت في الأمور ويهتدي بهدى القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ولا يطاوع نفسه عند غضبٍ أو هوى.

﴿١٢﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلاً﴾ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الواو لعطف آية كونية على ما تقدم من ذكر الهداية بالتوراة والقرآن، ففي الوحي آيات سمعية وفيه ذكر آيات كونية، وهنا ذكر تعالى آيتين ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ تدلان على قدرة الله تعالى وعلى فضله وإنعامه على عباده، فالليل راحة للإنسان من الأعمال واستعادة بالنوم لقُواهُ الفكرية والجسدية بعد تعب النهار، أما النهار فللإبتغاء من فضل الله لطلب الحاجات الدينية والدنيوية كطلب العلم والحرث والتجارة وغير ذلك من الأعمال.

وقد جمع تعالى ما تفرق في آيتين في (سورة يونس) [آية:٥، وآية:٦] جمعه في هذه الآية، إلا أن هناك زيادة ما خلق الله في السموات والأرض.

وفي هذه الآية التي نحن في تفسيرها أوجز بذكر الليل والنهار وهناك زيادة ذكر اختلافهما وقد أفادته هذه الآية؛ لأنها تذكر الليل والنهار وهما معهودان بتحديدهما اللازم لاختلافهما، والمراد بآية الليل الآية التي تظهر في الليل التي هي القمر ومحوها نقص نور القمر حتى لا يبقى إلا الهلال، كقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس:٥] وجعل السواد فيه، وآية النهار الشمس، فالليل والنهار آيتان، واتصل بذكرهما ذكر الآيتين اللَّتين فيهما.

ولعل هذا مراد الناصر بن الهادي عليهما السلام فيما حكاه عنه الشرفي في (المصابيح) حيث قال: «يعني بذلك ـ عزَّ وجل ـ ما خلق من الشمس والقمر وما جعل الله بينهما من الفرق الواضح، وما فضل به ضوء النهار على ظلمة الليل، وما أتقن به من الصنع والتدبير لعمارة الدنيا ومصالح الخليقة، وذلك قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يعني تصرفهم في طلب المعاش وقوام الحياة.

﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ فهذا ما لا يخفى على أحد من عدة الأيام والشهور والسنين نعمة منه ـ عزَّ وجل ـ ورحمة ليعرفوا الأوقات والمُدد والحساب والعدد والصيام في وقته والحج في وقته والآجال بينهم في معاملاتهم وأحكامهم وأعيادهم ونكاحهم وجمعهم وديونهم وأسفارهم ومزارعهم والأسباب التي لا غنى بهم عنها ولا قوام لهم إلا بها» انتهى.

وهو واضح حيث كان المراد بآية الليل القمر لقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥] راجع تفسيرها في أوائل (سورة يونس).

وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا﴾ هو عام في كل المخلوقات وكلها آيات مفصلات أي مميَّزات بما يبين دلالتها على الله القدير العليم.

﴿١٣﴾ ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ﴿وَكُلَّ﴾ هو عطف على ذكر هداية الناس بالقرآن وغيره وبالآيات الكونية يبين أن الإنسان إن اهتدى أو أبى فعمله لازم لَه لا يفارقه ما مات عليه حشر عليه ليس يفارقه وهو ﴿طَـٰٓئِرَهُۥ﴾ أي سعده أو نحسه؛ لأن عمله سبب سعده إن كان صالحاً أو نحسه إن كان سيئاً، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [الأعراف:١٣١] أي يتشاءموا، وكان بعض يتشاءم بالطير إذا طار إلى جهة اليسار ويتيامن بالطير إذا طار إلى جهة اليمين ثم صار التطير اسماً للتشاؤم أو للتفاؤل كله.

قال الراغب في تفسيره (مفردات القرآن): «أصله التفاؤل بالطير، ثم يستعمل في كل ما يُتفاءَل به» انتهى، ونحو هذا في (مصابيح الشرفي) وقال في (الصحاح): «وطائر الإنسان: عمله الذي قُلِّدَه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ ترشيح لجعل عمله لازماً له لا يفارقه، قال في (الكشاف): «والمعنى: أن عمله لازم لَه لزوم القِلادة أو الغُل ومنه مَثَلُ العرب: تقلّدها طوقُ الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي نحضره له ونظهره له ليقرأه فيكون حجة عليه؛ لأنه يرى عمله فيه ويتذكره ويقرؤه كل إنسان سواء كان في الدنيا قد عرف الكتابة أم لا.

ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ
وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ

ولعله ـ والله أعلم ـ يكون كـ(السينما) و(التلفزيون) يرى نفسه ويسمع كلامه فيه ليكون حجة عليه كنطق جوارحه، وأما الله سبحانه فهو غني عن الكتاب لا يضل ربي ولا ينسى، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ والمنشور خلاف المطوي لأنه ينشر ليرى ما فيه ببسطه لقارئه.

﴿١٤﴾ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ خطاب موجَّهٌ يوم القيامة إلى الإنسان الذي لقي كتاب عمله ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ لترى عملَك فتحاسِب نفسك وتقرر منه مالك أو ما عليك بعلمك بذلك، وقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي لا تحتاج لمحاسب غيرك بل أنت تكفي محاسباً لنفسك، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي يوم القيامة؛ لأنه لو جحد الحق ما نفعه الجحدان ولأن المراد الإحتجاج عليه بما يعرف به عمله وما يستحقه من الجزاء فإذا عرف حصل المراد.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي عليك محاسباً بذنوبك، فأما الحسيب بأعماله الصالحة فهو بالأولى أن يكفي لأنه لا يحتاج فيه إلى تقريره والإحتجاج عليه لإثباته.

﴿١٥﴾ ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ هذا تفصيل لما أجمله في الآيات الثلاث التي قبله ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ انتفع بالهدى فاتبع سبيل ربه ومن ضل أي غوي عن سبيل ربه فاتبع غيرها ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ نفع اهتدائه لَه لا لله ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ على نفسه لا على ربه فلا يضره شيئاً بل ضره على نفسه.

قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملة ذنب أخرى سمي الذنب وزراً لثقله على صاحبه، ورشح بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:٣١] فدلت على أن ذنب الإنسان لا يعذَّب به غيره، فلا يعذب الطفل بذنب أبيه، وأما وقوع العذاب العاجل على الكفار ووقوعه على أولادهم فليس عقوبة للأولاد وإنما هو كالأمراض والموت الذي يلحق أولاد المؤمنين فما لحق أولاد الكفار فلهم عوضه يوم القيامة، ونظيره ما يلحق أولاد المؤمنين من الأمراض والمصائب فلا يضيع عليهم شيء من كل ضر نالهم في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ أي نبعث رسولاً لينذر أهل العقول ويبشر، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

﴿١٦﴾ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ بجرم أهلها واستحقاقهم للهلاك العاجل لفسادهم ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمراً فيه اختبارهم وابتلاؤهم، فكان هذا الأمر سبباً لفسقهم؛ لأنهم يستكبرون عن طاعة هذا الأمر أو يغلبهم هواهم، والمترفون هم أبناء الدنيا المتنعمون المتبعون للشهوات ورفاهية العيش، قال الراغب في (المفردات): «الترفُّه: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف» انتهى.

وذلك أن المترفين لم يتعودوا الصبر على مشقة بل تعودوا الراحة والتلذذ فإذا أمروا بما يشق عليهم ثقل عليهم، وأيضاً المترفون يكونون أهل ثروة يعظمهم الضعفاء من أجل حاجتهم إليهم ولذلك إذا جاءهم الرسول أو الداعي إلى الله خافوا على مكانتهم في قومم أن تذهب ويصيروا مثل ضعفائهم في قومهم فلذلك يكون المترفون هم أسرع إلى العصيان والفسق ويكون الضعفاء لهم تبعاً.

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقُواْ﴾ أي أجرموا وخبثوا وأعلنوا معاندة الحق والفساد في الأرض وهذا الأمر لعله مثل أمر أصحاب القرية بواسطة الصالحين منهم بترك التعدي في السبت مع أن حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فالأمر هذا ليس الأمر السابق عند دعوتهم وإقامة الحجة عليهم ولكنه أمر ابتلاء بسبب المعاصي السابقة، كما قال تعالى في (أصحاب السبت): ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] وكما أمر (قوم صالح) بترك ناقة الله تأكل في أرض الله: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥] وهذا أمر يغيظهم لأنها آية مبصرة لصدق نبيهم وهم لا يريدون أن تبقى له آية بينة مستمرة.

وكأمر فرعون بالإيمان بموسى حين بطل سحر السحرة بإلقاء موسى عصاه فغضب فرعون ولم يبقَ لَه حجة فعدل إلى تهديد المؤمنين وحشَر قومه لإهلاك موسى وأصحابه، فهذا الفسق ظاهر زائد على فسقه الأول وكذلك فسق الذين عقروا الناقة، ومن أمثلة ذلك أمر لوط قومه بتقوى الله وأن لا يخزوه في أضيافه فازداد عنادهم وقالوا أولم ننهك عن العالمين، وأصروا على المطالبة بتسليم أضيافه حتى عاجلتهم عقوبة طمس أعينهم، فهذا هو الراجح في معنى الأمر المذكور هنا.

خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ فجروا فجوراً زائداً وخبثوا خبثاً استحقوا به مع فسقهم السابق تعجيل العذاب لهم كعقر الناقة والعدوان في السبت ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ الوعيد السابق واستحقت تطبيقه واقتضت ذلك الحكمة، وقوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكنا أهلها ودمرنا مساكنهم وما فيها وما في القرية تدميراً ساحقاً لا يبقي على أحد.

﴿١٧﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي كثيراً من القرون أهلكنا، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يشير إلى كثرتهم وأنهم لم يعتبروا بمن قبلهم، وقد سمى الله تعالى في القرآن بعضهم وأفاد أنه لم يسمِّهم كلَّهم، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [إبرهيم:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي أنه العليم بها كلها ويخبر كل عمل ومقداره في القبح، وأنه البصير بها في الجازاة عليها بتعجيل أو تأجيل، وعلى كل ذنب بقدره فأي قرية استحقت الإهلاك فلن تخفى عليه، وفي هذا تحذير للكفار بنبيئنا محمد ﷺ. قال في (الصحاح): «والذنب: الجرم» انتهى.

﴿١٨﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يختارها ويؤثرها، والعاجلة الحياة العاجلة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود:١٥].

وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ أي من أغراض الحياة العاجلة ومطالبها، وقوله تعالى ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من قوله: ﴿لَهُۥ﴾ أي عجلنا لمن نريد أن نعجل له. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أي جزاء ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يباشرها وقوله تعالى: ﴿يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ حالين حال بعد حال أي يصلاها حال كونه مذموماً بعصيانه لربه وكفر نعمته عليه وحال كونه مدحوراً مبعداً ملعوناً لا يُرحم.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ آثر الحياة الآخرة وهي حياة الناجين من عذاب الله الفائزين برحمة الله ورضوانه، فإرادته لها أن تكون في نفسه أرجح من أغراض الدنيا، بل وأرجح من الحياة الدنيا بحيث إذا تعارضا لم يرجح العاجلة بل يؤثر طاعة ربه وتقواه، فمتى وجب عليه الجهاد في سبيل الله بنفسه وماله جاهد في سبيل الله بنفسه وماله ولم يمنعه خوف القتل ولا خوف الفقر وهكذا كلما تعارض غرض دنيوي وطاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي وسعى للآخرة سعيها الذي هو التقوى والعمل الصالح، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في قبول السعي للآخرة فلا قربة لكافر ولا لفاسق مصر على فسقه؛ لأنه غير مؤمن ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾: أهل الصفات الثلاث ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ يشكره الله بكرمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] وهذا تعبير بليغ لإفادة نفع هذا السعي للساعي.

ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ

﴿٢٠﴾ ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ ﴿كُلّٗا﴾ أي كل الفريقين من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة ﴿نُّمِدُّ﴾ نعطي العطاء بعد العطاء لا يمنع فضلَ الله عصيانُ العاصي ولا اشتغال الساعي للآخرة بسعيها، وقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿كُلّٗا﴾ أي للمضاف إليه المعوض بالتنوين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ أي ما كان ممنوعاً لأنه لا مانع لما أعطى ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢].

﴿٢١﴾ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ ﴿ٱنظُرۡ﴾ أيها الإنسان ﴿كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ بعض مَن أراد الدنيا وبعض من أراد الآخرة فضلنا بعضهم ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ في الرزق لم يمنع من التفضيل أحد لا حاسد ولا غيره؛ لأن الله غالب على أمره وهو ابتلاء للفريقين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ فهو واقع ما وعد الله به أولياءه كما وقع التفضيل في الدنيا إلا أن التفضيل في الآخرة تابع للعمل يخص من أراد الآخرة، ولعل سياق الآية ـ أيضاً ـ للترغيب في درجات الآخرة وتفضيلها ببيان أن الناس يعظم في نفوسهم ما فضل الله به بعضهم على بعض في الدنيا فليعرفوا بذلك عظم تفضيل درجات الآخرة وتفضيلها فإنه أكبر، وقوله: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ هي منازل الثواب وهي تشريف وتعظيم تابع للعمل، فأهلها مفضلون بها على قدر أعمالهم، وبقية النعيم في الجنة فيه تفضيل تابع للدرجات ولما شاء الله من الأسباب.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ ﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ يا رسول الله ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهيٌ له عن الشرك وهو نهي لكل أمته ﴿فَتَقْعُدَ﴾ لو أشركت ﴿مَذْمُومًا﴾ يذمك المؤمنون لارتكاب القبيح ويذمك الكافرون لتلوُّنك وزعمهم أنك افتريت على الله قبل أن تشرك ثم رجعت إلى الشرك ولو كنت صادقاً ما رجعت عندهم عن دعواك وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ في التعبير بالقعود إشارةٌ إلى أنه يضعف لو أشرك.

وقوله تعالى: ﴿مَّخْذُولاً﴾ أي لا يبقى لك ناصر يخذلك الله وملائكته والمؤمنون، وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ إما تامة بمعنى فتضعف وتذل ولا يبقى منك أمر ولا نهي ولا عمل في سبيل الله بل تبقى متخلياً عن العمل منقطع الأسباب، وعلى هذا يكون ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ حالَين مترادِفَين، وإما ناقصة بمعنى فتصير، فيكون ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ خبرَين لها.

وهذا الذي اختاره (صاحب الكشاف) في تفسير هذه الآية، واختاره الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ولم يذكر الأول والأول مجاز والثاني غريب، وقد قال بعض النحاة: لا يستعمل إلا في محل سماعه، وهو قول الأعرابي:

أرهف شفرته حتى قعدت كأنها حَرْبَة

وقال ابن الحاجب: «وإن قلنا بالطرد فإنما يطّرد في مثل هذا الموضع، قال الرضي في شرحه: فلا يقال قعد كاتباً بمعنى صار، بل يقال: قعد كأنه سلطان، لكونه مثل: قعدت كأنها حربة» انتهى.

وقال الزمخشري في (المفصل): «وقد جاء جاء بمعنى صار في قول العرب: ما جاءت حاجتك، ونظيره: قعد في قول الأعرابي:

رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ

أرهف شفرته حتى قعدت كأنها حَرْبة»

انتهى، قال شارحه ابنُ يعيش: ولا عهد لنا بـ(جاء) في معنى (صار) إلا في هذا المثل، يعني قول الخوارج لابن عباس: ما جاءت حاجتك، فقول صاحب المفصل: ونظيره قول الأعرابي يفيدُ غرابته، مثل: ما جاءت حاجتك أو قريباً منه.

ولذلك فالراجح في قول الله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾: هو التمام، كما بينته، وقد جاء في المدح: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران:١١٣] والقيام ضد القعود فصح الذم أو نحو الذم بالقعود بل قد جاء الذم به في قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ حكَم عليكم وأوجب ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ولعله أعيد بعد قول الله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ليكون دافعاً لما يتوهم من قوة الحث على بر الوالدين أنه يجوز طاعتهما في الشرك أو في معصية الله تعالى كطاعة أهل الكتاب لرهبانهم وأحبارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي قضى أن تحسن أيها الإنسان بالوالدين إحساناً، وهذا عام لكبيرهم ومَن دونه ولمسلمهم وكافرهم.

وأكّد تعالى التوصية بالكبيرين، فقال تعالى ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ﴾ أي إن يبلغ ﴿عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ﴾ أي إن يبلغ أن يكبر في السن ويصير في الضعف والشيبة ﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ وقول القائل: أفٌ كلمة تضجر، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء:٦٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ أي لا تزجرهما بمغالظة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ يوجب تكليمهما فيحرم السكوت، ويوجب قولاً طيباً كريماً والكرم ضد اللؤم، فهو قول يحمد عليه قائله لأنه إحسان إليهما من جنس إحسان أهل الكرم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد الناصر - يعني ابن الهادي - عليه السلام: هذه وصية من الله تعالى سبحانه في الوالدين أن لا يقطعا ولا يجفى بهما، وأن يُحسن إليهما جزاءً بما أحسنا، وأن يُحفظا كما حَفظا ويُكرما كما أكرما، ويُربَّيا كما ربَّيا، رحمة منه - عزَّ وجل - وتأديباً لخلقه، وتنبيهاً على الصواب، ليجزيهم على ذلك الجنة، ويوجب لهم الكرامة ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ والأف: فهو التأفيف في لغة العرب المعروفة، وهو: التأذي والإستثقال» انتهى المراد، وقوله: وهو التأذي والإستثقال، يعني: التعبير عن التأذّي والإستثقال بقولهم: ﴿أُفّٖ﴾.

وقوله تعالى:﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ أي تواضع وتذلل لهما من رحمتك لهما بسبب ضعفهما من الكبر، و﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ الجناح المعبّر عن الذل لهما، كأنه قد جعل للذل أي للدلالة عليه والتعبير عنه وذلك بخفضه، والخفض ترشيح لإثبات الجناح، وقوله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ أي ارحمهما جزاءً عني ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ كما أحسنا إلي بتربيتي ﴿صَغِيرٗا﴾ أي حال كوني صغيراً في ضعف الصغر.

فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: كما غذواني طفلاً، والتربية: هي الغذاء، والكفالة، والحضانة في لغة أهل الحجاز، وهي البزاية في لغة أهل اليمن، والمراد: ادع لهما بالرحمة الباقية من الله جزاءً لرحمتهما عليك في صغرك)) انتهى.

﴿٢٥﴾ ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡ﴾ كله مما يتعلق بالوالدين مثل المعرفة بحقهما ونية برهما أو خلاف ذلك، ومن غير ذلك مما في نفس المكلف، فهو سبحانه أعلم، وهو الذي يحاسب ويجازي، فأما الوالدان فقد يخفى عليهما ما في نفس الولد، فيظنان من يحبّانه بَرّاً بهما وليس كذلك، وقد يغضبان على ولد فيظنانه عاقاً وهو برّ بهما محسن إليهما خافض لهما جناح الذل من الرحمة، فالآية تدل على: أن حكم الولد عند ربه، وأنه إذا كان صالحاً فلا يضره سوء ظن والدَيه؛ لأن ربه أعلم بما في نفسه فضلاً عن أقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ الأواب: هو التواب وهو مثال مبالغة يقال: آب بمعنى رَجعَ والمعنى الأوابين إلى الله أو الأوابين إلى الله الرجاعين إلى الوالدين فهم لا يصرون على معصية لربهم لا في حق الوالدين ولا في حق الله تعالى.

﴿٢٦﴾ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ وهو ما أمر الله به، وقد أمر بإيتاء ذي القربى وقد مرَّ القول في دلالة ذلك على وجوب الإنفاق عليه إلا أن الوجوب على الوارث قبل غيره.

وهذه الآية خطاب عام لأنها معطوفة على ما قبلها وهي عامة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾ فليست خاصة برسول الله ﷺ ولكنه داخل في عمومها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): روينا عن آبائنا عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: الآية خاطب الله بها رسوله ﷺ أن يؤتي ذوي قرباه حقوقهم من الخمس، والغنيمة، والفيء، والخطاب بعده يتوجه إلى الأئمة القائمين مقامه العاملين بسيرته» انتهى.

وفي (شواهد التنزيل) عند ذكره لهذه الآية من (سورة بني إسرائيل) بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: «لما نزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أعطى رسول الله ﷺ فاطمة فدكاً، رواه بعدة طرق عن أبي سعيد الخدري، وفيه: بإسناده عن جعفر ابن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي عليه السلام قال: لما نزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا رسول الله فاطمة عليها السلام فأعطاها فدكاً» انتهى.

وأخرج الطبري في تفسيره لهذه الآية بإسناده إلى علي بن الحسين عليهما السلام: «أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأتَ القرآن ؟

قال: نعم.

قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؟

قال: وإنكم لَلْقَرابة التي أمر الله ـ جلَّ ثناؤه ـ أن يؤتى حقُّه؟

قال: قال: نعم» انتهى.

وفي (تفسير ابن كثير): «وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التميمي، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية،

عن أبي سعيدن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك، ثم قال [البزار]: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التميمي، وحميد بن حماد بن أبي الخوار» انتهى.

قلت: رواه الحسكاني في (شواهد التنزيل) بإسناده عن حسن بن حسين العرني، قال: حدثنا أبو معمَّر سعيد بن خثيم، وعلي بن القاسم الكندي، ويحيى بن يعلى، وعلي بن مسهر، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، ورواه بإسناد عن علي بن هاشم، عن داوود الطائي، عن فضيل بن مرزوق به، ورواه بإسناد: عن معاوية بن هشام القصار، عن فضيل بن مرزوق به، وغيرهم.

وفي تخريجه: أنه أخرجه: ابن عدي في (ترجمة علي بن عابس) من كتاب (الكامل) [٥/ ١٨٣٥] قال أخبرنا القاسم بن زكريا، حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا علي بن عابس، عن فضيل ـ يعني ابن مرزوق ـ ..إلخ» انتهى.

فهؤلاء المذكورون مع من ذكرهم ابن مردويه، وهذا كله يدل على أن هذه الآية الكريمة مدنية، ويبطل قول من زعم أنها (مكية) فإن السورة المكية يأتي بعض آياتها (مدنية) كما لا يخفى، وفي المصحف [طبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه] عد آيات من هذه السورة أنها (مدنية) منها هذه الآية.

وقد روى الحديث في (فدك) في (شواهد التنزيل) عن غير مَن تقدم، وخرج المحمودي روايته في (حاشيته) تخريجاً كاملاً، فراجعه أو راجع (الغدير) [٧/ ١٩٠]، [ج٨/ ١٣٧-١٣٨] كما أفاد في تخريج (شواهد التنزيل).

هذا وقد قدمت أن رسول الله ﷺ داخل في عموم هذه الآية، فقد أمر أن يؤتي ذا القربى حقه، فالروايات موافقة في الجملة للقرآن.

وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ فله حق في الزكاة وحق في الخمس وحق في الإنفاق من المؤمن، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٧٧] وقوله تعالى ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر المحتاج. قال الشرفي في (المصابيح): «وابن السبيل: فهو مارُّ الطريق المسافر المنقطع» انتهى.

قلت: ومثل المنقطع، مَن هو مظنة أن ينقطع إذا لم يُعطَ ما يبلّغه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ فالتبذير قسمان: إتلاف المال في غير منفعة ولا فائدة كما يفعل بعض الأغنياء في الضيافات من إلقاء بقية الطعام في محل القمامة، والقسم الثاني: إنفاق المال في معصية الله كإنفاقه في الخمر أو الميسر أوا لرشوة أو الربا أو غير ذلك كمعاونة الظلمة، وسواء أنفق المال بنفسه في أحد القسمين أو آتاه سفيهاً أو فاسقاً ينفقه في أحدهما أو كليهما فكل ذلك تبذير.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾

أما التبذير بإنفاق المال في معصية الله، فلأنه مع كونه معصية من حيث التسبيب للمعصية أو المشاركة به فيها فهو معصية قبيحة من حيث أن المال نعمة من الله على عبده فاستعماله في معصية الله كفر للنعمة قبيح قبحاً زائداً، مع أن كل المعاصي هي استعمال لنعمة الله في معصيته وذلك طاعة للشيطان ومؤاخاة له في معصية الله.

وأما إضاعة المال وإتلافه في غير فائدة فلأنه استخفاف بالنعمة وتحقير لها وذلك مطابق لغرض الشيطان؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧] فالشيطان يحب تحقير النعمة وإهانتها، والمتلف للمال في غير فائدة مطابق لغرض الشيطان، فهو مؤاخ للشيطان على كفر نعمة الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي كفوراً لنعمة ربه والمبذر أخوه على كفران نعمة ربه، ألا ترى لو أن إنساناً أعطاك ثوباً جيداً لتلبسه فأحرقته، لكان ذلك استخفافاً بالثوب وتحقيراً له، وكفراً لإحسان الذي أعطاك، يغضب منه إذا كان حاضراً.

(٢٨) ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ أي وإن تعرض ﴿عَنْهُمُ﴾ أي عن ذي القربى، والمساكين، وابن السبيل ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ أي لأجل ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ والإعراض عنهم ابتغاء رحمة قسمان:

القسم الأول: إذا كانوا فجاراً، فهو يعرض عنهم تقرباً إلى الله.

القسم الثاني: إذا كنت مشغولاً بصلاة أو قراءة وأنت إذا أعطيتهم تفوت عليك الجماعة أو الدرس أو نحو ذلك ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

أما القسم الأول: فلئلاً يكون الإعراض قطيعة ورفقاً بالمسكين وابن السبيل وهذا مع إعطائهم ما يحسن إعطاؤهم إياه أو مع منعهم لعذر، وهذا إذا لم يكن قوله: ﴿تُعْرِضَنَّ﴾ كناية عن ترك إعطائهم، فإن كان كناية عن منعهم للعذر الديني كإيثار من هو أحق فالقول وحده.

والقول الميسور: هو الإعتذار والعدة لحال الفراغ من الشاغل إن أمكن ذلك أو نحوه، ومعنى ابتغاء الرحمة: طلبُها، والتوصل إليها بالإعراض عنهم أو بلازم الإعراض، والميسور: ضد المعسور، فالميسور الذي جعل يسراً للمخاطب وتخفيفاً من عسر حاله.

تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ

وفي (مصابيح الشرفي): «عن الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام: والميسور هاهنا: اليسر من القول، وهو القول الحسن اللطيف المقبول» انتهى.

وفي (المصابيح) أيضاً: «قال في (البرهان): إن الله أكد على نبيه في هذه الوصاية بذوي قرباه فقال: إن أعرضت عنهم ابتغاء رزق ونعمة ترجوها من عند الله، فعدهم خيراً ورد عليهم جميلاً» انتهى.

وهذا التفسير قد بين وجهه في (الكشاف) بما يفيد: أنه خلاف الظاهر، وعلى هذا: فلا يصار إليه إلا لقرينة صارفة، وقد فسر في (البرهان) الميسورَ بما ترى، وجعله صفة للقول صحيحٌ، سواء كان مصدراً أم صفة كما تقدم في جعله صفة؛ لأنه إذا كان مصدراً كان معناه قولاً تيسيراً وقولاً يسراً، والمعنى واحد فيهما لأن المراد يسر للمخاطب أو تيسير له.

﴿٢٩﴾ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تبخل تشبيه للبخيل بمن يده مغلولة فهو لا يستطيع أن يمدها بعطاء: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] وكأن ذلك مجاز عن البخل وزيادة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ تأكيدٌ وترشيح إن كان الغل اسماً للقيد مطلقاً، فإن كان خاصاً بالقيد إلى العنق فهو ترشيح فقط، وهو الراجح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ لا تعطِ مالك كله، بل ابقِ لنفسك وعيالك ما تحتاجونه، وقوله تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا﴾ يلومك الناس على إنفاق مالك كله لما يتبع ذلك من الحاجة والإعسار الذي يسبب اللوم، واللوم: ضد الحمد، إلا أنه خاص بخطاب الملوم باللوم، قال في (الصحاح): «اللوم: العذل» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَّحْسُورًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علـي عليهما السلام): «﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ عنـد النـاس ﴿مَّحْسُورًا﴾ مـن المـال: أي خاليـاً منـه» وفي (مفـردات الراغب): «والحاسر: الْمُعيَى، ويقال للمُعيَى: حاسر، ومحسور» انتهى.

فعلى هذا: جعل فاقد المال كفاقد القوة الذي أتعبه المشي، وهـذا يناسـب تفسير ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بأنه مجاز عن ضعف حالـه وانقطـاع أسبابه الباعثـة علـى القيام والتحرك للعمل والذهاب للحاجات.

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ هذه الآية تعليل للنهي في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ كأنه قيل لا تبخل ولا تنفق ما تحتاجه أنت أو عائلتك لأن رزقك ورزق غيرك محدود حده ربك بحكمته، فما كل ما أنفقته يأتيك خلفه فوراً حتى لا يكون رزقك محدوداً مثلاً رزق اليوم المحدود لليوم كله أو الأسبوع أو الشهر إذا أنفقه بقي معدماً في بقية يومه أو أسبوعه أو شهره، فأما الإيثار للمضطر مع تحمله وتحمل عائلته أي أنهم غير مضطرين فليس من هذا إذا كان لا يظن اضطرارهم في المستقبل بالنظر إلى العادة.

وقولـه: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي يكثـره ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يقلـل قـال تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق:٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تعليـل للبسـط والتقـدير، فـالمؤمن قـد تكـون مصلحته في البسط؛ لأنه يشكر النعمة ويفعل الخير ويقوم بواجب المال، وقد تكون مصلحته في التقدير لرزقه لينـال ثـواب الصبر علـى الإقـلال ويفـرغ لعبادة ربه وذكره؛ ولذلك أكرم الله نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم بالإقلال.

خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا
تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي

وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي عليم بخُبرهم ومستور أمرهم، وقوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾ أي بصيراً بتدبير أمورهم في بسط الرزق أو تقديره وفي غير ذلك من الصحة والسقم وغيرهما، وكذا في ابتلائهم بأنواع الإبتلاء، ومنها التكاليف العقلية والشرعية.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ يعم الذكور والإناث، وكان أهل الجاهلية يقتل بعضهم بنتَه بدفنها وهي حية، ويحكى عن بعض النساء: أنها زنت فولدت فقتل المولود، ولعل ذلك من خوف الفضيحة والنفقة عليه.

وقوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ يَذْكُرُ باعثاً على قتلهم ليبطله وهو خشية الإملاق، والخشية: خوف، والإملاق: الإقلال والفقر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: فقر وفاقة».

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ لدفع الخوف على الولد من أن يملق، وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ لدفع الخوف من أن يملق الوالد فتثقل عليه كلفة الولد والإضطرار إلى الإنفاق عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «والخطأ: العدول عن الصواب بعمد» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب).

وقال في (الصحاح): «الخطأ: نقيض الصواب ـ ثم قال ـ : والخِطْأُ: الذنب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي إثماً» انتهى.

وفي (لسان العرب): «وخَطِئَ الرجل يَخْطَأ خِطْأً وخِطْأة على فِعْلةٍ، إذا أذنب» انتهى، وهذا هو الراجح في الآية لوصفه فيها بالكِبَر، ولو كان مفهومه العدول عن الصواب لكان من شأنه أن يوصف بالبُعد ـ والله أعلم.

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ النهي عن قرب الزنا نهي عن مقدماته المؤدية إليه من الخلوة والتقبيل ونحو ذلك ومنها النظر لشهوة إذا أدى إليه.

وفي (الجامع الصغير): عن النبي ﷺ: «العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرِّجْلان تزنيان، والفَرج يزني» أفاد أنه أخرجه أحمد في (مسنده) والطبراني في (الكبير) كلاهما عن ابن مسعود، وقال: «صحيح».

قلت: هو موافق للآية، ولا ينافي إرادة النهي عن الزنا لأن الكناية يراد فيها المعنى المجازي والحقيقي معاً وهو الفارق بين الكناية والمجاز.

قال في (شرح التلخيص) للبرقوقي [ص٣٣٨]: «قال الشيخ الإمام [لعله يعني السكاكي يعني معنى الكناية في مصطلح النظار من علماء البيان] أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه ويجعله دليلاً عليه» انتهى.

فأما من قال في تفسير الكناية: لفظ أريد به لازمُ معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ فهو قول ضعيف؛ لأنه لا ينطق بالجواز ولا بد في النطق من أحد الجائزين، والأصل: إرادة المعنى الحقيقي مع عدم القرينة الصارفة عنه، فإن أراد اللازم والملزوم فهي الكناية بالإتفاق، وإن أراد اللازم وحده فهو المجاز الذي علاقته الملازمة، ولا فائدة لإخراجه من حقيقة المجاز بقولهم مع قرينةِ عدمِ إرادته.

وقد مثّلوا للكناية بقول امرئ القيس:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فكيف جاز أن امرأ القيس ما أراد إثبات الصفات الثلاث ليدل على ترفها إنما أراد إنها مترفة، فظهر أن المراد في الكناية هو اللازم والملزوم، وإنما الملزوم هو السبب في الكلام والمراد الأصلي وذِكرُ اللازم تبعٌ له، هذا ولا إشكال أنه لا قرينة في الآية صارفة عن إرادة المعنى الحقيقي بل إرادته أبلغ في النهي عن الزنا، أما إرادة النهي عن الزنا فلا تدل على أن النهي عن المقدمات غير مراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي فعلة قبيحة عظيمة القبح، وقوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ قَبُح الزنا سبيلاً أي بئس الطريق لقضاء الشهوة الزنا؛ لأن قضاء الشهوة بالزواج يغني عن الزنا الذي هو الفاحشة، ومن القبيح استبدال الحرام بالحلال، فإذا لم يكن مراد الزاني اتخاذ الزنا سبيلاً وعادة فعليه أن يصبر وينتظر الحلال؛ لأن الزنا مرة مثلاً لا يكفيه لأن يقضي شهوته وإنما يقع في الفاحشة ثم تعاوده الشهوة فهو إما أن يتخذ الزنا سبيلاً وإما أن يتزوج، والحرام فيه مفاسد مع كونه سبباً للنار ووجوب الحد على فاعله، منها: الإفتضاح إذا اطلع الناس على الزاني وقد يُقتَل، ومنها: انتشار بعض الأسقام بسبب الزنا، ومنها: إتلاف المال في أجور البغايا إتلافاً متكرراً، بخلاف غرامة الزواج فهي مرة واحدة.

وفي (مصابيح الشرفي): «قال الإمام أحمد بن يحيى عليه السلام ـ يعني: الناصر بن الهادي ـ يعني سوء السبيل: إلى النار، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة.

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي

أما اللواتي في الدنيا: فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، ويقطع العمر، وأما اللواتي في الآخرة: فيوجب سخط الرحمن، وسوء الحساب، والخلود في النار» انتهى، وهذا الحديث بإسناده في (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (باب التحذير من الزنا).

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي جعلها حراماً ليس لأحد أن يستحلها ولا يقتلها، وقوله تعالى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي قتلها بالحق كالقصاص.

قال الشرفي في (المصابيح): «يعني إلا من قَتَل بحق في جميع الأسباب التي يحل بها القتل من بين قودٍ أوحدٍّ من حدود الله عز وجل مما ـ كذا ـ أوجب الله عز وجل قتله ممن عاند المسلمين من المشركين وغيرهم من الباغين والظالمين والمرتدين وأهل الكتابَين، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ذكره أحمد بن يحيى عليه السلام» انتهى.

يعني بأحمد بن يحيى: الناصر بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهما السلام، وقد ذكر الهادي عليه السلام في (الأحكام) الأسبابَ التي يجوز بها قتل صاحبها عشرة أسباب، ومحله أوائل (كتاب الديات).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾ أي مظلوماً بقتله ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ وليُّه هو وارثه بالقوة ولو لم يرث بالفعل لاستغراق الدين للتركة، وقوله تعالى: ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ أي أحللنا له قتل القاتل وسلطناه عليه بالحجة.

هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾ أي لا يسرف وليُّ الدم في القتل أخذاً بالثأر كما تفعل الجاهلية، فلا يقتل غير القاتل لا زيادة مع القاتل ولا بدلاً من القاتل، فكل ذلك إسراف في القتل؛ لأنه كله تجاوز للحق إلى الباطل، ومن الإسراف القتل بطريقة تعذيب بشرطين:

الأول: أن لا يكون المقتول ظلماً قتل بطريقة تعذيب.

الثاني: أن يمكن القصاص بغير تعذيب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ الراجح: أن الضمير لـ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ فهو منصور على القاتل ظلماً فولي الدم قوي جريء، والقاتل ضعيف مرعوب لا ينافي ذلك أن القاتل قد يكون له من الظالمين من يحميه، أو يقال: إن ولي الدم منصور في الدنيا أو في الآخرة، أو هذه الحالة مخصوصة بالعقل أي بالمشاهدة والتجربة المفيدة لعلم السامع للعموم أنها غير مرادة فيه.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ كناية عن النهي عن أخذ مال اليتيم، والإستثناء راجع إلى المعنى لقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ لمعناه الحقيقي؛ لأنه يعم قربه لأخذه لنفس الآخذ، وقربه لمصلحة اليتيم أو للواجب في ماله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي بالإصلاح لأمر اليتيم أو إصلاح ماله أو تسليم الواجب فيه، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى يبلغ مبالغ الرجال رشده، وهذه الغاية ترجع إلى قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ حيث أفادت تولي مال اليتيم لمصلحته وللواجب فيه، فالولاية على مال اليتيم تنتهي ببلوغه أَشُدَّه.

وقوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ يعم العهد الذي لله كبيعة إمام الحق والعهد بين الناس كعهد الصُّلح، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ ظاهره أن العهد يطلب من صاحبه؛ لأن (سَأَلَ) المتعدي إلى مفعولين معناه المطالبة بالشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء:١٥٣] ومنه الحديث: ((سلوا الله السداد)) ولذا فسرها في (الكشاف) بما لفظه: ((أي مطلوباً يطلب من المعاهِد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخييلاً كأنه يقال للعهد: لم نكثت وهلاَّ وُفِي بك تبكيتا للناكث، كما يقال للموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٩] ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً)) انتهى.

ومعنى الوجه الأول: ﴿مَسْئُولاً﴾ في الدنيا، ومعنى الوجه الثاني، والثالث: ﴿مَسْئُولاً﴾ في الآخرة، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): وقوله تعالى: ((﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ معناه: مطلوب)) انتهى.

والراجح في تفسير هذه الآية ـ والله أعلم ـ: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ يسأله الناس بعضهم من بعض كعهد البيعة وعهد الصلح وعهد الوصي؛ ولكون المجتمع يحتاج إلى العهد، فمن الواجب الوفاء به لئلاَّ تبطل فائدته ويؤدي شيوع نكثه إلى عدم الثقة به وبالتالي ترك التعامل بالعهد وفوات وثيقةٍ نافعة للناس يحتاجون إليها ما دامت وثيقةً يوثق بها للسلمِ والأمن وغيرهما من الفوائد.

وعلى هذا: فالمعنى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ يسأله بعضكم من بعض وتحتاجون إليه في أمور كثيرة ولأغراض مهمة، ومن ذلك حاجة من خاف الموت وله ولد صغير يخشى عليه الضياع فإنه يوصي به وقد يطلب من الوصي العهد أنه لا يهمله ويتركه للضياع، ولعل هذا هو سبب عطف الأمر بالوفاء بالعهد على النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ـ والله أعلم.

وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ
وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا

﴿٣٥﴾ ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ هذا تحذير من الغش في الكيل والغش في الوزن.

قال الشرفي في (المصابيح): «واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فوجب على العاقل الإحتراز منه، وإنما عظم الوعيد عليه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء، وقد يكون الإنسان غافلاً لا يهتدي إلى حفظ ماله فالشارع بَالَغَ في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في إيفاء الأموال على الملاك ومنعاً من تلطخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير، والقسطاس في معنى الميزان [أي آلة الوزن المعهود] إلا أنه في العرف أكبر منه؛ ولهذا اشتهر في ألسنة العامة أنه القبَّان وهو مأخوذ من القسط وهو الذي يحصل فيه الإستقامة والإعتدال..» إلخ، وقال الراغب في (المفردات): «والقسطاس: الميزان» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «القِسطاس والقُسطاس أعدل الموازين وأقومها، ثم قال: والقِسطاس هو ميزان العدل أيّ ميزان كان من موازين الدراهم وغيرها وقول عدي:

في حديد القسطاس يرقبني الحا ... رسُ والمرؤ كلَّ شيء يلاقي

قال الليث: أراه حديد القبّان» انتهى.

فظهر: أن القسطاس: الميزان الصحيح، والمستقيم: غير المائل.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ إشارة إلى إيفاء الكيل والوزن بالعدل خير من التطفيف وإن ظن الجاهل أن التطفيف خير؛ لأن الحلال مبارك والحرام ممحوق؛ ولأن السلامة من ذنب التطفيف وعاره أفضل مما يأخذ المطفف؛ ولأن الأمانة تجلب الرزق والخيانة تجلب الفقر كما جاء في الحديث وكما هو مجرب، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أحسن إعداداً للمآل وللرجوع إلى الله تعالى.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً﴾ ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا تتبع ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أنه حق وصواب، وهو يدل على تحريم العمل بما لم يثبت عن الله ورسوله، فكيف يجوز العمل بأخبار الآحاد في العمليات الفرعية؟

والجواب: أنه إذا ثبت الدليل العملي على وجوب العمل بالخبر الآحادي في ذلك فقد صار مما للعامل به علم متى تكاملت شروطه.

فأما المعلوم من كتاب الله وسنة رسوله فيعمل بظاهره لوجوب اتباعه، بدليل قول الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣] ولأنه طريقة فهم في لغة العرب، فأما الإستدلال على وجوب العمل بالظن على الإطلاق في الظنيات بالدليل العقلي، وهو أن من ظن طعاماً مسموماً فأكله استحق الذم، وذلك دليل على أنه قد وجب عليه العمل بذلك الظن؛

فالجواب: أنه قياس غير صحيح؛ لأن هذه الآية وغيرها تدل على أن لا ضرر عليه بترك اتباع الظن وليس كذلك الطعام المذكور، فالقياس فاسد بوجود الفارق، وليس المراد ترك ما ثبت اتباعه شرعاً إنما المراد أن الظن ليس دليلاً شرعياً.

إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا

فأما ما ثبت شرعاً وجوبُ العمل به مع أنه لا يفيد إلا الظن فيعمل به لدليل العمل به لا لأن الظن دليل، وذلك كتقويم جزاء الصيد وكالقِبلة مع تعذر اليقين بدليل قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:١٤٤] وقِسْ على هذا سائرَ ما ثبت العمل به، وعلى هذا فالعمل بخبر فاسق التأويل وكافره يحتاج إلى دليل غير مجرد إفادته للظن ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ الفؤاد: القلب أو باطن القلب، والمراد آلة العلم، والسؤال عن هذه الثلاثة إذا أهملها العبد من حيث أنها حجة عليه، ويدخل السؤال عنها إذا استعملها في معصية الله وكفر نعمة الله بها عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ قال في (الصحاح): «المرح: شدة الفرح والنشاط» انتهى المراد، وفي (لسان العرب): «المرح: شدة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره، ثم قال: وقيل المرح التبختر والإختيال، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ أي متبختراً مختالاً، وقيل: المرح الأشر والبطر، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥]» انتهى المراد.

قال الشرفي في (المصابيح): «والمراد من الآية: النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبر والعظمة» انتهى.

والذي يتحصل عندي: أنه نهي عن أن يمشي في الأرض مَشيَ معجبٍ بنفسه متكبر، يحركه الفرح بنفسه والنشاط لإعجابه بكماله الموهوم.

تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي بضرب الأرض بقدميك لأنك ضعيف، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ لأنك صغير، وهذه تذكير له بحقيقة نفسه ليمشي على الأرض هوناً.

﴿٣٨﴾ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الذي نهى الله عنه في الآيات الماضية في هذه السورة من قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أو ما بعد قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ﴾ ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾.. إلى آخر الآيات.

وقوله تعالى على قراءة ﴿سيئةً﴾ أي سيئة مكروهاً عند ربك، وإذا كان عنده سبحانه سيئة مكروها فهو سيئة حقاً حقاً؛ لأن الله أحكم الحاكمين وهو العالم بكل شيء ولا يكره إلا الباطل والفساد.

وعلى قراءة ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ فهو مكروه عند الله والإشارة إلى المذكور في الآيات الماضيات إما بمعنى السيء منه لإخراج ما ذكر وليس نهياً، مثل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ وإما إضافة الصفة إلى الموصوف أي المذكور السيء كان عند ربك مكروهاً.

﴿٣٩﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ الحكمة التي تفيد مصحلة الفرد والمجتمع وسداد الرأي وحسن التدبير والإنسانية الكاملة، وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ﴾ الإشارة إلى الآيات الماضية في السورة.

ويحتمل: أنه من قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّـهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أو من قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أو من أول السورة، وأعاد قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ليرتب عليه الوعيد بعذاب الآخرة؛ لأنه في المرة الأولى رتب عليه سوء الحالة في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿مَلُومًا﴾ مرَّ تفسير الملوم، وأما المدحور، فقال الشرفي في (المصابيح): «أي مطروداً من رحمة الله» انتهى.

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿أَفَأَصْفَٰكُمْ﴾؟ سؤال إنكار على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى (أصفاكم) خصكم بالجيد وترك لنفسه من هو عندكم ولد مكروه بزعمكم، ينكر عليهم قولهم الشنيع المشتمل على باطل جعل الملائكة إناثاً رجماً بالغيب وباطل تشبيه الخالق بالمخلوق في عدم الغنى عن الولد وباطل نسبة الغلط في الإختيار لنفسه على رأي الكفار حيث اختار لنفسه الولد الدون عندهم فلزمهم أنهم جعلوه مخطئاً للصواب.

وفي هذه الآية وأمثالها دلالة على الإلزام وإثبات الحكم باللازم، وقد منع بعض الناس التكفير باللازم، وهذه الآية ترد عليهم من حيث دلت على إثمهم؛ لأنها لا تنسب إلى المخاطبين أنهم جعلوا الله والداً للملائكة وإنما عندهم أنه تبناهم بخلاف قول بعض النصارى في عيسى عليه السلام.

ويدل على أن المخاطبين في هذه الآية لا ينفون أن الملائكة مخلوقون قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩] فلو كانوا يزعمون أنهم مولودون له لما ذكر خلقهم، وأنهم لم يشهدوه، ويقال: إنها وإن أثبتت الحكم هنا باللازم، فلم تثبت الكفر به لكن ترد على من لا يؤثم باللازم، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ أي شديدَ القبح إثماً كبيراً لما فيه من الإفتراء على الله والجهالات.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ حولناه في التذكير من نوع إلى نوع مثلاً من إنذار إلى بيان الدلائل، ومن إنذار تعجيل العذاب إلى إنذار عذاب النار، ومن الترهيب إلى الترغيب في الإيمان وذكر نعيم الجنة، ومن ذلك إلى ذكر أن الإيمان والتقوى سبب للخير والبركات في الدنيا، ومن ذلك إلى ذكر فساد عقائد الجاهلية.

وقوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي ليعرفوا الحق ويتبعوه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما يزيدهم التصريف المذكور إلا نفوراً وكراهة للحق وابتعاداً منه.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال عليه السلام - يعني الناصر بن الهادي عليهما السلام - ولقد بيَّنا لهم من كل شيء فيه منفعة وهدى ولهم فيه نجاة ورحمة فأعلمناهم بما كان قبلهم وما هو كائن بعدهم فأبوا)) انتهى.

﴿٤٢﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿قُل﴾ يا رسول الله للمشركين في مكة وحولها ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ أي لو كان مع الله تعالى ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي آلهة من دون الله يقربونكم إلى الله وشفعاءكم عند الله والله مالك لهم ولما ملكوا كما تقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكٌ هو لك تملِكُه وما ملك ﴿إِذًا﴾ أعادة للشرط للتأكيد ﴿لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ﴾ إلى مالك الملك الذي بيده ملكوت كل شيء لابتغوا أي لطلبوا إليه ﴿سَبِيلًا﴾ للتقرب إليه وحده وطلب رحمته ورضوانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧] لأنهم عباد له مملوكون لله تعالى وحده، فكيف تأبون أيها المشركون أن تعبدوا الله وحده؟

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ﴾

هذا الراجح في معناها، لأنهم لا يدَّعون آلهة قدماء قادرين قدرة ذاتية حتى يحتج عليهم بدليل التمانع، مع أن قوله تعالى: ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ نظير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل:١٩] ومعناه: سبيلاً للتقرب منه وطلب رحمته ورضوانه، ولو كان المراد ابتغاء المقاومة والمغالبة لكان التعبير: لابتغوا على ذي العرش سبيلاً، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء:٣٤] والله أعلم.

مع أنه ـ جلَّ جلاله ـ كان يأمرهم بعبادته كسائر عباده فإن أبوا عذبهم؛ لأنه قادر على ذلك وخوفهم من عذابه، فكان يبعثهم على عبادته والتقرب إليه كما تفيده الآية، وكما يفيده قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] فلو كانوا آلهة لكان هو الأعلى عليهم، وبالله التوفيق.

﴿٤٣﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له تعالى وتبعيداً عما يقولون ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ ترفع عن أن يجعل لنفسه شريكاً أو يتخذ ولداً؛ لأنه عزيز حكيم، وليس من الحكمة أن يجعل لنفسه شريكاً من عباده في عباده؛ ولأنه غني عن اتخاذ الولد؛ ولأنه العلي العظيم الذي ليس له ند، وكيف يكون لرب العالمين ندٌّ من عباده؟

﴿٤٤﴾ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ تسبيح له بلسان الحال بدلالتها

وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟

على عظمته وجلاله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وغناه عن كل شيء، فهي تنزهه تعالى وتبعده عن كل نقص وعن أن يكون له ندّ بدلالتها العقلية، فلو نظر الجاهلون المشركون في خلق السموات والأرض ومن فيهن وتفكروا بعقولهم لعلموا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ لأن المخلوقات كلها من الجبال والشجر والدواب التي لا تعقل وغيرها تدل على ذلك، وقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي تسبيحاً مصحوباً بحمده والثناء عليه لإنعامه الواسع المستمر على عباده بما سخر لهم في السموات والأرض وأسبغ عليهم نعمه، فالنعم كلها تسبِّح بحمده، بمعنى: تدُلُّ على ذلك دلالة بمنزلة النطق بالتسبيح والتحميد، هذا هو الراجح في معنى هذه الآية لتكون احتجاجاً على المشركين ودليلاً على أنهم يقولون قولاً عظيماً لأنكم لا تنظرون في الآيات الدالة على الله المسبحة بحمده ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ولذلك لم يعاجل المشركين بالعقوبة على إعراضهم عن التفكر في آياته وإصرارهم على الجهل المذموم وزادهم الإحتجاج بالقرآن الحكيم وإرسال النذير المبين.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾ يا رسول الله ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ليهتدوا به أعرضوا عنه وكرهوا سماعه لإصرارهم على التكذيب بآيات الله وتمردهم لعدم إيمانهم بالآخرة فهم لا يخافون العقاب ولا يرجون بالإيمان والإستماع للقرآن الثواب فأصروا واستكبروا، ولذلك خذلناهم فجعلنا بخذلانهم ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾

عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ
وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ

وهو كراهتهم أن يروك وإعراضهم عنك حتى كأن كراهتهم لرؤيتك في تلك الحالة حجاب بينك وبينهم، كما قال تعالى: ﴿**مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ**﴾ [هود:٢٠] وكقولهم: ﴿**وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾ [فصلت:٥] وهذا من المتشابه.

والمعنى: أنهم عاندوا الحق فاستحقوا الخذلان وإرسال الشياطين عليهم حتى تزين لهم الباطل وكرهوا الحق، ووجه إسناد الحجاب إلى الله تعالى كالوجه في إسناد الختم على قلوبهم وقد مرَّ.

﴿٤٦﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ ﴿أَكِنَّةً﴾ أغطية تمنعها من فهم معنى القرآن، وهذا تمثيل لأن الله أنزل القرآن بلسانهم ليفهموه ولكن هؤلاء الكفار المعاندون كارهون له معرضون عن فهمه وعن استماعه ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ أي صمماً؛ لأنهم يكرهون سماعه فكأنهم صم ولو كانوا صماً حقيقة ما احتاجت قلوبهم إلى أكنة، وقد حقق هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ نَفَروا من توحيد الله وتعظيمه دون شركائهم ولَّوا عن النبي ﷺ حين ذَكَر الله وحده انصرفوا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ﴾ يفيد: أنهم نكصوا على أعقابهم، أي رجعوا القهقرى ـ والله أعلم. و﴿نُفُورٗا﴾ مصدر مفعولٌ من أجله أو مفعولٌ مطلق أي قائم مقام المفعول المطلق، أي نفروا من سماعك نفوراً فراراً من سماعك وانزعاجاً من ذكر ربك.

كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا
كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً

﴿٤٧﴾ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ ﴿يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ من كراهتهم للحق وعداوتهم له فإذا استمعوا إلى الرسول ﷺ استمعوا بذلك ليتطلبوا في القرآن شيئاً يعيبونه به مثلاً ولم يستمعوا ليعرفوا الحق ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ في حال استماعهم في حال اجتماعهم ﴿إِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ يتناجون أي يتساررون يخفون كلامهم، فهم في استماعهم عند المناجاة بينهم يستمعون برغبة وإصغاء وتطلب لما يعجبهم من الخوض في آيات الله والتكذيب بها.

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي إذ يقولون لأنهم ظالمون ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون ﴿إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ يعنون محمداً ﷺ يريدون النهي عن اتباعه والقدح فيه بضعف الذهن، فالمعنى إن اتبعتموه فما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً تغير ذهنه فلا يصيب في كلامه، وكذبوا بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿٤٨﴾ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ ﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد كيف قالوا فيك الأقوال الباطلة ليشيعوها دفعاً للحق ﴿فَضَلُّواْ﴾ بسبب جدالهم بالباطل لإبطال الحق ضلوا عن سواء السبيل ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ تحصيل سبيل حق بل لا يزالون في تيه واضطراب لعمى بصائرهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ ﴿أَءِذَا﴾ سؤال إنكار، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ أرادوا إذ بليت أجسادنا في التراب حتى لم يبقَ إلا عظام ورفات أي وفتات عظام بالية

أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ

قد حطَّمها البِلى أنا حينئذ وبعد مصيرنا عظاماً ورفاتاً مبعوثون مخرجون أحياء بعد تلك الحالة ﴿خَلْقًا﴾ مخلوقين خلقاً ﴿جَدِيدًا﴾ بعد البِلى إنكاراً منهم للبعث وتكذيباً للرسول، وكأنهم اتخذوا ذلك القول حجة لتكذيب الرسول فيه وفي الرسالة جملة.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ردّ على قولهم: ﴿إذا كنا﴾ أي لو كنتم حجارة أو حديداً لبعثكم الله خلقاً جديداً.

﴿٥١﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ أو كونوا خلقاً ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ وتستعظمونه كالجبال الشامخات فكذلك لو كنتم جبالاً أو نحوها لأعادكم خلقاً جديداً، فقوله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ يذكر الجنس الذي يستبعد إحياؤه بالنظر إليه من غير نظر إلى صغره أو كبره.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يذكر ما يُستبعَد إحياؤه لضخامته، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يشير إلى صغر الإنسان، وإنه لصغره يستعظم من الخلق ما هو صغير في قدرة الله وإذا كان صغيراً، فلا يستبعد أن يعيده من هو قادر على إعادته ولو كان جبلاً.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ استبعاداً للإعادة، كقوله: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي أنشأكم أول مرة

بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا

فقد علمتم النشأة الأولى ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال الراغب في (المفردات): «الإنغاض: تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: يحركونها استهزاءً منهم» انتهى. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ استمراراً منهم في الجدال أي إن كنت تعلم أنه سيكون فأخبرنا متى هو ؟ وليس بينهما تلازم لأنه يمكن أن يُعلمه الله أن البعث سيكون ولا يُعلِمه متى هو؛ ولكون هذا الجواب واضحاً لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يدعي أنه يعلم الغيب إنما يدعي أن الله أرسله نذيراً وأوحى إليه القرآن، فهو يبلغ ما أرسل به أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وسؤالهم هذا تكرر ذكره في القرآن الحكيم وذكر في كل موضع له جواب مفيد، وفي (سورة الملك): ﴿**قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ [آية:٢٦] ولعله أول جواب.

﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ لحضور موقف السؤال والحساب وذلك حين تكون الصيحة، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ**﴾ [ق:٤٢] ولا مانع من أن الصيحة دعوة وإن كانت الإجابة اضطرارية، ومثل هذه الآية في إثبات الدعوة قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ**﴾ [الروم:٢٥].

وأما قوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فيحتمل أن المراد أن لله الحمد على بعثهم فلا يكون المراد حامدين له، يؤكد هذه قوله تعالى: ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا**﴾ سواء حمل على الحقيقة أم على المجاز، والإحتمال الثاني: حامدين لله ذلةً وخضوعاً.

﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي في بطن الأرض أو فيه وفي الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿قَلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣].

﴿٥٣﴾ ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ﴿يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الكلمة أو الفعلة التي هي أحسن، يحتمل: أنه أمرٌ للعباد الصالحين أن يقولوا التي هي أحسن في دعوة الناس إلى الله وفي جدال المخالفين ومحاورتهم ترغيباً لهم في الإجابة إلى الحق ودفعاً لنزغ الشيطان وإثارته للتعصب المؤدي إلى استمرار المخالفين على الخلاف وتشددهم فيه.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩٥-٩٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى ﴿..وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٣-٣٤] ويحتمل: أنها عامة للصالحين الدعاة إلى الله وغيرهم إلا أن الدعاة إلى الله داخلون فيها دخولاً أوّلياً ليكون الناس أقرب إلى إجابتهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ اسم تفضيل يقتضي أنه لا يكفي الكلمة الحسنة التي ليست أحسن من غيرها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ تعليل لإيجاب الكلمة التي هي أحسن، أي لدفع نزغات الشيطان.

بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يُفسِد ويُهيج» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «النزغ دخول في أمر لإفساده» انتهى المراد، وفي (لسان العرب): «ونزغ بينهم ينزَغ ويَنْزِغُ نَزْغاً أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي عداوة الشيطان للإنسان قديمة فهو منذ عصى ربه ما زال عدواً للإنسان ﴿مُّبِينًا﴾ أي بيِّنَ العداوة كيف لا يكون بين العداوة، وهو إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، وقد أضل من الناس أمماً كثيرة، فعلى عباد الله أن يحذروه بأن يلزموا الكلمة التي هي أحسن ليدفعوا نزغاته وعليهم أن يحذروا نزغاته.

﴿٥٤﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعلم المتقي والمطيع للشيطان وهو القادر على جزاء المتقي والعاصي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، فعليكم أن تتقوه وتحذروا غرور الشيطان ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد إلا نذيراً لم نرسلك ﴿وَكِيلاً﴾ عليهم تتولى عقابهم وثوابهم أو تضطرهم إلى الطاعة.

﴿٥٥﴾ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلهم فهو أعلم بالأخيار ومن دونهم وبالملائكة وعبادتهم وبالأشرار على اختلافهم في الفجور وهو أعلم بمن هو أهل للتفضيل ومن يشكر النعم ولذلك فضلناك يا محمد وخصصناك بالرسالة لعلمنا بك.

ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ لعلمنا المحيط بكل صفاتهم وأسرارهم ومستقبلهم ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ كتاباً عظيماً لعلمنا به أنه يتلوه حق تلاوته وينتفع به وينفع ويشكر النعمة عليه به وبالنبوءة.

﴿٥٦﴾ ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ ﴿قُلِ﴾ للمشركين ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ﴾ زعموهم من دون الله، أي زعمتموه آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ إجابة دعائكم ولو دعوتموهم لكشف الضر ما استطاعوا كشفه ولا تحويله، أي صرفه من أحد إلى غيره، فلا خير لكم في دعائكم وقد جربتم أنهم لا ينفعون ولا يضرون.

فالمعنى: قل ادعوا الذين زعمتم إن كانوا يملكون كشف الضر عنكم أو أي تحويل أو جرِّبوا دعاءهم إن شككتم في أنهم لا ينفعون ولا يكشفون الضر، أو هو تهديد مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] وهو خطاب لمن يزعم الملائكة آلهة، ومن يزعم عيسى ونحوه آلهة.

﴿٥٧﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي الملائكة وعيسى ونحوه ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الله ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون الوسيلة إلى ربهم أي ما يقربهم منه ويوصلهم إلى رحمته ورضوانه ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ يتسابقون في التقرب إلى الله، وكل يسعى لأن يكون أقرب من غيره بالعمل الأفضل والنية والتعبد لله، فقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ كما لو قيل يتسابقون أيهم أسبق أي كل واحد يريد أن يكون أسبق ـ والله أعلم.

قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ رد على المشركين لأن رجاءهم وخوفهم دليل على ضعفهم وأنهم لا يملكون لأنفسهم أن يرحمهم أو أن ينجوا من عذابه كما يتوهم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله، وأن لهم مكانة عند الله تخولهم أن يشفعوا لمن شاؤوا ويقربوا من الله زلفى من شاؤوا، فهم لا يدّعون لأنفسهم ذلك بل هم مقرّون بأنهم عباد لله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي إنه عذاب شديد يحذره الملائكة وغيرهم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ ﴿قَرْيَةٍ﴾ كناية عن أهلها ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لأنها تظلم فيهلكها كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩] وقوله تعالى: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي دون الإهلاك العام ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ مقدراً مكتوباً أو هو في علمه تعالى.

﴿٥٩﴾ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

قيل: اقترحوا أن يأتي رسول الله ﷺ بآيات كما كان للأولين من الآيات العظيمة ويأتي في السورة: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا..﴾ الآيتين.

فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ أي نرسل محمداً بالآيات أي التي اقترحوها ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فكان تكذيب الأولين بها كافياً في الدلالة على أنها لا تفيد هؤلاء المتعنتين، وإنما تكون سبباً لهلاكهم كما أهلكنا مَن قبلهم؛ لأن هؤلاء مثل أولئك ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٦] وما كانت الحكمة تقتضي هلاك هؤلاء هلاكاً عاماً مثل هلاك أولئك.

قال الشرفي في (المصابيح): «وعن علي عليه السلام: أمهلوا لعلم الله سبحانه أن فيهم من يؤمن أو يلد مؤمناً» انتهى.

قلت: هذا قريب، لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي آية مبصرة أي منيرة بينة ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي كذبوا بها مع أنها آية عظيمة، وهذا مثال للآيات التي كذب بها الأولون ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ إما من العذاب العاجل فالمراد الآيات التي من مثل الناقة، وإما تخويفاً أي إنذاراً من العذاب في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فالمعنى: وما نرسل بالآيات إلا إنذاراً لا تلاعباً بإجابة لاقتراحات المتعنتين، فالمعنى راجع إلى أن إرسال الرسل بالآيات ليس إلا لاقتضاء الحكمة لذلك.

وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ واذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ يارسول الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ فهم في قبضته وهو ناصرك عليهم ومظهر دينه ومجازيهم بأعمالهم، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج:١٩-٢٠] فإذا أحاط بالناس فانتظر منه أن ينصرك عليهم، وهذا فيما يترجح عندي، كقوله تعالى في الغنائم: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح:٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الرؤيا: مفسَّرة بأنها رؤياه فتح مكة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ..﴾ الآية [الفتح:٢٧] فكانت فتنة للناس وعلى هذا: فالرؤيا كانت في المدينة مثلاً، والآية هذه (مدنية) وإن كانت السورة (مكية).

وحكى الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام، أنه قال: ومعنى ﴿أَرَيْنَـٰكَ﴾ فهو التي أخبرناك بها وأعلمناك فهو[ما] وعده من فتح مكة» انتهى المراد.

ومعنى الفتنة: أن الرؤيا تقدمت قبل الفتح بمدة طالت على بعض من سمع الخبر بها وانتظر الفتح فتأخر حتى كانت فتنة للذين في إيمانهم ضعف وشك بعضُ الناس في صدقها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي جعلناها فتنة للناس؛ لأنها إن كانت شجرة الزقوم، فالفتنة بالنسبة إلى من لم يؤمن؛ لأنها ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فمن لم يؤمن استبعد أن تكون شجرة تنبت في جهنم؛ لأن النار تحرق الشجر في العادة فضلاً عن أن تنبت فيها، والمؤمن يعلم أن الله على كل شيء قدير وإن كانت الشجرة الملعونة في القرآن بنوا أمية فالفتنة في تمكينهم من أخذ الملك وجعل المال بأيدهم فافتتن بهم من يميل إلى الدنيا.

والقول: بأن الشجرة الملعونة في القرآن هي (بنوا أمية) حكاه الشرفي في [المصابيح] عن الهادي عليه السلام وعن ابنه الناصر عليه السلام، أما القول: بأن الشجرة الملعونة في القرآن هي (شجرة الزقوم) فهو في (تفسير غريب القرآن) للإمام زيد بن علي عليهما السلام.

وحكى الشرفي في (المصابيح): «عن الناصر بن الهادي عليهما السلام أنه قال: وقد اختلف الناس في الرؤيا وقالوا فيها بأقاويل، غير أن إجماعنا وإجماعهم في الرواية على أنه عليه السلام رأى رجالاً من قريش ترقا منبره يتداولونه بالظلم كما يتداول الصبيان الكرَة، وهذا الخبر فقد رواه الجميع إلى قوله.. والشجرة الملعونة في القرآن فهم بنوا أمية لعنهم الله تعالى» انتهى.

وعلى هذا: تكون الشجرة مجازاً ولعنهم في القرآن لعن الظالمين وطردهم من رحمته كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٨-١٠] أما على القول إن الشجرة الملعونة هي الزقوم فإسناد اللعن اليها مجاز وهو لمن يأكلها، ونظيره ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] والراضي صاحبها.

ففي كلا التفسيرين الحمل على المجاز لكن التجوز في إسناد اللعن الى الشجرة والمراد به صاحبها بعيد لانفصاله عنها بخلاف إسناد الرضى إلى العيشة؛ لأنها صفة لصاحبها والمجاز المرسل إنما يكون بين متلازمين، وقد يقال: شجرة الزقوم وآكلها متلازمان عند أكله لها ومصيرها في بطنه، فإسناد اللعنة على اعتبار حال أكله لها صحيح.

وهناك إشكال آخر وهو أن الذي في الآية الكريمة هو أن الله تعالى جعل الشجرة الملعونة فتنة للناس ولم يخص الظالمين، وشجرة الزقوم فتنة للظالمين فقط، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات:٦٣] أي عذاباً لهم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ..﴾ [الذاريات:١٣-١٤] وعموم الفتنة في ذكر شجرة الزقوم في القرآن هو أمر آخر غير الذي في الآية؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ ولم يقل: وذكر الشجرة فهذا يضعّف تفسير الشجرة الملعونه بالزقوم ويرجح أنها بنو أمية لعموم فتنتهم واحتياج من تركهم إلى الصبر على الفقر أو عليه وعلى الخوف على نفسه أو ماله أو عليهما لقوة سلطانهم وشدتهم وعموم دولتهم على بلاد الإسلام هذا حين جاءت دولتهم.

أما في وقت نزول القرآن فكانت الفتنة بهم؛ لأنهم عادوا رسول الله ﷺ وكانوا يعذبون المسلمين إن لم يكن لمن أسلم جوار فيهم، وبعد أن هاجر رسول الله ﷺ حاربوه حتى نصره الله عليهم وغلبهم يوم الفتح، وفي تفسير الشجرة الملعونة بهم مناسبة لتفسير الرؤيا برؤيا دخول المسجد الحرام، أما إذا كانت الرؤيا رؤياهم يتداولون منبر رسول الله ﷺ فهذا أوضح وتسميتهم فتنة مناسب أيضاً لقوله الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠].

هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً

أما قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ فالتخويف ضربان: تخويف بعذاب الآخرة وهو ظاهر في القرآن، وتخويف للكفار بنصر الله لرسوله وإظهاره لدينه وأنه سيفتتح مكة، وكلا التخويفين ما ﴿يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ حيث استمروا على عنادهم وحاربوا رسول الله ﷺ في بدر وأحد وحنين وغزوة الأحزاب، وكذلك قالوا فيه الأقول الباطلة مثل مجنون شاعر مسحور ساحر.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ذكرت قصة إبليس بعد ذكر طغيان الكفار وتكذيبهم لآيات الله وشركهم ولعل ذلك ذُكِرَ موعظةً للناس وتحذيراً من هذا العدو الذي ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦] وقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ سؤال إنكار أي كيف أسجد لمن خلقت طيناً؟ تعبير عن تكبره واستحقاره لآدم عليه السلام لأن الله خلق آدم من طين تجاهلاً لنفخ الروح ومصيره بذلك خلقا ءاخر كاملاً في العلم.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ تحقير لآدم واعتراض على الله العزيز الحكيم في تكريمه على إبليس بأمر الملائكة وإبليس بالسجود له، وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تحقير لآدم ووصف له بالضعف؛ لأن طبعه وطبع ذريته متشابه، فإذا كانت ذريته موصوفة بالهلع فهو قريب منهم وتهديد لذريته بالإحتناك معناه التهديد بأنه يستحوذ عليهم ويصيرون في يده يقودهم كما يقود الإنسان بعيره ويستولى عليهم.

مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): ((وقوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يجوز أن يكون من قولهم حَنَكْتُ الدابة أصبت حنكها باللجام والرسن ـ ثم قال ـ : ويجوز أن يكون من قولهم احتنك الجراد الأرض، أي استولى بحنكه عليها فأكلها واستاصلها)) انتهى المراد.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ يعني لأقتطعنهم، قال الشاعر:

شكوا إليك سنة قد أجحفت جهد إلى جهد بنا فأضعفت

واحتنكت أموالنا وجلفت

وقيل: معناه: لأقودنهم إلى المعصية كما تقاد الدابة بحنكها إذا شُدَّ فيه حبل يجذبها)) انتهى.

وقال (صاحب الصحاح): ((حنكت الفرس أحنُكه واحنِكه حنكاً إذا جعلت فيه الرسن، وكذلك احتنكته واحتنك الجراد الأرض أي أكل ما عليها، وأتى على نبتها، وقوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الفراء: يريد لأستولين عليهم)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((معناها: لأستميلنهم، والإحتناك معناه الغلبة والقهر والإستيلاء)) انتهى.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا قليلاً منهم، وهم المؤمنون المتوكلون على ربهم.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾

﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ أي قال الله تعالى لابليس لعنه الله ﴿ٱذْهَبْ﴾ أي امض لشأنك، وهذا من التهديد، بدليل اقترانه بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾.

إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي الجزاء الأوفى، قال الشاعر:

لقد علم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

قال في (الصحاح): «الوفر: المال الكثير ـ ثم قال ـ: والموفور الشيء التام» انتهى، وفي (لسان العرب): «الوفر المال الكثير وفي (التهذيب): المال الكبير الوافر الذي لم ينقص منه شيء وهو موفور، وقد وَفَرناه فِرَةً ـ ثم قال ـ: وفي الحديث: «الحمد لله الذي لا يَفِره المنع» أي لا يكثره من الوافر الكثير، يقال: وَفَرَهُ يَفِرُهُ، كوعده يعده» انتهى.

فظهر منه: أن كلمة ﴿مَّوْفُورًا﴾ تفيد إتمام الجزاء وكثرته ـ والله أعلم.

﴿٦٤﴾ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ واستفزز: بمعنى استخف واستجهل، والصوت: الغِناءُ وشبهه، وخيله: كل دابة سارت في معصية الله تعالى» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «ورجل فَزٌّ أي خفيف، وفي (التنزيل العزيز): ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال الفرّاء: أي استخفّ بصوتك ودعائك» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أي ازعج ـ ثم قال ـ: والفزّ: ولد البقرة، وسمي بذلك لما تصور فيه من الخفّة كما سمي عجلاً لما تُصورّ فيه من العجَلة» انتهى.

فظهـر: أن معنـى الإستفزاز: الإسـتخفاف للإنسـان والإسـتجهال، أي تحصيل الخفَّة فيه والجهالة سـواء كـان ذلـك بطريقـة الغضـب أم الحميـة أم الحسد أم الكبر أم الشهوة أم الخوف، وأنه غير خاص بالخوف.

وقولـه تعـالى: ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ يترجـح: أن الغنـاء والملاهـي المحرمـة نسبت إلى إبليس لدعوته إليها وتسبيبه لوقوعها، وهذا أظهر مـن تفسـيره بـالقول الباطـل؛ لأن ذم الصوت من حيث هو صوت لا يتوقف على تعبيره عـن معنـى باطـل، ولو أريد القول الباطل لكان التعبير بقولك أوضح من التعبير بصوتك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ مجاز بمعنى إجهـد جهـدك في التسلط عليهم ومحاولة السـيطرة علـيهم، والرَّجـل المشـاة مـن النـاس في السفر ونحوه وأصل أجلب عليهم بخيلك سُقْها أو نحوه بعنف.

قال في (الصحاح): «وجلب على فرَسه يجلب ـ بالضم ـ جَلْباً: إذا صاح به مَن خلفه واستَحثَّه للسبق وأجلب عليه مثله» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: هذه أمثـال كلـها ضـربها الله لا أن ثَمَّ خيلاً ولا ركاباً، والعرب يقـول بعضـها لـبعض إذا اختصـمت وتحاججت وتناظرت قالت لمن لا خيل لَه ولا رجال: اجلـب علينـا بخيلـك ورجلك، يريد اجهَد علينا بغاية طاقتك، فعلـى هـذا يخـرج معنـى قـول الله تعالى: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي اجهد فيهم جهدك» انتهى.

وقولـه تعـالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ فمشـاركته لهـم بتـزيين جعلها في معصية الله مثل قتل المشركين لأولادهم ومثل خدمـة الأصـنام إذا جعلوا لها بعض أولادهـم ومثـل جعـل بعـض المـال مـن الأنعـام والحـرث لأصنامهم، ومثل: تحريم الـبحيرة، والسـائبة، ومثـل: إنفـاق المـال في الخمـر والغناء، أو الزنا، أو معاونة ظالم.

فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن
تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ من الوعد ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ لأنه لا يفي بوعده، بل يخلفه بعد اغترار الإنسان به، والوعد منه بالوسواس أو بالوسوسة لأوليائه أن يعدوا من يريد خدعهم، مثل ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر:١١].

﴿٦٥﴾ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾

هذا رد على قول إبليس المذكور آنفاً، فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ إما بمعنى ليس لك أن تقهرهم بقوة حتى يطيعوك كما سيعترف به الشيطان يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ..﴾ [إبراهيم:٢٢] فقول إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ غير صحيح، إلا على المجاز أنه يغر ويخادع ويزين ويمني حتى يطيعه الإنسان مختاراً.

وإما بمعنى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ المخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ لأنهم أقوياء بالإيمان والتوكل كما مر في (سورة النحل) ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يكلون إليه أمورهم فيبطلون بذلك تخويف الشيطان إذا خوفهم من العدو أو خوفهم الفقر أو غير ذلك، فالله كافٍ لهم ونعم الوكيل.

﴿٦٦﴾ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ يسوق لكم إلى الأمام السفائن بالريح الطيبة التي تسوق السفائن على البحر ليسافر عليها الإنسان لتبتغوا من فضله ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ بالسفر على السفائن أي لتطلبوا بالأسباب

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ إما للتجارة بأن يسافروا بالبضاعة من أرض إلى أرض، وإما لغير ذلك من أسباب الرزق أو غيره كمن يسافر لقربة من حج أو عمرة أو صلة رحم أو طلب علم أو زيارة رسول الله ﷺ أو أحد أهل بيته فكل ذلك ابتغاءٌ من فضل الله.

وما يروى عن رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد..» محمول على السفر للصلاة في بقعة من الأرض أو الإعتكاف أو الذكر أو التلاوة، فهذا لا يسافر لَه إلا إلى الثلاثه المساجد، فالحصر إضافي بالنسبة إلى المساجد أي ليس لمسجد فضل يصلح لأجله شد الرحل إليه إلا الثلاثة المساجد، فأما السفر للإبتغاء من فضل الله فالقرآن يقرر الناس عليه وما زالوا عليه من عهد الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله عليهم ـ إلى اليوم فلا يحظر من الإبتغاء من فضل الله إلا السفر إلى مسجد للصلاة فيه أو نحوها غير الثلاثة المساجد.

ألا ترى أن المسلمين يسافرون للتجارة والإجارة وطلب العلم وبر الوالدين وصلة الرحم واللذات النفسية التي يستعاد بها الصحة والقوة فلو كان ذلك كله محرماً أن يسافر إليه لما جرى عليه عمل الصحابة فمن بعدهم إلى اليوم أعني على السفر إلى غير الثلاثة المساجد على اختلاف أغراضهم وذلك كله من الدلائل القرآنية وعمل الأمة الإسلامية قرينة أن المراد في الحديث الحصر الإضافي لا الحصر العام.

والحصر الإضافي واقع في القرآن العربي المبين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤] أي لا على غيرها لأنها تكسب لنفسها بعض النفوس في الكسب الديني وكل النفوس في الكسب الدنيوي، وقال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤] أي يجوز عليه من الموت ماجاز على الرسل وليس في فضله فوق ذلك، وليس حصراً لوصفه في الرسالة حتى لا يوصف بسائر الفضائل فهو رسول وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، وغير ذلك من صفاته ﷺ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود:١٢] والكلام فيه كالكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤] ومسألة الحصر والقصر واختلاف معانيهما في علم البيان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أن من رحمته تيسير الإبتغاء من فضله وأنه يسره لأنه كان بنا رحيماً وعادته الرحمة لنا.

٦٧ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ هذا احتجاج على المشركين ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ مثل ريح عاصف رفَعَ الأمواج حتى صارت تدخل السفينة وخافوا الغرق، ومثل سكون الريح ووقوف السفينة لذلك حتى خافوا الإنقطاع في مكانهم من البحر حتى يتضرروا من الجوع وحر الشمس وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي ضاعوا في تلك المهمة وأنتم في أمسّ الحاجة إلى إنقاذ من ينقذكم فلم ينفعوكم بأي نفع، فتبيَّن لكم أنهم لا ينفعونكم، وإنما ينفعُكم الله تعالى فيهدّئ العاصف أو يرسل الرياح بعد سكونها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ أي نجاكم من مخاطر البحر وصيركم إلى البر حيث أمنتم بعد الخوف ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الله فلم تعبدوه شكراً على نعمه التي لا تحصونها ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كثير الكفران لنعم الله ينسى نعم الله عليه ويسيئ إلى المنعم عليه باستعمال نعمه في معصيته.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟
لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا
﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ هذا إنكار عليهم أمنهم من مكر الله بعد أن نجاهم من البحر؛ لأنهم أمنوا فأعرضوا مع أنهم على خطر بسبب إعراضهم لأنهم إن نجوا من البحر فيمكن هلاكهم بخسف الأرض من تحتهم بحيث تهوي بهم إلى باطنها بأمر الله تعالى، ويمكن أن يرسل الله عليهم ريحاً ﴿حَاصِبًا﴾ ترمي بالحصباء أي الحجارة تهلكهم كما أرسل على قوم لوط.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي لا تجدوا من تتكلون عليه في إنقاذكم من العذاب لأن الله غالب على أمره.

﴿٦٩﴾ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مرّةً أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ ﴿قَاصِفًا﴾ ريحاً شديدة.

قال الراغب: «وهي التي تقصف ما مرّت عليه من الشجر والبناء» انتهى ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بالريح القاصف؛ لأنها ترفع الموج فيدخل السفينة فتهوي لثقلها بالماء وذهاب الهواء منها ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب كفركم لنعمة الله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ﴾

قال الشرفي في (المصابيح): «قال عليه السلام - يعني الناصر بن الهادي عليه السلام -: يقول: نصيراً، والعرب تسمي طالب الثار تبيعاً» انتهى، ويعني بالنصير: من ينتصر لهم بعد هلاكهم، وفي (الصحاح): «والتبيع: التابع، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ قال الفراء: أي ثائراً ولا طالباً، وهو بمعنى: تابع» انتهى.

٧٠ ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ ﴿كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بالعقل والبنية التي استطاعوا بها من تحسين ما أذن الله به لهم من أحوالهم من نسج الثياب وتحصيل الفراش وبناء البيوت والأكل والشرب باليد والتطهر من الأوساخ والتنزه منها وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ ﴿فِي ٱلۡبَرِّ﴾ على الدوابّ، وفي هذا العصر على السيارات المصنوعة ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ على السفائن التي تدفعها الرياح وفي هذا العصر صارت تدفع بواسطة الوقود، وفي هذا العصر - أيضاً - نعمة الطائرات في الهواء المصنوعة فهي من نعم الله؛ لأن موادها من صنعه، وهو الذي ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥] ويسَّر له تطوير علمه حتى استطاع صناعتها وصناعة الكهرباء وغيرها من الحاجات الدنيوية، ولعله لم يلتفت إليها الوحي بتبشير؛ لأنها دنيويه.

وقد أشار إلى إعداد قوة النصر لدينه والدفاع لأعدائه، وأطلق القول في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] حتى صدق على

كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي
ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ

كل مستطاع ولو الطائرات الحربية وغيرها من آلة الجهاد في سبيل الله، وهذا كاف عن ذكرها في الوحي بالتفصيل، ولا يبعد أن قد أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] وقد فسر بعضهم كثيراً من القرآن بما توصل إليه العلم الحديث من التطور الصناعي والعلمي، وبعض ذلك التفسير ضعيف، وبعضه تكلف ودعوى مجردة، وبعضه قريب ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ واضح وفيه عمومٌ للبر والفاجر والمؤمن والكافر، فهو رد على المطرفية النافين لرزق الكافر، وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ لعل هذا بحفظهم بالحفظة وتمكينهم من إظهار ما خفي من آيات الله تعالى ونعمه في مثل ما توصلت إليه العلوم الحديثة من الإختراعات لما فيه خدمة للإنسان ـ والله أعلم.

فأما تفضيل الإنسان على البهائم والسباع والأسماك ونحوها فظاهر، ويمكن ـ والله أعلم ـ أن المراد: تفضيلهم على الجن؛ لأنه تعالى قال: ﴿مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ ومَن لمن يعقل، وقوله تعالى ﴿تَفْضِيلًا﴾ تحقيق التفضيل وتأكيده، والمراد: تفضيلهم بما هو نعمة عليهم.

﴿٧١﴾ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ﴾ وهو يوم القيامة ندعو كل أناس من البشر كلهم يُدعون إلى موقف السؤال والحساب وفصل القضاء.

وقوله تعالى ﴿بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ أي بمتبوعهم مصحوبين به ليروا نتيجة اتباعهم لَه إن كان محقاً أو مبطلاً، كما قال تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني الناصر بن الهادي عليه السلام - : يريد بهذا جميع الخلق، فليس من أحد إلاَّ وله إمام إمَّا إمام هدى وإمَّا إمام ضلالة.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: «معنى قوله: ﴿بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ أي مع إمامهم فمن كان مع إمام جائر حشر معه إلى العذاب، ومن كان مع إمام عادل حشر معه إلى الثواب وحضر معه في موقف الإمام عند الحساب، ثم جعل كل في منزله وراح إلى موضعه ومحله» انتهى المراد.

قوله: «ومن كان مع إمام عادل» يعني متبعاً له في الدين كله، هذا وقد زعم بعض المفسرين: أن الإمام اسم شرعي خاص بإمام الهدى، وهو معترف أن الإمام في عرف اللغة يصدق على المحق والمبطل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٢].

فقوله: إن الإمام في الشرع خاص بإمام الهدى غير مسلَّم؛ لأن مجرد الإستعمال لايدل على النقل من المعنى اللغوي إلى معنى شرعي وقد استعمل في القرآن في إمام الباطل كما ترى، وفي الحديث استعمل بكثرة في إمام الصلاة؛ لأنه يقتدى به في الصلاة، واستعمل في أئمة الضلال مثل: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» أخرجة الدارمي في (سننه) [ج١ص٧٠] وهو في (سنن أبي داود) [ج٤ص٩٨] من حديث طويل.

وفي (الكافي) [ج١ص٢١٥]: عن أبي جعفر قال: لما نزلت هذا الآية ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ قال المسلمون: يا رسول الله ألست إمام الناس كلهم أجمعين ؟ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون من بعدي أئمة على الناس من الله من أهل بيتي يقومون في الناس فيُكذَّبون، ويظلمهم أئمة الجور..» إلخ.

وفيه [ج١ص٢١٦]: «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الإئمة في كتاب الله ـ عزَّ وجل ـ إمامان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣] لا بأمر الناس يُقدّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله ـ عزَّ وجل ـ» انتهى.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام من حديثٍ: «وأيما إمام لم يحكم بما أنزل الله فلا طاعة لَه».

وفي (مسند أحمد بن حنبل) [ج٣ص٢٢]: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أحب الناس إلى الله ـ عزَّ وجل ـ يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشده عذاباً: إمام جائر».

وفي (سنن الدارمي) [ج١ص٧٠]: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلين».

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ فمن أوتي من الأئمة والمأمومين كتابه كتاب عمله بيمينه وهي بشرى باليمن والخير؛ لأن كتابه تضمنماينفعه.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾ يتذكرون به ما قدموا من الأعمال الصالحات فيفرحون به ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أي لاينقصون من ثوابهم فتيلاً أي قليلاً، والفتيل مَثَلٌ للقليل، كالنقير وكالقطمير.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى -يعني: الناصر بن الهادي- عليه السلام: والفتيل في لغة العرب والمعروف عندها من كلامها وخطابها والنقير والقطمير، فكل ذلك في النواة موجود، والنواة: فهي العجمة التي تكون في جوف التمر، فالشق الطويل الذي يكون في بطن النواة اسمه عند العرب الفتيل، والنقير: فهو ذلك النقير الذي يكون في وسط ظهر النواة مثل الخردلة، ومنه يكون انتشار نباتها إذا نبتت، وأما القطمير: فهو الذي يكون على النواة غلافاً لها، وهي قشرة بيضاء رقيقة شديدة الرِّقة فذلك القطمير» انتهى المراد.

ولعل في الرواية عن الناصر عليه السلام سقطاً؛ لأن الفتيل هو الذي يكون في الشق الذي في بطن النواة مثل الخيط، قال في (الصحاح): «والفتيل مايكون في شَقِّ النواة» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) في تفسير (سورة النساء): ﴿وَلَاْ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٤٩]: «معناه: لا ينقصون ولا يظلمون نقيراً، فالفتيل: الذي في شق النواة، والفتيل: مايخرج بين الإصبعين إذا فتلتهما السبابة والإبهام» انتهى المراد.

وفي ترتيب كتاب الخليل بن أحمد المسمى (كتاب العين): «والفتيل: سَحَاةٌ في شَقّ النواة» انتهى، ومثله في (لسان العرب)، وقال الراغب الأصبهاني في (تفسيره) للمفردات: «والفتيل: المفتول، وسمي مايكون في شق النواة فتيلاً لكونه على هيئته» انتهى المراد.

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ

﴿٧٢﴾ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: من كان في هذه الدنيا أعمى عن الحق فهو في الآخرة أشد عمىً وأضل سبيلاً، ولهذا الوجه أكرم الله الجنة عن الفاسقين وطهّرها عن سبيل الظالمين، ولو أدخلهم الجنة لما ازدادوا إلا بطراً، ولكن الله أحسنُ تدبيراً ونظراً» انتهى.

وحكى الشرفي عن الناصر بن الهادي عليهما السلام، أنه قال مثل قول الحسين بن القاسم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي أضل منه حين كان في الدينا، فهو أبعد عن الحق إنما تهمّه نفسه، وهو بعيد عن ذكر حق الله عليه بقلبه والإيمان به.

وفي (تفسير الحسين بن القاسم) أفاده صحة استعمال اسم التفضيل من العمى مع القرينة؛ لأنه لا يلتبس بالوصف؛ ولأن معنى العمى الذي هو عمى البصيرة متفاوت ـ والله أعلم.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ الضمير للكفار، فقد مرَّ ذكر المعرضين بعد أن نجاهم من خطر البحر وتخويفهم.

ويحتمل: أن الضمير لـ﴿مَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ أي لمن حوْل الرسول منهم، وأنهم قد كادوا أن يفتنوه أي يضلوه لشدة عنايتهم في محاولة صرفه صلى الله عليه وآله وسلم عما أوحى الله إليه من الدعوة إلى التوحيد وتقوى الله بضربٍ من

ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا

خداعهم ووعودهم المرغبة في موافقتهم وحاشاه ﷺ من أن يوافقهم على ذلك، ولكنه لا يمتنع عليه المقاربة، كما قال يوسف ـ صلى الله عليه ـ: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣] فالمقاربة من حيث هو بشر جائزة ولكن لايكون موافقاً لهم؛ لأنه محفوظ بألطاف الله تعالى وعصمته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي لو ضللتَ وافتريت علينا غيره، أي غير الذي أوحينا إليك لاتخذوك خليلاً، والخليل المحبوب البليغ الصداقة، وقوله تعالى: ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾ فيه زيادة تأكيد الخلة من حيث دل على أنها كانت تصدر عن قرار منهم واختيار لا أنها عرضت لهم بغير قصد.

﴿٧٤﴾ ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ ثبتناك على التقوى والتمسك بما أوحينا إليك، والركون هو الميل اليسير، وقوله تعالى: ﴿شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ تقليل للقليل، فهو تأكيد للدلالة على قلة الميل، وتقليل له قلة مضافة إلى قلة، وقوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ تقليل مع ذلك.

﴿٧٥﴾ ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ أي لو ركنت إليهم شيئاً من الركون قليلاً لأذقناك عذاباً مضاعفاً في الحيوة الدنيا أو الحيوة الدنيا والحيوة الآخرة ﴿وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ ضعف عذاب الممات وقد فسر بعذاب الآخرة، والأقرب عندي: أنه عذاب البرزخ الذي يلحق الروح بعد ممات الجسد، فهو أظهر أن يقال له: عذاب الممات.

قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا
﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ
ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليُزعجونك لينفوك من الأرض كما يُنفَى المحارب لله ورسوله ﷺ ولا موجب لتفسير الأرض بمكة وإن كان ذلك وقع؛ لأنه لم يكن غرضهم مجرد إخراجه من مكة، ولكنه لما هاجر إلى طيبة عجزوا عن طرده منها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي بعد إخراجهم لك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من اللبث أو قليلا من المدة، أي إن استفزوك من الأرض ليخرجوك منها لم يلبثوا في الحيوة بعدك إلا قليلا، والإستفزاز الإزعاج بالتخويف أو بأي وسيلة تضطره إلى الخروج.

﴿٧٧﴾ ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿سُنَّةَ﴾ أي عادة ﴿مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ إهلاك قومهم متى حاولوا قتلهم أو طردهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ وهي سنة الله أضيفت إلى الرسل لتعلقها بهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ لا تجد لسنتنا صرفاً عن طريقتها الماضية إلى طريقة مخالفة لها.

﴿٧٨﴾ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقت (دلوك الشمس) مستمراً أو مكرراً ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ودلوكُ الشمس زوالُها عن وسط السماء إلى جهة الغرب وهو أول الظهر، وغسق الليل: إظلامه، وإظلامه بعد دخوله.

فأول الليل ابتداء الظلمة بحيث تمكن رؤية بعض كواكب الليل، وإظلامه قوة ظلمته، ولعلها أول وقت العشاء عند مغيب الشفق الأحمر، ولو كان المراد أول الليل لكفى أن يقول إلى الليل.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): «سمعت الإمام الشهيد أبا الحسين زيد بن علي عليه السلام وقد سئل عن قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فقال عليه السلام: دلوك الشمس: زوالها، وغسق الليل: ثلثه حيث يذهب البياض من أسفل السماء، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» انتهى.

وإقامة الصلوة إما من القيام بمعنى إحيائها بالجماعة في أوقاتها مثل قيام السوق وقيام الحرب، وإما بمعنى أن تكون قيِّمة لا عوج فيها بمعنى إخلاصها في أوقاتها بخشوعها وأذكارها وأركانها وشروطها وحضور الذهن وذلك داخل في قيامها، فالمعنيان متقاربان، وإقامة قرآن الفجر أي القراءة في صلاة الفجر سلامتها من الغلط وتأديتها تأديةً مناسبة لمعانيها وحضور الذهن بحيث يعلم ما يقول، والجهر المسمع للمؤتمين، وإكمال الواجب من القراءة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ترغيب في القرآن ودلالة على عظم شأنه حيث تحضره الملائكة لتسمه أو لترفعه أو لتكتبه لقارئه مع ذلك، ويحتمل أن من شهوده حضور الذهن في تلك الحال وحسن الفهم لمعانيه لكونه بعد راحة الذهن بالنوم أو بعد تنوُّر القلب بعبادة آخر الليل وسلامته من تشويش حوادث النهار، فيكون هذا من شهود القارئ نفسه أي حضوره تشبيها للغافل بالغائب، ولعل منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] والله أعلم.

يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ

﴿٧٩﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ تنبَّه بعد النوم متعبِّداً به أي بالقرآن ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ زائداً على الفرائض المأمور بها ﴿لَّكَ﴾ أي فائدته لك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني الناصر بن الهادي - عليه السلام: معنى قوله: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ يقول: فضيلة لك، وقد قال غيرنا إن ذلك فريضة، وليس ذلك عندنا إلا نافلة فضَّله بها ودلَّه على الرشد فيها» انتهى المراد.

قال الشرفي: عن الحسين بن القاسم عليه السلام: «وإنما خُصَّ عليه السلام بالترغيب فيها ليسبِق إلى حيازة فضلها لاختصاصه بكرامته» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ تعليل للتهجُّد أوْ له ولإقامة الفرائض وقرآن الفجر أي متوقعاً أن يبعثك ربك يوم القيمة ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ مقاماً قائم مقام المفعول المطلق ليبعثك؛ لأن فيه معنى يُقيمك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والمقام المحمود: فهو ما أعطاه الله - عزَّ وجل - من الدرجات الرفيعة، والمنازل السنية، والشفاعة للمؤمنين» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ تحمده ويحمده المؤمنون من الأولين والآخرين لما يكون منك من الشفاعة لهم.

فأما ما يروى من الشفاعة لأهل الكبائر المصرين عليها فهو غير صحيح؛ لأنه مخالف لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٤٨] وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:١٢٣] وهذا في الشفاعة المنجية من شر ذلك اليوم، فالرواية المخالفة لذلك مردودة.

فأما الشفاعة للمؤمنين فهي غير الشفاعة المنفية، لأنها شفاعة في زيادة نعيم إلى نعيم لا لدفع شر ذلك اليوم لأنهم آمنون بإيمانهم، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧] وقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

(٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني الناصر بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين - عليه السلام: وقد جاء في الرواية أنه عنى بـ(المدخل الصدق) مكة، يدخلها بالعز والفتح والقوة والقدرة والسلطان والحجة البالغة على جميع من عانده عليه السلام ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ من مكة، يقول: لا ألقى إلا مؤمناً ولا ألقى مشركاً ولا كافراً» انتهى.

وهذا يستقيم إذا كانت الآية مدنية ويناسبه الآية التي بعد هذه، بل وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ والراجح في السلطان: أنه التسليط على من عاداه، وقد قيل الحجة ولكن الحجة قد جاءت من أول الرسالة وهي القرآن المعجز.

ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ
شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا

﴿٨١﴾ ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ انتصر الحق وغلب دين الله وظهر أمر الله ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ انهزم وذل أو اضمحل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ أي كان كثير الزهوق لا يثبت ويدوم بل عادته أن يزهق، وهذا تشجيع لأهل الحق ليصبروا عند مقاومة الباطل ويتوقعوا زهوقه.

﴿٨٢﴾ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ في الحين بعد الحين ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بعضاً من القرءان ﴿مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ أي كلاماً هو شفاء ورحمة، أو الكلام الذي هو شفاء ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالقرآن يتنزل مفرقاً وفي كل وقت من أوقات نزوله أو في بعضها يتنزل منه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿شِفَآءٞ﴾ من داء الجهل ومن كل أشكال المرض ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ زيادة هدى وصلاح وتقوى ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خاصة، فهم الذين يكون لهم شفاء ورحمة، وهذا الوصف لأبعاض من القرآن في كل واحد منها شفاء ورحمة، ولعله المحكمات من آياته.

ويحتمل: أن المراد كل بعض منه نزل فهذه صفته، ويشمل المحكم والمتشابه أما المحكم فظاهر، وأما المتشابه فهم ينتفعون به من جهة غير جهة التشابه ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] فمثلاً قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] ينتفعون به من حيث يتفكرون أنهم أي التسعة عشر يعذّبون أهلها فيكون ذلك من موعظتهم، وإن تشابه عليهم ما هم قبل نزول البيان.

عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠] فيتعظون به من حيث هو تأكيد لكونهم يبايعون الله بمبايعتهم لرسوله ﷺ وهكذا في سائره وفي بعض المتشابه إذا كان بعضهم لاينتفع به؛ لأنه لايفهم المراد بذكره فهو ينتفع به من يفهمه من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أما الكفار والمنافقون فقد حقق الله زيادتهم خساراً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥] وهذا كما تكون النعمة زيادة خير للمؤمنين؛ لأنهم يشكرون وسبباً لزيادة رجس الفجار؛ لأنهم يكفرون النعمة ويبطرون ويظلمون، فالشيء الواحد من الخير يكون خيراً للمؤمن وشراً للكافر والمنافق؛ لأنه يجعله سبباً لفساده فهو يفسد من حيث يصلح المؤمن، وفي هذه الآية التي نحن في ذكرها دلالة على ذلك بيِّنة والحمد لله.

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ النعمة هنا هي المعهودة عند أكثر الناس فهي العافية والقوة والأمن وزيادة الرزق، أو هي زيادة الرزق وحدها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧] وأطلق الإنسانَ هنا لأنه الأغلب، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] ولأن أصل الإنسان هكذا، وإنما يصلح من صلح فيخرج عن هذه الطبيعة بالمعرفة

واتباع العقل لأن أصل الإنسان الجهل والغفلة والهلع، وإنما يخرج من الجهل بالنظر والتعلم ويخرج من الغفلة بإجابة داعي العقل إلى التذكر، فلجهله وغفلته يعرض عن ذكر ربه عند النعمة ويشتغل بها.

والنأي: البعد وهو تمثيل لزيادة إعراضه وبعده عن الهدى، وجانبه: شقه كأنه مال بشقه عن إقباله إلى ربه ميلاً إلى الإدبار عنه، كأنه استغنى عن ربه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مثل فقر ومرض وخوف ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ من فرج ربه وإتيانه باليسر بعد العسر، واليأس: ضد الرجا، فلم يلجأ إلى ربه ليكشف عنه العسر، وهذا في غير حالة الإضطرار والخوف من الهلاك كما مرَّ فيمن مسهم الضر في البحرفإنهم يلجأون إلى الله اضطراراً.

(٨٤) ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ قال في (لسان العرب): «والشاكلة: الناحية والطريقة والجديلة، ثم قال: وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على طريقته وجديلته ومذهبه» انتهى المراد. وقال في الجديلة: «والقومُ على جديلةِ أمرهم أي على حالهم الأول، وما زال على جديلة واحدة أي على حال واحدة وطريقة واحدة وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال الفراء: الشاكلة: الناحية والطريقة والجديلة، معناه: على جديلته، أي طريقته وناحيته» انتهى.

وعلى هذا يكون الراجح ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على طريقته التي أَلِفها وصار يهواها لإلفه لها، وليس ألفها من مفهوم الشاكلة ولكنه لازمه، قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى عليه السلام: يقول: كل يعمل على طريقته وما يشتهيه» انتهى المراد.

وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ

فحاصل المعنى: قل يا رسول الله: كل مكلف يعمل على طريقته التي اختارها لنفسه من حق أو باطل ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ وهو الْمُجازي بما عملوا، فهي من التهديد بالنسبة لأهل الباطل، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠] وكقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا..﴾ الآية [الكهف:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ﴾ يفيد: إحاطة علمه بالمهتدي وبالأهدى، والأهدى: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وسائر أهل الكساء، ثم أئمة الهدى عليهم السلام أجمعين.

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى عليه السلام: والروح عندنا على معنيين:

أحدهما: جبريل عليه السلام، وقد قال غيرنا: إنه ملك أعظم من جبريل، ونحن نقول: إنه جبريل عليه السلام، لقول الله ـ عزّوجل ـ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] والذي كان ينزل عليه بالوحي فهو جبريل عليه السلام دون غيره.

والروح *الآخر*: فهو الروح الذي تقوم به الأبدان، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] ولم يفسره» انتهى.

عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ
كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا

وهذا هو الراجح: أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الروح الذي يحيى به الناس وغيرهم من الحيوان ما هو؟ أي سألوه عن حقيقته، فقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ من شأن ربي، والأمر هنا واحد الأمور وأضافه إلى الله، لأنه هو الذي أنشأه وهو الذي يعلم حقيقته لا نحن.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ الخطاب إما لأهل الكتاب، وإما عام للناس كلهم، أي ما آتاكم الله ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ بالنسبة إلى مالم يؤتكم، وهذا القليل خير كثير نحمد الله على ما آتانا منه فهو نعمة كبرى امتاز بها الإنسان وتفاضل فيها، وفضل على سائر الحيوان، واستطاع بها أن يدخل الجنة وينجو من النار.

﴿٨٦﴾ ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ ﴿وَلَئِن شِئۡنَا﴾ لكن لا نشاء ﴿لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ من القرآن وغيره لنأخذنهن حتى لا يبقى عند أحد منكم لا قليل ولا كثير ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي بما أوحينا إليك أي بالمطالبة به واسترجاعه ﴿عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ تكل إليه هذا المهمة فيقوم بها ويسترجع لك ما فات لوشئنا ذلك.

﴿٨٧﴾ ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ لكن رحمة من ربك حفظه لك ولم يذهب به ولن يذهب به ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ إن فضله عليك بما أوحى إليك وبحفظه لك وبكل أنعمه عليك كان عليك كبيراً فضلاً كبيراً وإنعاماً عظيماً.

ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

﴿٨٨﴾ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ هذا يبين عجز الناس عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأنهم لو اجتمعوا هم والجن ليأتوا بمثله ما أتوا بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تعاونوا على محاولة ذلك.

قال في (الكشاف): «﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جوابُ قسم محذوف، ولولا (اللام) الموطئة لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله:

يقول لا غائب مالي ولا حَرِمُ

لأن الشرط وقع ماضياً» انتهى المراد.

وهو يعني : أن (اللام) في قوله تعالى: ﴿لَّئِنِ﴾ هي اللام الموطئة للقسم الدالة على إرادته، وقوله: لجاز أن يكون جواباً للشرط: الشرط (إن) وقوله: ﴿ٱجْتَمَعَتِ﴾ فعل الشرط، وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ دليل جواب الشرط، ولولا (اللام) في قوله تعالى: ﴿لَّئِنِ﴾ التي لأجلها كان ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواباً للقسم المحذوف، لجاز أن يكون جواباً للشرط وإن كان ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ مرفوعاً، لأن فعل الشرط الذي هو ﴿ٱجْتَمَعَتِ﴾ وَقَع فعلاً ماضياً، وإذا كان فعلاً ماضياً جاز رفع جواب الشرط، كقول الشاعر:

وإن أتاه خليل يوم مَسْغَبة   يقول لا غائب مالي ولا حرم

والظهير: إما العون فهو صفة مشبهة، وإما المُظَاهر أي المعاون، فلو ﴿ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لما أتوا بمثله، سواء تعاونوا أم لم يتعاونوا، وحاول كل فرد أن يأتي بمثله؛ لأنه في حكمته وإحكامه فوق ماتطيقه الإنس والجن.

﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿صَرَّفْنَا﴾ مثل تصريف الرياح فهو جعل ما في آيات القرآن من الحكمة أنواعاً وأصنافاً يتنقل الفكر فيها من نوع إلى نوع مثل من وعد إلى وعيد إلى عبر الأولين إلى برهان إلى تعليمٍ لطرق النجاة وهدايةٍ لأسبابها إلى تعليمٍ لبعض التكاليف الشرعية، من النظر، والتفكر، والإسلام، والإيمان، وإقامة الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وأحكام في النكاح في الطلاق، وحلال وحرام في المعاملات، وغيرها أصنافاً بديعة فائقة في أحكامها وتفصيلها، فكانت جارية مجرى الأمثال، وسميت أمثالاً فما كان ينبغي لعاقل أن يتردد في الإيمان به واتباعه؛ لأنه هدى ونور وحكمة ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ امتنعوا أشد الإمتناع من أن يؤمنوا به، ولم يرضوا إلا بأن يكفروا به.

﴿٩٠﴾ ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي الذين أبوا إلا كفوراً، ولعل القائل بعضهم ورضي الآخرون، والله أعلم. ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك ونقبل منك دعواك أنك رسول من الله بهذا القرآن ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾ تخرج لنا ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ماءً نابعاً من العيون أو من عين واحدة، ولعل هذا قول كفار مكة ومن حولها.

﴿٩١﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ﴾ عطف على قولهم: ﴿حَتَّىٰ تفجُر﴾ ومعنى ﴿خِلَٰلَهَا﴾ بينها متخلّلاتٍ لها، وهذا من تعنتهم وتعظيمهم لمطالب النفس الدنيوية، وقوله: ﴿تَفْجِيرًا﴾ تحقيق للشرط الذي تعنتوا به.

تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا
﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ
حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا
﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ

﴿٩٢﴾ ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ علينا تعجيلاً لعقوبتنا ﴿كَمَا زَعَمۡتَ﴾ لعلهم أرادوا قوله تعالى في (سورة سبأ): ﴿**إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ**﴾ [سبأ:٩] وقوله: ﴿كِسَفًا﴾ أي قطعاً، قال الراغب: «والكِسْفَة: قطعة من السحاب والقطن، ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة الحائلة» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿كِسَفًا﴾ معناه: قِطَع» انتهى.

وقوله: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ تأتي بهم إلينا حال كونهم قبيلاً أي مقابلين لنا نعاينهم أمامنا، مثل: ﴿**لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا**﴾ [الفرقان:٢١].

﴿٩٣﴾ ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ الراجح: أن الزخرف هنا: هو الذهب؛ لأن الزينة جارية مجرى الصفة، فيبعد أن يقال: بيت من زينة، قال الراغب: «الزخرف: الزينة، ومنه قيل للذهب: زخرف» وفي (الصحاح): «الزخرف: الذهب، ثم يُشبَّه به كلُّ مُمَوَّهٍ مُزَوَّر والمزَخرف المزيَّن» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال مجاهد: كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأينا في قراءة عبد الله ﴿**أو يكون لك بيت من ذهب**﴾» انتهى المراد.

بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا

وقوله: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ أي تصعد وتطلع ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لطلوعك في السماء ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ لأنه مخطوط في رق ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيهاً له وتبعيداً عما تقولون ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾؟ فلا أقدر على ما تطلبون من المعجزات، إنما أقدر على ما يقدر عليه البشر وهل كنت إلا ﴿رَّسُولاً﴾ ليس لي من الأمر ما شئت، وإنما أبلغ رسالات ربي.

﴿٩٤﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ من ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ عدم الآيات الدالة على صدق الرسول فلم يقترحوا تلك الخوارق لعدم الآيات إنما لم يؤمنوا وتعنتوا لأنهم ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ أي لأنهم أنكروا ذلك وقالوا كيف يكون الرسول بشراً، أي أن ذلك غير معقول، والحصر والقصر هنا إضافي أي بالإضافة إلى آيات صدق الرسول ﷺ لأن من الموانع حب الرئاسة الدنيوية وحب الدنيا والحسد والكبر والتعصب للأباء ولدين الآباء ونحو ذلك، فلهذا قلت إن الحصر إضافي كما حققته وقد مرَّ الجواب عليهم في (سورة الأنعام) في [آية ٨ وآية ٩].

﴿٩٥﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «﴿يَمْشُونَ﴾ على أقدامهم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي قارّين في الأرض كالإنس لا يطيرون بأجنحة إلى السماء فيعلموا ما يجب علمه ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ يهديهم إلى الرشد؛ لأن من حق رسول الأمة أن يكون من جنسهم؛ لأنهم به آنس» انتهى المراد.

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ
ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ
سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا

وقوله: فيعملوا ما يجب علمه، لعل الأصل: فيعلموا أي من السماء إذا طاروا إليها يعلموا هناك ما يجب علمه، فيغنيهم ذلك عن إرسال رسول إليهم إلى الأرض لو كانوا يطيرون إلى السماء.

﴿٩٦﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو يعلم أني قد بلغتكم وأقمت عليكم الحجة كما أمرني، والشهيد هو الحاكم بيني وبينكم يحكم بيننا يوم القيامة بالحق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ عليماً بخبره كل واحد منهم ﴿بَصِيرًا﴾ بهم في الدنيا والآخرة، فهو يقضي فيهم بالحق والصواب ولا يعي عن شيء من ذلك.

﴿٩٧﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي قد تبين الحق بالآيات البينات فما بقي بعد ذلك إلا أن يختار لنفسه الإنسانُ طريق الهدى أو طريق الضلالة فمن اختار الهدى هداه الله، أو من كانت نيته اتباع الحق والصواب هداه الله، ومن عاند الحقَّ وجادل فيه أضله الله بتركه للشياطين فأضلوه، وحينئذ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ للحق والصواب المؤمن بما جاء به الرسول ﷺ وبإيمانه يزيده الله هدى.

وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ

﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ يتولَّه الشيطان ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يهدونهم من دون الله؛ لأنه فاتهم هدى الله ولا بديل له ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ضُلاَّلاً كما كانوا في الدنيا ضلالاً، فنحشرهم ﴿عُمۡيٗا﴾ عن الحق ﴿وَبُكۡمٗا﴾ عن الإيمان به الإيمان الإختياري ﴿وَصُمّٗا﴾ عن قبول الحق اختياراً ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ مصيرهم الذي يأوون إليه ويرجعون جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ خمد وقودها ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ فعذابهم مستمرٌّ دائم.

حكى الشرفي في (المصابيح): «عن القاسم بن ابراهيم عليه السلام أنه قال: تأويل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ فهو على صورهم التي فارقوا الدنيا عليها وهيئاتهم يحشرون وعلى ما كانوا عليه في الدنيا من الهدى والضلال يبعثون، وليس تأويل ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ ما يذهب إليه أهل الجهالات من تبديل الله يوم القيامة للخلق والهيئات التي كانوا عليها في الدنيا بديا» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ﴾ محمول على سرعة الزيادة بحيث لا يتخلل فتور حرها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف:٧٥] وقال: ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ [البقرة:٨٦] ومع سرعة تجديد النار تكون كأنها لم تخبُ، كما تجدد نار السيارة مع احتراق وقودها كلما احترق بدِّل، فهي مستمرة لاستمرار إمدادها بالوقود فكذلك نار جهنم.

﴿٩٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ حشرهم على الحالة التي ذكرها وإيواءهم إلى جهنم في عذاب مستمر ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بأنهم كفروا بآيات الله

فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ
إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ

الدالة على قدرته تعالى وعلمه وآياته الدالة على صدق رسوله ﷺ أو بآياتنا الدالة على صدق الرسول ﷺ وجحدوا قدرة الله تعالى على بعثهم خلقاً جديداً، وكذّبوا الرسول في إنذاره لهم عذاب الآخرة، وجعلوا إنذاره بالآخرة وسيلة لتكذيبه في دعوى الرسالة.

﴿٩٩﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾ هذا يبطل جِدالَهم في بعثهم خلقاً جديداً ﴿أَوَلَمۡ﴾ يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ على عظم خلقها وبعد مساحتها وتجهيز الأرض للإنسان ليعيش فيها ألم يعلموا أن الذي خلقها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ﴾ أشخاصاً ﴿مِثۡلَهُمۡ﴾.

وهذا الإستدلال يشبه قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا...﴾ إلى قوله: ﴿..مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات:٢٧-٣٣] وقوله تعالى: ﴿مِثۡلَهُمۡ﴾ يشير إلى صغر أجسامهم بالنظر إلى السموات والأرض، أي قادر على أن يخلق من كان في حَجْمه أصغر من السموات والأرض بكثير، فقوله تعالى: ﴿مِثۡلَهُمۡ﴾ كناية عنهم كقولهم: مثلك لا يبخل ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ فهم يعلمون أن حياتهم الدنيا مؤقتة تنتهي لأجل لا ريب فيه، فلولا أن الله يعيدهم لكان الخلق الأول عبثاً؛ لأن الأمم تحيى ثم تموت أمة بعد أمة ولا توجد أمة لتبقى بل كلها تحيى لأجلٍ لاريب فيه، والله أحكم الحاكمين فلا بد من البعث والجزاء الذي به تظهر الحكمة.

تِسْعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحداً بالبعث مع وضوح دليله ودليل قدرة الله تعالى عليه وذلك الكفور؛ لأنهم ظالمون لا يتحرجون من الباطل وجحود الحق.

﴿١٠٠﴾ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ ﴿قُل﴾ هذه الرسالة رحمة من ربي الذي هو رب العالمين أرسلني رحمة لي ولهم؛ لأن بيده الخير ومنه الخير لا منكم، فأنتم في تحكمكم واشتراطكم لإيمانكم بي تلك الشروط لا تبطلون رحمةَ ربي؛ لأن رحمة ربي لا تملكون خزائنها الواسعة، وأنتم لو تملكونها ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ﴾ أن تنفد ولا يبقى لكم منها شيء، وهذا لأن الشح قد سيطر على أنفسكم ـ والله أعلم.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): معناه: مقتّر انتهى، ولعل ﴿قَتُورًا﴾ فيه دلالة على كثرة التقتير أي تضييق وإقلال النفقة؛ لأن فَعُولاً من أمثلة المبالغة مثل ضَرُوب. ووصفُ الإنسان بالإقتار إما باعتبار الأكثر والغالب، وإما باعتبار الأصل في طبيعة الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨] فالسخي إنما يطبع على قليل من السخاء لا يخرجه عن الإقتار، ولكنه لميله إلى السخاء أو إلى الشرف يربي غريزة السخاء حتى تغلب غريزةَ الشح، وهذا نظير وصفه بالهلع ثم استثناء أهل الصفات التي لا يجمعها إلا المؤمن الذي يتخلص من الهلع بقوة إيمانه.

﴿١٠١﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ فالتمرد على الرسول

محمد ﷺ غير عجيب، والتعنت من الكفار هو شأنهم، فقد أرسل الله موسى عليه السلام في ﴿تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ﴾ لعلها:

الأولى: سلطانه وهيبته العجيبة التي صرفت فرعون عن قتله وقتل أخيه، مع أنه جبار عنيد لايتحرج من قتل نفس كيف وقد كان يذبح أبناءهم، وقد أشار موسى إلى هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ [الدخان:٢٠] ودل عليها قول الله تعالى: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ [القصص:٣٥].

الثانية: ضمه إليه جناحه من الرهب فيذهب الرهب ولا يخاف سطوة فرعون، ويحتمل أنها من الأولى هيبته وأمنه وحفظه هو السلطان.

الثالثة: تحول العصى حين قال له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:١٠٦-١٠٧].

الرابعة: نزعه ليده من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء.

الخامسة: الطوفان.

السادسة: الجراد.

السابعة: القمل.

الثامنة: الضفادع.

والدم هو *التاسعة*، وقد مر تفسير هذه في تفسير (سورة الأعراف).

وتلقف عصى موسى لسحر السحرة آية، ولعل تلقف العصى لسحرهم هو التاسعة، والأولى هي السلطان المستلزم لحفظه وأمنه.

وقد فرق القرآن بين هذه الآية وبين انقلاب العصى ثعباناً، تأمل الآيتين في (سورة الشعراء) [آية ٣٢، وآية ٤٥] ففي العصى آيتان: آية انقلابها ثعباناً، وآية تلقفها لسحر السحرة، بحيث انكشف للناظرين حبالهم وعصيهم، وإنما ينشأ الغلط في حساب التسع من جعل آيتي العصى واحدة.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ

وعلى هذا: فلا موجب لجعل فرق البحر آية من التسع، فقد كان فرقه عند هلاك فرعون وقومه، ولوكان من التسع لأمهلوا بعده كما هي العادة أن لاتقترن آية الرسول وهلاك قومه، وكذلك نتق الجبل فهو كان بعد هلاك فرعون وقومه وكان هو وفلق البحر آيتين لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ معناه أن هذا معلوم عند بني إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾ أي اذكر إذ جاء بني إسرائيل وهم تحت سطوة فرعون فقال له فرعون عناداً وكفراً بالآيات البينات ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ وقد ناقض الكافرُ حيث قال مرة مسحوراً ومرة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ [طه:٧١].

﴿١٠٢﴾ ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي خلقهن القادر على ما يعجز عنه العباد المالك للسموات والأرض ما أنزل هذه الآيات إلا هو ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي آيات بينات يبصر بها أهل العقول الحقَّ ويعلموا أني صادق فكأنه قال ما أنزلها إلا الله بصائر، فقوله: ﴿بَصَآئِرَ﴾ من جملة المستثنى بإلا ما أنزلها لعباً كما يكون من السحرة من السحر لعباً وباطلاً.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ مُهلَكاً لأنك تمردت على الله وكذبت بآياته وجادلت فيها بالباطل، فلذلك أنت مظنة أن تصير في عذاب جهنم في الويل والثبور؛ لأنه مصير المخذول الذي لا يتوب قبل نزول العذاب.

إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾
وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا

﴿١٠٣﴾ ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ ﴿يَسۡتَفِزَّهُم﴾ يزعجهم ليخرجهم من الأرض ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ مجتمعين، فهذه عبرة للكفار بمحمد ﷺ وبآياته المتعنتين عليه.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد فرعون، أي من بعد هلاكه مكّنّا لبني إسرائيل في الأرض أوّلاً حيث صاروا بعد فرارهم من فرعون ثم في مصر وغيره ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ما وعد الله به من أمور الآخرة التي عند البعث ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ﴾ إلى موقف العرض على الله ـ عزَّ وجل ـ والسؤال والحساب ﴿لَفِيفٗا﴾ جَمْعاً مختلفاً، مثل: مؤمن وكافر، وعزيز وذليل، وغني وفقير، وأمير ومأمور، وتابع ومتبوع، فتمكين بني إسرائيل في الأرض اختبار لهم وتقدمة ليوم الحساب، كقول موسى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩].

﴿١٠٥﴾ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ أنزلنا هذا القرآن؛ لأن إنزاله حق وصواب اقتضته حكمة الله رحمة للعالمين وهدى للناس، وإنذاراً لبأس شديد يكون منه للظالمين وتبشيراً للمؤمنين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقد كانت العرب قبله في ضلال مبين.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ أي معانيه حق وصواب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ تبشر المتقين وتنذر الظالمين لست عليهم بمصيطر وليس عليك أن يهتدوا.

فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ
لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

﴿١٠٦﴾ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بيّناه بتفصيل معانيه ﴿لِتَقْرَأَهُۥ﴾ يا محمد ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ من حضر لديك من أي أمة كانوا ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على تأنٍّ في التلاوة وترتيل وتفصيل، لتبينه للسامعين ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ مفرَّقاً في أوقات متفرقة ﴿تَنزِيلًا﴾ من الله إليك.

﴿١٠٧﴾ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لقومك الذين تعنتوا في شروطهم ليؤمنوا ﴿ءَامِنُوا۟﴾ بهذا القرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فإنه الحق الواضح الذي آمن به أهل العلم فلا تضرون بترك الإيمان إلا أنفسكم، وهذا تحقير للكفار من قريش ومن حولهم، ودلالة على أنه لايعتد بإيمانهم أو كفرهم؛ لأنهم إنما هم جهال معاندون فسواءٌ آمنوا أم لم يؤمنوا لا يضرون الله ولا يبطلون كتابه بكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي آتاهم الله العلم في قلوبهم ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل إنزال هذا القرآن، وعرفوا أن محمداً هو الرسول المبشر به من قبل، وأن هذا القرآن هو من الله أنزله على محمد ﷺ فـ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ لله لظهور هذه الآية العظيمة وتبين صدق وعد الله به.

وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي يتساقطون على أذقانهم، والذقن مجمع اللحيين أسفل الوجه.

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ
ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾ لعله بمعنى: خاشعين لله متذللين، كقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل:٤٩] إلا أن سجود هؤلاء العلماء سجود إيمان وتذلل اختياري، وعلى هذا فلا إشكال في ذكر السجود على الذقن، فلو كان من دينهم السجود على الذقن صح حملة على السجود المعهود ولكن لم أجد ذلك فيما عندي من التفسير.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ أي الذين أوتوا العلم يسبحون الله وينزهونه عن أن يخلف وعده حينما شاهدوا الرسول الموعود به وسمعوا القرآن الدال عليه.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿يَبْكُونَ﴾ جملة حالية،يخرون للأذقان في حال بكائهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ ذلة، وهذا من خشية الله والتأثر بآيات القرآن، ويعجبني هنا تعبير سيد قطب حيث قال: «وهو مشهد مُوحٍ يلمس الوجدان مشهد الذين أوتوا العلم من قبله وهم يسمعون القرآن فيخشعون، ويخرون للأذقان سجداً.. إنهم لا يتمالكون أنفسهم فهم لايسجدون ولكن يخرون للأذقان سجداً ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا، ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر..

تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا
وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

إلى قوله.. إنه مشهد مصوِّر لحالة شعورية غامرة يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله، والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن فالعلم الحق هو ماجاء من عند الله» انتهى.

﴿١١٠﴾ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

﴿قُلِ﴾ يا رسول الله ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي سواء هذا الدعاء وهذا الدعاء؛ لأن الرحمن هو الله الأحد ﴿أَيًّا مَّا﴾ أي الدعائين ﴿تَدْعُوا۟ فَلَهُ﴾ أي فلله وحده ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذان الإسمان وأسماء حسنى غيرهما والمسمى بها واحد ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءتك في الصلاة أي لاترفع الصوت بها رفعاً زائداً، والجهر: هو رفع الصوت قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة ... لعل أبي المغوار منك قريب

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ اي لا تخفها بحيث لايسمع المصلون معك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الإمام أحمد بن يحيى ـ يعني بن الهادي عليه السلام ـ والسبيل: فهو الأوسط من الأمر الذي لا يعلي صوته ولا يسرّ، يكون بين ذلك وسطاً حسناً لا رفعاً شديداً ولا خفضاً غامضاً، مثل قوله في

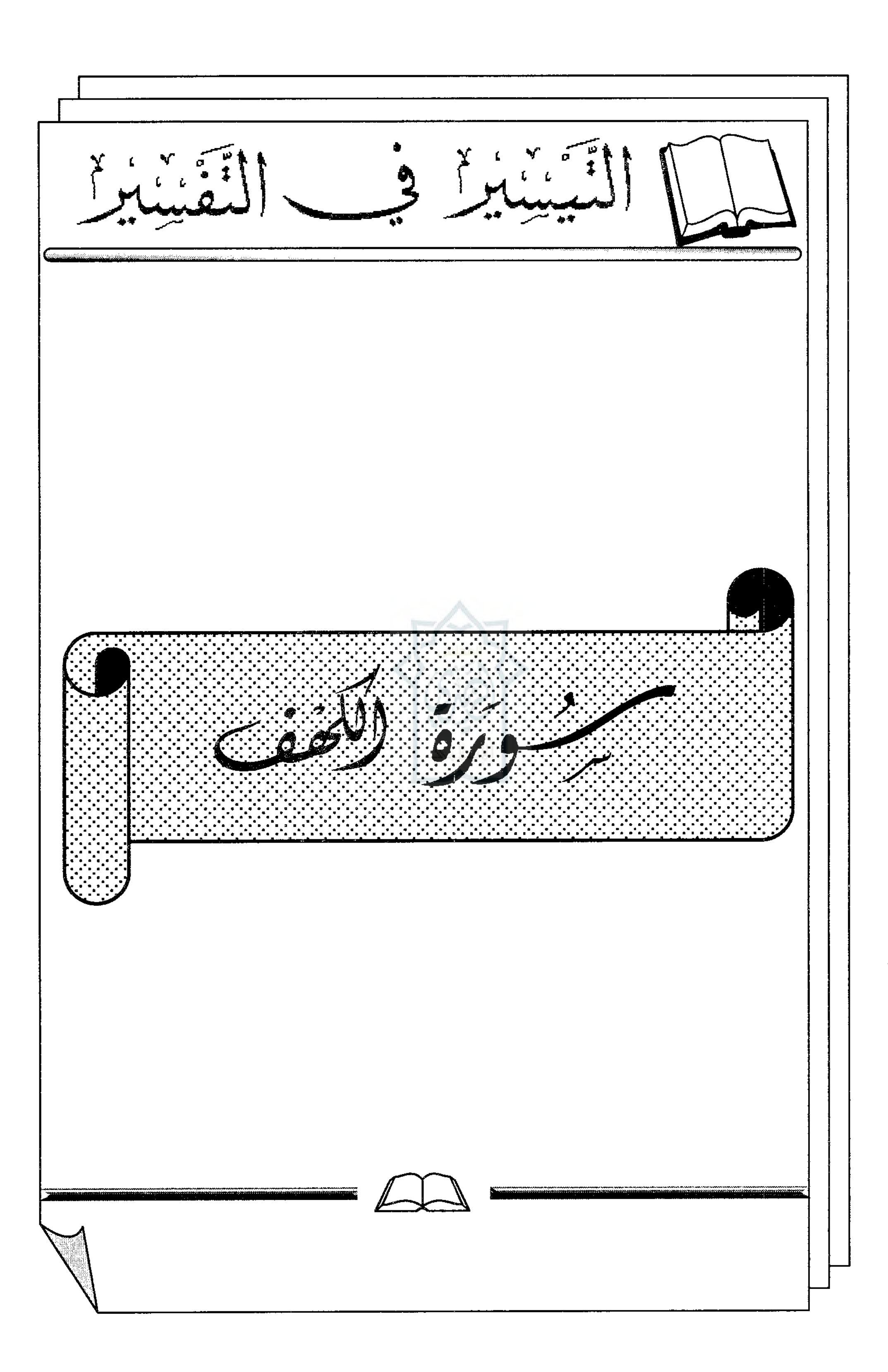
(سورة الأعراف): [﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [آية:٢٠٥] وأمره له] بالذكر الخفي وأمره في (سورة بني إسرائيل) بأن يتوسط بالصلاة بين الأمرين كما وصفنا» انتهى، وأما الهادي عليه السلام فجعلها صالحة لهذا المعنى وللإسرار في بعض الصلوات والجهر في بعضها، وكأنه حملها على المعنيين.

(١١١) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿وَقُلِ﴾ عطف على ﴿وَلاَ تَجْهَرْ﴾ يظهر به أن هذه الآية لها علاقة بالصلاة فيحمل قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ على التكبير الواجب الذي هو أول الصلاة، وما تقدم قبله استعداد للصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي أن الملك لله وحده، فالحكم له وحده ومن ملَّكه ـ بتشديد اللام ـ فهو ملك للعبد لا يخرج به عن العبودية لله فلا مشاركة له في مُلك الله؛ لأن العبد إنما يكون له ملك نسبي، والملك المطلق لله وحده، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي أنه القاهر فوق عباده الغني عن الولي. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: لم يكن له حليف ولا ناصر» انتهى.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم




التيسير في التفسير
سورة الكهف


المجلس
الإسلامي

سورة الكهف

آياتها ١١٠ — ترتيبها ١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

تفسير (سورة الكهف)

حكى الشرفي في (المصابيح): «عن ابن عباس: أنها مكية إلا آيتين وعن قتادة: أنها مكية» انتهى.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن، حكى الشرفي في (المصابيح): «عن المرتضى بن الهادي عليه السلام أنه قال: معنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهو الحمد والثناء على الله بما أولى، ومعنى ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وعبده فهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم والكتاب [فهو] الذي فيه النور والشفاء والحق والهدى وجميع ما يحتاج إليه من حلال وحرام ونازلة من نوازل الأيام» انتهى.

فلله الحمد يستحقه لنعمته علينا بهذا الكتاب، فالكلام مسوق لبيان أن الكتاب هذا نعمة من الله بذكر استحقاقه للحمد عليه ولذلك فعلينا أن نستمعه ونتفهم معانيه ونتمسك به.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ فسّروه: بأنه تعالى لم يجعل في القرآن عوجاً، وهو مشكل؛ لأن التعبير فيما أرى لو أريد ذلك: لم يجعل فيه عوجاً كقوله تعالى: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه:١٠٧].

فأما بـ(اللام) فقد استعمل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه:١٠٨] وليس معناه: نفي العوج عن الداعي بل عن المدعوين.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ

وأيضاً لو كان المراد أنه لم يجعل فيه عوجاً لكان قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ كافياً إذا كان معنى ﴿قَيِّمًا﴾ سليماً من العِوج كما هو الراجح، فالراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ أنه تعالى لم يجعل له عوجاً في إنزاله بل أنزله بإرسال جبريل الأمين الذي بلغه كما هو من دون زيادة ولا نقصان ولا تبديل ولا تحريف ولو أنزله بإرسال الشياطين إلى الكهنة لكان في تبليغه تغيير منهم بسبب إنزاله بواسطتهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:٥١] والله أعلم.

﴿٢﴾ ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾ أنزل على عبده الكتاب ﴿قَيِّمًا﴾ سليماً من العوج: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

حكى الشرفي في (المصابيح): «عن المرتضى عليه السلام: معنى ﴿قَيِّمًا﴾ فهو الثابت المصيب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكل ما فيه نور وحجة ولمن عقله أكبر الدلالة قيم جميع أحواله قاهر لمن ناظره..» إلخ.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أنزله على عبده لينذر كل من لم يؤمن ويعمل الصالحات ﴿بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ فقوله تعالى: ﴿بَأۡسًا شَدِيدًا﴾ أي شراً عظيماً وعذاباً أليماً يبيّن أهمية الإنذار ليحذر البأس من أراد السلامة وليكون الإنذار حجة على من أبى ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ
نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا

وقوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي من عنده أي هو الذي يعذب المنذَرين إذا أبوا وأصروا، وهذا بيان أهميَّة أن ينذرهم؛ لأن حكمته تقتضي أن لا يعذب قبل أن ينذر بخلاف البأس الذي ليس من لدنه فلا يجب أن ينذر الناس قبل وقوعه على كل حال، بل قد تقتضي الحكمة تسليط بعض الناس على بعض وترك المسلط عليهم غافلين عمن يهجم عليهم بعينه وفي وقته وإن كان ينذرهم التسليط منه عقوبة على المعاصي في الجملة.

وقوله تعالى: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من الدرجات والنعيم بدليل ما بعد هذه.

﴿٣﴾ ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ باقين فيه أبداً لا يخرجون منه ولا يفارقونه ولا يموتون.

﴿٤﴾ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا إنذار خاص بهم لأجل شركهم، واتخاذ الولد غير الولادة، ولعلهم اليهود؛ لأجل قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] وبعض النصارى في عيسى صلوات الله عليه لا جاهلية قريش، فقد قال الله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ..﴾ [الصافات:١٥١-١٥٢] ولعله قولهم في الملائكة.

﴿٥﴾ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بقولهم: ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ فقد قالوا على الله ما لا يعلمون ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قلدهم الأبناء فهم لا يعلمون ذلك الباطل، بل هو قول عظيم.

وقوله تعالى ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ﴾ أي هذه الكلمة التي هي قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أكبرها كلمة إعظاماً لتجاسرهم على النطق بها..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ تشنيع وتقبيح للكلمة وتسجيل عليهم بخروجها من أفواههم وتحملهم مسؤوليتها وعارها بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً؛ لأن الله جل جلاله ما اتخذ صاحبة ولا ولداً سبحانه هو الغني وكفى في بطلان قولهم أن الله قال فيه: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ مع أن الدعوى يبطلها عدم الدليل عليها وكون المدعي لم يقلها إلا جزافاً بغير علم.

(٦) ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ مهلك نفسك، قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: قاتل نفسك ومهلكها، وقوله تعالى ﴿بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ معناه: ندم» انتهى.

وهذا إما تشبيه له صلى الله عليه وآله وسلم في فرط أسفه بمن يخشى عليه إهلاك نفسه بالأسف عليهم، ونظيره في التشبيه قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾ [الإنسان:١٩] أو هو للمخاطب كأنه قيل: يُتوقَّع أن تبخع نفسك، كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه:٤٤] وهذا أقرب وأظهر.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ أي آثار أقدامهم في الأرض حين مشوا متولين عنك، وقوله تعالى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ شرط دليل جوابه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ أي إن لم يؤمنوا يتوقع أن تقتل نفسك على آثارهم أسفاً أو لعلك إن لم يؤمنوا تبخع نفسك وهذا أرجح.

عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ
ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ

وهذا الأسف إما لحبه لله ورغبته في ظهور دينه وذهاب الشرك فهو يأسف لمن لم يؤمن لهذا السبب، وهذا أقرب بدليل ما بعد هذه، ولعله معنى ما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن المرتضى بن الهادي عليهما السلام، وإما إشفاقاً عليهم من عذاب الله، وإما للأمرين.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ دليل على شدة الأسف حيث جعل مظنة إهلاكه في ذلك الوقت بعد انصرافهم قبل أن تذهب آثار أقدامهم.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فلا يحزنك كفرهم، فإن الله ـ جلَّ جلاله ـ أراد أن يبلو أهل الأرض بزينتها، ولم يرد أن يضطرهم إلى الإيمان، بل أراد أن يبلوهم أي يختبرهم، وذلك يلزم منه تمكينهم من اختيار ما شاءوا دون أن يضطرهم إلى الإيمان

﴿٨﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ ما على الأرض كله مما جعله الله زينة لها ومن غيره ﴿صَعِيدًا﴾ تراباً على وجه الأرض ﴿جُرُزًا﴾ لا نبات فيه، فزينة الدنيا لم تخلق للبقاء بل هي ذاهبة كلها بعد انقضاء مدة اختبار الناس بها وقرب يوم الحساب أو ذلك كائن أول يوم البعث.

﴿٩﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ تجويف في الجبل، يُكنُّ من المطر ويكون فيه ظل من الشمس وأصحاب الكهف هم الذي أووا فيه وناموا سنين عديدة كما يأتي في قصتهم.

ويروى أن سبب نزول قصتهم سؤال اليهود عنها، فارتباط قصتهم بما قبلها من حيث أن السائلين: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ولم يؤمنوا برسول الله ﷺ ولا بالقرآن مع علمهم أنه من الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ فالراجح أنه: ما رقم فيه أسماؤهم، أي المرقوم فعيل بمعنى مفعول، ولا يجب أن المرقوم أسماؤهم، بل يحتمل: أن يكونوا هم رقموه وأن يكون في الصخرة كلمة التوحيد وذكر الله جل جلاله أو غير ذلك فلا يتعين إلا أنه معهم مرقوم من غير تعيين، فحاصل معنى الآية: بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من بين آياتنا عجباً دون غيرهم، فإن عجائب آيات الله كثيرة.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام [أي محمد بن الهادي عليه السلام] معنى ﴿كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يقول سبحانه إنهم لم يكونوا من أعظم الآيات، بل كان في آياتنا ما هو أعجب وأعظم من هؤلاء، وإن كان فيهم العجب العجيب لمن فكر وعقل واعتبر وازدجر أن يكون ممن خلقهم الله كخلق الآدميين، وركب فيهم من الأكل والشرب والروح ما ركب في جميع المخلوقين، ثم أقاموا بلا أكل ولا شرب ثلثمائة سنة وتسع سنين، لم تتغير لمرّ السنين أمعاؤهم ولم تذهب بطول المدة لحومهم، ولم تؤثر الأرض في أبدانهم، فهذا من أوضح دلالة لمن أبصر وأبين حجة لمن تفكر وآمن بالله واعتبر، فكان الناس يتعجبون من بقائهم وسلامة أبدانهم مع طول هذه المدة، فأخبرهم الله أن من آياته التي ترون ما هو أعظم من ذلك» انتهى.

رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ
سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا
﴿١٢﴾ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ

﴿١٠﴾ ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ هذا أول موجز قصتهم، ويظهر أنهم صاروا إلى الكهف ليختفوا من قومهم ولما في الكهف من ظلال أو كنان أو دفء، فهو قائم مقام بيت لهم ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ لأنهم يحتاجون إلى الأمن وإلى الطعام والشراب فطلبوا من ربهم حل مشكلتهم.

﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ التهيئة للشيء: إعداده وجعله صالحاً لما أعد له، وقولهم: ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي هو مفارقة قومهم ومساكنهم واعتزالهم في الغار أي اجعل لنا من ذلك ﴿رَشَدٗا﴾ وهدى لما فيه لنا الخير فقد توكلوا على ربهم وطلبوا منه أن ييسر لهم أمرهم ويصلح شأنهم.

﴿١١﴾ ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ ﴿فَضَرَبۡنَا﴾ الفاء للتفريع أي أجبنا دعاءهم بالضرب على آذانهم سنين، و(في تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ معناه: بالنوم» انتهى، ومعنى الضرب على آذانهم: منعها أن تسمع، فهو كناية عن جعلهم نياماً، واستغنوا عن الطعام والشراب، وذهب عنهم الخوف ﴿سِنِينَ عَدَدٗا﴾.

﴿١٢﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ ﴿بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ أيقظناهم وأقمناهم أو أيقظناهم فخرجوا من الكهف وأظهرناهم كما يأتي في تفصيل قصتهم، وهذا أظهر، لأنه تعالى علله بقوله: ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ أي لنبتلي بقصتهم، فيظهر من يصيب في ذكر مدة لبثهم في الكهف، وهو يفيد: أن الناس اختلفوا في مدة لبثهم وصاروا في خلافهم حزبين كما اختلفوا في عددهم.

هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا

وقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي أحصى أمداً للبثهم في الكهف، أي كم لبثوا فيه، قال في (الصحاح): «قال: ما أمدك: أي منتهى عمرك» انتهى، فالأمد: مدة طويلة إذا أضيفت أريد بها مقدارها باعتبار غايتها.

قال الراغب: «الأمد والأبد يتقاربان، لكن الأبد: عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود ولا يتقيد، لا يقال: أبد كذا، والأمد: مدة لها حد مجهول إذا أطلق وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا» انتهى المراد.

﴿١٣﴾ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام [يعني محمد بن الهادي عليهما السلام] يقول: نخبرك عن أمرهم على صحة لأن أهل الكتاب كانوا يكذبون ويقولون ما لا يعلمون من أمرهم، فقال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك يدخله ولا باطل يخالطه، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ فذكر سبحانه أنهم آمنوا بربهم فأطاعوه فيما افترض عليهم فزادهم عند ذلك عوناً وتوفيقاً وهداية وتسديداً.

ثم قال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ومعنى (الربط) منه سبحانه فهو التقوية والتسديد لهم والتوفيق حتى تثبت قلوبهم على الحق فارتبطت به فلم تزل عنه؛ لأن العرب تسمي من ثبت قلبه مرتبط الجنان مرتبط القلب، فلما وفقهم الله عز وجل ارتبطت قلوبهم وثبتت على الحق عزائمهم ولم تزغ مع من زاغ من قومهم، فكان ذلك من الله ـ عزَّ وجل ـ نوراً إلى نور وخيراً إلى خير» انتهى.

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ في (المصابيح) يقول الشرفي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [آية:١١] من (سورة الأنفال): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: روي أن الله ـ عزَّ وجل ـ نزل عليهم مطراً خفيفاً ليطهرهم به من نجاسة الشيطان ومقاربته وملابسة دخوله بينهم ورائحته وليربط على قلوبهم ويثبتهم ويخفّوا بالماء المبارك من ثقلهم لما جعل الله فيه من الحكمة والرحمة لهم والثبات لقلوبهم وأقدامهم..» إلخ .

فالراجح: أن المعنى: قوّينا قلوبهم حين قاموا بحضرة قومهم أو بعض قومهم فأعلنوا كلمة التوحيد وقومهم مشركون، فلم يمنعهم الخوف من القيام بالقسط.

وقولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ احتجاج على إبطال دعوة إله من دون الله؛ لأن الله ربهم المالك لهم فعبادة غيره باطل؛ لأن العبادة اعتراف للمعبود من العابد بالعبودية، وهم إنما هم عبيد لله وحده لا شريك له، وقولهم: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن الله رب كل شيء؛ لأن السموات والأرض فيما يظهر معظم العالم.

وقولهم: ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ أي لن نشرك بالله بعبادة شيء من دونه بالدعاء، وقولهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي لو دعونا من دونه إلهاً لكنا قد قلنا شططاً أي بعيداً من الحق والصدق أي قولاً شططاً.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي جور» انتهى. وفي (تفسير المرتضى محمد بن الهادي عليهما السلام) الذي حكاه الشرفي في (المصابيح): «والشطط: فهو المحال من القول المهلك فعله الباطل في نفسه» انتهى.

وفي (تفسير الراغب الأصبهاني): «الشطط: الإفراط في البعد..» إلخ.

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا

﴿١٥﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ ينكرون على قومهم الشرك.

وقولهم: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ﴾ أي هلاّ يأتون أي قومهم ﴿عَلَيۡهِم﴾ أي على آلهتهم ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ أي بحجة بينة تسلطهم على الشرك وتحملهم عليه، وقولهم: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ سؤال في معنى النفي أي لا أظلم ممن افترى على الله كذباً، وافتراء الكذب اختلاقه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: والإفتراء فهو الكذب وقول ما لم يكن من ذلك أنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله سبحانه، ويقولون: إن ذلك له رضى سبحانه، وكان ذلك منهم افتراء على الله وكذباً، فلذلك سأل الفتية البرهان إذ نسبوا ذلك إلى الله سبحانه، فسألوهم تصديق قولهم؛ لأن الله ـ عزَّ وجل ـ إذا أمر بأمر أو تعبد به كانت معه شواهد تصدقه وعلامات تؤكده وحجج تبهر عقول الخلق وتبينه» انتهى.

﴿١٦﴾ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ أي وحين اعتزلتم قومكم المشركين وما يعبدون واعتزلتم ما يعبدون مجتنبين للشرك ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ أي فاذهبوا إلى الكهف وكونوا فيه؛ لأنكم

غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن
يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ

تحتاجون إلى مأوىً وتحتاجون إلى مرتفق أي ما تنتفعون به من القوت وغيره ولعل الله أن ﴿يُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ وجزموا بذلك فقالوا ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً لقوة رجائهم في الله؛ لأنهم مهاجرون إليه بدينهم فاعتقدوا أنه لا بد أن ينشر لهم من رحمته؛ لأنهم في طاعته لأن فراقهم لقومهم ولما عند قومهم من حاجاتهم ورزقهم كان ضرورياً لحفظ دينهم فتوكلوا عليه في هجرتهم إليه، واهتدوا لذلك بهدى الله المذكور في قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

ومعنى ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يوسع لكم والنشر خلاف الطي كما أن البسط خلاف القبض، قال الراغب: «نشر الثوب، والصحيفة، والسحاب، والنعمة، والحديث: بسطها» انتهى.

فقولهم: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أرادوا به تيسير أمرهم وحل مشكلتهم بحيث يأمنون ويثبتون على دينهم، وقولهم: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ التهيئة إعداد الشيء للغرض المطلوب منه، فالمعنى: يجعل لكم من شأنكم ما به يحصل لكم ما ترتفقون به، وأمرهم هو هجرتهم وذلك الذي أملوه أن يهيء لهم من هجرتهم سبباً لمعاشهم وإن كانوا لا يتصورون ما هو هذا السبب، وإنما ذلك توكل على الله وثقة به ومع ذلك دعوا الله تعالى كما مر فأجيبوا.

﴿١٧﴾ ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ تتحرف، وفي (معلقة عنترة) يذكر فرسه:

فازور من وقـع القنـا بلَبَـانِه وشكـــى إلـي بعبرة وتحمحم

يعني انحرف من وقـع الرمـاح في صـدره، قـال شـارحها: «الأزورار: الميـل، والتحمحم من صهيل الفرس، ما كان فيه شبه الحنين ليَرِقّ صاحبه له» انتهى.

وما قيل: من أن الأزورار الإنقباض، فـلا ينـافي هـذا؛ لأن المنقـبض يعـرض فينحرف، فلعل الإنقباض سمي أزوراراً بهذا المعنى كما يسمى المنقبض منحرفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ أي يراها الرائي الموجـود هناك عند طلوعها ووقوع شعاعها في الكهف تزاور عنـه ذات يمـين الكهـف أي إلى جهة الجنوب كما هي عادتها، وهـذا مـبني علـى أن الكهـف بجملتـه متجه إلى الشمال شرقاً، ذات يمينه شرق إلى الجنوب، وذات شماله شمال إلى الغرب، فذلك صنع الله تعالى في الكهف حيث صنعه على هذا الشكل يـوم خلقه أو هيّأه ليكون كهفاً يسكنون فيـه لا تضرهم الشـمس فيـه ولا يحـرم هواؤهم منها عند شروقها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ فقبيل غروبها يـبلغهم شعاعها ضعيف الحرارة كما هي عادتهـا عنـد الغـروب فتقرضـهم بغروبهـا عنهم أي تقطعهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معنـاه تقطعهـم وتجاوزهم» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: فأخبر سبحانه بلطفه لهم في الشمس في طلوعها وغروبها؛ لأنها لو دخلت عليهم لأحرقت أجسـادهم وغيّرت ألوانهم فكانت إذا طعلـت تـزاور عـن كهفهـم كمـا قـال سبحانه: ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تـدخل [في] مـن الكهف دخولاً قليلاً، والقرض منها لهم: هو دخول يسير منها عليهم.

والعرب تقول: قرضنا بلد كذا وكذا، يريدون أنهم لم يتوسطوا فيها وأنهم ساروا في جانب يسير منها» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «قال أبو عبيد: القرض في أشياء فمنها القطع ومنها قرض الفأر لأنه قطع، وكذلك السير في البلاد إذا قطتها ومنه قوله:

إلى ظُعُن يقرضن أجواز مُشْرِفٍ

ومنه: قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وقوله: أجواز مشرف يروى أقواز مشرف، حكاه في (لسان العرب) [بالقاف والزاي]:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شِمالاً وعن أيمانهن الفوارس

وفي (الصحاح): ((القَوز [بالفتح]: الكثيب الصغير عن أبي عبيدة وجمعه: أقواز وقيزان، وأنشد لذي الرمّة:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شِمالاً وعن أيمانهن الفوارس»

انتهى.

قال في (لسان العرب): «حيث رواه بلفظ: أجواز ومشرف والفوارس موضعان، يقول: نظرت إلى ظعن يجُزن بين هذين الموضعين» انتهى.

قلت: وعلى ما حكاه عن أبي عبيدة يقطعن أجواز مشرف، وفي (لسان العرب) قال: «الأجْوَاز: الأوساط، وجَوْز كل شيء: وسطه» انتهى، وإنما ذكرت كلام أبي عبيدة هنا لمقاربته كلام المرتضى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي فجوة من الجرف فهو كبير أعني الكهف، وفيه مكان متسع في جانب منه والراجح: أنه تجويف واسع.

قال في (الصحاح): «الفُجوة: الفُرجة والمتسع بين الشيئين» انتهى، وفي (لسان العرب): «الفجوة والفرجة: متسع بين الشيئين ـ ثم قال ـ: والفجوة في المكان فتح فيه» انتهى.

وعلى هذا: فالفجوة: متسع في جانب الكهف ذو فتحة إلى الخارج ـ والله أعلم ـ ويكفينا أن نعرف: أن الله سبحانه تولى حفظهم وأحسن رعايتهم في كهفهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أعتقد أن الإشارة إلى هدى الله لهم حيث وحدوه وفرّوا بدينهم وتوكلوا عليه فلجأوا إلى الكهف؛ لأن إيمانهم غلب وسواس الشيطان وتخويفه لهم من الجوع والضياع وتخويفه لهم من قومهم فهو إيمان قوي في سرعة عجيبة تطور ورسخ، وذلك دليل على أن هدى الله يبعث على ذلك وأمثاله، كما بعث السحرة على الإيمان بموسى وترك الحذر من خطر فرعون، فلنتعرض لهدى الله بحسن النية والإخلاص ثم بالطاعة والتقوى.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ كالتفسير لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ يبين أن الهدى ليس له مصدر غير الله فمن فاته هداه حتى ضل فلن يكون له هدى من غير الله يتولاه بحسن الرعاية، ويرشده إلى سواء السبيل.

نعم الهدى من الرسل والأئمة الهادين وغيرهم ليس إلا من هدى الله فمن لم يهده الله لم يهتدِ بالهداة، كما قال تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ
ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا
﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ

﴿١٨﴾ ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا﴾ هم كالأيقاض، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩] فهم فاتحوا أعينهم في هيئة الأيقاض لو رأيتهم حسبتهم أيقاضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ رُقُودٞ﴾ معناه ظاهر وكأن الله تعالى ألقى عليهم النوم حين استقروا في الكهف لتطمئن قلوبهم وتنحلّ مشكلتهم قبل أن يشتد عليهم جوع أو غيره من حالات الإنسان الداعية له إلى الطلب، فكان النوم فرجاً عاجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِ﴾ من كمال ذكر قصتهم كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ ولعله من حفظهم ليدفع عنهم السباع مع الهيبة التي جعلها الله لهم، وليس في الآية أنه نام فلعله عاش على الصيد ولكن إلى متى ـ الله أعلم. و(الوصيد): خلف الباب من الداخل، ولعلهم أغلقوه بصخرة.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «الوصيد: الفناء، والوصيد: الباب» انتهى، وفي (الصحاح): «الوصيد: الفِنَاء، وأوصدت الباب، وآصدته: أغلقته» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الوصيد فِنَاء الدار والبيت، قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِ﴾ قال الفراء: الوصيد والأصيد لغتان، مثل: الوِكاف والإِكاف، وهما الفناء قال: قال ذلك يونس، والأخفش» انتهى.

قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ

فترجح: أنه الفِناء، وهو المقدم في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) ولعلهم سموه وصيداً لإغلاق الباب عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨] لإغلاق أبوابها عليها ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ يفيد أن الله تعالى حفظهم برعب من اطلع عليهم، ويفيد: أنه رعب شديد غالب، ولو اطلع عليهم أشجع الناس لولى منهم فرارٌ وامتلأ منهم رعباً، وقد احتج بذلك بعض الناس لإبطال (حديث البساط) ونحن نرحب بالعرض على الكتاب إذا صح العرض، ولكن ليس في (حديث البساط): أن علياً عليه السلام اطلع عليهم لا هو ولا أصحابه، فإذا صح (حديث البساط) فيحمل على أن علياً عليه السلام ومن معه سلموا عليهم، وكلمهم علي عليه السلام من خارج الكهف من عند الباب.

قال في (الصحاح): «الرعب: الخوف» انتهى، وقال الشرفي: «أي خوفاً وفزعاً لما ألبسهم من الهيبة» انتهى.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ﴿١٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ قال الشرفي: «أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم» انتهى، أي فبعثهم بعد النوم الطويل المستمر ثلاثمائة وتسعاً من السنين آية تدل على قدرته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يفيد: تأكيد أن السؤال وقع من بعضهم لبعض.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ تفسير لسؤال بعضهم لبعض أي كم لبثتم في هذا المكان نائمين ؟أو كم لبثتم في نومكم هذا؟ واللبث: هو البقاء في المكان أو نحو المكان مما يكون في المكان ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لم يشعروا بطول المدة؛ لأنهم كانوا نياماً لا يعلمون شيئاً وكأنهم رأوا علامة أنهم قد لبثوا أكثر من ذلك ولا يدرون كم لبثوا، فـ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فأحالوا أمرهم ذلك إلى علمه تعالى.

وأرادوا القوت فانتقلوا إلى تدبيره فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي اخرجوه إلى المدينة ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ فليبحث عن المكان الذي فيه الطعام الذي هو أطيب طعاماً فهو حلال طيّب ولظنهم أن أهلها ما زالوا قومهم المشركين خافوا أن يشتري رسولهم شيئاً مما يعرف المؤمن أنه خبيث؛ لأن المشرك لا يتجنبه كالخمر والخنزير والميتة والمغصوب، وهذا الشيء يعتبره المؤمن خبيثاً إذا عرف أنه مغصوب وعرف مفاسد الخمر والخنزير، فذلك غير زكي أو على الأقل لا يثق أنه زكي فضلاً عن كونه أزكى، وهذا إن لم يكن عندهم بقايا دين سماوي فأما إن كان عندهم شيئ من ذلك فظاهر، والورق الفضة أرادوا أن يشتروا بها طعاماً.

وقولهم: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي فليأتكم بقوت تقتاتونه لأيام من رزق الله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ يحاول إخفاء نفسه وأن يبقى غامضاً لا يعرف الناس أنه منّا ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ﴾ ولا يُعْلِمْ بكم ولا يطلع عليكم ﴿أَحَدًا﴾ كائناً من كان من قريب أو بعيد، لأن سركم يجب أن لا يظهر.

يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ
يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ
ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ

﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ يقول أهل الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ رسول الطعام لئلا يعرفوا مكانكم، إنهم أي قومهم المشركون ﴿إِن يَظْهَرُوا۟﴾ يطَّلعوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ لخروجكم من ملتهم وإسلامكم إن لم ترجعوا إلى دينهم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ إن أطعتموهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا﴾ أي إن أعادوكم في ملتهم ﴿أَبَدًا﴾ لأنكم إن كفرتم بعد الإسلام خوفاً منهم يغلبكم الخوف فلن تجرؤوا على الإسلام بعد ذلك أبداً.

﴿٢١﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أنمناهم وأيقضناهم بعد المدة الطويلة ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أطلعنا عليهم قوماً آخرين غير قومهم على طريق الصدفة؛ لأن قومهم قد هلكوا وجاء دين آخر فلم يكن عليهم بأس من اطلاع المطلعين عليهم بل ظهرت لهم آية الله في أصحاب الكهف وظهرت لأصحاب الكهف؛ لأنهم ما كانوا يعلمون بطول مدتهم في نومهم، فقد علموا آية الله فيهم وأنه نجاهم من قومهم وحفظ لهم دينهم وحفظهم في مدتهم الطويلة في الكهف وأحسن رعايتهم لما آمنوا بالله.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ وهو وعده بالحياة الآخرة بعد الموت؛ لأنهم عرفوا ذلك إما من دين عيسى الذي بعثوا بعده وفي ظهور دينه في بلدهم وكان بعثهم بعد نومهم المدة الطويلة آية لهم ليعلموا إمكان بعثهم بعد الموت ويعلموا صدق الخبر بالساعة من رسول الله عيسى عليه السلام ويعلموا أن الساعة التي عندها البعث والحساب والجزاء لكل نفس بما تسعى آتية لا ريب فيها، فيكمل لهم الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ببعثهم من نومهم وبلوغهم رسالة عيسى عليه السلام، وما جاء به في الجملة من أسباب الإيمان بالرسل واليوم الآخر والجنة والنار لطف لهم ورحمة من الله، وبعد ذلك توفاهم الله تعالى مؤمنين مسلمين.

واختصر القرآن قصتهم لكفاية ذكر موضع العبرة من قصتهم، والدلالة على لطف الله بالمؤمن وحسن رعايته له، والدلالة على إمكان الحياة بعد الموت، وأنه مثل بعثهم بعد نومهم، وانتقل القصص إلى من بعدهم، فقال تعالى: ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ أي يتنازع من بعد أصحاب الكهف أمرهم أي أمر أصحاب الكهف ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗا﴾ لحفظهم وليكون البنيان علامة لمحلهم لأجل قصتهم العجيبة ورغبة الناس في الإطلاع عليهم ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾ فالبنيان هذا يكفي لأنا لا نعلم هل كانوا مشركين على دين قومهم أو كانوا مسلمين على دين عصر بعثهم من نومهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾: بل كانوا مسلمين فضلاء فـ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ إكراماً لهم وحفظاً وعلماً لمحلهم وتبركاً بهم، وقوله: ﴿عَلَيۡهِم﴾ يحتمل: فوق كهفهم، ويحتمل على باب الكهف، وهو الذي رواه الشرفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم عليهما السلام.

رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا

﴿٢٢﴾ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

هذه الآية الكريمة تشير إلى أن أهل الكتاب سألوا رسول الله عن أهل الكهف وليس عند اليهود حقيقة خبرهم لأنهم متأخرون عن نزول التوراة، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ أي أصحاب الكهف ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ لأنه قول بلا مستند، أما القول الأول فلعله مبني على أنه قد اشتهر عنهم أنهم جماعة وأقل الجمع ثلاثة فلم يكن قولهم: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ رجماً بالغيب؛ لأنهم قد أثبتوا أقل الجمع أي المتحقق ولم يزيدوا عليه؛ لأنهم لم يعلموا عددهم على التحقيق.

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولعلهم استندوا في ذلك إلى رواية صحيحة فلم يكن قولهم رجماً بالغيب، وقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي ليس لكم علم بعدتهم، فلا تخوضوا فيما لا تعلمون.

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فهذا القليل يعلم عدتهم، والله أعلم من هم ذلك القليل.

قال الشرفي في (المصابيح): «وأما الهادي عليه السلام فقال: هذا أمر لم يُطلِع الله نبيه عليه؛ لأنه لم يحتاج [كذا] إلى علمه ولم يفترض الله على أحد من العباد علمه، ولم يتعبد به فلسنا نحتاج لتكليف [كذا] ما كفينا فيه، وقد تقحم في ذلك غيرنا بغير معرفة، ولا نحب أن نتقحم فيما نذم فيه ولا نحمد ـ والله أعلم بذلك وأحكم.

فأما القليل الذي ذكر الله أنهم يعلمونهم فإنما هم قليل ممن عرف مخرجهم وعددهم وقت ما خرجوا من القرية هاربين وأووا في ذلك اليوم إلى الكهف منحازين وليس القليل العالم بعد استيقاظهم من رقدتهم وإنما القليل الذي علموهم قبل رقدتهم وعند خروجهم من قريتهم وقد نهى الله سبحانه نبيه عن المماراة في عدتهم والقول بما لم يطلعه الله عليه، وما نُهِي عنه ﷺ فنحن [عنه] منهيُّون وما أمرَ بتركه فيهم فالخلق بذلك مأمورون..» إلخ.

قلت: وما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أنا من ذلك القليل هم سبعة وثامنهم كلبهم، رواية لا تفيد العلم والإستناد إلى أن زيادة (الواو) في هذا القول دون القولين الأولين وإلى أنه لم يقل فيه رجماً بالغيب ليس اعتماداً على دليل، ودعوى أن ذلك قرينة دعوى بلا دليل، أما أنه لم يقل فيه رجماً بالغيب فلعل سببه أنه ليس رجماً بالغيب، بل استناداً إلى رواية وليس خروجه عن كونه رجماً بالغيب يستلزم أنه صحيح؛ لأن من الممكن أنه ليس رجماً بالغيب وليس صحيحاً؛ لأنه مستند إلى رواية يظنها صحيحة وهي غير صحيحة في الواقع، وأما الواو فلا تدل على صحة ذلك القول؛ لأن الواو لا تعبر عن صحته، وقد تكون لملاحظة أهل القول بأنهم سبعة كونَ الكلب مغايراً لأهل الكهف كما زيدت الواو في الشهادة الخامسة في اللعان لمغايرتها للأربع في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا﴾ أي لا تجادل من تحادثه في الكهف إلا جدالاً ظاهراً بالحجة غالباً للخصم المنصف، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ أي في أهل الكهف ﴿مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ لأن الحقيقة عندك لا عندهم.

تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِى

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ..﴾ إلى آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ أي: لا تقولن في شيء، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١] وقوله تعالى: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ هو القول المنهي عنه، وقوله تعالى: ﴿فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ كناية عن الفعل الذي يَعِد به مثل أن يقول: إني مسافر غداً فليس خاصاً بلفظ فاعل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إن كان الإستثناء من النهي فالمعنى إلا أن يشاء الله أن تقول بأن يوحي إليك أن تفعله وتَعِدَ بفعله، وعلى هذا لا يكون معناه الأمر بالشرط بأن يقول إن شاء الله، ولا يجب جعل الآية بمعنى الشرط، وفائدة ذلك: أن لا يعد الرسول بأمر وهو لا يعلم لعل الله يدلّه على ما هو أولى وهو في الرسالة مشغول بتكاليفها، وتكاليف الجهاد، وتكاليف إصلاح أمر المسلمين والحكم بين الناس، فلا يدري إذا وَعَدَ لعلها تعرض حالة ضيقة تمنعه مما وعد به، وهو لا يليق به خلف الوعد ولو لعذر حيث يكون فيه تشويه أو مطعن للكافرين.

فكان النهي عن الوعد الجازم المؤكد بـ(إن) والجملة الإسمية أو بأي تأكيد مثله هو الأولى في حقه ﷺ وهذا الوجه هو المتعين؛ لأن جعل الإستثناء من المنهي يستلزم النهي عن الإستثناء، وهو معنى غير صحيح.

كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ

فأما التقييد بالشرط فيؤخذ من الوجه الأول؛ لأنه حين يقول سأفعله إن شاء الله لم يحصل منه الوعد المنهي عنه؛ لأنه غير جازم بل هو متردد بين أن يشاء الله وبين أن لا يشاء الله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ على مقتضى ما رجحت يكون المعنى: إذا وعدت قبل أن يأذن الله لك نسياناً منك ثم تذكرت فاذكر ربك واستغفره وارجع عن حتم الوعد بأن تقول لمن وعدته، أو قلت له: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا الذي وعدت به أو قلته لعله يهديني ويَقْرُب أن يهديني لأقرب من هذا رشداً أي لما يكون رشده أقرب مما وعدت به أو قلته.

﴿٢٥﴾ ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ هذه مدة بقائهم في الكهف من حين دخلوه حتى خرجوا منها، وهو يفيد أنهم بعد أن قاموا من النوم خرجوا منه، ولعل ذلك حين رجع صاحبهم من المدينة وأخبرهم باختلاف الحال وأنه لا خوف عليهم من قومهم أو في حال انتظارهم له، فهذه المدة ثلاثمائة سنة قمرية وتسع سنين.

وقوله: ﴿سِنِينَ﴾ بيان للثلاثمائة جار مجرى التمييز، ولا ينافي هذا الحساب زيادة أشهر أو أيام أو ساعات لأن الكلام في السنين فقط، وقوله تعالى: ﴿وَٱزْدَادُواْ﴾ يظهر منه أنها كانت مصلحتهم في زيادة التسع كأنهم طلبوها بل كانت في الواقع من جملة ما طلبوه، حين قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله هذا البيان لمدة لبثهم هو الحق؛ لأنه من الله وهو ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ فلا التفات إلى ما خالفه ولا سماع له؛ لأنه خلاف خبر الله الذي ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه خالق السموات والأرض وما فيهما ما هو مشاهد لنا وما هو غيب عنا فهو ملكه، ولذلك فهو القائم عليه المدبر لأموره، فكيف يغفل عنه وهو يرى ويسمع كل ذلك؟!

وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ دلالة على إحاطة رؤيته بكل خفي وكل ظاهر وكل كبير وصغير لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وإحاطة سمعه بكل صوت وكل سر.

وفي (مجموع الإمام القاسم عليه السلام) في كتاب (العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الله الواحد الحميد) [ص٦١/خ]: «وأما قوله: ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٦١] فمعنى ذلك: أنها لا تخفى عليه الأصوات ولا اللهوات ولا غيرها من الأعيان، أين كانت وحيث كانت في ظلمات الأرض والبر والبحر، ليس يعني: أنه سميع بصير بجوارح أو شيء سواه» انتهى.

وفي كلام الإمام الهادي عليه السلام في كتاب (الديانة) وهي من (المجموعة الفاخرة) [ص ١٥٥]: «﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ليس سمعه غيره ولا بصر سواه، ولا السمع غير البصر، ولا البصر غير السمع، ولا يوصف بسمع كأسماع المخلوقين، ولا ببصر كأبصارهم ـ تعالى الله عن ذلك ـ

نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن

ولكنه سميع لا تخفى عليه الأصوات ولا الكلام ولا اللغات، بصير لا تخفى عليه الأشخاص ولا الصور ولا الهيئات، ولا مكان شيء من الأشياء وموضعه ولا يغيب عليه شيء من أمره وحاله لم يزل سميعاً بصيراً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ مالهم من دون الله من ولي يتولى رعايتهم في الدنيا وجزائهم في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ رد على المشركين الذين يزعمون آلهتهم وسائط بينهم وبين الله تقربهم إليه وتشفع لهم عنده أو يتخيلونها أقرب إليهم من الله وأن الله تعالى بعيد عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ رد على المشركين الذين اتخذوا من دون الله شركاء وظنوا أن لمن شاء أن يتخذ من دونه إلهاً الخيار في ذلك يختار لنفسه ما شاء فيتخذه إلهاً كما أنه رد على كل من جعل لغير الله حكماً من اتباع القوانين المخترعة واتباع الظلمة واتباع الأحبار والرهبان.

(٢٧) ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ﴿وَٱتْلُ﴾ اقرأ كما ﴿أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ما أوحاه الله إليك ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ وهو القرآن ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا مبطل لها وجاعلاً غيرها بدلاً منها بل هي الحق الثابت الذي لا مغير له والحكم الماضي لا معقب له ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ لو عصيته أي لن تجد ملجأ منه ولا مهرباً فاقرأ ما أنزل إليك كما أنزل لتبلغه للناس وفي صلاتك وفي غير ذلك.

ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ

﴿٢٨﴾ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ صبر النفس حبسها، فقوله تعالى ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ معناه: اثبت معهم ولازمهم؛ لأنهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ وهي الصبح ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾ وهو من الظهر إلى المغرب، ودعاؤهم ربهم في الصلوات وبعدها وسائر الأوقات في طرفي النهار، وفي فضل الدعاء والذكر بعد صلاة الفجر إلى الشروق أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ منها:

في (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (الباب التاسع عشر): بإسناده عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده لَدعاء الرجل بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس أنجح في الحاجة من الضارب بماله في الأرض» انتهى، وفي الباب روايات كثيرة من مظانها (شرح مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي تقرباً إلى الله تعالى وتعرضاً لرضاه؛ لأن الراضي في المخلوقين يقبل بوجهه على من هو راضٍ عنه كما أن الساخط يعرض عمن سخط عليه ولا ينظر إليه، ونظير ذلك في ضد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ لا تتجاوزهم عيناك نبواً عنهم إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ فليس أهلاً أن يطاع، لأنه ضال عن طريق الحق.

وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي سبب نزول هذه الآية: يقول الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يجلس بين ضعفة أصحابه، يعلمهم معالم الدين، ويزهّدهم في الدنيا، ويصغّر عندهم البلا، حتى قال عيينة بن حصن الفزاري: يا رسول الله إنك رسول الله وإن العرب أهل أنفة ورياسة، فإذا رأوك مع هؤلاء المساكين نفرت نفوسهم عن الدين فلم يقبلوه، فلو نحيت هؤلاء عن مجلسك، فإن كان لا بدّ منهم فاجعل لهم مجلساً ولنا مجلساً، فكاد كلامه يؤثر في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إثر المجلس من حيث زخرفه عدو الله بالتقرب إلى الدين لكبار الناس، فانتظر الوحي من الله تعالى فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ..﴾ الاية إلى قوله ﴿..وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ وهو عيينة بن حصن و ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ عقوبة له إذ لا يجوز غير ذلك، وقد كان منافقاً في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحمق مطاع [كذا]» انتهى.

قال الراغب في (المفردات): «﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾: أي إسرافاً وتضييعاً» انتهى، وفي (مصابيح الشرفي) رحمه الله: «عن المرتضى عليه السلام: والفُرُط هو الإفراط في الشي المجاوز للقدر والإغراقُ فيه، بما لا يجوز وما يخرج من القصد إلى الإسراف والإغفال، فهو الخذلان بما استوجب عند المخالفة والعصيان مثل من كان من قريش وغيرها من أهل الكتاب» انتهى المراد.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿وَقُلِ﴾ عطف على ﴿لَا تُطِعْ﴾ وذلك إنذار لهؤلاء المستكبرين.

فكأنه قيل: اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم وإن أنف المستكبرون وتجنبوا مجلسك ﴿وَقُلِ﴾ لهم ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ المالك لكم فلا خيار لكم يخلصكم من المسؤولية، ولا حق لكم في اشتراط تجنب الفقراء، فإن شئتم آمنتم مع هذا، وإن شئتم كفرتم فما تضرون إلا أنفسكم إن الله أعد لكم إن كفرتم ولكل ظالم ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «السرادق: حجرة تطيف بالفسطاط، وهي سرادق من نار» انتهى.

ومثله في (الكشاف) ولعل هذا السرادق: ركام من الجمر الملتهب، يحيط بهم وهم في سواء الجحيم، قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ يطلبوا إغاثتهم من الحرّ ومما يلزم الحرّ ويلزم شدة الألم من العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ﴾ أي يجابوا فيما طلبوا بضده؛ لأنه ماء ﴿كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ أي دردي الزيت أو نحوه الذي يكون في أسفل الزيت والسليط مادة سوداء غليظة.

وقوله تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ خص الوجه هنا لأنه إغاثة من العطش يلزم من أجلها تقريبه من وجوههم ليشربوه فعند ذلك يشوي الوجوه، أما إذا شربوه فإنه يقطع الأمعاء ويذيب ما في البطون ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذم لهذا الشراب ولعله سمي شراباً وإغاثة تهكماً بأعداء الله، وقال تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي ساءت جهنم مرتفقاً، وهو تهكم بهم؛ لأن أصل المرتفق: ما ينتفع به، ومرتفقهم جهنم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى يغاثوا في هذا الموضع مجاز معروف عند العرب، وليس بغياث على الحقيقة، والعرب تقول ذلك على سبيل الذم والوعيد والتهديد والمجاز..

أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

قال المرتضى عليه السلام: المهل فهو صفو القطران فيستعون [كذا] من ذلك عند عطشهم فيشوي وجوههم ويقطّع أمعاءهم ويتضاعف عند ذلك بما هم فيه من شدة ألمه، ومعنى ﴿سَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فهي جهنم فأخبر سبحانه أن جميع ما فيها من مائها وطعامها وأرفاقها كلها من شيء شديد متعب لا منفعة فيه لطالبه ولا راحة لمستنفع به عند حاجته» انتهى.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ﴾ أي لا نضيع ثوابه وهي جملة معترضة بين اسم (إنَّ) وخبرها.

﴿٣١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في هذه الآية، قال تعالى: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ فهو يبين جمال المنظر باجتماع الخضرة والأنهار الجارية سواء كان المعنى من تحتهم وهم في القصور أو من تحتهم على الإطلاق، فهي من لذة أعينهم وأسباب سرورهم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): في تفسير (سورة لم يكن): «عن القاسم بن إبراهيم عليهما السلام: وتأويل ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [آية:٨] هو جنات مستقر وأمن» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ يحلون من الحلية التي يلبسونها زينة لهم، والأساور جمع سوار وهو الذي يلبس في اليد وهو في الدنيا خاص بالنساء إلا أن يكون لملوك العجم وأمور الاخرة تخالف أمور الدنيا ففي الجنة رفاهية تناسبها الحلية.

وقوله تعالى ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الظاهر: أن السندس والإستبرق كلاهما من الحرير، لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣] وهو عام يشمل السندس والإستبرق.

قال في (لسان العرب): «قال المفسرون في السندس: إنه رقيق الديباج ورفيعه، وفي تفسير الإستبرق: إنه غليظ الديباج ولم يختلفوا فيه» انتهى المراد. و قال في (الديباج): «وهي الثياب المتخذة من الإبريسم» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي في الجنات دلالة على راحتهم وسلامتهم من الكدّ، وقوله سبحانه: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ اختلف علماء اللغة في تفسير الأرائك والراجح أنها من السرر أو من الفراش وحده تعد في البيوت أو الخيام للإتكاء عليها وللنوم عليها وإذا كانت من السرر فعليها الفراش وكلها من الحرير، كما ذكره الإمام الهادي عليه السلام في تفسير (سورة هل أتى) وهي في (المصابيح) تأليف الشرفي رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ مدح لذلك المذكور، وقوله تعالى ﴿وَحَسُنَتْ﴾ أي الجنة أو الجنات ﴿مُرْتَفَقًا﴾ موضعاً لما ينتفعون به من مساكنها ومآكلها ومشاربها وملابسها وفراشها وكل ما ينتفعون به فيها فهو شيء بالغ في حسنه مبلغاً عظيماً.

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا
بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ
شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ

﴿٣٢﴾ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ الراجح: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ للمتكبرين الذين ذكرهم الله بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ..﴾ الآية. ففي قصة الرجلين عبرة لهم بل جعل الرجلين مثلاً لهم وأصلاً يقيسون عليه أهل الحق المؤمنين وأهل الباطل المشركين ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ جعلنا له رزقاً واسعاً من جنتين شجرة العنب المتنوعة ومن النخل المحيط بالجنتين ومن الزرع الذي بين الجنتين، فهو رزق واسع ومنظر جميل تطمن به نفسه.

﴿٣٣﴾ ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ كل واحدة من الجنتين ﴿ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ أثمرت وأينع ثمرها أو صلح لقطفه يوم حصاده.

﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ لم تظلم من ثمرها المعتاد شيئاً بل آتته موفوراً كاملاً، وسمي النقص ظلماً لأن المعتاد المألوف يكون عند صاحب المال كالمستحق الواجب، ولذلك يكون النقص مصيبة عنده، قال تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ أي خلال الجنتين ﴿نَهَرٗا﴾ يسقيهما، ولذلك توفرت ثمراتهما بتوفر السقي السهل على صاحبهما حيث لا يكلّفه نزعاً بالدلى ولا مؤونة نقل إليهما.

تحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ

﴿٣٤﴾ ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ وكان في حالة من الحالات تنوعت الثمار وحضرت له على ما يرام فداخله الطغيان الذي يدعو إليه الغنى وثراء المال ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المذكور معه في أول القصة ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾ وكأنه يلومه على بعض تصرفاته ومخالفته له في الطريقة فيقول له: أنا أكثر منك مالاً، لأنك لم تعمل في كسب الرزق مثل عملي ﴿وَأَعَزُّ﴾ منك ﴿نَفَرٗا﴾ لأني ومن معي حصلت لنا بالغنى عزة في قومنا وبلدنا أما أنت فأنت ذليل من أجل فقرك، أو ليس لك من العز مثل مالي ولمن معي.

وهذا الكلام لا يعتبر دلالة على سعادة؛ لأنه إنما هو افتخار بعرض دنيوي قريب الزوال ولذلك فهو لا يهم صاحبه لأن صاحبه مؤمن ينظر إلى الدنيا بعين الإحتقار ولا يعظم في نفسه إلا الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

﴿٣٥﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ ﴿وَدَخَلَ﴾ هذا المغتر بالعاجلة دخل ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ ينظر ما فيها من الثمر ويفتخر به ﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالبطر.

ثم بالغ في افتخاره ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي تفنى ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنة ﴿أَبَدٗا﴾ بل هي باقية أبداً؛ لأن الماء يحفظها، لأنه لا يزال يروي عروقها فتبقى خضرتها وحيوتها أبداً، ثم أضاف نفي ظنه لقيام الساعة التي عندها تهلك جنته وتتغير الأحوال ويفنى كل شيء تأكيداً منه لظنه أن جنته باقية أبداً فقال:

وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا﴾ ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كفراً منه بوعد الله ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾ الكريم الذي أنعم علي بالجنتين ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ في الآخرة من ربي ﴿خَيْرًا مِّنْهُمَا﴾ أي من الجنتين، أو منها أي من الجنة التي هو فيها حين قال هذا الكفر، وقوله: ﴿مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعاً ومصيراً أرجع إليه في الآخرة وأصير إليه.

يحتمل أنه قال هذا الكلام، أعني قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ معاندة لصاحبه، ورداً لتحذيره له من سوء المنقلب في الآخرة، ويحتمل أنه ظن أن الله إنما أعطاه في الدنيا لأنه يحبه وذلك يلزم منه أن يعطيه في الآخرة مثله أو خيراً منه، ويحتمل: أنه ظن أن الجنتين أعطاه الله لحسن حظه فهو في الآخرة يعطى مثله أو خيراً منه لحسن حظه وكون الخير مقبلاً إليه إقبالاً طبيعياً؛ لأنه من شأنه، وعلى كل حال فقد غرَّته الحياة الدنيا وأطغاه الغنى، فكفر نعمة ربه واستحق تغيير حاله.

﴿٣٧﴾ ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ حيث استبعدت قيام الساعة أظننت أن الله لا يقدر على إحياء الموتى وإخراجهم من القبور وظننت أن وعد الله بها غير صدق فكفرت بقدرة ربك الذي خلقك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فهو قادر على أن يخلقك من تراب تارة أخرى، خلقك من تراب

قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾
فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

﴿ثُمَّ﴾ خلقك ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ بعد تطوير خلقك في بطن أمك سوَّاك ﴿رَجُلًا﴾ ولو شاء جعلك أنثى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؟ [القيامة:٤٠].

و(خلقه من تراب) يحتمل: أنه عنى به خلق أبيه آدم من التراب فهو دليل على قدرة الله تعالى، ويحتمل: أنه أراد أن أول خلق النطفة من التراب؛ لأنها من الغذاء والغذاء من الحبوب والشجر والحيوان الذي أصله من غذاء وأصل غذائه من الشجر وأصل الشجر ما تمتصه بعروقها من الأرض من الماء الممزوج بالتراب الذي يتحول إلى شجر يؤكل ثم إلى دم ثم إلى مني وهو النطفة، فكيف كفرت بالذي خلقك أليس من قدر على خلقك في المرة الأولى قادراً على أن يخلقك في المرة الثانية ؟.

﴿٣٨﴾ ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أي لكن أنا ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ مثل هو الله أحد أؤمن بربي فأنا عبده ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ﴾ المالك لي ﴿أَحَدًا﴾ فانفصلت عنك وباينتك بديني وبرئت من دينك، وفي تكريره لكلمه ربي تذكير بقبح الكفر به وقبح الشرك به؛ لأنا عباده لا شرك لغيره فينا بل كل أحد عبد له.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي هلاّ

حين ﴿دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي لولا قلت: ما شاء الله، أي هذه الجنة ما شاء الله، فلولا مشيئته ما كانت هذه الجنة لكنه شاءها نعمة وابتلاء لصاحبها أيشكر أم يكفر ولم تكن لصاحبها بمجرد الصدفة.

﴿لَا قُوَّةَ﴾ بما فيها من الرزق وما تأتي به من الثروة والغنى ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إذا شاء أن يكون لصاحبها ومن معه قوة بها فيكون لهم بها عز بإذن الله، وإن شاء لم يكن لهم بها قوة ولا عز بل يسلط عليهم من يطمع في مالهم مثلاً وهو أقوى منهم فلا تبقى لهم قوة ولا عز، أو يسلط على صاحبها ومن معه الرعب والخوف من الظلمة الطامعين فيخضعون لهم ويُدَارُونهم ويَذِلُّون لهم أو غير ذلك مما تذهب به قوتهم وعزتهم ويخلفهما الذلة والضعف.

وقوله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ..﴾ إلى آخره هذا توبيخ من المؤمن لصاحبه على تركه لهذا القول الذي هو اعتراف بأن النعمة من الله وبمشيئته لعبده، وأن القوة بالله، وأن عليه أن يشكر النعمة ويذكر ربه الذي قواه بها ثم ابتدأ المؤمن بعد احتجاجه على صاحبه وتوبيخه له يُبَيِّن لصاحبه أن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يؤمل به حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ فإني أرجو من ﴿رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الآخرة التي هي السعادة الدائمة للمؤمن وأرجو أن يرسل ربي على جنتك ﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شيئاً من السماء مقدراً لخراب جنتك محسوباً حساباً مناسباً لجريمتك.

قال الراغب الأصبهاني: قيل ناراً وعذاباً وإنما هو في الحقيقة ما يحاسب عليه فيجازَى بحسبه، وفي الحديث أنه قال ﷺ في الريح: «اللهم لا تجعلها عذاباً ولا حُسباناً» وقال: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ [الطلاق:٨] انتهى.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ

فالمؤمن قد عبر عن توقعه بقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ والمتوقع بسبب البطر زوال النعمة إما بأن يرسل الله عليها ما يدمرها ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا﴾ قاعاً ليس فيه شجر ﴿زَلَقًا﴾ تزل فيه الأقدام، لعله تصور النازل عليها مطراً شديداً تجحفها سيوله وتبقى بعده أثراً بعد عين وطيناً خالصاً تزل فيه الأقدام.

﴿٤١﴾ ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ ﴿غَوْرًا﴾ أي يصبح غائراً قد غار في الأرض وذهب وفات ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ﴾ أي لمائها ﴿طَلَبًا﴾ لأن الله غالب على أمره، فإذا أغوره عقوبة وسلباً للنعمة لم تستطع طلبه لبعده وعجز العبد عن إدراكه.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ حيل بينه وبين ثمره وفات عليه، ويظهر من هذا: أن مصيبته عجلت قبل قطف الثمر ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ نادماً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ فقوله: ﴿يُقَلِّبُ﴾ كفيه إما كناية عن كونه نادماً، وإما مجاز عنه ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ أي جنته ساقطة فاقدة حيوتها، فالمصيبة قد عمت الثمر والجنة ﴿وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ندم على جنته فندم من الشرك لما علم أنه سبب هلاكها.

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ لم يكن أعز نفراً عند أمر الله. قال الراغب: «والفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد» انتهى، فلم تتدخل فئة بينه وبين الله لنصره ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ بنفسه ليدفع عن نفسه المصيبة ولا ليسترجع شيئاً مما فات.

خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

﴿٤٤﴾ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ حين تلفت جنته وتحققت مصيبته تبين وتحقق له ولغيره أن ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ فمن تولاه الله فهو الذي يصلح شأنه وتطيب حاله وتحسن عاقبته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] يحسن رعايتهم ويلطف بهم ويدبر لهم ما فيه الخير، فأما المشركون فما لهم من دونه من ولي؛ لأن الله هو الحق رب العالمين، وإلههم الواحد الذي لا إله إلا هو، أما معبودات المشركين فهي الباطل، لا تنفع ولا تدفع ولا تسمع.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي الله خير ثواباً لمن آمن وعمل صالحاً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ وخير عاقبة لمن آمن به واتقاه، فقد تبين بهذه القصة أن الإيمان والعمل الصالح أفضل ما يؤمل فيه حسن العاقبة، وأن الدنيا لا يوثق بها، وأن الركون إليها اغترار وجهل ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢].

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ لأولئك المتكبرين ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ضرب المثل إنشاؤه وصياغته، و﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هذه الحياة العاجلة التي يغتر بها الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ هو المثل، أي وصف الحياة الدنيا بهذا التشبيه لها بنبات الأرض الأخضر الذي أنبته الماء ويسرع إليه أن ييبس ويتهشم أي يتكسر وتطير به الرياح وينتهي، كذلك الدنيا تنتهي بعدما تزينت لأهلها.

وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ نبت النبات متنوعاً مختلطة أنواعه كما يشاهد بعد الأمطار حين ينبت النبات، وقوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ كناية عن كونه قد يبس فهو يتكسر بالأسباب المختلفة من الرياح وغيرها، ومعنى ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ تطيّره.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام وكان هذا مثلاً عظيماً منبّها موقظاً من الغفلة، فأخبر الله [عزَّ وجل] سبحانه أن حال الدنيا وأهلها في تزيُّنها لهم وزينتها لهم كالماء النازل من السماء ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: خضرة الأرض وحشيشها حتى يرى مخضرًّا ناضراً حسناً ويصبح من بعد ذلك ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ يابساً مغيَّراً فكذلك الدنيا وما فيها زائل كزوال هذه الخضرة، فنهاهم الله عن الإغترار بها والركون إليها» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ يفيد أنه قادر على الإبداء وإنشاء الحياة والإفناء لها والإعادة لها بعد الموت وجعل الآخرة باقية وعلى كل شيء.

﴿٤٦﴾ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهما للإنسان معرضان للفناء أو لأن يموت فيفارق المال والبنين، فهي فائدة تنتهي إلا أن البنين من شأنهم أن يجهزوا أباهم بالغسل والتكفين والدفن وبعد ذلك لا ينفعونه في قبره ولا يوم حشره، والأعمال الصالحات مع الإيمان هي الباقيات لصاحبها تنفعه عند الموت وبعده ويوم الحساب.

فلذلك قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾ أي ليوم القيامة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ المقبولات الصحيحات ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عند ربك في حكمه هي خير ﴿ثَوَابًا﴾ جزاء يثوب إليه الإنسان ويرجع إليه في الآخرة ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ وهي خير أملاً، فالأمل في المال والبنين نفع ينتهي وهو قليل في جنب المؤمل في الباقيات الصالحات؛ لأن المؤمل فيها النجاة من النار والفوز بالنعيم الدائم والملك الكبير الباقي فالأمل فيها خير من الأمل في المال والبنين؛ لأن الأمل في فائدة المال والبنين قد يكون اغتراراً والمؤمل بهما حقير.

وقد ورد عن النبي ﷺ: «أن ﴿ٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر» وفي بعض الروايات هذه وزيادة..«ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

والراجح عندي: أنه لم يرد على وجه تفسير للآية، وإنما هو ترغيب في هذه الأذكار، والحصر في الحديث إضافي أي بالإضافة إلى أعمال الدنيا وأغراضها، فمعنى الحديث: إن هذه الأذكار هي التي تبقى لصاحبها فتنفعه في الآخرة، ولا إشكال أن الإيمان والعمل الصالح كله يبقى للمؤمن وينفعه في الآخرة.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: وقد قيل: إن الباقيات الصالحات: التسبيح وهو عندي ـ والله أعلم ـ التسبيح وغيره من الأعمال الصالحة التي تبقى للعبد عند فنائه وتنفعه في يوم بعثه» انتهى.

(٤٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ واذكر ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ أي يوم القيامة حين تدكّ الجبال فتطير غباراً وتسير في الهواء كالغمام ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ عند ذلك ﴿بَارِزَةً﴾

عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

ظاهرة مكشوفة قد ذهب ما كان يغطي بعضها من الجبال والأبنية والشجر ونحو ذلك ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ الضمير إما للظالمين السابق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ الآية وإما لهم ولسائر الكافرين ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ﴾ لم نترك منهم ﴿أَحَدًا﴾ ميتاً لم نحشره، بل نبعث ونحشر كل نفس وكل واحد.

﴿٤٨﴾ ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه ظهروا له صفوفاً ترى جماعتهم كما ترى كل واحد منهم لا يحجب أحد أحداً شُبِّهوا بالجند المعروضين على السلطان، قال المرتضى عليه السلام: والصفّ فهو اصطفافهم في يوم حشرهم ووقوفهم في آخرتهم أي أحضروا للحساب والعقاب والثواب، ويقال لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ لأن الإنسان يخلق فرداً لا يملك مالا ولا ولداً وكذلك يأتي يوم القيامة واحداً مفرداً» انتهى.

وقوله تعالى لهم يوم القيامة: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أعتقد والله أعلم أنه تذكير لهم بصدق وعد الله لهم بأنه سيلقونه وأنه يعيدهم كما خلقهم أول مرة فقد صدق وعده سبحانه وتعالى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ أي في الدنيا ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي ما وعدناكم به من البعث والنشور والوقوف والسؤال والفصل بين العباد بالحق والعقاب والنار كل ذلك زعمتم أن لن نجعله لكم، وقوله تعالى ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ خطاب للكفار.

وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا

﴿٤٩﴾ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ **عطفت هذه الآية على التي قبلها، فهي من تفصيل ما يلاقي المجرمين في القيامة.**

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ **ووضع عند المجرمين الكتاب الذي هو كتاب أعمالهم الذي ذكره الله تعالى في قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الجاثية:٢٩].

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ **مشفقين ظاهر في وجوههم وحركاتهم أو سكونهم أنهم قد خافوا مما في الكتاب من جرائمهم، ولعل من معنى الإشفاق محاولتهم النجاة منه بأي وسيلة** ﴿وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا﴾ **يا هلاكنا ويا ورطتنا** ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ **من سيئاتنا** ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ **هل يريد أن نجزى على كل واحدة ألا يغفر لنا صغير ولا ينسى من أعمالنا قليل ولا كثير لماذا هذا التدقيق، نعم إنه لأمر عظيم لا تدعو اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً.**

﴿وَوَجَدُوا۟﴾ **جزاء** ﴿مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ **قريباً منهم وجعلوا كأنهم عملوا الجزاء لأنفسهم بأنفسهم تحقيقاً لتسبيبهم له** ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ **بل هو الحق الذي استحقوه بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾** [الزخرف:٧٦] **وبالكتاب نفسه ومشاهدتهم لأعمالهم وتذكرهم لها كلها يعرفون أنهم إنما يجزون ما كانوا يعملون.**

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ المخلوقين من نار فاستكبروا لذلك؛ لأن أصله من نار ﴿فَفَسَقَ﴾ حمله الكبر والإفتخار بأصله على أن فسق ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ خرج عن أمره خروج فسق فجور وخباثة، أي عصى أمر ربه.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ تتخذون هذا المستكبر الفاسق ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ يحتمل أنهم تفرعوا منه فكانوا ذريته لذلك وإن لم يكن تفرعهم كتفرع البشر، والمراد بهم الشياطين الذين هم مع إبليس أعداء لبني آدم؛ لأن العاصي من بني آدم يتولاه الشياطين بمعنى أنهم يسلطون عليه لا أنهم يتولونه لإصلاح شأنه بما يستطيعون فأنكر الله عليهم اتخاذ إبليس وذريته ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ من دون الله؛ لأن ولاية الله هي الخير والحفظ وحسن الرعاية ففاتتهم ولاية الله واستبدلوا بها ولاية الشياطين، فهذا معنى ﴿مِن دُونِى﴾ كأن اتخاذهم الشياطين أولياء حال بينهم وبين ولاية الله لهم ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ ذم لاتخاذهم الشياطين أولياء من حيث هو بدل ولاية الله لهم التي هي حسن الرعاية لهم؛ لأن ولاية الشياطين شر وقيادة إلى عذاب السعير وولاية الله خير وهداية إلى الجنة.

﴿٥١﴾ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ ما أشهدت الشياطين ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كأنه تعالى يعنى ما أطلعتهم على الغيب؛ لأني ما أشهدتهم خلق هذه

زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ

المشاهدات ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أقرب المخلوقات إليهم فكيف أطلعهم على الغيب، ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن الجن يعلمون الغيب ويتوصلون إليه منهم بالكهنة فيسألونهم عن بعض المغيبات، فلعل هذا رد عليهم.

وقوله تعالى ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ فالشياطين مضلون ويظهر أن هذا ردّ على الكفار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٥] حيث جعلوا القرآن من الكهانة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء٢١٠-٢١٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤١-٤٢] فالمعنى إني ما كنت جاعلاً الشياطين المضلين مبلغين عني هذا القرآن مرسلين به، والعضد المعين وهو سبحانه القادر على كل شيء الذي لا يستعين بأحد ولكن المخلوق إذا أرسل رسولاً كان قد استعان به فجرى الكلام في النفي على هذا لبيان أنه ليس يليق بالله جل جلاله أن يرسل الشياطين بالقرآن ـ والله أعلم.

﴿٥٢﴾ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ واذكر يوم يقول الله للمشركين ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ﴾ ادعوهم بصوت رفيع ليسمعوكم ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي، ولعل هذا في العرب الذين كانوا يجعلون الملائكة آلهة لهم أو فيهم وفي النصارى.

صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ وهل استطاعوا رفع الصوت بهذا الدعاء أم ضعفوا في حال أنهم قد ضلوا عنهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ لأنهم عباد أمثالهم لا يملكون من الأمر شيئاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] فسواء سمعوهم أم لم يسمعوهم لا يستجيبون لهم بل هم رافضون لشركهم متبرئون منه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي بين المشركين ومن زعموا أنهم شركاء الله سبحانه ﴿مَّوْبِقًا﴾ أي مهلكاً، ولعل هذا كقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣].

﴿٥٣﴾ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وهم في موقف الحساب أو قبل أن يدخلوها ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أنها واقعة عليهم حين تأتيهم وهم واقعون فيها، وهذا الظن لا ينافي علمهم أنهم يصيرون إليها لأن هذا الظن سببه رؤيتها فهو ظن قرب وقوعهم فيها ووقوعها عليهم في القريب العاجل ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ يصرفها عنهم ويصرفهم عنها لا شركاء ولا شفعاء ولا غير ذلك.

﴿٥٤﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أول هذه الآية قد مر مثله في (سورة الإسراء) وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الجادلة مغالبة في القول فيما اختلف فيه أو نوزع فيه وكثرة جدال الإنسان إما لهواه وإما لجهله وتردده بين الحق والباطل ولو بالدعوى أنه على الحق أو يريد الحق ولعل الجن كانوا دون الإنسان في الجدل لمخالفتهم للإنسان في بعض الأسباب.

إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ

﴿٥٥﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ وهذا من جدلهم بعد وضوح الحق ما منعهم ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقرآن والرسول فالقرآن المعجز دليل واضح وهدى يدعو إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالرسول، فلم يمنعهم عدم الدليل الذي يهدي إلى الإيمان، وإنما هو الجدل وانتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين أي عذاب مثل عذاب الأولين الذي هو سنة الله في الذين خلوا؛ لأنه إذا أتاهم آمنوا لكن لا ينفعهم الإيمان حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ يبين أنهم في حاجة إلى الإيمان؛ لأن ذنوبهم قد أوجبت لهم العذاب إن لم يؤمنوا فامتناعهم من الإيمان ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾ إذا جاءتهم ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أو أتاهم عذاب النار امتناع من الإستغفار مع أن عذاب النار هو العذاب فكأن سنة الأولين في جنبه ليست عذاباً إنما هي هلاك، أما عذاب النار فهو الشديد الباقي، وقوله تعالى: ﴿قُبُلٗا﴾ أي مقابلاً لهم يرونه مواجهاً لهم فعند ذلك يؤمنون ولكن لا ينفعهم يومئذٍ إيمانهم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ هذا ردّ عليهم؛ لأنهم علقوا إيمانهم على مجيء العذاب، والإيمان بالرسول يجب أن يكون قبل لينفع المؤمن لأن الله تعالى ما يرسل ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن

فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن أبى فمثلهم مثل قوم جاءهم نذير بهجوم عدوهم فقالوا: ننتظر حتى يأتي إن كنت صادقاً، أو لا يأتي إن كنت كاذباً، فقد فوّتوا على أنفسهم فائدة الإنذار، حيث توقفوا عن قبول الإنذار فلم يستعدوا لدفع العدو ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم وتعرضهم للعذاب، والإدحاض أصله الإزلاق في الزلق الذي تزل فيه القدم ويسقط فيه من زلق، فالمعنى ليسقطوا الحق ويبطلوه بجدالهم بالباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ أي جعلوها للهزؤ أهلاً وموضعاً، وليس مجرد استهزائهم بها مرة عارضة فهم يسخرون منها ويضحكون مبالغة منهم في التكذيب بآيات الله.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: معنى ﴿ءَايَٰتِي﴾ فهو ما جاءت به الأنبياء - عليهم السلام - من المعجزات والآيات الباهرات هزواً ولعباً وينسبونها إلى السحر والحيل فلم يعتبروا بعظيم ما فيها من الرشد والهدى، وما أبان الله فيها من الدلائل لمن آمن واتقى، وما أنذروا من العقاب والعذاب الشديد، وكان كل ذلك عندهم هزؤاً يهزؤون به ولا ينتفعون بشيء منه» انتهى.

﴿٥٧﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أظلم ممن أعرض عن

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ

آيات ربه بعد أن ذكِّر بها فتبيَّن له الحق فأبى أن يؤمن به وأصر على الإعراض عنه، وآيات ربه: القرآن المعجز وكل دليل يهدي إلى الحق تركها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الجرائم التي يحتاج إلى أن يتوب منها لينجو من عقوبتها التي هي النار، وقد أنذر فلم يسمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قلوب المعرضين عن آيات ربهم المالك لهم الذي هو أولى بهم وأحق أن يشكروه ويعبدوه ويتقوه ﴿أَكِنَّةً﴾ قال في (الصحاح): «والأكنة: الأغطية ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام:٢٥] الواحد كنان» انتهى، ومثله في (مصابيح الشرفي).

وقوله تعالى: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي أن يفهموه أي القرآن الذي أفاده قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال الراغب في (المفردات): «الوَقر: الثِّقَل في الأذن» انتهى.

وهذا من المتشابه، وهو نظير قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧] وقد مرَّ تفسيره، ولو كان على معنى الحقيقة لكان قد سقط التكليف عنهم بتعذر الفهم، لقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ لخذلانهم وإرسال الشياطين عليهم ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للنفي ودلالة على دوام الخذلان.

﴿٥٨﴾ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي أرسلك إليهم فكذبوك هو ﴿ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ

ثم فسّر هذا الغفران وهذه الرحمة، فقال تعالى: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ لأنهم قد استحقوه فهنا مغفرة تشمل إمهالهم ورحمة كذلك، وإنها لمن النعم الكبرى؛ لأنهم في مدة الإمهال تقبل منهم التوبة إن تابوا، فتغفر ذنوبهم مغفرة في الدنيا ويوم يقوم الحساب، ويصرف عنهم عذاب يومئذ، و﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦].

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾ وهو يوم الحساب والجزاء ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ﴾ بينهم وبينه ﴿مَوۡئِلٗا﴾ منجاً يلجأون إليه فينجيهم منه، وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: إذا فررتُ فلاَ وألْت، قال في (الصحاح): «الموئل: الملجأ» انتهى.

﴿٥٩﴾ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ عطف على ذكر الإمهال، فالإمهال إما إلى الموت وإما إلى نزول عذاب عاجل كما نزل على الأمم المكذبين والإشارة إليهم بقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ تفيد: أنهم معلومون للسامعين كالمشاهدين، والقرى تفسير للإشارة، والمراد مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، ونظير هذه الإشارة قول أمير المؤمنين عليه السلام فيما رواه (صاحب القاموس):

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما بروا ولا ظفروا

وقوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي بسبب ظلمهم ففيه إنذار للمكذبين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ يفيد أن التأجيل لا يجب أن يكون إلى الموت بل قد يكون إلى العذاب المهلك.

بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ هذه الآيات في قصة موسى وطلبه للعلم وقعت بعد إنذار المكذبين دلالة على صدق الرسول ﷺ لإخباره بما هو مطابق لما عند أهل الكتاب، واذكر يا رسول الله هذه القصة ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ مملوكه أو خادمه ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ سائراً ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي لا أزال فهي من أخوات (كان) حذف خبرها لدلالة قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ ومجمعُ البحرين: ملتقاهما بإزاء البلد المسمى البحرين.

وفي (تفسير الشرفي) عن الإمام الهادي عليه السلام عند قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩] نحو هذا في إفادة أن البحرين ملتقيان كل واحد منها متصل بالآخر ممنوع عن مخالطته، وهذا قد أخبرني به رجل من البحرين ووعدني بإيصال وثائق تفيده، وغرض موسى كما روي، وكما يفيده قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أن يحصِّل عبداً من عباد الله الصالحين يفيده علماً.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي سنين كثيرة لأبلغ مجمع البحرين، قال في (الصحاح): «والحُقُب: الدهر، والأحقاب: الدهور» انتهى.

﴿٦١﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ﴿بَلَغَا﴾ أي موسى وفتاه بلغا ﴿مَجْمَعَ﴾ بين البحرين محل الإجتماع ﴿بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ هنالك وذهبا ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ لأنه عاد حيّاً فرجع في البحر في سبيله الذي أتى منه اتخذه سرباً أي طريقاً.

أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني مسلكاً ومذهباً» انتهى، وهنا بديع تتابع التثنية في ضمنها تثنية ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ واتفاق تتابع السينات في شأن الحوت.

﴿٦٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ﴿جَاوَزَا﴾ مكانهما الذي كانا فيها حول مجمع البحرين وتجاوزاه إلى غيره ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ آتنا غداءنا لنأكله لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً وشدة، أراد أن يأكلا ويستريحا قليلاً من ذلك النصب.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ﴾ الفتى لموسى ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ حيث كنا عند مجمع البحرين ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ هناك يذكره المكان الذي نسي فيه الحوت؛ لأنه مكان حادثة عجيبة ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي أمراً عجباً.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يقول الفتى وما أنساني الحوت وما فيه من الآية العجيبة إلا الشيطان أن أذكره لعله أراد أن أذكره لك، أي أنسانيه الشيطان كراهة أن أذكره لك أو لئلا أذكره لك، ولعل الفتى قد علم سابقاً أن الآية التي تكون وتحدث هي علامة للغرض الذي يطلبه النبي موسى عليه السلام فأراد أن الشيطان أنساه لئلا يذكر هذه الآية لنبي الله موسى ليبقى في سفر ونصب والله أعلم، فهنا نسيان أول أتاح الفرصة للحوت ليرجع إلى البحر، ونسيان ثان سبب تأخير الفتى لذكر هذه الآية لموسى عليه السلام حتى قال: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ و﴿ٱلصَّخْرَةِ﴾ حجر عظيم.

ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا
عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ

﴿٦٤﴾ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر الذي هو إحياء الحوت ورجوعه في البحر هو الذي ﴿كُنَّا نَبْغِ﴾ أي نبغي أي نطلب؛ لأن فيه الدليل على العبد الذي نريد أن نأخذ منه علماً، فنحن نطلب هذا الدليل لأجل المدلول ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يقصَّانها ليرجعا حيث كانا لا يغلطا، فرجعا من حيث أتيا يقصان آثارهما قصصاً.

﴿٦٥﴾ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿فَوَجَدَا﴾ حين رجعا عند مجمع البحرين ﴿عَبْدًا﴾ من عباد الله ليس مملوكاً للبشر ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هدى يوصله الجنة وينجيه من النار ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ من لدنا إما بوحي وإما بوراثة من نبي قبل موسى ومع ذلك علم العقليات وما يستفاد من الحكمة بالعقل والتجربة، وكل ذلك من عند الله، وعلمه هو الذي بعث موسى على طلبه، ولعله سافر إليه من بعيد بحيث تعب في طلب العلم من عند هذا العالم، وفي هذا رد على من يحتج بحديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة...» على منع السفر إلى غير الثلاثة المساجد.

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فالمطلوب: أن ترشدني بتعليمك لي ليس لي غرض في التعلم مخالف لطلب الرشد الذي هو إصابة الحق الذي ينال به الخير.

مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

﴿٦٧﴾ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ وهذا اعتذار إلى موسى من مصاحبته له، ولكن موسى عليه السلام لم يكن يدري لماذا لن يستطيع معه صبراً، ولعله ظن أن في صحبته مشاقاً معتادة مثل طول السفر وتحمل الجوع والسهر، وهو عليه السلام يرى أنه يستطيع الصبر على ذلك.

﴿٦٨﴾ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إفادة أنه مظنة أن لا يصبر من حيث أنه سيواجه مشاكل لا يدري ما حلها وكيف كانت فقد أشار له إلى ما سيلاقي، ولكن رغبة نبي الله موسى في علمه حملته على الوعد بالصبر كما يلي:

﴿٦٩﴾ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ هو عليه السلام يجد من نفسه الجَلَد ويرجو أنه يصبر فهو عازم على الصبر، وعلق قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ على قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأن هذا أمر مستقبل لا يدري ما الله قاض فيه، وقوله: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ يفيد عزمه على الصبر حتى على ما أمره به لا مجرد الصبر على مشاق الصحبة وذلك ليأذن له في صحبته.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿قَالَ﴾ العالم لموسى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ على هذا الأساس ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يفيد: أنه سيلاقي أشياء مشكلة وأنه سوف يحدث له منها ذكراً يحل الإشكال وينهاه أن يسأل عن شيء منها بل ينتظر حتى يبين له، وعلى هذا تم الإتفاق بينهما.

لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾
قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ

﴿٧١﴾ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا﴾ قال موسى للعالم: أخرقت السفينة ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؟! إنكاراً منه لخرقها؛ لأنه في الظاهر منكر وتعريض لمن في السفينة للغرق ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي أن خرق السفينة إمر [بكسر الهمزة].

قال الشرفي في (المصابيح): «أي عجباً مبتدعاً منكر [كذا] مأخوذ من الإمر وهو الفاسد الذي يحتاج إلى إصلاح، وقيل: الإمر الداهية العظيمة، عن أبي عبيدة، وأنشد:

لقد لقي الأقران منه نكرا ... داهية دهياءَ إدًّا إمرا»

انتهى، وفي (الصحاح): «قال الأخفش: يقال أيضاً أمِر أمرُهُ يأمَرُ أَمَراً أي اشتدَّ والإسم الإمر ـ بكسر الهمزة ـ قال الراجز:

لقد لقي الأقران مني نكراً ... داهية دهياء إدًّا إمرا

ومنه: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ ويقال: عَجَباً» انتهى.

وفي (لسان العرب) مثل هذا إلى قوله..عجباً، إلا أنه لم يذكر الآية، ثم قال: وأَمْرٌ إِمْرٌ عجب منكر، وفي (التنزيل العزيز): ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ قال أبو إسحاق: أي جئت شيئاً عظيماً من المنكر، وقيل: الإمر بالكسر الأمر العظيم الشنيع، وقيل: العجيب، انتهى المراد.

ويظهر من التفاسير: أنه أراد ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ تصرفاً غريباً شديداً والله أعلم.

إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ ذكَّره ما سبق إليه منه ليعرف أنه لن يستطيع معه صبراً فيعذره عن مصاحبته.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ فقد نسي موسى ـ صلوات الله عليه ـ حين شاهد العالم خَرق السفينة لم يذكر قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾ ويكفي نسيانه في تلك اللحظة في صحة قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ ولا حاجة إلى جعله من الأعاريض، ولذلك فهو اعتذار بالنسيان صحيح.

وقوله: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ يريد لا تمنعني أن أصحبك إلا بتحمل أمر عسر، أي عاملني بالرفق والتيسير وهذا لرغبة النبي موسى عليه السلام في علم هذا العالم. قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «رهقه الأمر: غشيه بقهر» انتهى.

﴿٧٤﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: وقد قيل إن الغلام كان صبياً صغيراً وليس ذلك عندنا بشيء بل كان الغلام كبيراً بالغاً، والعرب تسمي ابن العشرين والثلاثين السَّنَة غلاماً» انتهى. ومثله حكى في (المصابيح) عن الإمام الهادي عليه السلام والحسين بن القاسم عليهما السلام.

وقد يشكل عليه أن العالم جعل سبب قتله غير استحقاقه، فعدوله عنه يوهم أنه لم يكن منه موجب لاستحقاقه القتل.

سَأَلْتُكَ عَن شَيْءِۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾
فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ
أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ

والجواب: أنه عدل عنه إلى ذكر الغرض الباعث على قتله وأنه لم يقتله عن أمر نفسه، أي بل عن أمر الله وذلك كافٍ في حل الإشكال لأنه إذا كان عن أمر الله فهو حق؛ لأنه إن كان كبيراً مستحقاً للعقوبة بالقتل فظاهر، وإن كان صغيراً فقتله بأمر الله كذبح الأنعام بأمر الله تعالى، ولا جور فيه؛ لأنه تعالى يوفيها يوم القيامة عوض ما لحقها في الدنيا من الضرر، وكذلك ذبح الغلام، والنفس الزاكية: السليمةُ من الذنوب الموجبة للقتل، والنكر ما تنكر النفس.

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ذكَّره مرة ثانية ما سبق منه إليه ليعذره عن ترك صحبته، وزاد قوله: ﴿لَّكَ﴾ عناية في الإعتذار إليه من صحبته.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءِۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قال في (لسان العرب): «وعذره يعذره فيما صنع عُذْراً» انتهى، فأفاد أنه يستعمل مصدر عَذَرَ، وعليه يكون المعنى: قد بلغتَ من لدني أن عذرتك أي بصحبتك لي بعد أن خالفت شرطك عليَّ مرتين وحتى خالفته المرة الثالثة، وهذا من موسى عليه السلام إسعاد للعالم، أعني قوله: ﴿فَلَا تُصَـٰحِبْنِي﴾ ولذلك قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ فلم يكره موسى صحبته ولكن لم يجد إليها سبيلاً لا يخالف المروءة والحياء.

﴿٧٧﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ ساراً في الأرض حتى حصلت لهما أمور إتيان أهل قرية صفتها

صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ

أن أهلها أبو ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ مع أنهم قد ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ فلم يتركوا إطعامهما غفلة عنهما بل لؤماً مع أنهما جائعان، فمقتضى حالهما أن يطلبا الطعام بالثمن أو نحوه؛ لأنهم إنما أبوا أن يضيِّفوهما لا أن يطعموهما بالثمن، وهذا الأمر الثاني، وفي هذه الحالة وجدا ﴿فِيهَا جِدَارًا﴾ مشرفاً على الإنقضاض والإنهدام والسقوط ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ العالم بلا أجر وهذ الأمر الثالث، فكانت صورة هذا العمل مخالفة للرأي ولمقتضى حاجتهما إلى الطعام.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لنشتري به طعاماً، وهذه المخالفة الثالثة لأن معناها: لماذا بنيت الجدار بدون أجر؛ لأنه اعتراض يطلب به بيان السبب كالأول، والثاني.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿قَالَ﴾ العالم لموسى: ﴿هَٰذَا﴾ السؤال الثالث أو هذا الذي قد آن وحضر وقته ﴿فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ سأخبرك بتأول الأمور التي لم تستطع عليها ﴿صَبْرًا﴾ وتأويلها هو ما تؤول إليه الذي هو السبب الذي لأجله حسنت ولأجله آلت إلى أنها حق وصواب، أو لكونها تؤول إليه كانت حقاً وصواباً.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لينالوا رزقاً مثل أن ينقلوا فيها بضاعة أو رُكَّاباً من الفلك الكبير إلى الشاطئ أو من الشاطئ إلى الفلك ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ في حال أنه ﴿كَانَ وَرَآءَهُم﴾ مقبلاً إليهم ﴿مَّلِكٌ﴾ ظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي لتنجو من الملك خرقتها فكان خرقها أهون عليهم وأصلح لهم من أن يأخذها الملك الظالم غصباً.

أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن
يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ
يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ
رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ
عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى

﴿٨٠﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشيهما ويلحقهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي خشينا أن يصيرهما طاغيين كافرين فكانت مصلحتهما في قتله لينجوا من نار جهنم.

﴿٨١﴾ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ﴿زَكَوٰةً﴾ أي طيباً وصلاحاً يناسب إيمان والديه ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ في (تفسير الشرفي) رحمه الله: «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي رحمة وعطفاً» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ ديناً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ مودة» انتهى. قال الشرفي: «والمراد: براً بوالديه وأوصل للرحم» انتهى.

وقد *يقال*: كيف توقف وجود الولد الصالح على هلاك الأول حتى يكون الثاني بدلاً من الأول ؟

والجواب والله أعلم: أنه لولا هلاك الأول ما صلح الثاني؛ لأن الصغير من الأولاد يقتدي بأخيه الكبير، أما إذا هلك الأول لم يكن للثاني قدوة إلا والديه.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ لصلاح أبيهما ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ قوتهما وقدرتهما على حفظ مالهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ عند ذلك ﴿كَنزَهُمَا﴾.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ ما فعلت الذي سألت عنه إلا عن أمر الله لا ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ وفي قوله: ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ مشاكلة تقديرية، لأن المراد ما فعلته عن رأيي، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي قوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ..﴾ إلى قوله: ﴿..عَنْ أَمْرِي﴾ ذلك كله تأويل ما لم تستطع عليه صبراً، ولعل في قوله ﴿صَبْرًا﴾ إفادة أنه لم يستطع قليلاً من الصبر وحذفت (التاء) من تستطع للتخفيف، ونظيره قول طرفة:

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وهنا سؤال: كيف قال في قتل الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا﴾ وفي إقامة الجدار ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ وفي خرق السفينة ﴿فَأَرَدتُّ﴾؟

والجواب ـ والله أعلم ـ : أن قوله: ﴿فِي السَّفِينَةِ﴾ بيان لغرضه في خرقها وهو أنه أراد أن يعيبها لا أن يغرق أهلها، فأما فائدة أن يعيبها فلم يصرح بإرادة فيها وهي بقاء السفينة لأهلها، وقد فهمت من قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وأما قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ ففيه إرادة لهذا العالم الباعثة على القتل وإرادة لله تعالى، فقال: ﴿فَأَرَدْنَا﴾.

وأيضاً: فإنه في خرق السفينة فهمت الإرادة فيه للغرض بذكر الملك الذي يتوقع أن يأخذها غصباً إن لم يجدها معيبة، فأغنى ذلك عن ذكر الإرادة.

وأما قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ فذكر إرادة الله تعالى لتوقف ما بعدها عليها لا على مجرد إقامة الجدار ليفيد رحمةَ الله باليتيمين بسبب صلاح أبيهما وتيسير رزقهما عند كبرهما، وقد أفاد حسن رعاية الله لأبوي القتيل بقوله: ﴿يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ ـ والله أعلم.

وهنا سؤال آخر: كيف طلب موسى هذا العالم ولقي من سفره نصباً في البحث عنه ثم لم تتهيأ له صحبته التي أرادها، وهلا جاءه الوحي بذلك قبل أن يتعب في طلبه؟!

والجواب والله أعلم: أنه ينال أجراً كبيراً لتعبه في طلب العلم وبحثه عنه، وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال في العلم: «والبحث عنه جهاد» فلم تبطل فائدة السفر، وأيضاً قد حصلت له فائدة علمية وهي التثبت في المشكلات إذا تذكر تلك القصة التي تفيده أنه قد يغلط إذا عجل ولم يتثبت.

وهنا سؤال: كيف كرر ذكر أهل القرية ولم يقل: حتى إذا أتيا قرية، أو حتى إذا أتيا أهل قرية استطعموهم ؟

فالجواب والله أعلم: أما ذكرهم أول مرة فليتوجه الذهن إليهم من أول الكلام لقوة علاقتهم بالمشكلة وذلك أوضح لدلالة الكلام وسهولة فهمه، وإما ذكرهم ثانياً فليصرح بتعليق الكلام على كونهم أهل القرية؛ لأن الضيافة كانت حقاً عليهم من حيث أنهم أهل القرية الذين هم كانوا مظنة أن يضيفوهما لولا لؤمهم لأن ضيافة ابن السبيل تكون على أهل البلد الذين جاءهم من حيث أنهم أهل البلد لا غرباء مثله ـ والله أعلم.

وهنا سؤال: كيف قيل: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: استضافا، أو قيل: استطعما فأبوا أن يطعموهما ؟

والجواب والله أعلم: لعلهما مع شدة حالهما وجواز السؤال لهما في تلك الحالة لم يصرحا بطلب الضيافة إنما عرَّضا بالسؤال هل عندكم طعام فجاء الكلام على الواقع، وأما قوله: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فقد مرّ بيانه.

ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا

﴿٨٣﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): روينا عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أن (ذا القرنين) لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً أحب الله وأحبه الله وناصر الله فنصره الله، فضربوه على قرنه فمكث ما شاء الله ثم دعاهم إلى الهدى فضربوه على قرنه الآخر، وإنما سمي ذو [كذا] القرنين لأنه المضروب على جانب رأسه، على ما روينا عن أمير المؤمنين» انتهى.

وقال الشرفي: «قال المرتضى عليه السلام: وذو القرنين: هو رجل من الروم كان عبداً صالحاً، واسمه: الإسكندر» انتهى.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ ما قصته، أو من هو ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم﴾ سأقرأ عليكم متبعاً لما يوحى إلي أتلو عليكم ﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ عليكم أيها السائلون ذكراً منه أي من شأنه، ومعنى ﴿ذِكْرًا﴾ شيئاً من القرآن وهو ما يأتي:

﴿٨٤﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا له في الأرض سلطاناً وولاية وأمراً ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ من كل شيء من أدوات التمكين ﴿سَبَبًا﴾ وسيلة سواء كانت آلة أم نصراً وهيبة أم غير ذلك مما يتوصل به إلى أغراضه.

﴿٨٥﴾ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ اتبعه واعتمده في سفره لقطع المسافات.

ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ
فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ

﴿٨٦﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ سافر في الأرض بوسيلة اتبعها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ وهو الذي تغرب عنه ويقع شعاعها عليه عند غروبها عن الأرض المسكونة في عصره. قال سيد قطب في (تفسيره): «والظاهر من النص: أن ذا القرنين غرَّب حتى وصل إلى نقطة على شاطيء المحيط الأطلسي، وكان يسمى بحر الظلمات، ويظن أن اليابسة تنتهي عنده فرأى الشمس تغرب فيه» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والحمئة ممزوجة بالحما كدِرَة، والحمأ قد مر تفسيره في (سورة الحجر) وهو خُلُب غيّره المكث في أسفل الماء، ولعل هذه العين كانت واسعة تمتزج بالحمأ لنزول بعض الأنهار إليها بقوة، وكانت متصلة بالبحر ولذلك غربت الشمس فيها، وقيل: البحر نفسه هو العين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند العين ﴿قَوْمًا﴾ يذكر شأنهم في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ القوم لكفرهم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ حسن معاملة، ليؤمنوا إن أفاد الإحسان.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿ظَلَمَ﴾ أبى الإسلام ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ زجراً له ولغيره ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ لا تعرفه النفوس ولا تألف نوعه لشدته وخرقه للعادة.

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ على قراءة نافع ﴿جَزَاءُ﴾ وإضافته إلى الحسنى فالحسنى المثوبة الحسنى وهي الجنة أضيفت الصفة إلى الموصوف، وأما على نصب ﴿جَزَآءً﴾ وتنوينه فكذلك، والمعنى: فله الحسنى جزاءً على إيمانه وعمله الصالح وقدم ذكر هذا الجزاء لأنه الذي يهم المؤمن طلبه، وقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي نقول له قولاً يسراً أي تيسيراً لا نشدد عليه.

﴿٨٩-٩٠﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ﴿بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أول الأرض المسكونة من جهة المشرق فهو يرى منها الشمس عند طلوعها على أول المسكونة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ حالتهم غريبة؛ لأنهم تطلع الشمس عليهم وليس ﴿لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ يظلهم أو يقيهم شعاعها، ولعلهم كانوا أهل شعر كثير كالدواب فأغناهم مع تخلفهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: يقول: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم﴾ ما نجعل لغيرهم من الأكنان والبيوت واللباس، وهؤلاء قوم في مطلع الشمس في طرف الأرض» انتهى.

فلا بد أن اليابسة هناك انتهت في اعتقاد الأولين واعتبروا طرف الأرض حيث انتهت وليس بعدها إلا بحر مثل الذي في مغرب الشمس، فالحاصل: أن مطلع الشمس أول ما تطلع عليه من المسكونة في ذلك العصر.

سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا

﴿٩١﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التمكين الذي مكنا له حتى بلغ مغرب الشمس مكنا له حتى بلغ مطلع الشمس ليس تمكينه خاصاً بجهة ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من القوة والعُدَّة ﴿خُبْرًا﴾ علماً بها ظاهرها وباطنها؛ لأنا نحن جعلناها ليتمكن بها من قطع المسافات والتملك على البلدان.

﴿٩٢-٩٣﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾ يحتمل: أنهما سدان يحفظان الماء للقوم، إما خِلْقَتَان حفرتهما السيول، وإما بناء على قول من جعل السُّد [بالضم للسين] في الخلقة والمصنوع، ويحتمل أنهما جبلان يعسر على من خلفهما صعودهما.

وقوله تعالى ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي بين ذي القرنين والسدين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ إما لغبائهم وغفلتهم لقلة مخالطتهم للناس واشتغالهم بالحرث مثلاً فلم يتعودوا من المحاورة إلا قليلاً، وإما لا يكادون يفقهون من ذي القرنين قولاً لمخالفة اللغة، والأول أقرب لأن ﴿قَوْلاً﴾ نكرة في سياق النفي ولم يقل: يفقهون منه قولاً.

﴿٩٤﴾ ﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ اسمان لقبيلتين كما يقال: همدان وخولان» انتهى المراد.

مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا

وقوله: ﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يفيد أنهم كانوا يهجمون عليهم فيظلموهم إما بنهب ثمرتهم وإما بغير ذلك، ورغبوا ذا القرنين في أن يعينهم بقولهم: ﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقولهم: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي مالاً مقابل ﴿أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ نخرجه لك ولعل المراد في كل ثمرة جزءً حتى يستوفي بمقابل السد.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: معنى ﴿خَرْجًا﴾ أي مالاً نسلمه إليك وعطاء نجزله لك على أن ترفع عنا ضررهم وتكفينا ما قد أحاط بنا من شرهم» انتهى.

فأرادوا أن يبني سداً يمنع ياجوج ماجوج من الخروج إليهم؛ لأن هناك جبلين سادين بينهم وبين ياجوج وماجوج وبينهما فتحة إذا سدت لم يبقَ لهم طريق إليهم من تلك الجهة وغيرها بعيد عليهم جداً.

﴿٩٥﴾ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين لا حاجة لي في مالكم ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ منه، ويحتمل: ما مكني فيه ربي من القوة خير من أن أبني لكم سداً فقط لأني أستطيع بناء ردم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أبدانكم وأيدي العاملين ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أعدائكم ﴿رَدْمًا﴾.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): الردم: الحجاب الشديد» انتهى، وحكى مثله عن الحسين بن القاسم عليهما السلام، وفي (لسان العرب): «وقيل: الردم: أكثر من السد» انتهى.

قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ
لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ

﴿٩٦﴾ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ ﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ قطع كبار من الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ أي الردم من الزبر حتى إذا ساوى ﴿بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ في (مصابيح الشرفي): «أي جانبي الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أي يتقابلان، قال المرتضى عليه السلام: والصدفان فهما الجبلان فردم رحمة الله عليه الحديدَ بعضه على بعض حتى سدَّ ما بين الجبلين وبلغ بناؤه بالحديد رؤوس الصدفين.

ثم ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ والنفخ: فهو إلهاب النار فيه ونفخهم عليه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ يقول حتى إذا صار ناراً يتوقد ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ والقطر: النحاس المذاب، فلما أن سكبوا النحاس فيه انسبك هو والحديد معاً وصار الردم قطعة واحدة لا يتزحزح من مكانه ولا يطيق أحد طلوعه» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ يعني: بين الجبلين» انتهى، قال (صاحب لسان العرب): «وقال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي سوى بينهما حين رفع السد بينهما، ويقال ساوى الشيء الشيءَ إذا عادلَه» انتهى المراد.

ويحتمل ـ ولعله الأقرب ـ : أن المعنى حتى ساوى الردم الصدفين بينهما فحذف الصدفين وجعل الفاعل بين الصدفين كما جعل بين فاعلاً في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ لأن الذي بين الصدفين هو الردم، فلما كان المعنى ساوى بين الصدفين الصدفين حذف المفعول لإغناء المضاف إليه عنه هنا؛ لأن معنى مساواة بين الصدفين مساواته لهما إذا جعل فاعلاً.

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾

ويحتمل: سوى ذو القرنين بين الصدفين في السد، بأن جعلهما فيه سواء باتصاله بكل منهما، ولكن المعنى هنا خلاف الأول، مع أنه مستغنى عنه باسم السد، ويحتمل أن الفاعل ضمير الردم المفهوم من السياق والمفعول محذوف أي ساواهما حال كونه بينهما.

فأما تفسير (ساوى) بـ(سوَّى) من غير إضافة إلى شيء أي سوى الردم فلا يصح؛ لأن ساوى يستعمل بمعنى سوّى بين الشيئين لا بمعنى سوّى جعله سَوِيًّا، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ حذف المنفوخ فيه اختصارٌ، لدلالة قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ فالمعنى انفخوا في الفحم أو في الحطب لتنتشر النار فيه، وقوله: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي آتوني قطراً حذف لدلالة الثاني عليه.

﴿٩٧﴾ ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ فما استطاعوا أي لتمام الردم وقوته وارتفاعه ما استطاعوا أي ياجوج وماجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوا فوقه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ في ذلك العصر وإن نقب بعد عصرهم، فالكلام لا يدل على أنه لن يفتح بعد ذلك العصر ولا أنه سيفتح إلا إذا جاء وعد ربي.

وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فهو فتح بلدهم والإستيلاء عليها، ويمكن أن يفتح باب في السد أو قد فتح أو عند سقوط الردم تفتح يأجوج ومأجوج.

﴿٩٨﴾ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَٰذَا﴾ الردم ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ لأنه هو

يَسَّر بناءه وخلق المادة من الحديد وغيره فهو رحمة من ربي لأهل هذه البلدة لأنه نجاة لهم من ياجوج وماجوج.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ دكاً أي مدكوكاً تذكير بأوائل أمور الآخرة وتعليم للسامعين أن الله وعد بخراب ما على الأرض من الجبال وغيرها، وهكذا يكون المصلحون ينشرون المعارف الدينية حيث كانوا.

٩٩ ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ عند أوائل أهوال الآخرة قبل هلاك العالم تركنا بعض الناس ﴿يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ يختلطون الجموع بالجموع كأمواج البحر.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: تركنا ياجوج وماجوج وغيرهم من جميع الناس يموجون في الفتن والمصائب والمحَن والجور وسفك الدماء وذلك عند نزول اقتراب النفخة الأولى، ثم قال: وإن لا يكن ذلك فالتفسير أنه يفتح عليهم السد يوم القيامة حتى يختلط الناس ويموج بعضهم في بعض» انتهى.

قلت: الأرجح الأول، فالسد ينهدم وياجوج وماجوج يختلط بهم الناس في حروب لا حد لها ولا وازع منها؛ لأنه يشكل على القول الثاني عطف ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم إذ يندك الردم، ويناسب هذا الراجح قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ * وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ..﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هذ النفخة الثانية أي الصيحة التي عندها يخرجون من الأجداث بدليل قوله تعالى: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ وهو جمعهم ليوم الجمع.

ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا

﴿١٠٠﴾ ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني: أبرزت حتى رأوها» انتهى.

وفي (المصابيح): «عن المرتضى عليه السلام قال عليه السلام: وعرضها لهم هو معاينتهم لها ومحاضرتهم إياها وإيقانهم بها، فذلك يجري مجرى عقاب الكفار لما يداخلهم من الغم العظيم» انتهى المراد.

﴿١٠١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة للكافرين ﴿كَانَتۡ﴾ أي في الدنيا ﴿أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ﴾ عليها غشاوة ﴿عَن ذِكۡرِي﴾ عن آياتي سماها ذكراً كما سمى القرآن ذكراً؛ لأنها تعبر بدلالتها على الله كأنها ناطقة ذاكرة لله، أو المراد عن آياتي الموصلة إلى ذكري ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ لما جاءت به الرسل والمبلغون عنهم لبغضهم لذلك وشدة نفورهم عنه، كأنهم لا يستطيعون.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: يعني أنهم كانوا لا يقدرون من البغض للحق والتكذيب له استماعاً وكانوا يبغضون استماعه للذي كانوا عليه من الصدود عن الحق وقلة استماعهم له وكان يفعلون من ذلك كفعل من لا يستطيع أن يسمع والسمع هاهنا فهو الطاعة لله ولرسوله، وهذا في لغة العرب موجود يقول الرجل للرجل اذهب معي إلا فلان فيقول لست أستطيع انظر إليه من بغضه وهو يستطيع أن ينظر إليه، فلما كان مبغضاً له شانئاً لأمره، جاز أن يقول: لا أستطيع» انتهى المراد.

جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ
سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ

وهذه الآية من المتشابه في ذكر الغطاء، وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ والغطاء كراهيتهم للنظر في آيات الله والقول فيه كالقول في عدم استطاعة السمع، وقد فسر السمع بالطاعة وهو محمول على أن ذلك كناية لتوقف الطاعة على السمع.

﴿١٠٢﴾ ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلاً﴾ هذه الآية من أولها وعيد للذين كفروا (والهمزة) في أولها للسؤال التوبيخي، وقوله تعالى: ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هو ساد مسد مفعولين لحسب والمعنى أن يتخذوا ولا يعاقبوا، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ أي أحسبوا شركهم لا عقاب عليه، وقوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾ احتجاج عليهم وتقبيح لشركهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ يفيد: أنها موجودة معدة لهم أو كالموجودة سواء؛ لأن تحضيرها في وقتها لا يصعب على من هو على كل شيء قدير، وقوله ﴿نُزُلاً﴾ أي جزاءً ومصيراً ولعله سمي نزلاً كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران:٢١] إذا كان أصل النزل ما يُقرَّب للنازل.

قال الراغب: «والنُّزُل: ما يُعَدّ للنازل من الزاد، ثم قال: وأنزلت فلاناً أضفته» انتهى. ونظير هذا التهكم قول الشاعر: ـ

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القِرا أن تشتمونا

وأراد بالقرا: القتال لهم.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى

﴿١٠٣-١٠٥﴾ ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنًا﴾.قال الراغب في تفسيره (لمفردات القرآن): «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم، أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة» انتهى.

﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَـٰلًا﴾ بالذين هم أشد خسراناً لأعمالهم ثم فسر الخسران هذا، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي ضاع سعيهم في الحياة الدنيا أي ما عملوا وجدّوا فيه في حيوتهم أي حال كونهم في الحياة الدنيا أو سعيهم في أمور الحياة الدنيا وأغراضها، والأول أرجح وأعمّ، ووجه رجحانه أنه لا يحوج لتقدير مضاف إلى الحياة ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ لجهلهم.

ثم نبأهم من هم الأخسرون المذكورون، فقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ فالكفر بالآيات جحد كونها أو جحد كونها آيات، والكفر بلقاء الله فهو كفرهم بالآخرة وما فيها من العرض على الله تعالى والوقوف ليسألهم عما كانوا يعملون.

وقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ﴾ أي بطلت ولم تنفعهم في الآخرة أي نفع، وقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنًا﴾ لأن الذي يوزن هو الأعمال الصالحة التي لم تحبط وهؤلاء ليس لهم عمل صالح غير حابط وذلك الخسران المبين، والوزن قد مر الكلام في معناه في تفسير (سورة الأعراف).

هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ
نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا

﴿١٠٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ أي جزاء هؤلاء الذين ضل سعيهم، ثم بين المشار إليه بقوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾ أو هو بدل للبيان.

ويحتمل: أن الإشارة إلى كفرهم بآيات الله ولقائه أي ذلك الكفر جزاؤهم جهنم عليه، وأغنى عن ذكر الرابط قوله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ فهو كإعادة المبتدأ بضميره أو لفظه أو هو دليل تقدير الضمير، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣] ولعله ذكره لئلا يتوهم أن جزاءهم حبوط أعمالهم فقط ـ والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: والهزوا [كذا] فهو الإستخفاف والإطراح والتكذيب» انتهى المراد، يعني: أن هزؤهم كان على معنى التكذيب والترك لآيات الله ورسله.

﴿١٠٧-١٠٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: الفردوس فهو اسم لفاخر الجنان وعظيم منازلها وأكرم محلها، والنزل فهي العطية والكرامة التي ينزلهم الله بها ويحلهم فيها، ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والخالدون فهو الدائم الباقي الذي لا يزول عنها أبداً، ومعنى ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ فهو لا يطلبون بها بدلاً قد عظم سرورهم فيها» انتهى المراد.

لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن

قال في (الصحاح): «والتحول: التنقل من موضع إلى موضع، والإسم الحِوَل، ومنه قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ انتهى.

فأصل المعنى لا يبغون عنها تحوُّلاً، وهو لازم كونهم لا يطلبون بها بدلاً، وهو صحيح لأنه لا يتصور طلب التحول إلا إلى بدل.

﴿١٠٩﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ فكتبت به ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ بحيث تكون كلها قد كتبت، وذكر سبحانه وتعالى في (سورة لقمان) أكثر من هذا، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ فهذه الكلمات إما أنها من جنس ما ينطق به الناس ويفيد معنى سواء كانت حرفاً واحداً مثل قِ في الأمر، أو حرفين أو أكثر، وإما أنها الجمل لا مفردات الكلم التي يتألف منها الكلام وحدها، وإما أن الكلمات كل آيات الله؛ لأنها ناطقة بدلالتها على ما تفيده بلسان الحال، وإما أن الكلمات قوله سبحانه ﴿كُنْ﴾ كما سمى عيسى عليه السلام كلمة، يرجح الأول أنه الحقيقي ولكنه مستبعد، ومثله الثاني وهو أبعد.

وأما الثالث ـ فهو الأقرب ـ لحصول فائدة تكثير آيات الله، وأما الرابع فهو راجع إلى الثالث؛ لأن المخلوقات كلها آيات لله تدل عليه، وقوله سبحانه: ﴿كُنْ﴾ تعبير عن إيجاد المخلوق، وقد يرجح الثاني بأن الجملة الواحدة تفيد كلمات كثيرة، وبذلك تكثر الكلمات بالتسلسل.

كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

ولعل هذا مراد الإمام القاسم عليه السلام في تفسيره لهذه الآية حيث قال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ والكلمات فقد تكون المحكمات، وكلمات الله سبحانه لا ينفدها منفد ولا يقدر على إحصائها كلها واحد..» إلخ حكاه الشرفي في (المصابيح) والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ أي لو جئنا بمثل البحر مدداً له يزيد فيه مثله.

﴿١١٠﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ في البشرية لا أقول لكم إني ملك ولا أعلم الغيب ولا أملك خزائن الله ولكنه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يوحي ربي إلي ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فأبلغ عن الله ما يوحي إلي.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: ثواب ربه» انتهى، فالمعنى: يرجو لقاء ربه وهو راض عنه أو نحو هذا من تخصيص اللقاء باللقاء المحبوب الذي يسند إليه الرجا.

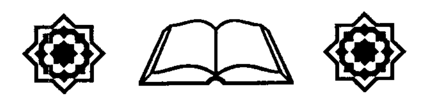
وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ فليعمل عملاً سليماً من المفسدات والمحبطات، ويخلص عبادة ربه لربه لا يشرك فيها أحداً من الناس ولا غيرهم، والإشراك بالعبادة جعلها لله ولغيره من المخلوقين المعبر عنهم بقوله: ﴿أَحَدَۢا﴾.

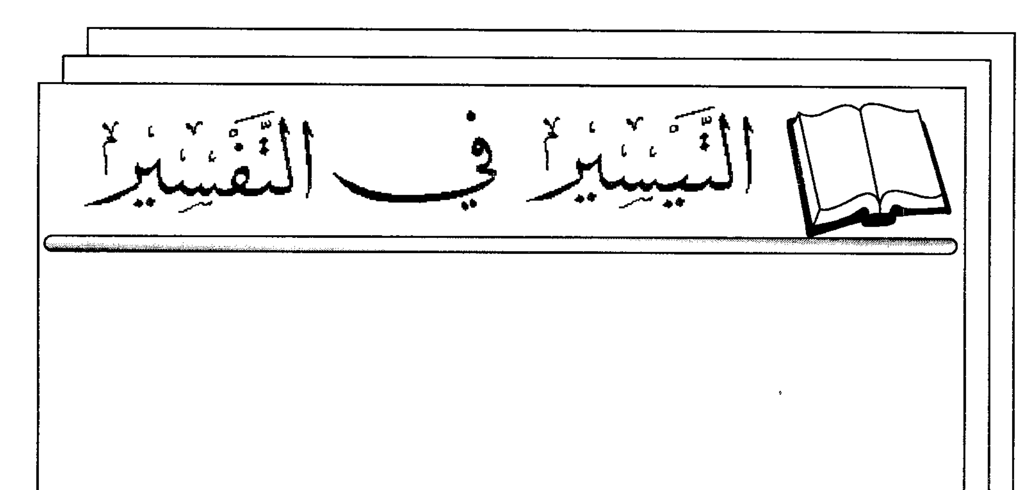
قال الشرفي في (المصابيح): «قال عليه السلام ـ يعني المرتضى عليه السلام ـ يقول سبحانه: لا يشرك في طاعة ربه أحداً من خلقه، وقد يكون ذلك بالطاعة والرياء» انتهى.

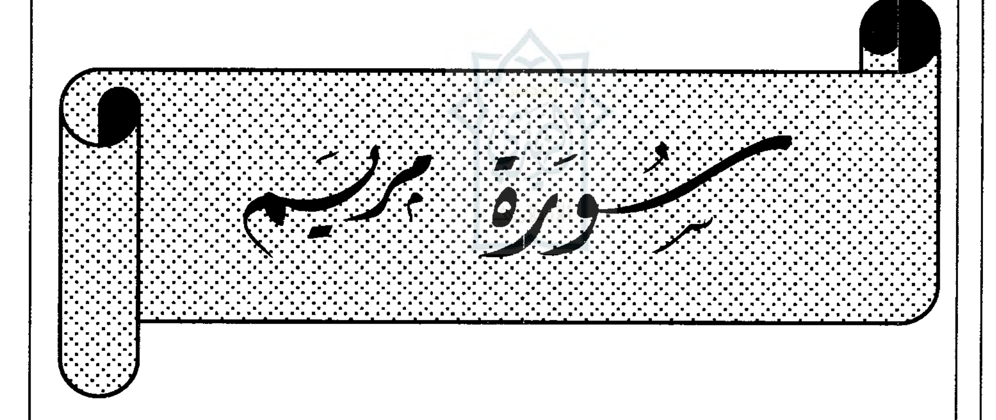
قال الشرفي رحمه الله: قال الإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش عليه السلام في كتابه (البساط) : أخبرنا محمد بن منصور، قال: حدثني سفيان بن وكيع يرفعه عمن سمع مجاهد [اً] يقول: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أتصدق بالصدقة ألتمس بها وجه الله وأحب أن يقال فيَّ خير، فنزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الشرك الأصغر». انتهى.

وله شواهد في (أمالي المرشد بالله عليه السلام) فظهر: أنها تشمل الشرك في العبادة بالرياء، ولو فرض أن مشركاً قرَّب قرباناً لله ولمعبوده لكان أيضا من شرك العبادة ولكنه من الشرك الأكبر ـ وبالله التوفيق.

تم تفسير (سورة الكهف) والحمد لله

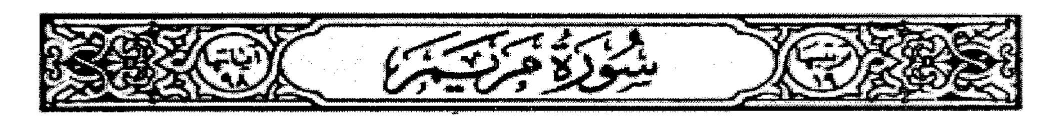



التَّيسِير في التَّفسِير


سُورَة مَريَم







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ

تفسير (سورة مريم) عليها السلام، وهي (مكية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كٓهيعٓصٓ﴾ مرَّ الكلام في الحروف وهي باقية على معانيها المعروفة عند العرب فمن ادعى فيها النقل فعليه الدليل، ولكن مع ذلك هل هي مقسم بها، أو هي رموز مع بقائها على معناها، أو هي تعجيز للعرب، أو هي تنبيه على أن القرآن أوحي كلاماً مؤلفاً من الحروف لا مجرد معناه.

أو هي تحريك لهمم الأميين لتعلمها حتى يتعلموا الكتابة والقراءة؛ لعظم فائدة ذلك، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] الأولى الجزم بأنها ذكرت لحكمة فأما تعيين الفوائد بغير قطع بأنها مقصودة في ذكرها بعينها فيتعين فيه التعبير بعبارة عدم القطع مثل لعل ويحتمل - والله أعلم - ولا بأس بذلك لدفع توهم أنه لا فائدة فيها، أو توهم أنها إلغاز وخطاب للمكلف بما لا يفهم.

﴿٢﴾ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ هذا عنوان لذكر قصته عليه السلام كما يأتي في السورة من العناوين، حيث يقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهكذا في ذكر عدد من الأنبياء عليهم السلام.

﴿٣﴾ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أو ذِكْرُ إذ نادى على أن تكون القصة بدلاً من العنوان، وأصل النداء الدعاء بصوت رفيع.

قال الراغب: «النداء: رفع الصوت وظهوره» انتهى المراد، وقال (صاحب الصحاح): «وناداه، مناداة، ونداء: أي صاح به، ويناسب هذا قول الشاعر:

بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي
عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ

أجمعوا أمرهم عشاء فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل وبين ذاك رغاءُ

وعلى هذا: فاستعمال النداء في دعاء زكريا، لعله لجده فيه وعنايته، ليستجاب له، ولأن الله سميع الدعاء كله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد:١٠] فشبه دعاؤه بالنداء والجامع الجدّ والعناية.

ثم قال تعالى ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فدل على إسراره ومثل ذلك يسر فيه الدعاء لكبر السن مع أن الأصل الغالب في الدعاء هو الإسرار؛ لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى فلا فائدة في الجهر إلا حيث يشرع.

﴿٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ وهنُ العظم ضد صلابته، فهو قد ضعف بذهاب صلابته التي كانت فيه مع الشباب وإن بقي قليل من الصلابة لا ينافي نسبة الوهن إليه.

وقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي أسرع فيه الشيب، كما قال الشاعر:

واشتعل المبيضّ في مسوّده ... مثل اشتعال النار في جزل الغضى

فهي في الآية استعارة مكنية، شبّه فيها إسراع الشيب باشتعال النار، ودل عليه بذكر الإشتعال، وفائدة ذكر الحالتين: أنه متوقع لوفاته.

وقوله ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يعني قد جربت الدعاء فيما مضى ينفعني الله به ولم يكن شقاوة لا يفيد شيئاً، فهذه مقدمة للدعاء شكوى خوفه من اقتراب الأجل مع أنه مهتم بأمر أمته وذكر رجائه إجابة دعائه لرحمة أمته من بعده.

(٥) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ الموالي: عصبته من الأعمام أو بني العم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «الموالي: العصبة من بني العم» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) و(الصحاح) لم يذكرا العم، وذكر في (الكشاف) إخوته وبني عمه.

وفي (مصابيح الشرفي): «والموالي: هم الأقارب، والموالي بني [كذا] العم» انتهى، وفيه عن الإمام الهادي عليه السلام: «الموالي: فهم العصبة الوارثون» انتهى، وفي (لسان العرب): «والمولى: العصبة، وذكر فيه عن بعضهم أنه جعل الموالي العصبات كلهم حتى الإبن» انتهى، هذا بالنسبة إلى اللغة، فأما موالي زكريا عليه السلام فلعلهم لم يكونوا إلا بني عمه أو إخوته وبني عمه.

وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي من بعدي إذا مت، وكان خوفه منهم دينياً ليس راجعاً إلى تركته، فالراجح: أنه خاف أن يتولوا التوراة وسائر كتبه ويتمكنوا بذلك من التحكم على الناس والتغرير عليهم بدعوى أنهم ورثة زكريا عليه السلام وعندهم كتبه؛ ولذلك يرغب في ابنٍ رضي يحيى الدين ويحميه.

وقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي لا تلد ولذلك فليس لي ولد، وقوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ هذا هو المقصود من المقدمات المذكورة قبله، وقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك، كأنه يقول: إن الولد لمثلي في الكبر مستبعد لكنه من عندك غير مستبعد؛ لأنك الخلاق العليم.

وقوله: ﴿وَلِيًّا﴾ يعني ابنا أو ابنا طيباً، وقد أفاد صلاحه كونه هبة من الله لنبيه زكريا لينال به غرضه الذي لأجله طلب الولد، كما دل عليه السياق، وقول الله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران:٣٨].

رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن
قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ

﴿٦﴾ ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ هذه من صفات الولد تبين أن من الغرض فيه أن يرثه ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ لأنه إذا ورث زكريا تعذر على الموالي الإفساد بدعوى أنهم ورثة زكريا، فالتوراة وما كان عند زكريا من كتب الله قد صار عند ابنه، وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ لعل أمه منهم فأراد في ميراثها مثل الذي أراد في ميراثه، وقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي اجعله مرضياً صالحاً بعلمه وعمله ورجاحة عقله وطهارته حتى يقوم مقام أبيه وحتى يكون معه في الجنة.

﴿٧﴾ ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ إجابة لدعاء نبي الله زكريا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ﴾ قال في (مفردات الراغب): «الغلام: الطارّ الشارب» وعلى هذا: فالتبشير به تبشير بأنه يدرك أباه حتى يكون غلاماً لا يموت أبوه إلا وهو غلام يثق به لقيامه مقامه.

﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ سماه الله كما سمى نبيه عيسى عليه السلام، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ يعني: مثلاً وشبهاً» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «أي لم يُسمَّ به أحد قبله، أو لم يكن له مثل في أنه لم يعص الله ولم يهم بمعصية» انتهى، وقال (صاحب الصحاح): «وتقول هذا سمي فلان: إذا وافق اسمُه اسمَه» انتهى. قلت: إذا كان اسم يحيى أعجمياً فلعل معناه وصف ليحيى يستحقه بطهارته فيصح تفسير ﴿سَمِيًّا﴾ بالمثل، وقد رجح صاحب [الكشاف] في تفسير (سورة آل عمران) أن اسم يحيى أعجمي.

بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ
خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ

﴿٨﴾ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ لم يعتقد نبي الله حين بشر بغلام أنه يخلق له من غير ولادة كما خلق آدم عليه السلام ولذلك فمن أين يولد له غلام وامرأته عاقر لا تلد أصلاً وهو في حالة الهرم لا يتوقع أن يكون منه نسل، فقوله عليه السلام: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ سؤال من أن يكون لا إنكار ولا استبعاد بل يريد أن يعلمه الله كيف يكون له ولد ومن أين مثلاً هل يتزوج امرأة أخرى ليولد له منها ؟ وهل يوجد له وسيلة لإزاحة الهرم حتى يصلح للإنجاب؛ لأنه قد بلغ من الكبر عتياً أي شديداً مستمراً في نكسه في خلقه وإضعاف بدنه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال محمد بن القاسم: العتي: القديم الذي قد بلغ صاحبه غاية ما يكون من قسوته ويبسه وشدته عند الهرم» انتهى.

﴿٩﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ يكون لك غلام وكانت امرأتك عقيماً وقد بلغت من الكبر عتياً يكون الولد منك وأنت هكذا ويكون من امرأتك وكانت من قبل عاقراً ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ سهل ليس فيه أي صعوبة ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ فكما أن الغذاء يصير منياً ثم إنساناً مع أن ذلك مستبعد عند التأمل فكذلك هذا.

ويحتمل: أن قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ راجع إلى خلق الروح فيه لا من شيء تحول روحاً، وعلى الأول يكون المعنى: ولم تك شيئاً يذكر لحقارة أصله وقلته سواء أريد به المني أم مادة الغذاء من الماء والتراب.

أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ
فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ
وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ لا يتصور أن نبي الله لم يطمئن قلبه بوعد الله المؤكد المقرون بقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فالراجح: أنه طلب آية يعرف بها أنه قد صلح للجماع الذي يكون منه النسل عنده وتعلق امرأته؛ لأن المفروض أنه يكون منهما الولد وهو بحاله في الهرم وهي التي كانت عاقراً فهو يريد آية يعرف بها أن قد صلحا لذلك ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي تذهب منك قدرة تكليم الناس ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ﴾ في حال أنك ﴿سَوِيّٗا﴾ لم تذهب منك قدرة الكلام بذكر الله ونحوه، وهذه آية يعرفها من نفسه حين لا يستطيع التكليم للناس.

﴿١١﴾ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ ﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ المكان الذي كان يخلو فيه للعبادة وجد الآية من نفسه قد وقعت له ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي أشار لهم أو كتب لتعذر النطق إذا كانت الكتابة رمزاً عند الأميين كما هي عندهم وحي؛ لأن المعنى الدلالة بطريقة خفية ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ لوقوع هذه الآية العظيمة والبشرى بالنعمة الكبرى وبكرةً الصباح، وعشياً من الظهر إلى المغرب، والنعمة وجود الخلف الصالح لنبي الله زكريا.

﴿١٢﴾ ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ فقد ولد يحيى وعظمت به النعمة على أبيه وقومه ووهبه الله قوة لأخذ كتاب الله بقوة على فهمه والعمل به كله أي بمحكمه كله.

بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ
يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا

ولعل الأمر هنا كناية عن إيجاده وجعله آخذاً للكتاب ﴿بِقُوَّةٖ﴾ قوة فهم وحفظ وعمل، ويحتمل: أن الله أمره أن يأخذ الكتاب بقوة؛ لأنه قد جعل له القوة ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ الحكم العلم بأحكام الله تعالى بحيث يعلم كيف يحكم بين الناس بحكم الله وهو صبي.

قال الراغب: «الصبي: من لم يبلغ الحلم» انتهى، ولعل هذا حده باعتبار غايته، فأما ابتداؤه فقال الشرفي في (المصابيح): «وهو ابن سبع سنين، وقيل: ثلاث سنين» انتهى، ويقوي أنه الصغير قوله تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ وذلك يفيد: أنه صبي قبل أن يبلغ سن التكلم، وقال الشاعر:

يا ليتني كنت صبياً مرضعا تحملني الذلفاء حولاً أكتعا

وفي (لسان العرب): «والصبيُّ: من لدن يولد إلى أن يفطم» انتهى.

﴿١٣﴾ ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ ﴿وَحَنَانٗا﴾ وآتيناه حناناً من عندنا رحمة يرحم الضعيف وكل من شأنه أن يُرحَم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ معناه: رحمة» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الحنان: الرحمة، والحنان: الرزق، والحنان: البركة، والحنان: الهيبة، والحنان: الوقار» انتهى، وفي (الصحاح): «الحنان: الرحمة» ولم يذكر الرزق وما بعده.

وقوله تعالى: ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ جعلناه زاكياً طيباً صالحاً ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ أي وكان يحيى تقياً من المتقين مؤمنا مطيعاً لربه فيما أمره وفيما نهاه.

﴿١٤﴾ ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ محسناً إليهما ولعله ضمن معنى اللطف فلذلك عدي بـ(الباء).

وقال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي لطيف بهما رحيماً شفيقاً عليهما كثير المراعاة في جانبهما» انتهى.

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ فلم يُطغِه سعةُ علمه مع صغر سنِّه لأنه راجح العقل شديد الورع، قال في (لسان العرب): «والجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً» انتهى، يعني في وصف المخلوق، وفي (مفردات الراغب) معناه ـ ثم قال: «ويقال للقاهر غيره: جبار، نحو: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥]» انتهى.

قلت: ومثله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] ومن هذا المعنى قول (صاحب الصحاح): «الجبار: الذي يقتل على الغضب» انتهى.

ويناسب هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:١٩]. وقول الشاعر:

ملكه ملك رحمة ليس فيه ... جبروت منه ولا كبرياء

ففرق بين الجبروت وبين الكبرياء.

و﴿عَصِيًّا﴾ مثال مبالغة من (عصى) فلعله الذي عادته العصيان، قال الشرفي في (المصابيح): «والعصيّ: المتكبر عن طاعة الله، الذي عصى أمره، ولم يطع خالقه، ولم يتب من ذنبه، وقال ـ أيضاً ـ: ﴿عَصِيًّا﴾ أي بليغ العصيان وهو الذي يفعل ما يشاء من الظلم ولا ينظر في العواقب، قال: وقيل: الجبار القتّال، والعصيّ: كثير المعصية لله تعالى» انتهى.

ولعل ﴿عَصِيًّا﴾ صفة لـ﴿جَبَّارًا﴾ لأن من شأن الجبار أن يكون عصياً فذكر ليفيد: أن اجتناب يحيى للجبروت سببه اجتنابه لمعصية الله، أو أنه يجتنب الجبروت؛ لأنه يجتنب معصية الله بالجبروت وبغيره ـ والله أعلم.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧
قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ

---

١٥ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ وسلم الله عليه سلاماً ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ لأنه مولود زكي رضي، ولعل هذا السلام أبلغ إلى والديه بشرى لهم بصلاحه ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ دلالة على أمنه من عذاب الله ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ كذلك ولعل هذا التسليم كله كان عند ولادته بدليل أنه قيل: ﴿وُلِدَ﴾ بالفعل الماضي ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ بالمضارع ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ﴾ كذلك فكله بشرى.

١٦ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا رسول الله فيما تتلوه من الكتاب ﴿مَرۡيَمَ﴾ حين ﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾ قال الراغب: «وانتبذ فلان: اعتزل اعتزال من لا يقل مبالاته بنفسه فيما بين الناس، قال: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾» انتهى.

قلت: لأن الأصل في نبذ الشيء: إلقاؤه وطرحه، فهو يشير إلى أن المكان الذي طرحت نفسها فيه غير مرغوب من الناحية النفسية ولكن لم تبال بنفسها لأن مهمتها الإعتزال، فقوله: من لا يقل مبالاته، صوابه: من تقل مبالاته، بدون (لا) ولعلها زيدت غلطاً.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ في معنى اعتزلت من أهلها، إما على التضمين، وإما على أنها تكفي (من) الإبتدائية في إفادة الاعتزال لهم، وقوله تعالى: ﴿مَكَانٗا﴾ ظرف وهو المكان الذي صارت فيه، و﴿شَرۡقِيّٗا﴾ تعيين لجهته لخصوصية في كونه شرقياً بالنسبة إلى أهلها تناسب اعتزالها فيه، واعتزالها من أهلها لا يعني اعتزالها من الناس، فيمكن أنها اعتزلت في

رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً

مسجد لا تخلو فيه بإنسان بل يجمع الناس في كل وقت أو نحو ذلك، وهذا الاعتزال من أهلها إما للعبادة لتتفرغ لها فراغاً تاماً، وإما بوحي من الله إعداداً لها للحمل والولادة.

﴿١٧﴾ ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ﴾ أي بينها وبين أهلها ﴿حِجَابًا﴾ فسره الإمام الهادي عليه السلام في (المنتخب) ببعدها عنهم، فالحجاب هنا: البعد المانع لهم من مجالستها ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا﴾ في حال احتجابها من أهلها ﴿رُوحَنَا﴾ جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ تمثل لها جبريل عليه السلام بشراً سوي الخلق، وفي ذلك فائدتان:

الإبتلاء لها لتحقيق عفتها وشدَّة إبائها من معصية الله فهو حين ذكر الله قصته وعفتها عنه من جمله الردّ على اليهود الذين اتهموها.

الثاني: أن جبريل عليه السلام لو جاء إليها في صورته الأصلية لفزعت منه إذا رأته، فكان جعله في صورة بشر إيناساً لها من هذه الناحية.

﴿١٨﴾ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ ﴿أَعُوذُ﴾ أستجير فهي تدعو الله أن يجيرها وتخاطب هذا الشخص في ظنها زجراً له عنها، وقولها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ إن كنت متقياً لله فشأنك أن تردعك الإستعاذة بالله، وهذا تأكيد لزجرها له، وعلقت العياذ باسم الرحمن عناية في الدعاء ليرحمها الله بدفعه عنها.

﴿١٩﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فهنا تبلغ المصيبة بها مبلغاً عظيماً حين يذكر أنه رسول ربها ليهب لها غلاماً وهي لا تعلم أنه جبريل، وذلك تمام البلوى.

لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ
مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ
قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ

﴿٢٠﴾ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ من أين يكون لي غلام ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ فيكون الغلام منه ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ لم أكُ زانية، ألهمها الله السؤال والتأني في تحقق المقصود.

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿كَذَٰلِكِ﴾ يكون لك غلام من دون أن يمسك بشر في الماضي ولست بغياً بل بطريقة خارقة وليكون آية للناس مع كونه هبة لك من الله فهو دليل على قدرة الله تعالى وعلمه، وفيه آية للناس بكلامه في المهد يتجلى بكلامه في المهد أنه ولد من غير أب، وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ لأنه يكون رسولاً يهدي إلى الله وينقذ بهداه كثيراً من الناس من النار، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي هذا المولود منك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ قضاه الله وحكم به فلا بد منه.

﴿٢٢﴾ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ فحملت مريم في بطنها الولد المبشر به ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ عن الناس لتسلم جدالهم في حال الحمل والولادة ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي بعيداً منهم لتأمن اطلاعهم عليها.

﴿٢٣﴾ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ حالة إعداد الحمل للخروج من بطنها حركة في أسفل البطن ووجع فيه وفي أسفل الظهر وأجاءها: ألجأها ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ جذع النخلة: ساقها، ولعلها أرادت أن تعتمد بظهرها عليه.

رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ اشتد عليها الهم لما سيقول الناس فيها مع براءتها، أي مت قبل هذا الأمر الذي هو الحمل والولادة.

وقولها: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ قال في (الصحاح]): «والنِّسي ـ أيضاً ـ ما نسي وما سقط في منازل المرتحلين من رذال أمتعتهم» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «فالنسي: أصله ما يُنسى كالنّقض لما ينقض، وصار في التعارف اسماً لما يقل الاعتداد به» انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي): «والنسي [بكسر النون] عامّ في كل حقير يستحق أن يطرح وينسى لحقارته» انتهى.

قلت: الأرجح أنه هنا على معناه الأصلي، وأنها أرادت بالتمني أنها قد ماتت منذ دهر بحيث أنها قد صارت منسية، وعلى هذا فقولها: ﴿مَّنسِيًّا﴾ تأكيد، ويحتمل: أنها تمنت أنها كانت سقطاً مبالغة في إظهارها للخوف مما سيقال فيها، وهذا أرجح على معنى أنه شكوى إلى الله وطلبٌ للفرج منه.

﴿٢٤﴾ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ المولود ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ يا أماه ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ (أن) هي المفسرة تدل على أن ما بعدها هو معنى كلام ابنها، ومعنى ﴿سَرِيًّا﴾ سيداً شريفاً يسود الناس.

قال الشرفي في (المصابيح): «فقال محمد بن القاسم عليه السلام: هاهنا الولد الذي وهبه الله لها البر التقي، ومَن أسر وأنبل وأتقى من عيسى عليه السلام»؟! انتهى المراد، وقال الشاعر:

نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا
تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم   ولا سـراة إذا جهالهم سادوا

وفي (الصحاح): «والسروُ: سخاء في مروءة..» إلى قوله: «..وسَرُوَ يسرو سراوة، صار سريًا، وقال:

وترى السري من الرجال بنفسه   وابن السريّ إذا سرا أسْراهما»

انتهى.

وقد قيل: السري ها هنا: النهر، وإذا نظرنا أن سياق الكلام لرفع حزنها ورفعه بالبشارة بالسيد من الرجال أوضح من البشارة بالماء؛ لأن السيد يشرف ويبطل بشرفه دعاية اليهود عليها وعليه، أما الماء فلا دخل له في ذلك، والرافع للحزن هو ما يبطل دعاية اليهود؛ لأن حزنها سببه خوفها لما يقال فيها، وإظهار النهر وإن كان آية فهو آية لها تدل على كرامتها عند الله وكذلك السيد آية لها يدل على كرامتها عند الله؛ لأنه سيدافع عنها في حال سيادته، وليس في كون النهر آية لها تسلية باعتبار سبب الحزن؛ لأنه خاص بها وهي عارفة ببراءة نفسها، وبأن ابنها خلقه الله في بطنها من غير أب، والحاصل: أن تسليتها بما ترجو به نصرها وإظهار براءتها أقوى.

﴿٢٥﴾ ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ ﴿وَ﴾ قال لها ابنها من تحتها ﴿هُزِّيٓ إِلَيْكِ﴾ أي هزي ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ بجرِّه إليك، أي هزي النخلة بجر جذعها إليك ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ والرطب: ثمر النخلة الذي طاب ولان ولم يجف، والجني حديث العهد بجنيِهِ أي أخذِهِ من النخلة.

﴿٢٦﴾ ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى﴾ كلي من الرطب الجني

ودعي الحزن واشربي وطيبي نفساً، ولعلها كانت قد كرهت الأكل كما هي عادة الحزين، والأكل مع الحزن لعله يضره، فأمرها بالأكل والشرب كناية عن أمرها بطيبة النفس ثقة بنصر الله لها وتحقيق براءتها بما لا مجال عنده للشك فيها ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ أمر لها بالسرور فضلاً عن إزالة الحزن؛ لأن الله رفع قدرها وشرفها وأنعم عليها بالولد العظيم الذي قد وعدت فيه بأن الله يعلمه التوراة والإنجيل ويرسله إلى بني إسرائيل ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين.

وقوله: ﴿تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ لا تجيبي أحداً يسألك عن عيسى أو يقول فيك باطلاً، واعتذري بالنذر للرحمن بالصوم المانع لك عن تكليم كل إنسي، أي كل فرد من الناس.

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ ٢٧
﴿فَأَتَتۡ﴾ بإبنها ﴿تَحۡمِلُهُۥ﴾ لا تتبرأ منه بل تحمله حمل الأم لابنها ﴿قَالُواْ﴾ مبادرين بالقذف ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ ولعلهم كانوا يحسدونها من قبل فكانت هذه الحالة عندهم فرصة، ولذلك لم يبدءوا بسؤال أنى لك هذا الولد؟ متى تزوجتِ؟ لا نعلم أنكِ قد تزوجتِ في الماضي، بل بادروا إلى القطع بأنها قد أتت فاحشة وأكدوا ذلك بـ(اللام) و(قد).

أما تعبيرهم بالفري، فأرادوا أنها ابتدعت ما لم يكن من شأنها ولا من شأن أهلها، فهو منها عجيب.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ معناه: عجبٌ» انتهى، وقال في (مصابيح الشرفي): «الفري: البديع» انتهى المراد.

أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي

وفي (الصحاح): «أي مصنوعاً مختلقاً» وقال الراغب في (المفردات): «قيل: معناه: عظيماً، وقيل: عجيباً، وقيل: مصنوعاً، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد» انتهى، يعني إلى ارتكاب الفاحشة.

﴿٢٨﴾ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ زادوا في توبيخها بتنزيه قرابتها ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ الرجل الصالح ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ فتكوني اقتديت بأبيك، وكذلك قولهم: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ والبغي الزانية،قال في (الصحاح): «وبغَتِ المرأة بِغَاءً [بالكسر والمد] أي زنت فهي بَغِيٌّ، والجمع: بغايا» انتهى.

﴿٢٩﴾ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لم يستفزها توبيخهم لها؛ لأنها كانت واثقة بنصر الله لها فسكتت وأشارت إلى ابنها ليكلموه فالجواب عنده ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أرادوا أنه لا يفهم إن كلموه لصغره، والمهد الفراش الذي يمهّد للصبي ويوَطّأ وهو تعبير عن صغره بحاجته إلى المهد ﴿صَبِيًّا﴾.

وكأنهم أرادوا بقولهم: ﴿مَن كَانَ﴾ العموم أي كيف نكلم الصبيان الذين هم في المهد كأنهم قد رابهم ثبات مريم وقلة مبالاتها وخطر ببالهم أن أمرها لهم بأن يكلموه لأمر يوضح براءتها فتجاهلوا خصوصية هذا الصبي وجعلوه صبياً كسائر الصبيان، فلذلك عدلوا إلى تعميم الصبيان، فكأنهم قالوا: أنكلم كل من كان في المهد صبياً.

نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ

وبهذا يظهر السرّ في ﴿كَانَ﴾ وأنها صلة موصول مضمن معنى الشرط، كما في: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [محمد:١٤] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ الآية [السجدة:١٨-١٩].

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تكلم الصبي فظهرت براءتها فهذا الفضل العظيم لا يكون لابن زناءٍ كما لا يخفى عليهم، وقوله: ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ آية عظيمة تبطل قول الغلاة فيه فكانت أول ما كلم قومها به، وقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ يتناول التوراة وغيرها، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ يدل على أنه في تلك الحال قد أوحي إليه بما سيكلف به هو وأمته، كما أن قوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ يدل على أن الله تعالى قد آتاه الكتاب والله على كل شيء قدير.

﴿٣١﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «أي هادياً مهدياً» انتهى، فهي البركات الدينية؛ لأنه طبيب القلوب بحكمته وبأمثاله العجيبة التي تؤثر في النفوس، وقد اشتمل كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) على كثير من الحكم المؤثرة المنسوبة إلى عيسى عليه السلام، ولا يبعد صحتها كلها أو أكثرها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ الصلاة هي ذات السجود لله، والزكاة هي الإنفاق لله للفقراء ونحوهم.

وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا

وقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يعني أنه أمر بالدوام عليهما ما دام حياً، والمراد بذلك مع القدرة وعدم المانع كالنوم والإعسار، ولعل فائدة التعبير بقوله: ﴿أَوْصَٰنِى﴾ أنه أمر لحين القدرة على ذلك ليس لحالته تلك كما أن فيه تأكيداً للتكليف بهما.

﴿٣٢﴾ ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وجعلني ﴿بَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ وفي إعلانه لقومه أن الله جعله براً بوالدته إشارة إلى براءتها مما رموها به؛ لأن ذلك لا يتعلق بهم بل هو خاص به وبها، فذكره لهم دلالة على براءتها وإلا كان ذكره لهم غير مهم بحيث يتكلم به في المهد.

ولا بد أنه قد صرح لهم ببراءتها؛ لأن المقام لا تكفي فيه الإشارة بل هم محتاجون إلى التصريح ، وإنما لم يذكر تصريحه في هذا السياق لأن الكلام هذا مسوق لبيان أن عيسى عبد من عباد الله تَعَبَّده الله بالصلاة والزكاة كما تعبد غيره فترك ذكر تصريحه ببراءتها ـ والله أعلم ـ كما في سائر القصص في القرآن يذكر بعض القصة ويترك بعضها؛ لأن الكلام مسوق لما ذكر في القصة لا لكل نواحي القصة وأول القصة دليل واضح على براءتها، فيكفينا ذلك.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وعد للناس بحسن السيرة فيهم وترك الجور، وقد مرَّ ذكر معنى الجبار، والشقي صفة للجبار، كأنه قال: ولم يجعلني جباراً فأكون شقياً، فأفاد أن الله عصمه من الجبروت لئلا يكون شقياً؛ لأن الشقاوة لازمة للجبار فذكرها هنا، كقوله في يحيى: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ يذكر الوصف للدلالة على أن السلامة منه هي الغرض بذكر الجبار.

﴿٣٣﴾ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ﴾ إما أنه يسلم على نفسه، وإما أنه يحكي ذلك عن الله، فإن كان حكاية

قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ
هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ

عن الله تعالى، فهو كالسلام على يحيى وقد مر قريباً، وإن كان هو سلم على نفسه فهو الحق؛ لأن الله أنطقه بذلك فكأنه من الله لأن إنطاقه في المهد من الله فـ﴿يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾ لأنه يبشر بولادة النور والهدى ﴿وَيَوۡمَ أَمُوتُ﴾ لأنه يومَ يموت مختوم له بالسعادة بتقوى الله وعبادته ويوم يبعث كذلك.

﴿٣٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموصوف في الآيات الماضية هو ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ فهو عبد لله متعبَّد أنعم الله عليه آتاه الكتاب إلى آخر الآيات المفيدة لكماله في عبادته لله وطهارته وشرفه بذلك، هذه حقيقة عيسى بن مريم لا ما يدعيه الغلاة، وهذا ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي يشكون لجهلهم بالله وبعيسى عليه السلام.

﴿٣٥﴾ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ ليس من شأنه ولا يصلح منه ولا يليق بعظمته وجلاله وغناه عن كل شيء أن يتخذ ولداً أيَّ ولد، وهذا نفي مؤكد كما أن من لتأكيد العموم؛ لأن (ولداً) نكرة في سياق النفي، فهو نفي لكل ولد، ثم أكد العموم بـ(مِن) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ تنزيه له تعالى من اتخاذ الولد ومن كل نقص؛ لأن اتخاذ الولد لازم الضعف والحاجة ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يعسر عليه خلق مولود من غير أب ولا غيره فلا حجة للغلاة في زعمهم أنه ابن الله لئلا يكون ابناً بلا أب؛ لأن آدم خلق من غير أب، وعيسى إنما هو ابن لمريم، وكان في قدرة الله أن يخلقه من غير أم.

كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ
ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ رجع كلام عيسى وهو حجة على المشركين به و ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي عبادة الله وحده؛ لأنه ربنا كلنا ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ طريق واسع قويم لا ينقطع بسالكه دون بلوغ الجنة ولا عوج فيه؛ لأنه الحق.

﴿٣٧﴾ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَٱخْتَلَفَ﴾ تفريع على كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، فمن الأحزاب من آمن بأن الله خلق عيسى من غير أب وأنه عبد الله ونبيه، ومنهم من كفر بعد الآية البينة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ يدل على أن قوم مريم انقسموا إلى أحزاب وغير أحزاب، فالأحزاب يجمعهم قول يعتمدونه وينصرونه لكل حزب طريقة، وغير الأحزاب لم يذكر رأيهم، ولعلهم سكتوا عن قضية عيسى، أو آمن بعضهم وسكت بعضهم ـ والله أعلم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ اليوم العظيم ومشهده مجمع العالم فيه ومشاهدتهم لما يكون فيه وحضورهم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣] فويل لهم من مشاهدتهم لما يكون في ذلك اليوم من فصل القضاء، والحكم بين العباد فيما فيه يختلفون.

﴿٣٨﴾ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ما أسمعهم وما أبصرهم بعد عنادهم اليوم فسوف يخضعون وينقادون حين لا ينفعهم ذلك: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يحضرون موقف السؤال والحساب عند رب الأرباب ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الظالمون إما عام لكل ظالم، وإما خاص هنا بالذين كفروا بعيسى، أي لكنهم اليوم في ضلال أي من إقامة الظاهر مقام المضمر ليفيد أن سبب ضلالهم عن الحق أنهم ظالمون وهذا أرجح.

﴿٣٩﴾ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا رسول الله أنذرهم ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ بدل من يوم الحسرة قضي الأمر بحكم الله على أهل النار بالخلود في النار ولأهل الجنة بالخلود في الجنة فهنالك الحسرة العظمى للظالمين، في (مفردات الراغب): «الحسرة: الغم على ما فاته والندم عليه» انتهى، وفي (الصحاح): «الحسرة: أشد التَّلَهُّف على الشيء الفائت» انتهى.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن مصيرهم الرهيب، وهم في غفلة أي وهم اليوم في غفلة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإعراضهم عن الحق وخذلانهم.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿إِنَّا﴾ أي الله ذو العظمة والجلال ﴿نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فهو تعالى هو الباقي بعد فناء أهل الأرض والمالك للأرض بعدهم كما هو المالك لها من قبل ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ إلى الله وحده يرجعون يوم القيامة، وفي موقف السؤال والحساب فلا عيسى ولا غيره من أهل السموات والأرض يشارك يوم القيامة في الملك، أو يتدخل في الحكم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا

﴿٤١﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يارسول الله اذكر ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وذكره لإبراهيم بتلاوة ما أنزل الله فيه، فهو كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء:٦٩].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ ﴿صِدِّيقًا﴾ كثير الصدق قوال بالحق، وقد جاء في الحديث: «إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» ولكن وصف الأنبياء والأوصياء ومريم بنت عمران يفيد درجة عالية؛ لاختصاصهم بهذا الوصف من بين المؤمنين، مع أن كل مؤمن تقي صديق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد:١٩].

﴿٤٢﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ﴾ ناصحاً له داعياً إلى عبادة الله وحده: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾ بهذا الرفق وبهذا الأدب لم تعبد ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ لا يسمع فهو لا يسمعك حين تعبده بدعائه، ولا يبصرك حين تعبده ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ لا يكفيك شراً من الشرور أي لا يدفع عنك شيئاً.

قوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ إما مفعول به بمعنى لا يدفع عنك شيئاً تحذره، أو قائم مقام مفعول مطلق أي شيئاً من العَنَاء أي لا يدفع عنك شيئاً من الدفع، والمعنى متفق، وهذه حجة عظيمة، وقوله: ﴿لِمَ﴾ مطالبة بحجة لا وجود لها، فأول الكلام مطالبة بالحجة وبقيته احتجاج على أبيه.

﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾
يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾

﴿٤٣﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ عناية بالأدب والإستعطاف ﴿إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي﴾ كلام مؤكد ليلتفت إليه ويطلب منه الحجة إن أراد الحق ﴿قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بهداية الله للنظر وبوحيه للرسالة ﴿مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ وهذا تأدب لم يصف أباه بالجهل المطلق ولكن أفاده أن عنده من العلم ما لم يأت أباه ليطلبه إن أراد الرشد ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ﴾ فالغرض من طلب اتباعه أن يهديه ﴿صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ طريقاً واضحاً لا عيب فيه ولا عوج لينقذه من الضلال وعواقب الضلال.

﴿٤٤﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ أي إن الشرك عبادة للشيطان؛ لأن الشيطان يدعو إلى الشرك ويزيّنه ليضل الناس فلا تشرك ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ مستمراً على معصيته للرحمن فكيف تعبد عدو الرحمن وتترك عبادة الرحمن الذي منه الخير.

﴿٤٥﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ ﴿أَخَافُ﴾ أن تموت على الشرك فـ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فهو يخاف على أبيه من قليل العذاب، فضلاً عن كثيره ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ قريناً في جهنم مجاوراً له فيها، أو أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن عاجل فيغلق عنك باب التوبة وتموت وأنت من أولياء الشيطان وتحشر وأنت ولي للشيطان يلحقك خزي أولياء الشيطان وعذابهم.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)

وفي قوله: ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ من البديع، احتراس أن يوهم أن الله تعالى مصدر شر فأفاد أنه الرحمن، ولكنه يجزي كل نفس بما كسبت؛ لأنه عزيز حكيم.

(٤٦) ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ﴿قَالَ﴾ أبو إبراهيم.

والراجح: أن آزر إنما هو عمه سمي أباه كما سمي العم أباً في قول الله تعالى حاكياً: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣] ألا ترى رفق إبراهيم بأبيه هنا وهناك قال: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٧٤] قال أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد ءأنت زاهد في آلهتي يا إبراهيم، والرغبة عن الشيء: هو الزهد فيه» انتهى.

وظاهره: أن الرغبة عن الشيء عدم الحب له أو قلة الحب له، وعبارة (الصحاح): «ورغبت عن الشيء: إذا لم ترده وزهدت فيه» انتهى، والسؤال في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ﴾ سؤال إنكار وفيه مبالغة إذا كان الرغوب عنها هو الزهد فيها فهو ينكر عليه الزهد فيها فضلاً عن عداوته لها.

وقوله: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ترك فيه التعطف فلم يقل يا بني كما قال إبراهيم: ﴿يَاأَبَتِ﴾ لأنه قد غضب على إبراهيم ولذلك توعده ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وقوله: ﴿تَنتَهِ﴾ إما عن الكلام في آلهته أو عن الزهد فيها، والظاهر أنه توعده بالرجم بالحجارة إما ليقتله وإما ليجرحه.

وقوله: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ أي ابتعد مني ولا تقربني بعد كلامك هذا، وقوله ﴿مَلِيّٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومن الناس من يذهب إلى أن الملي مشتق من الإملاء والترك زماناً وهو حسن ـ والله أعلم» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه دهر، وقيل: حين» وقال في (الصحاح): «الملي: الهوي من الدهر، يقال: أقام ملياً من الدهر، قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ أي طويلاً» انتهى، وهو في لسان العرب) كذلك.

(٤٧) ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أظهر الإنقياد لذلك الأمر بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ سلام توديع ومتاركة» انتهى.

وقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ الراجح عندي: أن استغفاره طلب أن لا يعاجله الله بعذاب لاحتمال أن يبدو له في المستقبل أن يسلم ولم يعده بأن يستغفر له من عذاب الآخرة؛ لأن هذا تشجيع له على الإستمرار في الشرك.

وقد مر في (سورة الكهف): ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف:٥٨] فهي تدل على أن الإمهال مغفرة ورحمة، ويحتمل ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ﴾ سأدعو لك بالهداية إلى الإسلام ليغفر لك الشرك، وهذا صحيح على معنى سأطلب لك المغفرة كائنة بواسطة الإسلام أي بالهداية له.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «الحفي: اللطيف» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «والحفي: البَرّ اللطيف قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾» انتهى.

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ
رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ

وقال في (الصحاح): «والحفاوة ـ بالفتح ـ المبالغة في السؤال عن الرجل والعناية في أمره وفي المثل: مأرُبَة لا حَفَاوَة تقول منه: حفِيت به [بالكسر] حفاوة وتحفَّيت به أي بالغت في إكرامه وإلطافه» انتهى.

فحاصل المعنى: أنه عليه السلام يرجوا إجابة دعائه، لأن ربه كان به حفياً، وفي هذا تذكير لأبيه بالفرق بين دعاء إبراهيم لربه ودعاء أبيه لما لا يسمع.

﴿٤٨﴾ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أعتزلك وقومك وأعتزل ﴿مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهجرته هجرة للمشركين وللشركاء وللشرك ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أطلب منه حاجاتي فلا أحتاج إلى غيره ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أتوقع أن لا أكون بدعاء ربي شقياً، وذلك قريب منه.

وهذا أيضاً تعريض بالمشركين ودعائهم لشركائهم الذي هو سبب لشقوتهم ولعله استعمل عبارة الرجاء لأنه يجوِّز أن يكون بعض ما طلبه لا تقتضيه الحكمة ولكنه قاطع بأنه لا يشقى بالدعاء، فالأولى أن هذا الكلام لمجرد التعريض بالمشركين مع الرفق في التعبير بذكر أقل أحواله أنه يرجو أن لا يشقى بدعاء ربه والله أعلم، وهو قريب من الاحتجاج عليهم بالأمن في قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾ [الأنعام:٨١].

﴿٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ ﴿فَلَمَّا﴾ اعتزل أباه وقومه واعتزل ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ لأنهم كانوا يعبدون أصنامهم بالدعاء لها وبغيره فجادل أباه في الدعاء وغيره ثم

صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا
﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن

اعتزلهم وما يدعون وما يعبدون بغير الدعاء فقد كانوا يعبدونها بالعكوف لها، ولعلهم كانوا يعبدونها بغير ذلك، ولعله تعالى ذكر إسحاق ويعقوب دون إسماعيل؛ لأن الخطاب من أول السورة احتجاجٌ على بني إسرائيل في غلوهم في عيسى ومريم وفي تكذيب اليهود بعيسى فكان ذكر أبويهم أنسب لبيان النعمة عليهم، وفي ترتيب النعمة على الهجرة دلالة على فضلها وأن الله تعالى ييسر أمر من هاجر إليه ويعينه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ أي وكلاً منهم أو منهما جعلنا أي وكل واحد جعلناه ﴿نَبِيّٗا﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ وهبنا لهم لإبراهيم وابنيه ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ﴾ ذكراً حسناً صدقاً ﴿عَلِيّٗا﴾ رفيع القدر ومن هذا الذكر ذِكرهم في القرآن والذكر الحسن لهم صدق كل ما جعل الله لهم فائدة وصفة بالصدق أن ينزه ذكرهم عن كونه كذباً؛ لأن غيرهم من الملوك ونحوهم يمدحون بالكذب وهذا موافق لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

﴿٥١﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ ﴿مُخلِصاً﴾ بكسر (اللام) عمله خالص لله تعالى و﴿مُخۡلَصٗا﴾ بفتح (اللام) أخلصه الله بعصمته من الذنوب المتعمدة، وقوله تعالى: ﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ جمع بين الوصفين لأنهما مختلفين فهو رسول من حيث أن الله أرسله كغيره من الرسل ونبي أنباه الله بما أوحى إليه من الرسالة وأوحى إليه من الشريعة.

رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ

﴿٥٢﴾ ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ بإنشاء النداء ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ في ميقات ربه الذي كان أربعين ليلة و﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صفة من اليُمن: وهو ضد الشؤم، والأيمن صفة لجانب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ [طه:٨٠] وفي هذا دلالة على تفضيل بعض البقاع كما فضل بعض الزمان، وهو يبطل قول من قال: لا تفضيل إلا بالعمل، قال الشرفي: «والطور: جبل بالشام بين مصر ومدين».

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريب اصطفاء الله له لكلامه، وقوله تعالى: ﴿نَجِيًّا﴾ حال أي قربناه في حال أنه نجيّ، والنجي هنا: الذي ناجاه الله والمناجاة كلام خفي عن غير المخاطب به، فجمع له المناداة والمناجاة، ولعل الله تعالى ناداه أولاً ثم ناجاه لحكمة فيهما.

﴿٥٣﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وهبنا له أخاه كما طلب، حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:٢٩-٣٢] وقوله تعالى: ﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ يفيد: أن الله تعالى أعطاه أخاه هارون رحمة له؛ لأنه يعينه ويصدقه وينصح له في المعاونة فهو رحمة لموسى من رحمة الله، وفي هذه الآية ذكر لهارون أغنانا عن ذكره لنا مستقلاً.

﴿٥٤﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ يعم وعده مع ربه ووعده لأبيه وغير ذلك إن كان له وعد غير ذلك فما أخلف وعداً.

رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ

قال الشرفي في (المصابيح): ويمكن أن يكون المراد [الوعد] فيما بينه وبين الناس؛ لأنه المشهور من خصاله، عن ابن عباس أنه وعد صاحباً له إلى مكان فانتظره فيه سنة، وناهيك وعده من نفسه الصبر على الذبح فوفى به» انتهى.

قلت: إن صحت الرواية عن ابن عباس فالمكان واسع فيه مرافِقهُ مثل بلد انتظر فيه سنة، وقوله: فوفى به، يعني بتسليم نفسه للذبح، وإن لم يذبح.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ ليقيهم العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا..﴾ الآية [التحريم:٦] ولعله جمع بين الصلاة والزكاة ليفيد: أمرهم بالعبادة البدنية والعبادة المالية؛ لأن ذلك أبلغ في العبادة؛ لأن الإنسان قد تثقل عليه الصلاة لكسله ولا تثقل عليه الزكاة لسلامته من البخل، ومن الناس من تسهل عليه الصلاة وتشق عليه الزكاة لشح نفسه، فإذا جمع بين العبادتين كان أبلغ في العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ دليل على كماله في التعبد لربه؛ لأن الإنسان خلق للعبادة فإذا كان كاملاً فيها كان عبداً مرضياً عند ربه رضيه فجعله رسولاً نبيئاً؛ لأنه عبد كما يحب ربه ويرضى، وقد ذكره هنا مستقلاً؛ لأنه لم يذكره مع إسحاق مع أن الله تعالى وهب لإبراهيم إسماعيل قبل إسحاق، كما يفيده الترتيب في قوله تعالى حاكياً عنه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] ثم قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات:١٠١-١١٢].

ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

﴿٥٦-٥٧﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ﴿صِدِّيقًا﴾ كثير الصدق فاضلاً في ذلك، وقال الشرفي في (المصابيح): «أي كثير التصديق بكتب الله ورسله» انتهى، والتصديق: هو من الصدق فإذا امتنع بناء صديق من الرباعي صح من صَدَق بتخفيف الدال، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قالوا: رفعه الله في إحدى السموات، وهو ظاهر المكان العلي أنه في السماء، فلا مانع من ذلك.

﴿٥٨﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المذكورون وهم زكرياء ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسحاق وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بالهدى الفائق ومن هداهم النبوءة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا﴾ أي من ذريتهم ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يحتمل ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي إسماعيل وإسحاق ويعقوب وهو إسرائيل ومن ذرية إسرائيل وهو زكريا ويحيى، وإن أريد ومن ذرية كل من إبراهيم وإسرائيل لم يدخل فيه إسماعيل وإسحاق، فالأول أرجح.

وقوله تعالى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ (مِن) للتبعيض وفي مدح المذكورين بانتسابهم إلى من ذكر دلالة على شرف النسب إلى الأخيار، ويوافقه حديث الاصطفاء لنبينا محمد ﷺ من بني هاشم، ثم من قريش، ثم من كنانة، الذي أخرجه: أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إذا سمعوا آيات الرحمن حين تتلى عليهم وآيات الرحمن ما أنزل من آياته على الأنبياء ﴿خَرُّواْ﴾ هووا في أمكنتهم ﴿سُجَّدًا﴾ لله خاضعين ﴿وَبُكِيًّا﴾ من خشيته، وأضاف الآيات إلى الرحمن لأنها من رحمته؛ ولأن عذابه لمن عصاه وتمرد عليه لا ينافي وصفه بالرحمة؛ لأنها قد سبقت لهم الرحمة في الدنيا فلم يقبلوها.

﴿٥٩﴾ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ قال في (الصحاح): «والخَلْف: القَرْن من بعد القرن، يقال: هؤلاء خَلْفُ سَوْء لناس لاحقين بناس أكثر منهم، قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب»

انتهى. وقوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ قال الراغب: «يقال لمن خلَف آخر فسدَّ مسدّه: خَلَفَ» انتهى.

وعلى هذا: فمعنى خلفه: قام مقامه، وعليه يحمل الحديث: «لا نالت شفاعتي من لم يخلفني في عترتي» وعلى هذا يكون معنى خلف من بعدهم خلف أنهم قاموا مقام أولئك في أمر مثل قيادة الأمة وإحراز ما بعد الأولين من الكتب، فهم مذمومون بتصدرهم لأمور ليسوا أهلاً لها، ويحتمل ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ جاءوا من بعدهم وزيادة ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ليفيد: أنهم بعد ذهابهم بالموت أو الرفع في السماء، وفيه تذكير بالفرق بين السلف والخلف.

وقوله: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يحتمل تركوها، ويحتمل: أماتوها وتركوها أو أماتوها فقط، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يفيد: أن شهواتهم تقودهم في سلوكهم، ولذلك فهم يقعون في الحرام.

يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ
كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا

وقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ وعيد لهم بسوء العاقبة وبجزاء غوايتهم، قال الراغب: «وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي عذاباً، فسماه الغي لما كان الغيّ هو سببه، وذلك كتسمية الشيء بما هو سببه، كقولهم للنبات: ندى» انتهى.

قلت: وفي جعل الغي جزاءهم لطيفة تشير إلى أن انقيادهم للشهوات أغواهم عن سبيل الله فسوف يلقون غوايتهم أي جزاءها.

﴿٦٠﴾ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ استثناء من عموم المتوعدين بجزاء الغي لـ﴿مَن تَابَ﴾ منه إلى ربه ﴿وَءَامَنَ﴾ بما وجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ عملاً حسناً صحيحاً غير فاسد مقبولاً غير حابط ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تفسير للاستثناء فهم ناجون من الغي ومع ذلك يدخلون الجنة، وأغنى ذكر دخولهم الجنة عن ذكر نجاتهم من النار لتلازمهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا ينقصون شيئاً من ثواب الإيمان والعمل الصالح، ولعله دفع لتوهم النقص مقابلاً لما سلف منهم من الغي فهو كأن لم يكن منهم.

﴿٦١﴾ ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ ﴿جَنَّٰتِ﴾ بدل من الجنة؛ لأنها تشتمل على جنات كثيرة، وقوله: ﴿عَدۡنٍ﴾ استقرار وأمن، وقوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي في حال غيابهم عنها حين كانوا في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ إنه أصدق القائلين فوعده لا يزال مأتياً يأتيه من وعده الله ويبلغه ويصل إليه لا يتخلف.

بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا

﴿٦٢﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

اللغو: الكلام الذي ينبغي أن يلغى ويترك فيعم فضول الكلام ومالا طائل تحته ويعم قبيح الكلام، فالجنة منزهة عن ذلك كله، وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع لبيان أن السلام ليس من فضول القول؛ لأنه إحسان وتكريم إذا كان من الله جل جلاله أو من الملائكة أو من الأنبياء والصديقين وهو إحسان إذا كان من أهل درجة واحدة من بعضهم لبعض.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً﴾ في الصباح ﴿وَعَشِيًّا﴾ من بعد زوال الشمس إلى الغروب، وفي هذا دلالة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ على أنهم يملكون ذلك أو يصير حقاً لهم، وفي قوله تعالى: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دلالة على أن الجنة لها ليل ونهار وإن فُرِض أنهم لا ينامون ففي اختلاف الحالات تجديد للّذات إذا اختص النهار بشيء واختص الليل بشيء ولا يلزم أن تكون مظلمة لأن الأنوار تكفي في الليل كما يكفي اليوم ضوء الكهرباء فلا موجب لتأويل هذه الآية.

﴿٦٣﴾ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿تِلْكَ﴾ الموصوفة هي ﴿ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ﴾ أو تلك الجنة الموصوفة بالصفات المذكورة هي التي نورث ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ والفرق: أن الأول تعظيم للجنة، والثاني وعد للمتقين سيق له الكلام، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [الرعد:٣٥] وهو أرجح لأنه قد جمع مدح الجنة بالإشارة إلى صفاتها وتجديد الوعد بها للمتقين تأكيداً للوعد السابق؛ لأن الإنسان في غفلته يحتاج إلى التأكيد وتجديد التذكير، وجعلُ الجنة ميراثاً لهم إشارة إلى أنهم نالوها بسبب أعمالهم.

كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى نُورِثُ﴾ أي نورثها، ظاهره: أنها كلها للمتقين فليس لغيرهم فيها نصيب وليس للفجار إلا النار، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ [هود:١٦].

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ هذه من الله تعالى حكاية عن الملائكة عليهم السلام، وهي تبين أنهم عباد لله متعبدون له مطيعون لأمره واقفون عند حدوده، فهم لا يتنزلون إلى الأرض إلا بأمره، وفيه دفع لتوهم المشركين أن محمداً إن كان رسولاً، فلماذا لا تصحبه الملائكة أو تتنزل متى شاء، كما أنه رد على المشركين في زعمهم أنهم ولد للرحمن سبحانه.

وقوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي له وحده لا شريك له ما بين أيدينا ما قدّامنا من السموات وما خلفنا منها وكذلك من غيرهما، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الأمكنة التي نحن فيها ونحن أيضاً فهو المالك لنا ولأمكنتنا ولكل السموات والأرض، ويحتمل له ما بين أيدينا من أحوالنا التي نستقبلها وما خلفنا من أحوالنا الماضية وما بين ذلك أحوالنا التي نحن فيها أي هو المالك المدبر لأحوالنا كلها ونحن تحت تصرفه وأمره، فهو مثل الأول تعليل لكونهم لا يتنزلون إلا بأمر ربهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال في (لسان العرب): «والنَّسِيّ: الكثير النسيان يكون فعيلاً وفعولاً وفعيل أكثر ـ ثم قال ـ: وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لا ينسى شيئاً» انتهى.

وهو سبحانه لا يجوز عليه النسيان، ولعل هذا مرتبط بقول الملائكة ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ أي أن تخلفنا سببه أنا واقفون تحت أمر الله وليس سببه نسياناً من ربنا، وهذا على ما يروى أن سبب نزول الآية تأخر نزول الوحي، وإذا لم يكن سببها فلا يتعين ذلك ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ فسره الإمام زيد بن علي عليهما السلام: «بالآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ بالدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ النفختان» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من القيامة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من الدنيا وزوالها ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ من خروج الأرواح وانتقالها» انتهى.

قال الشرفي: «وفي (البرهان): ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ وهو الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ هو الآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ هو إحياء الموتى ونفخ الصور، وقال الهادي عليه السلام: أما قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ فهو أمامُنا وقدَّامُنا من يوم الحشر وما ذكر من الثواب والعقاب.

وأما قوله: ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ فهو ما تركنا وراء ظهورنا وما يحدث من بعد مماتنا من أحداث الدنيا، وأما قوله: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فمعناه سِوَى ذلك مما كان قبل خلقهم وخلق آبائهم وما كان في وقت إحيائهم وما يكون بعد مفرهم [كذا ولعله تصحيف حشرهم] من دار بؤس أو دار سرور ونعمة للنفوس» انتهى.

ويشكل قوله: وخلق آبائهم، وقوله: من دار بؤس فإنه لا يناسب جعل الآية حكاية عن الملائكة؛ لأن الإمام الهادي عليه السلام ينفي التوالد بين الجن، وقد قيل: إن بعض المفسرين يجعلها حكاية عن أهل الجنة، ويشكل قوله: ﴿نَتَنَزَّلُ﴾ ولا يناسبه كلام الإمام الهادي عليه السلام في قوله: أو بؤس ـ والله أعلم.

أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا
﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا

﴿٦٥﴾ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ إن كان هذا من حكاية كلام الملائكة أو الحكاية عنهم، فهو كالتعليل لقولهم: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وإن لم يكن من الحكاية بل هو ابتداء، فالمعنى هو أي ربك رب السموات والأرض وما بينهما أي أنه المستحق للعبادة؛ لأنه المالك للسموات والأرض وما بينهما وحده ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي أخلص عبادتك له؛ لأن العبادة مع الشرك لا تقبل فهي كلا عبادة ولأن ترتيب الأمر بعبادته على كونه المالك وحده يفيد ذلك، وقد تكرر الأمر بالعبادة بمعنى عبادته وحده في قصص الرسل عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي احتبس أي احبس نفسك لعبادته واثبت عليها، ولعل الأصل أن يقال: على عبادته، فلعله قيل: ﴿لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لإفادة أن يكون الصبر لإرادة العبادة.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ فيه تفاسير ولعل أقربها ﴿سَمِيًّا﴾ أي مشاركاً لله في اسمه، أو في اسم الربوبية؛ لأنه رب كل شيء وحده لا شريك له في الربوبية، وهذا مناسب لأول الآية ومناسب للأمر بالعبادة؛ لأنها تعبير عن العبودية.

﴿٦٦﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ﴿وَيَقُولُ﴾ عطف على ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ من حيث إفادته؛ لأنه خالق كل شيء وذلك يفيد أن قدرته لا تقاس بها قدرة مخلوق ومع هذا يقول الإنسان..الآية أي يستبعد البعث والحياة بعد الموت، وقوله: ﴿أُخْرَجُ﴾ أي من بطن الأرض يُبعِّد القدرةَ على ذلك بأنه يكون قد مات وبأنه يكون في القبر فكيف يكون ذلك البعث محققاً.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ
لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٦٩ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ

۝٦٧ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أيقول ذلك ولا يذكر أي لا يتذكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي أقد نسي فهو لم ينس ولكنه يعرض عن النظر الصحيح، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ يحتمل شيئاً يذكر، ويحتمل خلق روحه أنه اختراع وهذا قريب لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

۝٦٨ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أي إن زعموا ذلك ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم الله أصدق الصادقين أن البعث والحياة حق، ودل على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لنحشرن الكافرين بالآخرة ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ المضلين لهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ فهم حولها يرونها ويسمعون صوتها جثياً على ركبهم ولعلهم من شدة الخوف ضعفوا عن القيام فجثوا على الركب.

۝٦٩ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ لعله عبر بالنزع لأن أخذه من بينهم نزع لكونهم مزدحمين متراكمين ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل جماعة متشايعين يجمعهم أمر من الباطل يتعاونون عليه ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ أيهم هو أشد ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي تمرداً وإصراراً على الباطل، قال في (لسان العرب): «عتا يعتوا عتواً وعتياً استكبر وجاوز الحد» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيه على شناعة العتي عليه؛ لأن الرحمن دعاهم في الدنيا إلى رحمته وفضله إلى النجاة من الشقوة الدائمة وإلى الفوز

رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا
﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ

بالسعادة الدائمة وأبلغ في الدعوة، وجعلها مع الحجج والآيات الدالة على صدقها، فأبى عدو الله إلا طاعة الشيطان والإعراض عن دعوة الرحمن والمبالغة في ذلك فاستحق أن يقدم إلى جهنم قبل أصحابه الذين نزع من بينهم تعجيلاً لعذابه قبلهم.

﴿٧٠﴾ ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ ﴿أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ﴾ أن يصلوها، والراجح: أن الضمير للكل أي للكافرين والشياطين، وعلمه تعالى بهم علمه بتفاصيل عصيانهم ومقاديره ومقادير عتوهم، فهو سبحانه لا يغلط في نزع من ينزع من بينهم، أو نحن أعلم بالذين هم أحق بالمسارعة إلى جهنم لأنهم أحق بالعذاب من غيرهم مع اشتراكهم في استحقاق العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ للترقي من بيان إلى بيان لا لتراخي كونه أعلم سبحانه وتعالى، وصلي جهنم مباشرة النار بأجسادهم.

﴿٧١﴾ ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ خطاب للذين أحضرهم حول جهنم، وبقوا هناك بعد الذين نزعهم من بينهم ﴿وَإِن مِّنكُمۡ﴾ وما منكم أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وارد جهنم، أو خطاب للناس كلهم ﴿كَانَ﴾ الورود ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ على ربك يا رسول حتماً محتوماً حتمه على نفسه أي أوجبه ﴿مَّقۡضِيّٗا﴾ واقعاً مفعولاً، فإن كان الخطاب للذين أحضروا في أولها فخطاب الرسول ﷺ بآخرها مناسب؛ لأنهم كفروا به وبما أنذرهم، وإن كان الخطاب للناس كافة فخطاب الرسول ﷺ لأنه المبلغ والرسول بذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد عز وجل أنا إذا نزعنا من كل شيعة أشدهم عتيّاً لم نذر منكم يا من بقي من الأدناس والسفل أحداً ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا تحسبوا أنا إذا عذبنا المتكبرين تركنا الهمج من النار وعذابها فلا تطمعوا أيها الضعفاء أن تسلموا من جهنم ولهبها بل نعذبكم جميعاً ونخلدكم فيها وتكونون لكفركم من حطبها، ثم قال ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي أمراً واجباً مفروغاً منه؛ لأن الحكيم ـ عزَّ وجل ـ إذا وعد بشيء كان واجباً عليه لأنه صادق لا ينسب الإخلاف إليه.

ثم قال عليه السلام: وقيل ـ أيضاً ـ إن تفسير الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إن الورود وردان: ورود بالإبدان، وورود بالأعيان، فأما الفاسقون فيردون بأبدانهم، وأما المؤمنون فيردون بأعيانهم لينظروا ما نزل بأعدائهم، وليشكروا الله على السلامة من الهول الذي نجوا به منه بأعمالهم، والقول الأول أحسنهما وكلاهما حسن والله أعلم» انتهى.

قلت: استعمل الورود في القرب من الماء للشرب مثل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٣] وقول الشاعر زهير:

ولَمَّا وردْنَ الماءَ زُرقاً جِمَامُهُ　　وضعن عِصِيَّ الحاضر المتخيِّم

واستعمل لدخول النار في قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] واستعمل لوقوع الموت، قالت:

اخوتي لا تبعدوا أبداً　　وبلى والله قد بعدوا
كل ما حي وإن أمروا　　واردوا الحوض الذي وردوا

قال الراغب: «الورود: أصله قصد الماء، ثم يستعمل في غيره» انتهى.

ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ
أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا

﴿٧٢﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في الوقوع أو في الترقي من حال إلى حال فإن كانت للترتيب في الوقوع كما هو الأصل فيها، فالمعنى على الأول: لنفعلن بالكافرين والشياطين ما ذكر ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ بإدخالهم الجنة أو ضرب سور بينهم وبين أهل النار، وعلى القول بورود الكل من المؤمنين والكافرين بعد نزع الأشدِّين عتياً ننجي الذين اتقوا ونصيِّر الظالمين كلهم فيها جثياً، وعلى هذا لا يستقيم جعل نَذَر إلا بمعنى نترك التي هي بمعنى نصيِّر لا بمعنى نترك ندعهم لا ننجيهم منها لأنه لم يسبق ذكر لإدخال النار بقية الظالمين، ومن هنا يبطل التمسك لدعوى أنهم قد حضروا حولها كلهم المؤمنون والكافرون بقوله تعالى: ﴿نَذَرُ﴾ و﴿جِثِيّٗا﴾ جمع جاث والجاثي المعتمد على ركبتيه بين الانتصاب والقعود، أما من قال واردها داخلها فلا حجة لهم لأن الورود قصد الماء والوصول حوله لا الشروع فيه، هذا الحقيقة وخلافه كناية.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على الناس لمرور ذكر الكافرين والمتقين، أو على منكري البعث ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بآياتنا ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ نحن أم أنتم يعنون الكفار أم المهتدون بآيات الله المؤمنون بكتابه ورسوله ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾ محلاً ولعلهم عبروا عن المحل بالمقام لأنهم أهل قيام بسبب أعمالهم الدنيوية وتحركهم لدنياهم بخلاف الفقراء الذي لا يجدون شغلاً فهم قاعدون، كما قدمت في قول الله تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ﴾.

وقولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ الراجح: أن الندي هنا محل اجتماعهم للمشاورة يريدون أنهم فيه أهل ثياب جديدة أو جيِّدة وزينة تناسب حالهم في الثروة بخلاف المؤمنين لأن أكثرهم فقراء، فهم يريدون أن يحتجوا بأنهم أحسن حالاً في دنياهم مع أنهم كافرون بآيات الله، يعنون أنهم لو كانوا على باطل ما حسنت حالهم، أو يعنون أن إنذار الرسول ﷺ لهم بالنار غير صحيح؛ لأن الله لو كان غاضباً عليهم ما وسع لهم الرزق وقد ردَّ الله عليهم فقال تعالى:

(٧٤) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ الأثاث، قال في (الصحاح): «متاع البيت» انتهى، وقال الراغب: «الأثاث: متاع البيت الكثير، من أثّ أي كثر وتكاثف» انتهى.

فقولهم: متاع البيت يعم ما ينتفع به ويتمتع به من الفراش ونحوه من الحاجات التي تعدّ في البيوت لاستعمالها فيها، فقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ أي أجود وأجمل متاعاً في البيوت، وذلك دليل الثروة وسعة الحال.

وقوله: ﴿وَرِءْيًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «والري إن هُمِز فمن الرؤية وهو المنظر الحسن والهيئة، وإن لم يُهمَز فكذلك إلا أنها خففت الهمزة أو من الريّ بمعنى الترفه والنّعمة من قولهم: ريَّان من النعيم» انتهى.

ومثله في (الصحاح) ولفظه: «وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ مَن همزه جعله من المنظر من رأيت وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة سنيّة ـ ثم قال ـ : ومَن لم يهمز فإما أن يكون على تخفيف الهمز أو يكون من رَوِيَتْ ألوانهم وجلودهم رِيًّا أي امتلأت وحسنت» انتهى.

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضۡعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًىۗ

وهذا دليل على أن سعة الرزق وكثرة المال لا تدل على رضوان الله تعالى عمن أعطاه، ولا على أن حاله في الآخرة ستكون مثل حاله في الدنيا؛ لأن القرون الماضية عذَّبهم الله وغيَّر حالهم من الخير إلى الشر بما كفروا.

﴿٧٥﴾ ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضۡعَفُ جُندًا﴾ ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ عن سبيل الله والغواية عنها ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ فليمد له في الحياة الدنيا مَدّاً ويُمْلي له أي يُمهّله ولا يعاجله بالعقاب فهو أهل لذلك؛ لأنه زيادة في الحجة عليه، وإذا كان يتوب في المستقبل فإمهاله رحمة له والله أهل لأن يرحَم، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

والراجح: أن إخراج الكلام مخرج الطلب للدلالة على أنه أهل لا وعد عام إلا بما تقوم به الحجة من العمر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ﴾ أي الضلال ﴿رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ عاجلاً ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ عند معاينة العذاب أو الساعة ﴿مَنۡ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هم أم المؤمنون ومن هو ﴿وَأَضۡعَفُ جُندًا﴾ هم أم الله الذي له جنود السموات والأرض، وحينئذ تنكشف الحقيقة ويتبين لهم أنهم كانوا هم الخاسرين.

قال (صاحب الكشاف): «فإن قلت: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه ما هي؟

قلت: هي التي تُحكَى بعدها الجمل، ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها» انتهى.

وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

قلت: فهي مثلها في قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ..﴾ الآية [النساء:٦] وهي ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الابتدائية، وهنا يمكن تقدير: يؤخر عنهم العذاب حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون، وقد بسط (صاحب مغني اللبيب) في ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه.

﴿٧٦﴾ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ﴾ أي إذا تتلى عليهم آياتنا ﴿يَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ لأنهم يزادون علماً وإيماناً وذلك خير مما يجمع الكافرون من المتاع.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ أي الأعمال الصالحات التي تبقى فائدتها لأهلها فتنفعهم في الآخرة ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا رسول الله ﴿ثَوَابًا﴾ أي جزاءً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي مرجعاً يردُّون إليه في الآخرة فذلك خير مما افتخر به الذين كفروا من حسن النديّ والمقام.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في حكمه أو ثواباً عند ربك، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] ومن الباقيات الصالحات للمؤمن «سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

﴿٧٧﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ تفريع على ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ..﴾ إلى آخر الآيتين، والهمزة للسؤال عن رؤيته تعجيب منه في كفره ودعواه الكاذبة أنه يؤتى في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ يعني كما أوتي في الدنيا.

ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا
٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ

---

٧٨ ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ الهمزة للسؤال لأنه أخبر عن مغيب بلا حجة من الله فلماذا أخبر به؟!

﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أعلم الغيب بعد جهله به! ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ بأنه سيؤتيه مالاً وولداً؟!

٧٩ ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر وردع عن الكذب والتكذيب ﴿سَنَكۡتُبُ مَا﴾ يقوله من هذا القول وغيره من باطله ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ بدل المد من المال ﴿مَدّٗا﴾ فعذابه متواصل كلما خبت زدناهم سعيراً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والمَدّ من العذاب: هو طول الإقامة الذي لا ينقطع أبداً» انتهى.

٨٠ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ الراجح: أن معناه ونرثه ما يفتخر به؛ لأن قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ فرع على أن له مالاً في الدنيا وولداً، فهو امتداد لقولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ لأنه يعني: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ كما أوتيت في الدنيا مالاً وولداً، فلما كان مرجع تمنيه إلى افتخاره بالمال والولد صح أن يقال ونرثه ما يفتخر به ويتمنى مثله في الآخرة.

والمعنى: سيموت تاركاً لماله وولده ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ

وعلى هذا: فقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ ويؤيد أن المراد في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ ما يفتخر به من المال والولد أنه حكى عنه كلمة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ بصيغة الفعل الماضي، أما قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ فهو يشير إلى قول مكرر، لأنه مضارع يعبر به عن ما يعتاد ويتكرر، فظهر: أنه غير راجع إلى تلك الكلمة الواحدة بعينها، وقوله تعالى ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ليس له ناصر من ولد ولا غيره.

﴿٨١﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ واتخذ الذين كفروا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ عبدوهم من دون الله ليكون شركاؤهم ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ إما لينصروهم وهم يعنون، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٤-٧٥] ولا مانع أن يردّ قولهم هذا بنفي نصرهم لهم في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٣-٤] لأن رجاءهم لعزهم غير مقيد بكونه في الدنيا، بل هم لا يؤمنون بالآخرة، فلا يصح أن نقول: أرادوا في الدنيا لا في الآخرة بل هو مطلق، وإمّا ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ليكونوا لهم شفعاء عند الله فيكون لهم بشفاعتهم عز.

﴿٨٢﴾ ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع عن اتخاذهم آلهة وعن تمنيهم أن يكونوا لهم عزاً ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يوم القيامة يتبرؤون منها ولا يشكرونهم عليها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:٢٨-٢٩].

عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾
وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ إما خصماء لهم، وإما مضادّين معارضين لهم مخالفين لهم، قال الراغب: «وقوله تعالى ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي منافين لهم» انتهى.

﴿٨٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ الإرسال ضد الإمساك، فالمعنى: خلينا الشياطين وهذا معنى تسليطهم عليهم؛ لأن الشياطين أعداء لهم، فتخليتهم لإضلالهم وإزعاجهم إرسال وتسليط، وقوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): معناه: «تزعجهم إزعاجاً» انتهى.

وفي (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليهما السلام: أي تحثهم وتعجلهم إعجالاً» انتهى المراد، وقال (صاحب الكشاف): «الأزّ، والهزّ، والإستفزاز أخوات، ومعناها: التهييج وشدة الإزعاج» انتهى، فظهر: أن معنى ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ تستفزهم وتحثهم على الشرك وغيره من الباطل والإعجال عليه.

﴿٨٤﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على هلاكهم لتمردهم وطاعتهم للشياطين ومعارضتهم بالكفر والتكذيب والجدال بالباطل لإدحاض الحق ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ فأيامهم محصورة تنتهي، قال الشرفي في (المصابيح): «قال محمد بن القاسم عليه السلام: المعنى: أن ليس بينك وبين هلاكهم إلا أياماً محصورة وأنفاساً معدودة تُعَدّ لقلّتها» انتهى.

﴿٨٥-٨٦﴾ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ اذكر يوم نميز بين المتقين والمجرمين.

عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا
إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا

ولعل هذا متصل بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ ﴿نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هذا الحشر لعله عند صدور الناس عن موقف الحساب فيُحشر منه المتقون إلى الجنة عند الرحمن ﴿وَفۡدٗا﴾ يفدون إليه تعالى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: الوافد الضيف والزائر المكرم، وأصل الوفد والوفادة: الهدية لا فرق عندهم بين قولك: أوفدت إليه وقولك: أهديت إليه، فلما كان الضيف عند العرب يشرف نفوسهم ينزل منزلة الهدية في السرور به سَمَّوه وافداً معناه هدية أهديت إلينا» انتهى.

قلت: من سمى الهدية وفداً لعله سماها وفداً باعتبارها دفعاً لها إلى المُهدَى إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني: عَطَاشى» انتهى.

فهو على التشبيه بالواردين لأن من شأنهم أن يكونوا عَطشى، ولعل في العبارة تهكم بهم؛ لأن الوارد يَرد إلى الماء ليروي به عطشه، وورود المجرمين إلى ضده، فهو كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

﴿٨٧﴾ ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ﴾ إما راجع إلى كل المحشورين بمعنى لا يملكون ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ من المتقين أي لا يملكون أن يشفع أحد ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ والإستثناء منقطع لأن ملك الشفاعة لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فأمر الشفاعة إلى الله وحده.

﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن
كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يحتمل: الفرض والتقدير، أي إن كان أحد اتخذ عند الرحمن عهداً بأن يشفع شفع، كقوله: ﴿قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة:٨٠] وهذا على فرض أن اتخاذ العهد هو يكون في الدنيا فأما الشفاعة للأبرار بإذنه تعالى فلا إشكال فيها ولكن الإذن بالشفاعة لفلان إنما هو يوم القيامة ولو وقعت لما نفعت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣].

وإما الضمير في ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ للمجرمين أي لا يملكون أن يأتوا بشفاعة شفيع فيكون رداً على جعلهم أصناماً شفعاء واعتقادهم أن لهم أن يتخذوا آلهة غير الله فجعلوا لأنفسهم اختيار شفعاء لهم، وعلى هذا فالإستثناء كالأول، وفائدته بيان أن أمر الشفاعة إلى الرحمن، فأما التعليق على اسم الرحمن، فهو كقوله تعالى: ﴿اطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وفائدة ذلك: بيان أن المانع من رحمته هو من ظلم العبد نفسه، لا لأن الرحمة ليست من شأن ربه سبحانه وتعالى.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ أضافوا باطلاً إلى اتخاذهم آلهة من دون الله ليكونوا لهم عزاً، وهم يعنون أن الملائكة عليهم السلام ولد لله سبحانه وتعالى، ومعنى الاتخاذ التبني وقد ردّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿٨٩﴾ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ ﴿جِئْتُمْ﴾ التفاف للتشنيع عليهم والإهانة لهم بخطابهم وهو زجر مع ما يأتي، وقوله تعالى: ﴿إِدًّا﴾ أي منكراً عظيماً.

﴿٩٠﴾ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ خلقت هذه الأجرام ليُعبَد اللهُ في السموات والأرض، وقول المشركين هذا وعبادتهم غيرَ الله معارضة منهم للمقصود من خلق السموات والأرض والجبال وأهلها فيحق له أن يتهدم العالم ويهلك من فيه لولا حكمة الله في التأجيل.

فقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ..﴾ إلى آخر الآية دليل على أنه يحق لشرك المشركين وما قالوا في الله من ذلك أن يقع الأمر العظيم غضباً من الله سبحانه وإنكاراً لتلك الجرائم التي يستحق أهلها تعجيل القيامة أو أن يقع ذلك الأمر العظيم ضعفاً من السموات والأرض والجبال عن تحمل ذلك القول والشرك، لكونها إنما خلقت لعبادة الله، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ..﴾ الآية [الأحزاب:٧٢] وهذا عندي أقرب.

(٩١) ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ أي لأن دعوا للرحمن ولداً أي قالوا له ولد وسموا الملائكة ولداً، وهذا يدلّ على أن الضمير في منه راجع إلى قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وحده لا إليه وإلى اتخاذ المشركين آلهة، وفيه دلالة على قبح القول فيه سبحانه بما لا يليق به ولا ينبغي له لمنافاته الحكمة والغنى وكمال العزة ومثل هذا قول المجبرة إن الله تعالى يخلق المعاصي في العباد ويوجدها فيهم دون أن يوجدوها ثم يعذبهم عليها في أنه منافٍ للحكمة وللغنى، فهو قريب من قول المشركين.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ أي لا يتأتى له؛ لأنه كاره له لا يريده أبداً؛ لمنافاته الحكمة فهو كالمستحيل، فأما الولادة فمستحيلة، لكن السياق في الإتخاذ الذي هو التبنّي.

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ معنى ﴿إِن﴾ النفي أي ما ﴿كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما فرد منهم ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ مملوكاً لله يحكم فيه بما شاء، وهذا يبطل دعوى المشركين أنهم يشفعون لهم، ويبطل قولهم: إنهم ولَد للرحمن، وكذلك دعوى النصارى في عيسى عليه السلام، ودعوى اليهود في عزير.

وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ

﴿٩٤﴾ ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ﴿أَحْصَىٰهُمْ﴾ أحاط بهم علماً.

قال في (لسان العرب): «وأحصى الشيءَ: أحاط به» انتهى المراد.

فالإحصاء: حصر مجموعهم فلا يفوته منهم أحد ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ عد كل فرد أي علم به وبنسبته في العدد أي كونه واحداً من الجملة المعلومة وبنسبته من كل بعض من أبعاض الجملة، وقوله تعالى: ﴿عَدًّا﴾ تحقيق لعده إياهم وتأكيد فكل فرد منهم معدود لله تعالى راجع إليه عبداً.

﴿٩٥﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ ﴿ءَاتِيهِ﴾ يحضر في موقف السؤال والحساب ليسأله ربه ويحاسبه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يوم الهول العظيم وفي مواقف الهول يحتاج العبد إلى من يعينه أو ينصره أو يؤنسه، ولكن ذاك يوم تنقطع فيه العلائق بين المخلوقين إلا روابط الإيمان والتقوى التي يأذن الله بها، وإنما تكون بعد الموقف بدليل هذه الآية.

﴿٩٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ ﴿وُدًّا﴾ حبّاً، قال الراغب: «الود: محبّة الشيء وتمنّي كونه ويستعمل في كل واحد من المعنيين» انتهى، ومثله أفاده (صاحب الصحاح) أي يحبِّبهم ويجعل لهم حباً في قلوب بعض عباده، كما لأمير المؤمنين علي عليه السلام حب في قلوب المؤمنين.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت فيه عليه السلام، ولا يقصر العام على سببه. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «محبة في قلوب المؤمنين».

لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

﴿٩٧﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ الضمير للقرآن؛ لأن هذا الكلام منه، ولأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] والتيسير التسهيل فهو سهل التلاوة سهل البيان يفهمه العربي بسهولة؛ لسلامته من التعقيد، وكمال فصاحته، وقوله: ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي بلغتك التي هي لغة العرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بإعلامهم وَعْدَه، وفي قوله تعالى ﴿بِهِ﴾ تنبيه على لزوم الحجة، من حيث أن التبشير بالقرآن الذي هو كلام الله تعالى، وكذا قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ فهو إنذار قامت به الحجة عليهم لوضوح أن القرآن كلام الله أصدق القائلين قد تبين لهم أنه كلام الله بعجزهم عن الإتيان بمثله، وقوله: ﴿لُّدًّا﴾ جمع ألدّ.

قال الراغب في (المفردات): «الألد: الخصيم الشديد التأبي، وجمعه: لُدّ» انتهى، وفي (الصحاح): «ورجل ألدّ بيِّنُ اللَّدد وهو الشديد الخصومة، وقوم لُدّ» انتهى. فالإنذار دواء اللدد؛ لأن العاقل ينظر لنفسه فيترك اللدد.

﴿٩٨﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ قبل القوم اللُّد المذكورين ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي قروناً كثيراً.

قال الراغب: «والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه: قرون» انتهى. فالقرن مثل عاد، ومثل ثمود، أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، وهذا تخويف للقوم اللُّد.

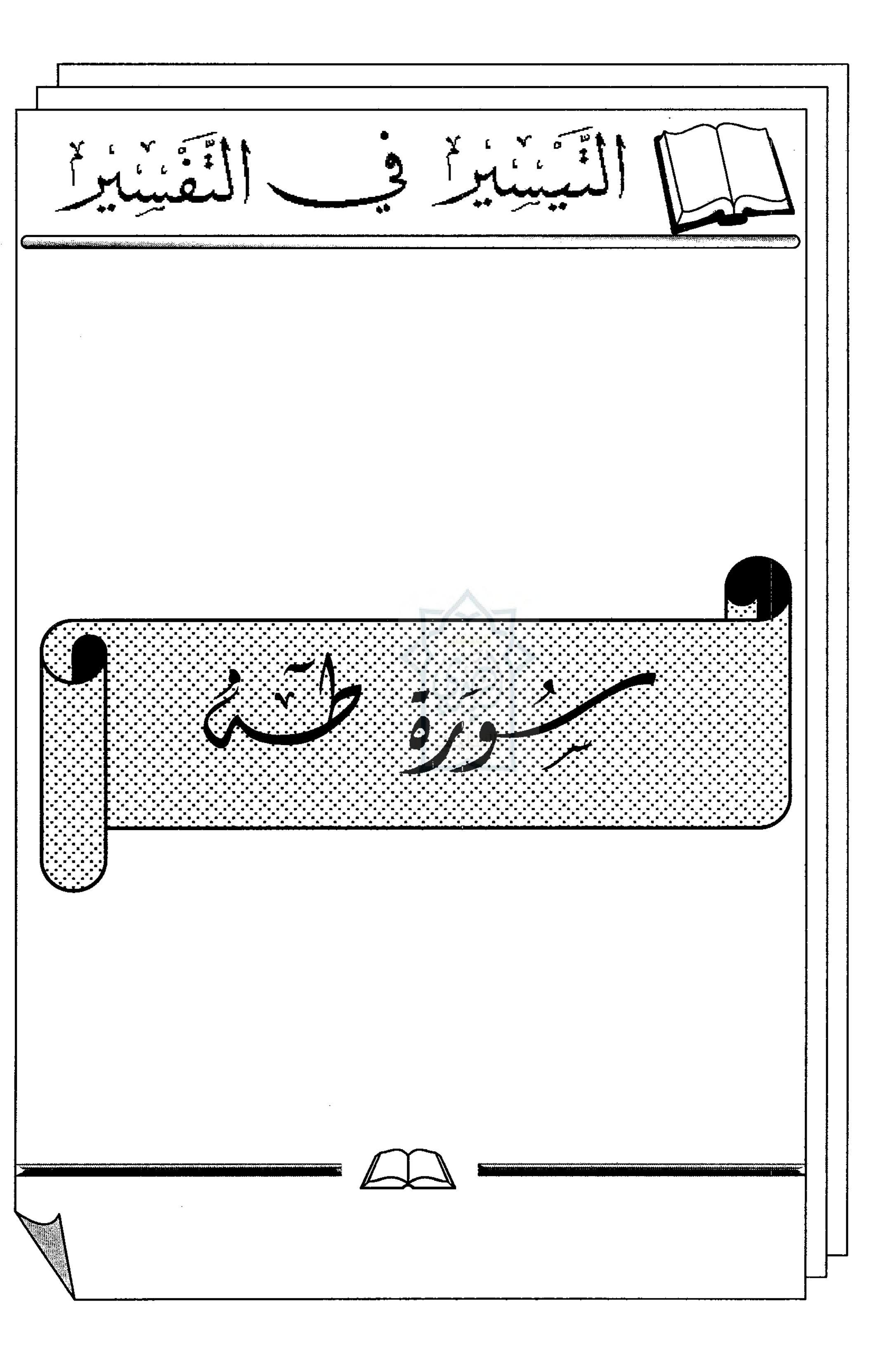
وقوله تعالى: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ بعد هلاكهم وقد صاروا جثثاً هامدة قد ضاعت في التراب ولم يبق إلا آثارها، فلا تحس أجسادها بشيء من الحواس الخمس؛ لأنها قد ضاعت، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ أي صوتاً خفياً فضلاً عن الصوت الظاهر، فالصوت الظاهر يكون من الإنسان القوي وكلما ضعف خفي صوته بقدر ضعفه، أما الميت فلا يبقى له أي صوت.

قال الشرفي في (المصابيح): «المعنى: هل تبصر منهم أحداً، أو تسمع لهم صوتاً أو حسّاً ـ ثم قال ـ : والركز: الصوت الخفي» ومثله في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام).

انتهى بحمد الله تفسير (سورة مريم)
وصلى الله على محمد وآله وسلم




التيسير في التفسير
سورة طه





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾
تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

ابتداء تفسير (سورة طه)

قال الشرفي في (المصابيح): «مكية» انتهى. قلت: هوالظاهر من مواضيع السورة

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ ﴿طه﴾ الظاهر: أن (الطا) و(الهاء) في هذا الموضع مثل الحروف في أوائل السور التي بدئت بحروف مثلها.

وفي قول للإمام زيد بن علي عليه السلام: «أنه فاتحة للسورة، وعلامة لها» انتهى، ومعناه: اسم للسورة.

ونقلت من (البرهان) في هامش مصحفي قبل سنين كثيرة نسيت عددها، وذلك على (سورة يس) قال: وروينا عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله سبحانه سماني في القرءان بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزمل، والمدثر، وعبد الله» انتهى.

وعلى هذا: يكون المعنى: يا ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ والشقاء ضد السعادة، وذلك لو كان تحميله مشقة الرسالة لا ثواب فيه ولا مصلحة، ولكن الأمر الواقع أنه يسعد به ويتذكر ويُذكِّر غيره لمصلحتهم.

﴿٣﴾ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ ﴿تَذْكِرَةً﴾ من الغفلة وإيقاظاً لأفكار الذين يخشون صدق الإنذار، فينظرون فيؤمنون به، ذكر الله المصلحة وأحال معرفة الثواب على ذلك على غير هذا الموضع، وعلى العقل.

﴿٤﴾ ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ قال في (الكشاف): «في نصب ﴿تَنزِيلًا﴾ وجوه: أن يكون بدلاً من ﴿تَذْكِرَةً﴾ إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له، لأن الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمراً..» الخ، وذكر من الوجوه نصب تنزيلاً على المدح والإختصاص، وأرى هذا الوجه أحسن الوجوه.

وقوله تعالى ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ فيه دلالة على قدرته تعالى التي لا تقاس بها قدرة، وعلمه المحيط بكل شيء، وفي ذلك إيقاظ وتنبيه للناس لئلا يعرضوا عن القرآن؛ لأنه كتاب الله ـ جلَّ جلاله ـ القادر على كل شيء العالم بكل شيء.

وفيه براعة استهلال للسورة؛ لأنه تعالى يرد في هذه السورة على المشركين الذين اتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ويخوف بالحشر وموقف السؤال، وخشوع الأصوات للرحمن، واستسلام العباد، وهذا اليوم كانت الجاهلية أكثرهم لا يؤمنون به ويستبعدون ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] ففي ذكر خلق الله تعالى للسموات والأرض رد عليهم، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْعُلَى﴾ مزيد دلالة على القدرة التي لا تقاس بها قدرة لتباعد ما بين الأرض والسموات العلى سواء أريد بها السموات كلهن لارتفاعهن كلهن بالنسبة إلى الأرض في عرف البشر، أو أريد بقوله: ﴿ٱلْعُلَى﴾ العلا من السموات السبع فضلاً عن السماء الدنيا.

ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ
﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ

﴿٥﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ تعبير عن ملكوته، لا إخبار بقعود على سرير، فهو يتعالى عن مشابهة المخلوقين سبحانه، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: علا وقهر و﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ العزة والسلطان» انتهى، وقد مر مزيد بيان في مثل هذه الآية.

﴿٦﴾ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ هذا كالاحتجاج على أن له ملكوت كل شيء؛ لأنه إذا كان هو المالك فأمر مماليكه إليه، فله الأمر والنهي والتصرف فيما هو مالكه وحده لا شريك له، فهي دليل على أنه تعالى ذو العرش أي: له المُلك بضم الميم.

قال في (الصحاح): «الثرى: التراب الندي ـ ثم قال ـ : ويقال: إلْتقى الثريان، وذلك أن يجيء المطر فيرسخ في الأرض حتى يلتقي هو وندى الأرض» انتهى؛ ولعل ذكر الثرى تنبيه على ملك الأرض بتخومها وبكل جرمها، لأنه لو قيل والأرض ما توجه الذهن إلا إلى ملك ظاهر الأرض، أوللتنبيه على ما في باطن الأرض من الكنوز والبترول والماء وغيرها أنه المالك لذلك كله.

﴿٧﴾ ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ هذه متصلة بما قبلها تقرر أن الله لا إله إلا هو، فإن تجهر بالقول سواء في الدعاء أو في غيره فهو الله سميع الدعاء، والرقيب على كل قول وكل سر ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ من القول كما يعلم الجهر، ويعلم ما هو ﴿أَخۡفَى﴾ من السر إما ما أضمر، وإما ما لم يخطر بالبال من أحوال الإنسان وأعماله وأقواله المستقبلة وغير ذلك، و الآية تعمهما.

ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ

﴿٨﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود عبادة حقاً إلا هو ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ التي تدل على أنه الإله الذي لا نـد لـه ولا ضـد ولا شـريك، والأسمـاء الحسـنى: الله، الـرحمن، الـرحيم.. إلى آخرها، وهي في القرآن مفرقـة وبعضـها في آخـر (سـورة الحشـر) و (سـورة الإخلاص) وأول (سورة الحديد) و (آية الكرسي) ومنها: القـدير علـى كـل شيء، العليم بكل شيء، الغني، الحميد، السميع، البصـير، العزيـز، الحكـيم، الحي، القيوم، وقد جَمَعْتُ في كتاب سبعة وسبعين اسمـاً وفسّـرتها، وينبغـي معرفتها بمعانيها؛ لأن ذلك من تمام الإيمان بالله تعالى.

﴿٩﴾ ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وهل أتـاك حـديث موسـى كـالعنوان لذكره، وفيه التوحيد والرسالة والقدوة في الصبر لنبئنا محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿١٠﴾ ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ اذكر ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ في سفره راجعاً من مدين إلى بلده بتقدير من الله، فإن من العجيب أنه فرّ خوفاً من آل فرعون حين ائتمروا به ليقتلوه، ثم هو من بعد هذا يسافر راجعاً إليهم كأنه غلبه الشوق، وأمله أن سيخفى على فرعون وهو لا يدري ما قدّر لـه، ففي الليل ﴿رَءَا نَارٗا﴾ وكأنه قدر الله لـه أن يقف بأهله هنا حيث رأى النار، قد ضلت عليه الطريق واحتاج أهله إلى النار لبردِ أصابهم ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ أي ابقوا هاهنا، وأذهب أنا إلى النار ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا﴾ أي من النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ بجمرة توقدون بها حطباً، والقبس بعض من النار يؤخذ لتحصل ناراً ﴿أَوۡ﴾ لعلي ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ إلى الطريق، بأن يدلني أهل النار أو أرى الطريق هناك في ضوء تلك النار.

ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ
أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ

﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ولعله خطر بباله حين أتى النار وسمع النداء ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ من هذا المنادي الذي قد عرف موسى؟

﴿١٢﴾ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠﴾ المكلم لك، المنادي لك باسمك ﴿رَبُّكَ﴾ الله ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ بناء على البقى لتبقي لتستمع لما يوحى ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ المطهر من العيوب المسمى ﴿طُوٗى﴾ ولكونك فيه فلا تعجل إلى الرجوع منه، فاخلع نعليك.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ لأمر أوحي إليك بيانه ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أعلمه أول الدين توحيده تعالى، وأمره بعبادته وحده أمراً مفرعاً على أنه لا إله إلا هو، فلا يستحق العبادة إلا هو، وهو المستحق لها ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ لتذكرني في الصلاة القيمة، وهي من العبادة خصها بالذكر لعظمها.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ في المستقبل ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ فهي لا تأتي إلا بغتة، فهي آتية ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ بما تعمل، وأصل السعي المشي السريع، فبين له من أصول الدين أن الساعة آتية، وأن الجزاء لكل نفس آت يوم القيامة، فدل على الثواب والعقاب.

بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا

﴿١٦﴾ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ لا يصرفنك ولا يحولنك ﴿عَنْهَا﴾ عن ذكرها والإشفاق منها والإستعداد لها ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ لو صدك أي فتهلك أي تعذب.

وقوله تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ يعم الكفار الجاحدين والفساق الذين ليس في قلوبهم من التصديق بها والإقرار بها ما يبعثهم على الإستعداد لها والحذر من النار، والعمل للجنة؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لبعثهم الإيمان على الإستعداد خوفاً من النار ورغبة في الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى:١٨].

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤال يلفت نظره إلى العصى ليوقن حين تكون حية أنها هي عصاه تحولت حية ـ والله أعلم.

﴿١٨﴾ ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ ذكر جواباً مفصلاً عن العصى، فقد تحققها، وقوله ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد عليها مع المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أضرب ورق الشجر لتسقط أوراقها لتأكلها غنمي ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ﴾ حاجات أبهمها تأدباً، ومنها: إذا عرضت له حية أن يقتلها أو كلب أو نحو ذلك دفعه بها.

﴿١٩﴾ ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿أَلْقِهَا﴾ اطرحها أي اطرح العصى من يدك.

تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى

﴿٢٠﴾ ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ فإذا العصى حية تمشي بسرعة بقدرة الله تعالى، فكانت تلك معجزة يعلم بها أن الله تعالى هو الذي يكلمه، فَقد فَقَد العصى التي كان يعدها لمثل هذه الحالة، وصارت هي المخوف.

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿خُذْهَا﴾ إيماناً بأنها لا تضرك، وأني أعيدها عصى، قال في (المصابيح): ﴿سِيرَتَهَا﴾ طريقتها، فهي تعود نافعة منافعها الأولى، أو صالحة لها كما كانت قبل أن يلقيها.

﴿٢٢﴾ ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى ضلوعك تشبيه لها بالجناح جناح الطائر، لكون الجنبين في الإنسان مكان الجناحين من الطائر، وذلك أن يدخل يده في جيبه متجهة إلى جنبه.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ﴾ أي من جيبك ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برص، بل بيضاء جميلة ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ مع الآية الأولى التي هي جعل العصى حية حقيقية.

﴿٢٣﴾ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ لتزداد إيماناً، وتثق بقوة حجتك.

﴿٢٤﴾ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ﴿ٱذْهَبْ﴾ رسولاً من ربك إلى فرعون، إن فرعون طغى، فكان من الحكمة إنذاره، فإما تاب وإما لم يكن له حجة يوم القيامة، وهذا تكليف شاق؛ لأنه أرسله إلى من قد فر منه أولاً، وهو طاغية لا يتحرج من القتل ظلماً، مع أن موسى قد قتل منهم نفساً، ولكنه عزم على طاعة ربه واستعانه.

﴿٣٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ
أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ اجعله واسعاً لأحتمل ما كلفت، ويكون شرحه عوناً لي على احتمال الرسالة وتكاليفها.

وقوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ أمره طاعته لربه، وصبره على الشدائد، وفي قوله: ﴿لِي﴾ تأدب يعبر فيه عن كمال الإمتثال، وأن قيامه بالتبليغ وتكاليف الرسالة قد جعلها حاجة لـه، وهي حاجة لـه من حيث أنه عبد مطيع يريد تسهيل طاعته لربه.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ ﴿عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ شَبَّهَ عسر النطق ببعض الحروف بالعقدة في اللسان، والمراد: سهّل لي النطق بحيث يفهمون كلامي حين أبلغهم رسالة ربي.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي﴾ ﴿وَزِيرٗا﴾ معيناً على تبليغ الرسالة، وتحمل مشاقها، قال في (الصحاح):«والوزير الموازر، كالأكيل المواكل؛ لأنه يحمل عنه وزره، أي ثقله» انتهى.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ قال في (الصحاح) و(الكشاف): «الأزر: القوة» وفي (مفردات الراغب): «والأزر: القوة الشديدة» انتهى.

فالمعنى: اشدد به قوتي، ولعل المراد احفظ به قوتي وثبتها، أو قوّ به قوتي ليكون قوة إلى قوة ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ فيما كلفتني من التبليغ للرسالة وتوابعه ولوازمه.

نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ

وقد احتج بهذه الآية الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام على ثبوت ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ لأن من توابع الرسالة ولوازمها وجوب طاعة موسى على من أرسل إليهم، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] ومن وجبت طاعته على العموم فهو إمام لهم، فكل رسول إمام، فالإمامة من أمر موسى الذي سأل ربه أن يشرك هارون فيه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» انظر أول كتاب (الأحكام) للإمام الهادي عليه السلام.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ لعله طلب ذلك لعلمه عليه السلام أن تكليف الرسالة يشغل القلب لما يلاقي الرسول من التكذيب والتخويف والأذى، فإذا شرح الله صدره ويسر أمره وأعانه بأخيه سهلت عليه التكاليف وتفرغ قلبه ولسانه للتسبيح والذكر لله، فطلب عليه السلام ذلك الشرح لصدره وما ذكر معه ليذكر الله كثيراً.

وخص التسبيح لله بكونه غرضاً مستقلاً وصدره في التعليل، فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ مع أن التسبيح قد دخل في الذكر في قوله: ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ والتسبيح لله نطق معناه: التنزيه من كل ضعف ومن كل نقص ومن كل عيب، والتبعيد من ذلك لله العزيز الحميد، ولعله اهتم للتسبيح، لما سوف يلاقي من المشركين من العناد والجهل بالله والشرك به والله أعلم؛ ولأنه ينبغي للمؤمن ذلك في كل حال، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] لأنه من العبادة ومن شكر النعمة، ومن الباقيات الصالحات.

إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ فلا تعي بإجابة دعائي وحسن التدبير لأمري وأمر أخي.

﴿٣٦﴾ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤلك ما سألت في هذه الآيات أي أجيب دعاؤك وأعطيت مطلوبك.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ ولقد أنعمنا عليك مرة أخرى قبل هذه المرة فتدبرها لتعلم أنك في رعاية الله تعالى منذ صغرك، وأنك أعددت لهذا التكليف بالرسالة منذ صغرك.

﴿٣٨﴾ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ هذا أول تفسير المنّة المذكورة، ولا مانع من الوحي إليها بما أوحي إليها لأنه ليس شريعة تعم العبادات والمعاملات أو تبلغها قومها، إنما هي كلمات قليلة، كما كلمت مريم عليها السلام أمر وخبر ووعد تعرف به سبيلاً لنجاة مولودها من الطاغي الجبار العنيد الذي يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فأوحى إليها ما يوحى؛ لأنه أمر عظيم إعداد لرسول إلى فرعون وملائه، وإعداد لإنقاذ بني إسرائيل من ظلم ذلك الجبار العنيد، وإعداد لإزهاق الباطل ونصر الحق.

﴿٣٩﴾ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ المصنوع من الخشب إعداداً لإلقائه في البحر ونجاته من الغرق.

فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا

﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ فاطرحيه ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ البحر العظيم، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ فهو مأمور بذلك أمراً تكوينياً: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] فالأمر للبحر خبر عن امتثاله، وإلقائه موسى بالساحل أي في طرف البرّ الذي يلي البحر المجاور لـه.

﴿يَأْخُذْهُ﴾ جواب الأوامر كلها، أو جواب الأمر الآخر؛ لأنه نزل منزلة الأمر القولي، فأعطي حكمه ﴿عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ صفتان لموصوف واحد هو عدو الله فرعون الذي هو عدو لصبيان بني إسرائيل، إلا أنه يأخذه وهو لا يعلم من أين أتى ولا ممن هو ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ﴾ يا موسى ﴿مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ كانت سبباً لنجاتك ولعودتك إلى أمك بإذن الله تعالى، فهذه المنة الأخرى مننا عليك بها.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ كأنه قيل: لننقذك من ذبح فرعون، ونردك إلى أمك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ولتغذى وتربّى تربية كاملة صالحة، تكون إعداداً لطهارة منشئك وطيب سلوكك، وصلاح ضميرك، وقوة بدنك وغرائزك، ورباطة جأشك ﴿عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ على حسن رعايتي، مطابقاً لمراقبتي لأحوالك وتدبيري لأمرك.

﴿٤٠﴾ ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾ لتبحث عنك فوجدتك في حضانة امرأة فرعون، لا تقبل ثدياً ترضع منه،

وقد أعياها وأعيى فرعون أمرك؛ لأنه مع حبهم لك ورغبتهم أن تنفعهم أو يتخذوك ولداً قد خافوا عليك الموت من الجوع والعطش، وشق عليهم صياحك الذي لا يسكته عرض الرضاع لـه؛ لأنه لا يقبل رضاعاً، ففي حال رغبتهم في التخلص من هذه المشكلة جاءت أختك فقالت: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾ فيكفيكم مؤنته، فوافقوا على ذلك، وكان ذلك سبباً رددناك به إلى أمك وهم لا يشعرون أنها أمك.

﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ بعودتك إليها في سلامة وأمن عليك أي كي تسر بذلك، فكانت هذه نعمة على أمك وعليك؛ لأن النعمة عليها نعمة عليك؛ ولأن تربيتك عند المرأة المؤمنة التي تربيك على الطهارة والصلاح نعمة عليك من ربك ﴿وَلَا تَحۡزَنَ﴾ أي ولكي لا تحزن أمك لو هلكت أو لو لم ترجع إليها.

﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسًا﴾ كما هو مذكور في (سورة القصص) ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ إذ نجيناك من آل فرعون بالخروج من المدينة إلى مدين ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ ابتليناك ابتلاءً شديداً محصك وزادك استعداداً لتحمل الشدائد عند تحمل أعباء الرسالة وقيامك بما كلفت فيها، فخوف بعد قتل القتيل، ثم سفر بلا مركوب ولا معرفة بالسبيل حيث صرت مفرداً عن أهل وعن مسكن وعن طعام وعن فراش، فقلت: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص:٢٤] فلبثت سنين ثمانياً أو عشراً في أهل مدين، قال الشرفي في (المصابيح): «و﴿مَدۡيَنَ﴾ قرية شعيب عليه السلام على عشر مراحل من مصر» انتهى.

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ﴾ على تهيئة وإعداد لك للرسالة، وتهيئة وإعداد للمجيء من مدين إلى هنا ليس مجرد صدفة، بل على ما

فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ
يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾

اقتضته الحكمة وتقدير العزيز العليم ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكريم لموسى وتقوية لإيمانه بالوحي من الله علام الغيوب، فقد ناداه باسمه وذكر له جملة من تاريخه وإنعام الله عليه وإعداده للرسالة، وكل ذلك مع المعجزة انقلاب العصى حية والأخرى بياض يده، فكل ذلك سبب لإيمان قوي لا تزعزعه الشدائد، ولا توهنه المخاوف التي يستقبلها في رسالته.

﴿٤١﴾ ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ صنعتك صنعة خاصة إعداداً لنفسي أي لي، وذلك بإكماله له وجعله صالحاً للرسالة قوياً على مقاومة الشدائد، شجاعاً حريصاً على هداية عباد الله، صبوراً واسع الصدر، رحيماً بالمؤمنين، شكوراً زاهداً في الدنيا أميناً على تبليغ الرسالة، كريماً كما وصفه الله تعالى في (سورة الدخان).

﴿٤٢﴾ ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ آياتي دلائلي التي تدل على أني أرسلتكما إلى فرعون وملائه، وهي التسع الآيات، أي مصحوباً بآياتي أنت وأخوك ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾ الوني: الضعف.

قال في (الصحاح): «الوَني: الضعف والفتور والكلال والإعياء» انتهى والمعاني متقاربة إلا أن من الضعف ما يزول بتذكر المرغب للمؤمن في العمل، فهذا الضعف يسمى فتوراً أو كلالاً، وما يستطيع أن يتخلص منه هو المنهي عنه، ولاختلاف الضعف في هذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩-٢٢] فكان الهلع مذموماً؛ لأن المؤمن يتخلص منه بإيمانه وبواعث العمل.

قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ليترك الطغيان، ويرسل معكما بني إسرائيل فيتخلصوا من طغيانه ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ القول الليّن يعين الخصم على قبول الحجة، ويقربه إلى الإنصاف في كثير من الحالات، بخلاف القول القاسي والخطاب الغليظ الجافي، فإنه يبعث على إصرار الخصم ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ أي قولا له قولاً ليناً رجاء أن يذّكر ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي راجين بالرفق واللين أن يتذكر أن له خالقاً هو ربه، أو يخشى عذاب الله عند سماعه للإنذار فيحمله ذلك على النظر والإنصاف.

﴿٤٥﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ هذه شكوى مشكلة يريدان حلها ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ يسبق تبليغ الرسالة علينا بقتلنا أو نحو القتل مما يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة، أو أن يطغى بعد إبلاغ الرسالة بأن يغضب منها فيطغى علينا بالقتل أو التعذيب.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَآ﴾ أي لا بأس عليكما من فرعون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أحفظكما وأراقب ما يكون منكما ومنه، من كلام وغيره ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يقول ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما يصنع، وما تقولان وما تصنعان، وليست معية مقارنة؛ لأن معية المقارنة تكون بين الأجسام أو الأعراض وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «ومع كل شيء لا بمقارنة».

وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا

﴿٤٧﴾ ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾ تذكير له بأنه عبد مملوك أرسلهما إليه مالكه الذي له أمره ونهيه وتعبده ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ دعهم يذهبون معنا لنحررهم من عذابك ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ فإن ذلك منك ظلم لعباد ربك ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ المالك لك الذي أنت عبد من عباده، والآية تبين لك صدقنا أنا رسولاه ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ أي الأمان والسلامة ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فاتبع الهدى تسلم.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فكما أن ﴿السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ فالعذاب ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وقولهما: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ تحقيق لصدق هذا الوعيد ببيان أنه من عند الله لم يقولاه من أنفسهما، فالمعجزة المصدقة لهما فيما بلغاه من كلام المرسل لهما، ومعنى ﴿مَن كَذَّبَ﴾ من كذب بالصدق إذ جاءه، وكذب بآيات الله، ومعنى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ تولى عن طاعة ربه وأدبر عنها، كناية عن ترك الطاعة.

﴿٤٩﴾ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ كان عدو الله مُعَبِّداً لبني إسرائيل فلعله حين قالا: ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ولم يقولا: ربنا طمع في أن يقولا: أنت ربنا أي مالكنا، ليقول لهما: فاتركا ما تدعوان إليه، ولكنه خاب أمله.

﴿٥٠﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ﴿رَبُّنَا﴾ الله الذي صور كل شيء فأعطاه صورته الخاصة به المميزة له عن غيره على اختلاف الأشياء وكثرتها.

عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ عباده أنواع الهدى، هداهم إلى معرفة أنه ربهم الذي خلقهم، وهداهم بإرسال الرسل إلى ما جاءت به الرسل، وهدى الحيوانات إلى أسباب معيشتها، وبهذا البيان عرف أنه يريد أن ربهما وربه هو الله.

وقال الشرفي في (المصابيح): «فقال محمد بن القاسم عليه السلام: يعني بكل شيء: جميع ما أنعم الله به عليهم وأعطاهم من عطايا النعم..» الخ، يعني: ربنا الذي أعطى خلقه كل شيء، وخص موسى بالخطاب إما لعلمه أن في لسانه ثقلة فأراد أن تظهر للسامعين ليحتج بها بقوله: ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢] وإما ليسهل عليه الجدل لكونه مع واحد فقط، والأول أظهر.

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قد فهم من قولهما: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أو منه ومن زيادة طويت على عادة القرآن في الإختصار، فهم أنهما ينذرانه عذاب الآخرة ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ ما زالت في بطن الأرض لم يحيها، وقد مرت عليها مئات السنين فلم تبعث، فكيف تدعيان أنا سنبعث بعد الموت.

﴿٥٢﴾ ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ﴿عِلۡمُهَا﴾ أي علم القرون الأولى ﴿عِندَ رَبِّي﴾ أي هو عالم بها لا تخفى عليه، وعلمه بها باق كما لو كانت ﴿فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ لا يغلط ربي في بعث أمة ببعث غيرها ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أمة من الأمم، ولا فرداً من أمة، فلم يترك بعثها نسياناً لها، وإنما أخرها لأجلها، أو علمها عند ربي جعل علمها في كتاب؛ لأن أعمالها مكتوبة فضلاً عن كتابتها هي.

مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ
﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ

﴿٥٣﴾ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ لما أنذره عذاب الآخرة بيَّن لـه دليلاً من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه بكل شيء؛ لئلا يظن أن الحيوة الآخرة بعد الموت متعذرة على الله تعالى، فقال: الذي جعل لكم نعمة منه عليكم، الأرض ممهدة معدة لعيشتكم فيها، فجعل تربتها مناسبة لكم، من حيث صلاحها للبذر فيها والإنبات لطعامكم وطعام أنعامكم، ومن حيث جعلها بالنسبة لكم مسطحة يمكنكم المشي عليها، والحرث والبناء، ومن حيث جعلها لا تؤلم الإنسان مباشرتها لقدميه إذا مشى عليها ونحو ذلكن فهي مهاد للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ بجعلها صالحة للسفر فيها من أرض إلى أرض، سليمة من الحواجز الجبلية أو الخنادق أو غيرها، فأمكنت التجارة بنقل البضائع في البر والبحر، فالحبوب والكسوة وغيرها من حاجات الإنسان تنقل من أرض إلى أرض، وذلك دليل على أن الله تعالى قادر عالم؛ لأنه لو لم يكن قادراً ما مهد الأرض وسلك فيها سبلاً، ولو لم يكن عالماً لما علم كيف يجعلها مهاداً، وكيف يجعلها سليمة من الحواجز.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ فيه ذكر آية عظيمة؛ لأن الماء يكون في السحاب بأي طريقة يجتمع، ثم ينزل بقدر ماءً عذباً صالحاً للحيوان والنبات، فهذا لا يكون إلا من قدير عليم مدبر لحاجات عباده.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ بيان لأدلة قدرته وعلمه وإنعامه، فلو لم يكن قادراً لما خلق النبات، ولو لم يكن فاعلاً مختاراً ما نوع النبات وجعله ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي أصنافاً من النبات ﴿شَتَّىٰ﴾ مختلفة؛ لأن الطبيعة الواحدة أو أي شيء من أسباب الوجود المفروضة فرضاً لو كان لما كان أثره إلاّ واحداً ما لم يصرفه فاعل مختار يخالف بين الأنواع، فأما الطبائع المتعددة التي تختلف منتجاتها باختلافها فهي دليل على خالق قادر عالم، أعني الطبائع دليل على فاعل مختار أوجدها ونوعها ليتنوع ما تنتجه.

وفي تحويل الضمير من السياق الذي يسمى التِفاتاً في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فائدة جلية؛ لأنه لو قال: فأنبت لاحتمل عود الضمير إلى الماء، فلما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ كان أوضح فيما سيق له الكلام من الدلالة على قدرته تعالى وعلمه، ليعلم بذلك قدرته على البعث بعد الموت، وأنه لا يضل ولا ينسى.

(٥٤) ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ تمام الدليل فأنزل الماء، وأنبت بالماء أزواجاً من نبات لفائدة معروفة، هي تحصيل طعام الإنسان والأنعام، فالتفكير في هذا يؤدي إلى معرفة خالق قادر عالم منعم على عباده مدبر لمعيشتهم في هذه الحيوة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ تنبيه على تعدد الأدلة فيما ذكره سبحانه، ومن أوضحها أن صنعة النوع الواحد من النبات دليل على الخالق القادر العالم، انظر صنعة الورقة الواحدة ومجاري الماء فيها ثم انظر كيف يحصل ثمرها بعد أن كانت لا تنمو إلا أغصاناً وأوراقاً ثم في النهاية تبدو ثمرتها، وكيف تغذى ثمرها حتى كمل وأينع.

وهذا مثل واحد لتعدد الآيات ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لأهل العقول الذين يستعملون عقولهم، فينظرون في آيات الله، وتحصل لهم العلوم بواسطة التفكير في آيات الله.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ يعني لأولي العقول واحدها نُهْيَة» انتهى.

۝ ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ ﴿مِنۡهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ إما بخلق أصل الناس الذي هو آدم المخلوق من الطين، وإما كل واحد خلقه الله من الطين، لأن أصله المني، وأصل المني الغذاء، وأصل الغذاء النبات، وأصل النبات من الماء وما يمازجه من الأرض والله أعلم.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ عند الموت، وهي نعمة على الإنسان ستره في بطن الأرض، والمراد أن هذه عادة للجنس البشري، ولا ينافيه أن بعض الأفراد لا يدفن في الأرض؛ لأن ذلك معلوم للسامع فهو خارج من العموم بعلم السامع، وكذلك لو هلك إنسان في الفضاء فهل يكون خارجاً من العموم على فرض العموم، أم لابد أن يعيده الله إلى الأرض؟ لابد من أحد الأمرين، أو أنه لا عموم؛ لأن الضمير في ﴿نُعِيدُكُمۡ﴾ للمخاطبين ويمكن تخلف العادة في المستقبل بعد هذا الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ﴾ دليل على إعادة الإنسان بتجديد جسمه الذي كان في قبره، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ [الإنفطار:٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤] وقوله تعالى: ﴿تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ يقوي أن كل فرد أخرجه الله منها في النشأة الأولى.

أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن

﴿٥٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ ﴿ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا﴾ بعموم كل الآيات وليس المراد خصوص كل آية إلا في جملة العموم، مثلاً خلق الأرض آية، إنزال المطر آية، إنبات النبات آية، حتى عم المخلوقات، أراه الله أي أرى فرعون، ويحتمل: ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ التي أرسلنا بها موسى أي العصى، وضم يده إلى جناحه من الرهب، وخروج يده من جيبه بيضاء من غير سوء.. الخ ﴿فَكَذَّبَ﴾ بكونها آيات وكذب موسى وهارون ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يؤمن امتنع.

وقوله تعالى: ﴿أَرَيْنَـٰهُ﴾ يحتمل أظهرناها له فرآها بعينيه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات:٢٠] ويحتمل: أريناه عرفناه حتى عرف أنها آيات ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] ﴿فَكَذَّبَ﴾ الرسول، وكذب بالآيات ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يطيع الله ورسوله.

﴿٥٧﴾ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ قال فرعون تكذيباً لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ وفي هذا تحريك لتعصب أصحابه للوطن، وقوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ يعنى الآيات التي أراه، وقد علم أنها آيات صحيحة سماها سحراً تمهيداً لمعارضته لها بالسحر الحقيقي توصلاً إلى تضليل قومه وتطويل النزاع.

﴿٥٨﴾ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿مَوْعِدًا﴾ لنحضر السِّحر وتحضر الآيات ليُعلم أنها سحر بزعمه مثل الذي نأتي به.

تُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ
خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ

وقوله: ﴿مَوْعِدًا﴾ يصلح مصدراً واسم زمان واسم مكان، وقوله: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ ينظر إلى أنه مصدر، وقوله:﴿مَكَانًا﴾ ينظر إلى أنه اسم مكان، والمراد تعيين المحل للموعد، وفي هذا دليل على استعمال المشترك في معنييه ﴿سِوًى﴾ مكاناً معتاداً يستوي الناس في استحقاقه.

﴿٥٩﴾ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يوم عيد لهم فقد وافق على الموعد، وزاد تعيين الزمان باليوم والساعة، ولعلهم كانوا في عيدهم يجتمعون في مكان معين؛ فلذلك استغنى بذكر يوم الزينة، والضحى من بعد شروق الشمس وانبساط شعاعها، وجعل في الموعد أن يحشر الناس ليروا الحقيقة، ويتعسر أو يتعذر على فرعون التغرير عليهم.

﴿٦٠﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ تولى: انصرف من عند موسى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ بجمعه للسحرة من المدائن ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ فرعون بما قد جمع من كيده، أي بالسحرة فأحضرهم في الموعد يوم الزينة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ يشعر بأن موسى سبقه إلى المكان، فجاء فرعون فكان مجيئه لمكان الموعد إتياناً لموسى وهارون، ويحتمل ثم أتى الموعد.

﴿٦١﴾ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أنذرهم بقوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وفسره بقوله: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ كأنه توقع من السحرة أنهم يُتْبِعُون سحرَهم: دعوى أن الله أرسلهم ليضللوا على الناس بأمر فرعون، فحذرهم أنهم إن افتروا على الله كذباً أهلكهم الله.

هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني لا تكذبوا عليه ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي يستأصلكم ويهلككم» انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يستأصلكم» انتهى، واستئصالهم إهلاكهم كلهم.

وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ﴾ أي يهلككم بعذاب، فأنذرهم مجموع الأمرين هلاكاً وعذاباً، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ قال الراغب: «الخيبة: فوت الطلب» انتهى، يعني: فوت المطلوب، ولعله يعني أن ذلك الموقف يفوت فيه مطلوب المفتري؛ لأنه موقف تنكشف فيه الحقيقة.

﴿٦٢﴾ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ كأنهم كانوا مصممين على دعوى الرسالة لهم ليعارضوا بذلك دعوى موسى، وقد علم فرعون ومن شاهد آيات موسى أنه رسول من الله؛ فلذلك اضطربوا لما أنذرهم وتنازعوا بينهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أخفوها من موسى ومن معه، لعلهم أخفوها لئلا يعرف أن السحرة قد خافوا، واحتاجوا إلى تقوية عزمهم على الإتيان بسحرهم.

﴿٦٣-٦٤﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ ﴿قَالُوٓا۟﴾ في نجواهم ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وهذا من تشجيع السحرة، أي ليسا رسولين من الله.

﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ

وقولهم: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ تحميس لهم وتحريك لحميتهم، وكأنهم قد كرهوا الإتيان بالسحر لولا أن فرعون أكرههم وشجعهم وحمسهم.

وقولهم: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أي يبدلا دينكم، ووصفوا دينهم بأنه أمثل أي حق وصواب، وقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي اجمعوا سحركم ليقوي بعضه بعضاً، ويكون باجتماعه سحراً عظيماً.

قال الراغب: «وأجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوصل إليه بالفكرة» انتهى، وقولهم: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا﴾ لعله لإظهار كثرتهم وليلقوا سحرهم في دفعة واحدة ولا يتخلف أحد، وقولهم: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ إطماع للسحرة في أن يفلحوا ويصيروا من المقربين عند فرعون.

﴿٦٥﴾ ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ سحرك بزعمهم أي تطرحه أمام الناس ليشاهدوه، وإما أن نلقي سحرنا أولاً قبلك، وفي هذا التخيير احتيال ليبدأ هو ليكون أول من ألقى، ولذلك قدموه فقالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ لأنهم يظنون أنه يلقي شيئاً خفيفاً لعدم علمه بعظم سحرهم، ليغلبوه إذا ألقوا ما لم يكن في احتسابه.

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ ثقة بالله وبحجته الصادقة، واستعمل طريق التكرم؛ لأنه قابل تخييرهم له باختيار أن يبدؤوا.

﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ

ولا يشكل أنه أي السحر منكر؛ لأن من الجائز في تلك الحال أن الله تعالى أذن به ليبطل كيدهم بإبطال سحرهم، وقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى موسى أنها أي الحبال والعصى تسعى تسير مسرعة، وذلك خيال لا حقيقة.

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ * قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أوجس في نفسه: أضمر في نفسه خوفاً من أن تقوى شبهتهم ويخفى الحق على بعض الناس بتضليل فرعون ومن معه، وفي (مصابيح الشرفي): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى أوجس وجد وأدرك في نفسه خوفاً» انتهى المراد ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ﴾ ذلك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الغالب.

﴿٦٩﴾ ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي واطرح ما في يمينك أي العصى ﴿تَلۡقَفۡ﴾ تأخذ ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ فيبطل وهو السحر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ كتب في المصحف ﴿إِنَّمَا﴾ مخلوطة (إن) و(ما) والقياس فصل (ما)؛ لأنها الموصولة أي إن الذي صنعوه ﴿كَيۡدُ سَٰحِرٖ﴾ والدليل على ذلك رفع كيد، والكيد الاحتيال لمضرة الغير أو نحوها ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ لا يظفر بخير باق.

قال في (أساس البلاغة): «وهب الله لك الفلاح والفَلَح وهو البقاء في الخير» وفي (مفردات الراغب): «والفلاح الظّفر وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيوي، وأخروي، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز..» الخ.

وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ
ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ
ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا

وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ دليل على أنه لا يفلح لا في تلك الحالة ولا في غيرها أينما صار، ولعله يشير إلى أن الإنسان قد يفلح في بعض الأماكن إذا أتاها، لكن الساحر لا يفلح حيث أتى.

﴿٧٠﴾ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ هووا بوجوههم ساجدين على الأرض؛ ولسرعة ذلك الهويّ جعل التسبيب لـه إلقاء كأنهم شيء واحد ألقي ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لأن تلقف العصى للسحر كان آية عرفوا بها صدق موسى وهارون فآمنوا بالله، وقولهم: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لأن الآية كانت على أيديهما؛ ولأن فرعون كان يدعي الربوبية، فلو قالوا آمنا بربنا ما فُهم أنهم أرادوا آمنا بالله.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ قال فرعون للسحرة حين آمنوا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي لموسى؛ لأنه ألقى العصى فتلقفت سحرهم ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يعتبر نفسه مالكاً لهم؛ ولذلك لا يرى لهم حرية الفكر والعقيدة إذا تبين الحق لهم، وتجنب أن يقول: ءآمنتم لـه من دون تعليق الإنكار على أنه قبل أن يأذن لهم؛ لأن إيمانهم قد قامت لهم به الحجة الواضحة، فلو أنكره لمجرد أنهم اتبعوا الحجة الواضحة كان في مقام ضعف.

مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ

والحاصل: أنه لجأ إلى المغالطة بإيهام أنهم قد أساؤوا بمبادرتهم إلى الإيمان قبل إذنه، واستحقوا بزعمه أن يعاقبهم، فهو قد تشاغل بالتهديد لهم، وفي الواقع أنه قد غُلِب وانقلب صاغراً.

وقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ أي اليد اليمين والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمين، وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ يريد أنه سيجعلهم مربوطين إلى جذوع النخل ربطاً شديداً، وذلك في عرض الجذوع ليس فوقها، فقامت في مقام إلى أو مقام على، باعتبار أن الجذوع حاملة لهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا﴾ أينا يعني نفسه وموسى، وهنا يشير عدو الله إلى أنهم خافوا من موسى لما غلب سحرهم فآمنوا له خوفاً منه لا لأن الحق معه فهو يهددهم بأنه يعذبهم، ولأجل عذابه يعلمون أنه أشد من موسى عذاباً ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾ عذاباً.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ جواباً عن قوله: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ ونقدمك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ﴾ الآيات ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي لن نجعل طاعتك آثر وأقدم من البينات التي جاءتنا من الله ربنا، ومن ربنا ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي الذي خلقنا، فهو ربنا لا أنت ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ مما توعدنا به، فلن يردنا ذلك عن الإيمان؛ لأنه وعيد بما غايته إنهاء الحيوة الدنيا وقضاؤها، وليس كعذاب الله، فقد قابلوا بين عذاب فرعون وعذاب الله، كما قابلوا بين طاعة فرعون واتباع آيات الله طاعة لله.

ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ

﴿٧٣﴾ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ إنما آمنا بربنا لننجوا من عقابه لنا على خطايانا التي فرطت منا، وعلى السحر الذي أكرهتنا عليه، وجعلوه جريمة؛ لأنه محاربة للحق، أو لذلك ولأنه طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ أو لذلك ولأن السحر نفسه إثم كبير.

وقولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أرادوا به أنه خير لهم من طاعة فرعون، وأبقى لهم؛ لأنه الحي الذي لا يموت، وخيره لهم في الدنيا والآخرة، وخير الآخرة عظيم دائم.

﴿٧٤﴾ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ هذا من حكاية جوابهم على فرعون، بينوا فيه أن عذاب الله أشد من عذاب فرعون، وأن عذا ب الله لكل من يأتي ربه مجرماً أي يوم الحساب يحضر موقف سؤال الله له، وهو مجرم أي مذنب ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ جزاء على إجرامه ﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حيوة سليمة من الأسباب المميتة لو كانت في هذه الحيوة، فالمعذب فيها بين الحيوة والموت يعاني شدة الموت ولا يموت، ومع ذلك لا نهاية لهذا العذاب، فأين منه عذاب فرعون لو وقع بهم.

﴿٧٥﴾ ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ﴾ يأت ربه يوم القيامة ﴿مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدنيا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين هم أهل الصفة المذكورة ﴿لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ الدرجات الرفيعة، ثواب لإيمانهم وعملهم الصالح.

وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ

﴿٧٦﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل بيان للدرجات العلى، والعدن قيل: هو الإقامة والبقاء، وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): هو الإستقرار والأمن، ولعله تطبيق لمفهوم العدن؛ لأن البقاء في المحل لا يكون إلا مع الأمن؛ لأن الخوف في المحل يزعج الخائف عنه، ويبعثه على الرحيل منه، وذلك الدرجات العلى التي هي ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أصلح نفسه وطيبها بالإيمان والتقوى، وفي هذا إشارة إلى التمييز في الآخرة بين الخبيث والطيب، وفي جوابهم هذا غاية الرد على فرعون، وهل فعل بهم ما توعدهم به؟ قيل ذلك.

والراجح: أنهم لما آمنوا صاروا من قوم موسى، وفي أمل فرعون أنه يهلكهم كلهم، ولكن نجوا منه.

﴿٧٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ﴿أَنِ اسْرِ بِعِبَادِى﴾ ارحل بهم في الليل، وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِى﴾ أي بالمؤمنين معك فدخل فيهم السحرة إن كانوا باقين حين الوحي ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي فاجعل لهم طريقاً في البحر بواسطة الضرب ﴿يَبَسًا﴾ جافاً سليماً من الوَحَل والبلل، وذلك أن فرعون سيتبعهم عند شروق الشمس، فبادر موسى بالسُّرى لئلا يدركهم فرعون وقومه قبل بلوغهم عند البحر ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ أي حال كونك آمناً ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أن يدركك فرعون وقومه ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ من المرور في الطريق شيئاً مثلاً لا تخشى أن تغرق برجوع البحر بعضه إلى بعض.

فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا
هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ

وفي هذا الموضع يظهر الفرق بين الخوف والخشية، والراجح: أن الفارق أن الخشية خوف مع محاذرة، فهو يمر في البحر لا يخاف ولا يحاذر شيئاً من مروره في هذا الخط الغريب الذي لم يسبق له نظير فالبحر عن يمينه ويساره، كل فرق منه كالطود العظيم، وهو يسير في الخط آمناً مطمئناً، لا يحتاج إلى محاذرة من شيء.

وأما الخوف فلا يعتبر في مفهومه المحاذرة فهو أعم من الخشية، فناسب ذكر الخوف ذكر الدرك أي إدراك فرعون لموسى وقومه؛ لأنه لم ينتف عن موسى المحاذرة منه بالفرار، وضرب البحر بالعصى، فهو في تلك الحال محاذر وإن ذهب عنه الخوف ـ والله أعلم ـ وظاهر هذه الآية أن الله تعالى أوحى إلى موسى بضرب طريق في البحر، أوحى ذلك عند أمره له بالسُّرَى وهو في الليل أو قبله، ولا ينافي ذلك ما في (سورة الشعراء) لإمكان أن الله أوحى إليه مرتين، مرة في الليل ومرة عند وصوله شاطيء البحر، ولعل الأول مجمل والثاني مفصل أي أن الله تعالى أمره أولاً بضرب طريق في البحر، ولم يخبره كيف يصنع، وفي المرة الثانية أوحى إليه أن اضرب بعصاك البحر.

﴿٧٨ـ٧٩﴾ ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ * وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ سار في أثرهم طالباً لإدراكهم ﴿فَغَشِيَهُم﴾ أي فرعون وقومه غشيهم من اليم شيء عظيم، ومن العجيب سيرهم في قرار البحر الذي سار فيه موسى وقومه، لم يمنعهم خوف البحر، لعله ظن أن البحر لا ينطبق عليه وعلى قومه إلا وينطبق على موسى وقومه، فهو كقوله: اقتلوني ومالكاً، أو أنهم لم يشعروا أنهم سائرون في قرار البحر؛ لأنه يبس.

ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ

وما بين الفرقين مسافة بعيدة، أو أن خيل السابقين منهم تشمست بإذن الله تعالى، فلم تدعهم يفكرون أين هم، ومن بعدهم تابعون لهم لا يفكرون كما تبعوهم في دينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ﴾ أغواهم عن طريق رشدهم ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ كما زعم في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] أو وما هدى لشيء من الحق.

﴿٨٠﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ هذه دعوة لبني إسرائيل إلى الإيمان بالقرآن والرسول كما في أوائل (سورة البقرة) من تذكيرهم بنعم الله عليهم ليشكروا نعمته ويتقوه ﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعون وكانوا له مستعبدين ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ بمواعدة نبيكم ومعه سبعون رجلاً منكم جانب الطور الجبل المبارك وجانبه ﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ الميمون المبارك المفضل على بقية الجبل في بركته، فهذا شرف عظيم ونعمة كبرى، يجب عليكم شكرها ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ وهي نعمة خصصتم بها.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿ٱلۡمَنَّ﴾ التَّرَنْجَبِين كالملح، وقيل كالسكر، وكذا طعمه، ينزل لهم على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والسلوى طائر كالحمام، [يسمى] السمانى» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «وأما المن في قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ فقد قيل: المن شيء كالطل، فيه حلاوة، يسقط على الشجر، والسلوى طائر» انتهى المراد.

هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞
وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ

وقال في (القاموس): «والمن: كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر، ويحلو وينعقد عسلاً، ويجف جفاف الصمغ، كالشُيرَخْت، والترنجبين، والمعروف بالمن ما وقع على شجر البلوط» انتهى.

﴿٨١﴾ ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿كُلُواْ﴾ إما أمر إباحة أو تعبير عن الحال في إعطائهم، كأنه يقول لهم كلوا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي لا تحملكم النعمة على الطغيان؛ لأن الواجب شكرها، والطغيان فيها كفر نعمة.

والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ أي فيما رزقناكم؛ وذلك لأنه كان واسعاً فطغوا فيه كما هو مذكور أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي إن طغيتم فيما رزقناكم حلَّ عليكم غضبي.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليهما السلام ويحِل بكسر الحاء هو يجب ولا يحرم، وإنما يحرم عذاب الله ـ كذا ـ بأعدائه ولا يحل له أن يعذب أحداً من أوليائه، وليس هذا من الحلول الذي هو المقام بالموضع والنزول، ولو كان كذلك لكان الحاء مرفوعاً» انتهى.

قلت: أراد أنه من الحل ضد الحرمة، فالمعنى: فتستحقوا غضبي، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ كناية عن هلاكه وتورطه في العذاب، وأصل الهُوِي: السقوط في مهواة من جبل أو غيره.

﴿٨٢﴾ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ﴿لَغَفَّارٌ﴾ كثير المغفرة بكثرة المعاصي التي يغفرها كلما تاب عبد من عباده ﴿لِّمَن

إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ

تَابَ﴾ رجع من إباقه من سيده ﴿وَءَامَنَ﴾ بما وجب عليه الإيمان به، فهو من تمام التوبة، ولا يغفر لمن تاب من كل عصيانه إلا الكفر بمحمد ﷺ والقرآن فلم يتب منهما.

فأما قول من قال: بجواز التوبة من بعض الذنوب دون بعض فلعله عنى أنه يخرج بالتوبة من الإصرار على ما تاب منه، فأما الغفران فهذه الآية دليل على أنها لا تغفر له؛ لأنه لم يؤمن ولم يهتد.

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي عمل ما أوجب الله عليه، لم يصحبه بمفسد له ولا محبط يمنع من قبوله؛ وذلك لأن التوبة هي الرجوع والعمل الصالح منه، وإنما الندم والعزم على الطاعة أول الرجوع، فإذا لم يصدق عزمه على الطاعة بفعلها خرج من التوبة والمغفرة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ إلى الحق في دينه وفي هذا وعد بالمغفرة لمن تاب، وأتم الأربع الخصال لبني إسرائيل وغيرهم.

﴿٨٣-٨٤﴾ ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾ وهذا يفيد أن المواعدة كانت لموسى وقومه جملة، فاختار منهم سبعين رجلاً وسبق هو وهم إلى جبل الطور، وهو يظن أن بقية قومه لاحقون بعده ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي تابعين لي، والأثر أثر قدميه، وليس المراد إلا أنهم تابعون له في سرعة، كما قال الشاعر:

القوم في أثري ظننت فإن يكن ... ما قد ظننت فقد ظفرت وخابوا

يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ
عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي لأن المسارعة إلى الفضيلة قربة كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء:٩٠] وسؤال الله تعالى لموسى ليجيب بما أجاب به، وهو تعالى عالم بذلك قبل أن يسأله، ولعله ـ أيضاً ـ تقدمة لإخباره بأن قومه قد ﴿أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

﴿٨٥﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ خذلناهم وتركناهم وشأنهم، وهذا من شرف القرآن، لا يخرج الخبر مخرج الشكوى، بل مخرج أنه وقع الباطل؛ لأنه أراد تخلية أهله وشأنهم ليدل على أنه غير مبال بهم، ولا نقص عليه بمعصيتهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ بالعِجْل الذي صنعه فعبدوه، وهم كانوا يحبون أن يكون لهم إله مشاهد، ولذلك قالوا: ﴿قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] ولعل ذلك سبب خذلانهم، والراجح: أن الله أطلع موسى على فتنة قومه في آخر مدة المناجاة؛ ولذلك قال تعالى:

﴿٨٦﴾ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من الطور إلى قومه الذين عبدوا العجل ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والأسف: أشد الغضب والندامة والحزن..» الخ، وقال الراغب في تفسيره (مفردات القرآن): «الأسف: الحزن والغضب معاً، وقد يقال لكل واحد منهما على الإنفراد» انتهى.

وفي هذه الآية الراجح: إما الجمع بين الحزن والغضب، وإما الحزن وحده؛ لأن الغضب قد ذكر، وأسفه على قومه لحرصه على إيمانهم وصلاح شأنهم؛ ولأنه قد تحمل العناء الشديد في إنقاذهم من ظلم فرعون وتحريرهم من استعباده؛ لحسن ظنه أنهم يؤمنون، فإذا خاب ظنه فيهم كان ذلك مؤسفاً؛ لأنه لا يهمه إنقاذ مشركين: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ ولعله استخلافهم في الأرض، لقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٩] وهذا يفيد: أن تمكينهم في الأرض بناءً على أنهم مسلمون، فالشرك يفوّت عليهم هذا الوعد ما داموا مشركين، فهو بهذا يذكرهم الوعد الحسن ليسلموا.

وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي بعد بياني لكم أن من الجهالة عبادة غير الله، وأن لا إله إلا الله، فهل طال عليكم العهد حتى نسيتم ذلك؟ أي لم تطل المدة، بل العهد قريب، وقوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأن أخلفتم موعدي؛ لأن إرادتكم لسبب حِلّ الغضب عليكم كالإرادة للغضب، وهذا سوء اختيار.

وقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ أي باشتغالكم بعبادة العجل أخلفتم موعدي عن أن تتبعوا أثري إلى الطور فتحضروا معي ميقاتي من ربي، ولعلهم أخلفوا موعده قبل عكوفهم على العجل؛ لأنهم لو سارعوا في السفر ولم يتوقفوا لما كانت للسامري فرصة أن يصنع العجل ويعرضه عليهم ليعبدوه، فإخلافهم لموعد موسى كان هو السبب، أو لازم إرادة العجل، وبالتالي عبادته، فالمعصية تجر إلى المعصية، والحاصل: أن إخلافهم الوعد معصية ذكرهم بها ودلهم على كبرها بقوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ﴿بِمَلْكِنَا﴾ أرادوا لم نملك أنفسنا بل غلبنا، فأخلفناه لضعفنا؛ ولهذا قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا﴾ أي أحمالاً من زينة القوم أي من زينة آل فرعون، وهذا مما يؤكد أن السحرة لم يقتلوا بل كانوا من جملة قوم موسى؛ لأنهم هم مظنة أنه كان عندهم الحلية ليتجملوا بها يوم عيدهم، وليعظم أمرهم عند ملاقاتهم لموسى.

فأما موسى والذرية من بني إسرائيل الذين آمنوا به على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم فهم بعيد عن آل فرعون منعزلون مع موسى، فيبعد أن يكون عندهم شيء من زينتهم قبل اختلاطهم بالسحرة المؤمنين وجعلوها أوزاراً ليعتذروا بثقلها في السفر أنه حملهم على إلقائها، فقالوا: ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾ لنتخفف عنها ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما حمل من زينة القوم، فعند ذلك بدا له أن يصوغها عجلاً لبصره بالصياغة، وبدا لهم أن ينتظروه لينظروا العجل حين يتم السامري صنعه أو ليعبدوه، فهو يحتمل: أنه وهم اتفقوا على أن يصوغه عجلاً ليعبدوه فانتظروه لذلك.

ويحتمل أنه بعد ما أتم صنعه بدا لهم أن يعبدوه؛ لأنهم قد حصلوا على غرضهم الذي كان في أنفسهم من قبل، حين قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وحاصل اعتذارهم: أن الحلية ثقلت عليهم فطرحوها وانتظروا موسى عندها.

وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ

﴿٨٨﴾ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ ﴿فَأَخْرَجَ﴾ السامري من مكانه الذي صاغ فيه العجل، أو ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي أظهر لهم بصياغته وصنعه في الحلية، وهذا أظهر، وقوله ﴿لَهُمْ﴾ يظهر منه: أنه صنعه لهم عن تراض بينه وبينهم، فلم يقذفوا الزينة رفضاً لها ورغوباً عنها، بل بزعمهم ليتخلصوا من ثقلها فقط، وفي الواقع أرادوا أن يصنعها لهم عجلاً؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عِجْلًا﴾ أي صورة عجل؛ لأن الصورة تسمى باسم ما هي صورة له، وقوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ أي أنها لا روح فيها ولا حيوة، وإنما هو جسد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء:٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي صوت كصوت البقر عند حاجتها للطعام أو الشراب أو نحو ذلك، وذلك أنه احتال لصوت فيه بواسطة نافخ فيه ينفخ الهوى بتصويت كما في لعبة الصبيان التي توجد في هذا الوقت ينفخون فيمتلئ هواء، ثم يرسلونه فتصوت، وأعانه على ذلك رنين العجل؛ لأنه فضة أو ذهب.

وقال الشرفي في (المصابيح) : «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ أي صاغ لهم عجلاً ﴿جَسَدًا﴾ والجسد في اللغة: هو الجسم وهو الشخص وهو الجرم وهو الشبح، وله أسماء كثيرة، والمعنى واحد، ثم قال: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ كما تخور العجاجيل أي له صوت مثل صوت التبيع من البقر، وهو على صورته، وذلك أنه جعله أجوف مخرّقا، ثم أقبلت الرياح فتولد منه صوت مثل الخوار» انتهى.

رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَـٰكِفِينَ
حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾

﴿فَقَالُواْ﴾ أي قوم موسى ﴿هَـٰذَآ﴾ أي العجل ﴿إِلَـٰهُكُمۡ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي موسى أن هذا إلهه، وهذا من سفه القوم وتلعبهم، وإلا فهم يعلمون أن الميقات لموسى من ربه خالق السموات والأرض، وهم يعلمون أن العجل لم يخلق السموات والأرض، ولم يخلقهم ولا خلق موسى، لكن مثل هذا السفه يصدر من السفهاء على طريق اللعب والمبالغة في المجون.

﴿٨٩﴾ ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلاً وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا﴾ هذا رد على قولهم: ﴿هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمۡ﴾ ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ أنه ضعيف جماد ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلاً﴾ لأنه جماد لا يقدر على الكلام ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا﴾ وذلك من أوضح الواضحات؛ لأنه جماد لم يمنع عن نفسه صياغة السامري له ولا إذابته في النار، فليس له قدرة على نفع فيعبد طمعاً في نفعه، ولا على ضر فيعبد خوفاً من ضره، فباطلهم واضح البطلان لا شبهة لهم فيه، وإنما اتبعوا أهواءهم.

﴿٩٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَـٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَـٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِى﴾ ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾ استعطاف لهم ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ بحصوله مطابقاً لأهوائكم وغرضكم الذي طلبتم سابقاً؛ ولذلك خذلتم به ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ﴾ الذي يستحق العبادة هو ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ﴾ وحده لا شريك له؛ لأنه الذي خلقكم ورزقكم وحرركم برحمته ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِى﴾ لتتركوا عبادة العجل ولتعبدوا الله وحده.

أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا

﴿٩١﴾ ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فتنوا بحبه وهم يعلمون أن موسى لا يتركهم يعبدونه، فأصروا على أن يعكفوا عليه حتى يرجع إليهم موسى، وهذا العكوف عبادة منهم له؛ لأنهم حبسوا أنفسهم عليه خضوعاً له واعترافاً بإلهيته، فقد جعلوه مالكاً لهم يستحق منهم العكوف عليه والتذلل له، وعبادة الأصنام كلها أمر عجيب من العقلاء، لكن قوم موسى كانوا في بيئة عبادة الأصنام.

﴿٩٢-٩٣﴾ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ هذا إختصار حسن؛ لأنه ربطه بقولهم: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ليرتب عليه قوله لهم حين رجع اكتفي به عن أن يقول فرجع إليهم موسى فقال لهارون: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ بالشرك أن ترفضهم وتتبعني إلى الميقات ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ حين لم تفعل.

﴿٩٤﴾ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وهنا اختصار لم يقل: أخذ برأس أخيه وأفاده في الجواب من هارون، فقد غضب موسى وأظهر غضبه حين بدأ بأخيه، واستعطفه هارون بالجواب والإعتذار: بأنه إنما بقي عندهم عملاً بوصية موسى؛ لأن الرأي والإصلاح انتظار رجوع موسى حتى يجتمع بنوا إسرائيل تحت أمره، وقد خشي هارون لو تركهم أن لا يبقى عليهم يد لموسى، وهذا معنى تفريقهم إذا كانت فرقة مع السامري، وفرقة مع موسى، وهم السبعون الذين كانوا معه في (الطور).

خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ

أما مع بقاء هارون فهم لم يرفضوا طاعة موسى متى رجع، وهارون عندهم ممثل لموسى، فاحتفظ هارون بالبقية من العلاقة بموسى، وقوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ من مقول قول موسى الذي خشي هارون أن يقوله موسى أنه لم يراقب قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

﴿٩٥﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى للسامري: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ أي ما شأنك؟ وما الباعث لك على ما عملت؟

﴿٩٦﴾ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ ﴿بَصُرْتُ﴾ حصلت لي بصيرة بالصياغة والصناعة ليس للقوم مثلها، فكانت سبباً للصياغة لإظهار المهارة والقدرة الفائقة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ الذي علّمناه، وتعليمه لنا في الدين قبضة ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ولم أنبذه كله ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ سهلت لي نفسي هذا الصنيع وطوعته وزينته.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي (البرهان) ﴿سَوَّلَتْ﴾ أي حدثت وزينت» انتهى، وفي (أساس البلاغة): «سول له الشيطان ونفسه أمراً: سهّل له وزيّن» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام المعنى فيه: بصرت بما لم يبصروا به من الإحتيال وعمل الصنعة والإعتمال ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من علمه وخبره: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي طرحتها ولم أعمل بها» انتهى المراد، فهو كقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠١].

فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ
وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ
نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا

﴿٩٧﴾ ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ﴾ تعبير عن تركه على الحالة التي يصير إليها ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ عقوبة عاجلة في الحياة الدنيا.

قال الشرفي: «أي لا تخالط أحداً، ولا يخالطك، فلا يماسه أحد إلا حُمَّا معاً فتحاموه وصار في الناس أوحش من القاتل» انتهى باختصار، وقوله: حما، أي أصابتهما الحمى اللامس والملموس معاً، وهذا باعث للسامري على أن يقول لمن لقيه لا مساس أي لا تمسّني ولا أمسك خوفاً من الحمى وتحذيراً منها، والآية الكريمة لم تذكر الحمى، ولكن قد أفادت حذر السامري من المساس، وذلك يدل على ضر سواء كان الحمى أم غيرها.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا﴾ لهلاكك موعداً أو لعذابك في الآخرة، والأول أظهر عندي، فهو لا يؤمنه من العقوبة العاجلة بل دل على هلاكه في موعد محدود، فأما الآخرة فلعله غير مؤمن بها، وقد بلغه موسى ما بلغ غيره من إنذار الكافرين عذاب النار.

وقوله: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗا﴾ أي ستعرف أنه عاجز لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ حتى تذهب صورته ويذوب ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي﴾ البحر ﴿نَسۡفًا﴾ وذلك دليل واضح على أنه ليس إلهاً.

﴿٩٧﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: لما استبك من التحريق أمر به عليه السلام فبرد بالمبارد وهي المساحل حتى صار تراباً، ثم طرح في البحر» انتهى المراد، وقوله: استبك، أي صار سبيكة بواسطة ذوبانه.

﴿٩٨﴾ ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ إلى آخر الآية، تمام كلام موسى لقومه ليكفروا بالعجل لا يطمعوا مرة أخرى في إله مصنوع ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فراقبوه واعبدوه؛ لأنه هو الذي يعلم عبادة من عبده ولا يفوت علمه شيء من المعلومات.

﴿٩٩﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ القصص في بني إسرائيل المفصل الدال على أن الله تعالى أوحاه إليك يا محمد؛ لأنه يحكي ما هو غائب عنك، ولم تقرأ كتاباً قبله ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ كما في (سورة الشعراء) و (سورة الكهف) و (سورة الأنبياء) ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ مع القصص يذكر من الغفلة، فقد آتيناك القرآن الذي يدل على صدقك ويهدي للتي هي أقوم.

﴿١٠٠﴾ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يعم الكفار وكل من لم يتبع القرآن واشتغل عنه بغيره ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ ذنباً ثقيلاً، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١] لأن المعرض عن القرآن يجتمع عليه إثم الإعراض وإثم المخالفة، فيحضر موقف الحساب حاملاً لذنب ثقيل.

وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

﴿١٠١﴾ ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ باقين ﴿فِيهِ﴾ لا يموتون ولا يفارقهم بل لا يزالون حاملين له، فالعذاب لا يطهرهم منه ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ ما اسوأه حملاً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يوم الجزاء؛ لأنه يجر عليهم عذاباً دائماً يواقعونه ذلك اليوم.

﴿١٠٢﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ ابتداء تفسير ليوم القيامة، ووصف لبعض هوله ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ الراجح: أنه عبارة عن صوت شديد يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] والصور في الأصل: آلة تولد وتكبِّر الصوت فيبلغ بعيداً.

قال في (الصحاح): «الصور: القرن، قال الشاعر:

لقد نطحناهم غداة الجمعين   نطحاً شديداً لا كنطح الصورين

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قال الكلبي لا أدري ما الصور، ويقال هو جمع صورة مثل: بسرة وبسر، أي يوم ينفخ في الصوَر أرواح الموتى، وقرأ الحسن: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ}» انتهى المراد.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي من قبورهم إلى موقف الحساب ﴿زُرْقًا﴾ لعله كقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤٠-٤١] فاجتماع الغبرة والسواد لعله الزرقة، والله أعلم.

وقيل: معنى ﴿زُرْقًا﴾ زرق العيون.

يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا
عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ

﴿١٠٣﴾ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يقولون سراً ﴿بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ما لبثتم في القبور إلا عشر ليال بأيامها.

﴿١٠٤﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ فاختلفت أقوالهم، والله أعلم بما يقولون حين يقول أشفهم طريقة وأقربهم للصواب في طريقته لا في قوله: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي ما لبثتم إلا يوماً؛ وإنما كان أمثلهم طريقة لأنه أثبت المحقق عنده ولم يزد عليه ما لا يعلم، وهذا يدل على أن النزاع كان في مدة لبثهم في الأرض بعد موتهم حتى بعثوا.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ في (أساس البلاغة): نسف الحبَّ بالمِنْسَف وهو الغربال الكبير عند الفاميين [لعل الأصل في أساس البلاغة عند الفوميين، أي عند عمال البرّ تمت منه] ومن المجاز نسفت الريح التراب الخ، فنسْف الجبال دكها بالزلزال الشديد وإطارتها عن مواقعها إما بالزلزلة وإما بالرياح ـ والله أعلم.

﴿١٠٦-١٠٧﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي فيتركها أي يترك الأرض بنسف الجبال ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ في (معلقة امرئ القيس):

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فلفل

قال شارحها: «قيعان جمع قاع وهو المستوي من الأرض» انتهى المراد.

ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وقال في (الصحاح): «والقاع: المستوي من الأرض» انتهى، وفي (أساس البلاغة): «وقاع صفصف: أملس» انتهى، أي أنه بليغ الاستواء لا ينبو منه شيء، وقد فسر بعضهم الصفصف: بالقاع المستوية، وعلى قولهم: فصفصفاً تأكيد ليفيد استواءها البليغ.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ هذا توضيح لاستواء الأرض، قال الشرفي في (المصابيح): «قال محمد بن القاسم عليه السلام: العوج في الأرض الإلتواء والإرتفاع والإنخفاض الفاحش، والأمْت القليل..» الخ، يعني القليل من الإختلاف بالإرتفاع والإنخفاض، فقد نفى تعالى القليل من الإختلاف مع نفي الكثير، وأفاد أنها تصير يومئذ مستوية استواء كاملاً.

﴿١٠٨﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي نسف الجبال يتبعون إما الناس جملة، وإما السائلون عن الجبال كفراً بالبعث، أي هم وغيرهم مثلهم يتبعون ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾ الذي يدعوهم إلى موقف الحساب، أو يدعوهم من قبورهم إلى الحشر ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ كما هم في الدنيا متمردون فهم في الآخرة منقادون، قد ذهب العوج لهيبة الموقف ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ ذلت وضعفت ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

قال الراغب: «الهمس: الصوت الخفي، وهمس الأقدام: أخفى ما يكون من صوتها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾» انتهى، ومثله في (أساس البلاغة) إلا أنه قال: همس الكلام ـ ثم قال ـ : «وسمعت همس الأقدام» انتهى، وقد فسروه بهمس الأقدام، والراجح: أنه الكلام الخفي، وصوت الأقدام لقوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ ١٠٩
﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ بالشفاعة، هي إما مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فمعناها: أن الملك لله وحده فلو شفع شافع قبل أن يأذن الله ويرضى بشفاعته لما نفعت، وفي هذا رد على المشركين لقولهم: ﴿هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وفي بعض القرآن ينفي الشفاعة إلا بإذنه، فلا تكون أصلاً فضلاً عن أن تقع ثم لا تنفع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

وعلى هذا فالمعنى: لكن من أذن له الرحمن ورضي له قولاً تنفع شفاعته، والقول هنا الشفاعة فلا بد من اجتماع الأمرين في الشافع: الأذن له والرضى بما يقول، وفي هذا تحقيق أن الملك يومئذٍ لله وحده ليس لأحد أن يتدخل في الحكم يومئذ، ونظائر هذا السياق كثير في القرآن يظهر: أنه رد على المشركين، وحملها على هذا المعنى أظهر لكثرة نظائره، ومطابقته لمقتضى تلك الظروف التي نزلت فيها السور (المكية) و (المدنية) وإما أن تكون بمعنى إلا من أذن للشافع بالشفاعة له ورضي للمشفوع له قولاً، أو ورضي للشافع له قولاً وعاد الضمير إليه لإفهام ذكر الشفاعة فاعلها؛ ولم يترجح عندي هذا الإحتمال؛ لأن ظاهر قوله: ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أن المعنى: أذن للشافع، وجعله للمشفوع له يحوج إلى تقدير: بعد أذن للشافع، وتقدير أن يشفع له ليتعلق قوله ﴿لَهُ﴾ بالشفاعة.

وقد يجاب: عن هذا بأنه يصح تعليق له بأذن، ويكون الضمير للمشفوع له، والجواب لا إشكال في الصحة مع القرينة، أما مع عدمها فلا نسلم إذ ظاهر الأذن للفاعل فظاهر إتباعه بقوله: ﴿لَهُ﴾ أنها للفاعل المأذون له، وأن الضمير له في الغالب.

وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ

ولهذا فالراجح: المعنى الأول لكثرته في القرآن، واقتضاء وقت نزول القرآن له كما مر؛ ولأن الظاهر اشتراط اجتماع الأذن والرضى للشافع ليدل على أنه لا مكانة لعبد توجب له الأذن فيما ليس مرضياً عند الله، أما على التفسير وعلى قولهم أن المعنى ورضي للمشفوع قولاً يكون قوله ورضي له قولاً كالفضلة؛ لأن قوله: ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كاف في المقصود؛ لأنه لا يأذن لمن لم يرض له قولاً؛ ولأن القول هنا يكون مبهماً صالحاً لأي قول، ولو لم يكن واجباً فيكون التعبير ضعيفاً إن أريد قولاً مخصوصاً؛ لأن العبارة قاصرة عن إفادته.

﴿١١٠﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ تكرر مثل هذه الآية بعد نفي الشفاعة لمن لا يأذن له الله، ففي (آية الكرسي): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] وفي (سورة الأنبياء): ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [آية:٢٨] فالراجح في هذه الآية: أن الضمير راجع إلى من نفى شفاعتهم، و﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المستقبل من أمورهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضي من أعمالهم وأمورهم إن عنى به الملائكة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ لا يعلمون إلا ما علمهم بآياته الدالة على عظمته وجلاله.

﴿١١١﴾ ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ العاني: الأسير، جعلوا كالأسرى لذلتهم وانقيادهم وخضوعهم، أو هو حقيقة.

ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ

قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ أي صارت عانية أي ذليلة خاشعة من عنى يعنو إذا خضع..» الخ، وفي (الصحاح): «عنى يعنو: خضع وذل ـ ثم قال ـ : والعاني: الأسير».

وقوله تعالى: ﴿لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ دلالة على أنه القائم بأمور الآخرة كما هو القائم بأمور العالمين في الدنيا، فهو في الآخرة يسألهم ويحكم فيهم، ويعاقب من شاء، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ تحققت خيبته من ملك الملوك الذي لا يرد أمره، وخيبته تحقق عذابه وبطلان رجائه السلامة.

وقوله تعالى ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي كان ظلمه على ظهره لم يفارقه كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١] وليس يحمل وزره من تاب في الدنيا؛ لأنه قد فارقه وتخلص منه بالتوبة، فإن كان المراد من حمل في الدنيا، فالتائب مخرج منه كسائر الوعيد.

﴿١١٢﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿ظُلْمًا﴾ نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ تصغيراً لقدره وهتكاً لعرضه، بل يوفى أجره وكرامته التي استحقها بإيمانه وعمله الصالح، وتشريفه هو من ثوابه، واستعمال الهضم في هتك العرض هو من المجاز، ومن فوائده أن المؤمن لا تُظهر معاصيه التي كان في الدنيا قد تاب منها، بل تستر عليه، ولعل أقرب من هذا أن الظلم النقص من الثواب، والهضم: الظلم الذي هو الجور في الحكم.

بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ
وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا

فالمعنى: أنه يوفى أجره ولا يخاف أن يظلم بعذاب أو نحوه، بل هو آمِن، ويدخل في هذا أمنه من هتك عرضه وإظهار سيئاته بغير حق، فكأنه قيل لا يخاف نقصاً من ثوابه ولا جوراً عليه، وهذا هو الراجح.

﴿١١٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي مر في هذه السورة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أنزلنا هذا الكتاب ﴿قُرۡءَانًا﴾ يقرؤه الناس ﴿عَرَبِيّٗا﴾ بلسان العرب ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾ أتينا به أنواعاً نصرفه من نوع إلى نوع، كالتذكير بهول يوم القيامة تارة وبعذاب النار تارة ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ يخافون فيتقون ذلك المتوعد به بالإيمان والطاعة ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ﴾ الوعيد ﴿ذِكۡرٗا﴾ تذكراً فنظراً في صدق الرسول فإيماناً.

﴿١١٤﴾ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ ﴿فَتَعَٰلَى﴾ من العلوّ تعالى بإنزال الكتب وإرسال الرسل وإقامة الحجة على العباد وهدايتهم إلى الرشاد والسعادة الدائمة، والنجاة من العذاب إن آمنوا، فتعالى عن كل نقص وعن كل خلاف للحكمة والتفضل والرحمة.

﴿وَلَا تَعۡجَلۡ﴾ يا محمد ﴿بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بقراءة القرآن ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ فكلما نزل عليك منه قرآن فانتظر تمام الوحي ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ فاحرص على زيادة الوحي، واطلب زيادته، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني لا تعجل بتلاوته من قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من إبلاغه» انتهى المراد.

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ
هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ

﴿١١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ عهدنا إلى آدم الإنذار والتحذير إن أطاع الشيطان، وأنه عدو له ولزوجه ﴿فَنَسِيَ﴾ نسي التحذير هذا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قيل: لم نجد له عزماً على المعصية، والأقرب عندي: لم نجد له قوة إرادة وثبات عزم، أي أنه ضعفت إرادته عند تغرير الشيطان، فالعزم هنا مثله في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] والله أعلم، ونحو هذا حكاه الشرفي عن (البرهان).

﴿١١٦﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ واذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وهذا يدل على أن هذه الصيغة تفيد الوجوب، إذا كانت من الله أو من رسوله ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ كما أمروا ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي امتنع أن يسجد.

﴿١١٧﴾ ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي لا تقربا هذه الشجرة المحرمة فتُخرجا من ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ بسبب إغواء إبليس ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ إن خرجت منها، لحاجتك إلى الحرث وصناعة اللباس وبناء المسكن.

﴿١١٨﴾ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿إِنَّ لَكَ﴾ ما دمت في الجنة ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ لتوفر الطعام فيها ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ لوجود اللباس فيها، أو ما يقوم في الستر مقامه.

إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٣٠﴾
فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ
ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ

﴿١١٩﴾ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ ﴿لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾ لتوفر الماء فيها ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ تبرز للشمس للحاجة إلى العمل فيها، ففي هذه الجنة أكل بغير تعب وشرب وظلال لا يحتاج إلى الخروج منه والتعرض للشمس، أما إذا خرج منها فاتته هذه الأشياء فقد يجوع وقد يعطش وقد يعرى، كل ذلك لتأخر حصول هذه الحاجات، ويضحى للحاجة إلى العمل في الشمس، والعرى لعله كان حتى حصل له كسوة من عمله من ورق الجنة، وليس بعيداً مع تحمله لذلك وقوته، ومع أنه خال من الناس لا يراه منهم إلا زوجه.

﴿١٢٠﴾ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ البقاء فلا تموت إذا أكلتها ﴿وَمُلْكٍ﴾ تصير ملكاً لذريتك حيث تعيش أبداً ﴿لَّا يَبْلَىٰ﴾ ملكك أي يبقى جديداً لا يملك قومك ملالا ولا تمله أنت فتبقى آمراً ناهياً مطاعاً أبداً.

﴿١٢١﴾ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ فأكلا من الشجرة بعد التحذير، وظاهر السياق أنهما أكلا منها بسبب وسوسة الشيطان، فأقل أحوال آدم عليه السلام أنها عرضت له شبهة في تعيين الشجرة المنهي عنها فعجل على الأكل منها ولم يتثبت ويعدل عن المشتبه إلى غيره، لأنه نسي تحذير الله له من إبليس، ورغب في الشجرة فلم يبالغ في الحذر من الشجرة فأكل منها على سبيل الغلط.

﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي
هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ تحققت منه المعصية ﴿فَغَوَىٰ﴾ الغواية ضد الرشد، وهي هنا سوء الحال وما صار فيه من الخروج من الجنة والشقوة بمصيره، حيث يحتاج إلى الكد والتعرض للشمس والصبر على حرها، فالشقوة لما كانت بسبب غوايته صح تسميتها غواية، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

﴿١٢٢﴾ ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ قال في (الصحاح): «واجتباه: أي اصطفاه» انتهى، ولعل معناه: أنه وفقه وأرشده للتوبة بتذكيره له بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ إما قبل توبته وهو أظهر، وإما تاب عليه ليتوب وهدى لطاعته.

﴿١٢٣﴾ ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «فالمراد به: آدم وذريته، وإبليس وذريته» انتهى، ونظيره في خطاب المفرد والمراد هو وغيره قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف:٢٨] وهذا بعد وجود الذرية، أما قبله فإبليس عدو لآدم وحواء، وآدم عدو لإبليس؛ لأنه يبغضه، ولعله يدعو عليه باللعنة، وحواء مثله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ إما هي إن الشرطية، أو أدغمت نونها في الميم، والمعنى: إن يأتكم ﴿مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ بكتب الله ورسله ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ عن طريق الحق ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا

ويحتمل لا يشقى في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن ما ناله في الدنيا من عنائها وباسها وبؤسها كله خير لـه؛ لأنه يعوض على المصائب والأوجاع، ويثاب على الصبر، فما ناله خير لـه من السلامة منه، فليس شقاوة، وهذا أرجح.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ ﴿ذِكْرِي﴾ هداي، وهو وحيه النازل على الرسل وآياته الدالة على صدقهم وعلى البعث وغيره من الأصول ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً﴾ في الدنيا ﴿ضَنكًا﴾.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «ضنك: معناه: ضيق» وقال الشرفي في (المصابيح): «الضنك: وصف يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث، ومعناه: الضيق والشدة، والمعيشة: ما يعاش به، والمعنى حياة ضيقة في الدنيا» انتهى.

قلت: لا يشكل كثرة أموال بعضهم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] وكم من غني يصاب بمرض يحتاج معه إلى ترك كثير من اللذات، فمنهم من يصاب بالسكر، ومنهم من يصاب بارتفاع الضغط، ومنهم من يشتد الخلاف بينه وبين أولاده فيتجرع الغيظ، ومنهم من يخاف عدواً يغرم في مقاومته، ولا يدعه الخوف يستريح، ومنهم من اشتد عليه الحرص فلا يزال في عناء السعي والطلب، ومنهم من يصاب بمرض أهله، وعلى الجملة قد أخبرالله أن لـه معيشة ضنكاً وهو أصدق القائلين، ولا ينافي ذلك كثرة المال والولد ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي أعمى البصيرة.

فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ

﴿١٢٥-١٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾ لا أجد لنفسي طريقة للنجاة ولا وسيلة للتخلص من العذاب، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهم السلام): «معناه: عمى عن الحجة» انتهى.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ أعرضت عنها وتركتها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العمى وإظلام الحال كما عميت في الدنيا عن آياتنا.

قال الشرفي في (المصابيح): «عن الناصر الأطروش عليه السلام أنه قال لأنه لما أعرض عن ذكر ربه فضلَّ في الحيوة الدنيا وعمي عن أمر ربه وعن التقوى، حشر يوم القيامة على ضلاله الذي هو أعمى [كذا] عن الهدى، ثم بين ذلك ـ جلّ ذكره ـ فقال: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ معنى ذلك: قد كنت أعطيتك بصراً تبصر به وعقلاً تعقل به أمري وتعرف به آياتي وأمري، ومعنى نسيت تركت ذلك فعاقبتك بأن تركتك من لطفي ورحمتي، وحشرتك على ضلالك وكفرك لنعمتي» انتهى.

ومراده: ونحشره يوم القيامة أعمى، أي ضالاً عن الحق لا يبصر ببصيرته كما كان في الدنيا، والمعنى متقارب.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي هو حشره أعمى ونسيانه ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أسرف في العصيان بالغ فيه أو أكثر من الكبائر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ له ﴿أَشَدُّ﴾ من حشره أعمى ونسيانه.

﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

﴿١٢٨﴾ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلنُّهَىٰ﴾ قال في (الكشاف): «فاعل لم يهد الجملة بعده، يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٧٨-٧٩] أي تركنا عليه هذا الكلام، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول، ويدل عليه القراءة بالنون» انتهى.

فأما تعدية (يهد) باللام فلتضمينه معنى: (يبين) وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي أمماً كثراً، وقوله: ﴿يَمْشُونَ﴾ أي قريش يمشون ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ فيرون آثارهم المذكرة بهم، ففيهم عبرة لهم ليحذروا الهلاك فيؤمنوا بالله ورسوله.

قال بعض المفسرين: «وهم يمشون في مساكنهم كما كانت تَمُر أهل مكة في أسفارهم بمساكن عاد بـ(أحقاف اليمن) ومساكن ثمود وأصحاب الأيكة بالشام، ومساكن قوم لوط بفلسطين» انتهى.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي إهلاكنا للأمم الكثيرة التي ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لأهل العقول الذين يستعملونها ويفكرون، قال في (الصحاح): «والنُهْيَة ـ بالضم ـ واحدة النَهى، وهي العقول؛ لأنها تنهى عن القبيح» انتهى، وفي إهلاك الأمم بالعذاب النازل بهم آيات، منها: أنها تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه غير غافل عما يعمل الظالمون ولا مهمل لهم، بل يعاقبهم عقاباً شديداً.

وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الراجح: أن الكلمة قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وهي مؤجلة إلى أجل مسمى عنده أي مدلولها، فهي كافية في تعذيب الكفار، وهي سبب إمهالهم في الدنيا؛ ليكون الإمهال في الدنيا حجة عليهم في يوم القيامة ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ أي عذاب هؤلاء كما عذبنا القرون الأولى ملازماً لهم كلما كفر كافر عذّب في العاجل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي وأجل لهؤلاء الكفار مسمى أي لولا كلمة سبقت من ربك يا محمد وأجل مسمى لهم لكان عذاب هؤلاء الكافرين بك لزاماً لهم أي ملازماً عاجلاً لا يفارقهم، فقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أنهم لا يتركون في العاجلة بل يهلكون بعد أجل لهم مسمى كما لكل أمة أجل من الأمم المهلكة قبلهم.

﴿١٣٠﴾ ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب والباطل المؤذي واثبت على أمرك فلهم نهاية محدودة وأجل مسمى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «وأما قوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ فهو كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥] قلت: هذا غير بعيد، ومثله في آخر (سورة الحجر): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [آية:٩٧-٩٩].

والأرجح: أنه أمر لـه بالعبادة التي تخصه غير الإشتغال بهم تعبداً لـه ﷺ لينال أجر ذلك في الآخرة؛ ولـذلك قـال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ومثله ما نحن فيه.

قال الشرفي رحمه الله: «وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال أي فسبح ـ في (نسخة المصابيح) سبح ـ وأنت حامد ربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه» انتهى.

قال: «والمراد بقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ الظهر والعصر ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته أي ومن ساعات الليل فسبح أي فصل المغرب والعشاء الآخرة» انتهى، والأولى أن التسبيح على حقيقته، وأن المراد به في الصلوات المذكورة؛ لأنه في غيرها تطوع وهنا مأمور به، وجعل الظهر من الصلوات المذكورة في هذه الآية محل النظر، ولعل صلاة الظهر لم تجب إلا بعد نزول هذه الآية، وإن كانت متقدمة في الإسلام قبل الهجرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أوائله وأواخره، وليس هذا تكراراً فالأمر الأول ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وقته محدود، والثاني ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ وقته غير محدود؛ ولعل هذا من التطوع لأن فرض صلاة الليل كان قد سبق في (سورة المزمل) فيحمل التسبيح هنا: على أنه من بعد صلاة الفجر، وأواخر النهار فوقته أطراف النهار ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ في أوله وآخره وأثنائه عند القيام للتهجد ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي رجاء الثواب الذي يرضيك في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥].

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ

وقد يقال: إن وقت التسبيح محدود بقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾.

قلت: الأطراف وقت ممتد يختلف اعتباره طرفاً باعتبار أوله أو باعتبار آخره، وذلك يناسب التطوع، بخلاف التحديد بطلوع الشمس وغروبها فهو معين يناسب الفرض، وقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ كقولنا أوائله وأواخره، وفائدة ذلك أن لا يتوهم أول جزء وآخر جزء فقط ليكثر التسبيح.

ولا يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ [هود:١١٤] في الفريضة وليس المراد به آخر جزء؛ لأنا نقول: إن الطرف الأول قد فهم من غيرها وكذا الطرف الثاني، والفريضة محدودة، فلا يفهم من هذه الآية إلا توسيع وقت صلاة الفجر وصلاة العصر لا تكثير الفريضتين، نعم وقول الشرفي: «أي سبّح وأنت حامد ربك» مستقيم، والحمد على كل نعمة غير خاص بنعمة إلهام التسبيح والتوفيق له.

﴿١٣١﴾ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تنظر نظر استحسان وإعجاب ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار؛ ولعل تنويعهم باعتبار تنويع نعمتهم، أو باعتبار تنوع كفرهم، وقوله تعالى: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما متعناهم به زهرة الحيوة الدنيا فهو متاع قليل، فالآية هذه كقوله تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

فأما نصب ﴿زَهْرَةَ﴾ فقال في (مغني اللبيب) [ص ٥٢٢ ـ٥٢٣ طبعة دار الفكر]: «والصواب: إن ﴿زَهْرَةَ﴾ مفعول بتقدير جعلنا لهم أو آتيناهم، ودليل ذلك التمتيع، أو بتقدير أذم؛ لأن المقام يقتضيه، أو بتقدير أعني بياناً لما أو للضمير..» الخ، وإذا كان زهرة الحيوة الدنيا فهو فتنة.

وقوله تعالى ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم فيه، وهذا المعنى غير معنى قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] ففي هذه الآية الإبتلاء فيه، وفي الثانية الإبتلاء به، فالفتنة هنا الأمر بالإيمان والطاعة لله ورسوله في ثروتهم المطغية لهم التي هي سبب كِبْرهم وامتناعهم من الإيمان والطاعة، والله أعلم، وفيها مأخذ أن المال الذي بأيديهم من الله، وقد حكى عن المطرفية الخلاف في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي رزق ربك لك خير؛ لأنه لا يشغلك عن ذكر الله ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لأنه في الدنيا والآخرة.

١٣٢ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿أَهْلَكَ﴾ قرابتك ونساءك، كما قال تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦] وقد جاء في (حديث الكساء) تفسير أهل البيت بأهل الكساء، وعندي أن الأهل وأهل البيت يختلف.

وأما تفسير ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أي قومك، فلعله من التطبيق بناء على أنه يفهم منه أمر القوم بطريق الأولى ـ والله أعلم ـ ومن البعيد أمر القوم بالصلاة في حال نزول هذه السورة؛ لأنها مكية، وكان أكثر قومه ﷺ مكذبين، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦].

أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ

وقد جاء في الروايات: عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣]» انظر (الإعتصام) [الجزء الأول ص ٦٩] وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي صبر نفسك عليها، وكأنه أبلغ من اصبر لزيادة تاء الإفتعال المقلوبة طاء، فهو مطاوع صبر فهو مشعر بانقياد النفس للصلاة والله أعلم ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧] ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ فلم نخلقك إلا للعبادة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فهي خير من متاع الكفار الذاهب.

﴿١٣٣﴾ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ تكرر في هذه السورة ذكر إنزال القرآن وإفادته مرات، فأولها: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ وفي أثناء السورة: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ وفي أواخرها ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ ومع كون السورة كلها قرآناً، وتأكيداً لكونه من الله: فالراجح: أن قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على معنى ذلك، أي أنزلنا عليك الذكر ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على أنه رسول، فأجاب الله عن قولهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فهم يعلمون أن قد جاءت الآيات التي تبين ما في الصحف الأولى كقصة إبليس وآدم،

وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

وقصة موسى وفرعون، وهم يعلمون أن محمداً أمي لا يقرأ الخط ولم يدرس؛ لأنه في بلد الأمّيين نشأ حتى نزل الوحي، فدل إتيان ما في الصحف الأولى على أنه من الله أوحاه إلى عبده محمد ﷺ.

﴿١٣٤﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾ أي قومك الجاحدون فهم كانوا في ضلال مبين، في حروب وأنواع من الظلم والفساد والشرك، فهم في أمس الحاجة إلى نذير من الله ينقذهم من الضلالة ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الدالة على صدق الرسول، وجميع آياتك ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ به أي نفتضح بنزول العذاب علينا، العاجل الذي يعلمه الناس كما علموا بعذاب الأمم الأولى، فقد زالت علتهم وانقطعت حجتهم بهذا القرآن.

﴿١٣٥﴾ ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿كُلٌّ﴾ مني ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ لموتي ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ تهديد، مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] لأنهم يتربصون أن يموت الرسول ﷺ فتنتهي دعوته، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور:٣٠-٣١].

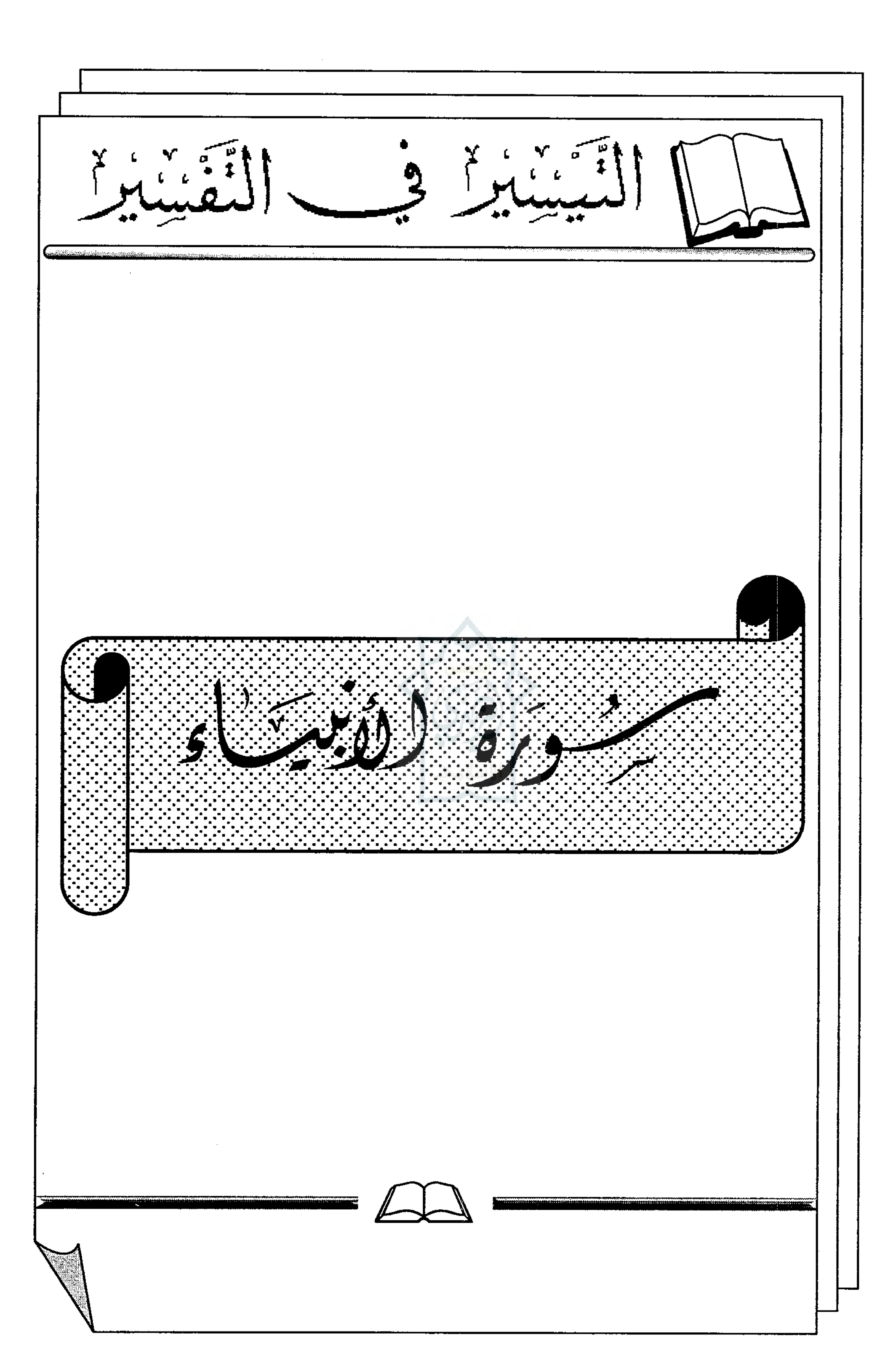
﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فستعلمون حين ترون العذاب ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ الذي لاعوج فيه

وهو دين الله، نحن أم أنتم في كفركم وشرككم، أي فسوف تعلمون أن ديننـا هو الصراط السوي، ونحن أصحابه ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ نحن أم أنـتم، أي ومـن اهتدى للصراط السوي نحن أم أنتم أي سوف تعلمون أنا نحن الذين اهتـدينا للصراط السوي، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير (سورة طه) والحمد لله




المجلس
الإسلامي


التيسير في التفسير
سورة الأنبياء


المجلس
الإسلامي

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

آياتها ١١٢ — ٢١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ
مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ

بدء تفسير (سورة الأنبياء) عليهم السلام

وهي (مكية) كما يظهر من مواضيعها

﴿١﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «يعني مشركي قريش أطلق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين» انتهى.

قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ الراجح: أنه مثل تقرَّب إليهم، يفيد: إقباله إليهم، وأنه في تقدمه إليهم قد قرب، وهذا من أجل (التاء) فأما تعديته بـ(اللام) حيث قال: ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل: (إلى الناس) فلعله مثل: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [النساء:١٣٨] ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] كما لو قيل: اقبل له مكان أقبل عليه.

فهو تهكم بالمعرضين الذين هم خطر عظيم، والأقرب: أنها (لام التعدية) أتي بها لأنه طالب لهم ﴿حِسَابُهُمۡ﴾ الذي يترتب عليه جزاؤهم فأضيف إليهم وهو حساب أعمالهم، فقد اقترب منهم الخطر العظيم ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ عنه ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ عن المذكِّر لهم يأبون إلا البقاء على الغفلة، وهذا سوء اختيارهم لأنفسهم.

﴿٢﴾ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ الذي يدعوهم إلى رحمته والنجاة من عذابه، وكفاهم أنه من ربهم المالك لهم ليصغوا إلى تذكيره ولا يعرضوا عنه، فما أبعدهم من التعقل ومن النظر لأنفسهم، كلما أتاهم ذكر من ربهم استمعوه بدون تفهم وبدون إقبال عليه بقلوبهم، بل مع اشتغال باللعب.

ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ
وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا

﴿٣﴾ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ لأنها متوجهة إلى اللعب أو الأغراض الدنيوية، أو النظر في حيلة يردون بها الحجة الواضحة، فهي لاهية بذلك أي منشغلة به، وكأن المراد باللعب: ما هو أعم من المعنى الحقيقي من كل أمر شاغل لا فائدة لـه تطلب، وإنما يدعو إليه هوى النفس.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي وأسر الناس الذين ظلموا، فهو بدل بعض من كل؛ لأن المجادل في آيات الله والمكذب للرسول ظالم أظلم من الغافل الذي لم يجادل ولم يكذب، وإسرارهم للنجوى دليل على أنهم قد عرفوا الحجة وعجزوا عن دفعها فأسروا التكذيب لعل إسرارهم محاذرة لأن يواجههم الرسول بحجة أخرى أو نحو هذا الغرض، وقولهم ﴿هَلْ هَـٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ واستعمال هل لوضوح المنفي وعلم السامع به، وجعلوا ذلك حجة على أنه غير رسول ولا حجة لهم به.

وقولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ تذهبون لسماع القرآن وقبوله، وهوترتيب بـ(الفاء) والاستفهام الإنكاري على ما زعموه حجة وأضافوا دعوى أنه سحر لقوة أثر القرآن في القلوب لما فيه من الإعجاز.

وقولهم: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ مبالغة في العناد يدعون أنهم يشاهدون الحقيقة التي يخيّل السحر خلافها.

﴿٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [قرأ نافع ﴿قل﴾] يا رسول الله لهؤلاء المكذبين: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ

بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ

وَٱلْأَرْضِ﴾ أحاط علمه بأقوال أهل السموات والأرض فهو يعلم ما تقولون ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ الذي من شأنه أن لا يخفى عليه صوت ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُخفى وما يُعلَن وبكل شيء وهو يحكم بيني وبينكم ويجزيكم بظلمكم.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ترقَّوا في الباطل إلى القول بلا مستند ولا شبهة حيث جعلوا الإنذار والتبشير ونحوه استناداً إلى أحلام كثيرة لا حكم لها ولا تأويل، ثم ترقّوا إلى دعوى أنه ﴿شَاعِرٌ﴾ مع أنهم يعرفون الشعر له أوزان مخصوصة متعارف عليها بينهم، وليس القرآن عليها بل هو ـ أي القرآن ـ مخالف للشعر في أسلوبه وفي حكمته وإحكامه، ونزاهته عن خرافات شعراء الجاهلية، فدعواهم أنه شاعر مجرد عناد وتغرير على البُله.

وقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ تجاهل للآية التي أتاهم بها، ودعوى أن القرآن الذي أعجزهم ليس بآية، وقولهم: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي أن الرسل الأولين أتوا قومهم بآيات فليأت محمد بآية كما أتوا بآيات إن كان صادقاً.

﴿٦﴾ ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ جواب عظيم يشتمل على وعيد، نعم أرسل الأولون بآيات ولكن الآيات لم تمنع المتمردين من الكفر ولم تبعثهم على الإيمان، ما آمنوا وقد أتتهم الآيات أفأنتم تؤمنون وأنتم مثلهم، بل أنتم متعرضون للهلاك مثلهم، فكيف تؤمنون وأنتم مثلهم متعرضون للعذاب.

ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ

فقوله: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي أفهؤلاء المكذبون لك يا محمد يؤمنون دون الأولين وهؤلاء معاندون مجادلون في آيات الله بالباطل لا يريدون الحق ولا ينصفون؛ لأنهم لو كانوا منصفين لآمنوا بالقرآن، وفي هذا الجواب شبه قلب الدليل.

۝٧ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا يُوحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قد أقر هؤلاء المكذبون أن الرسل الأولين قد أرسلوا فكان هذا حجة عليهم يبطل تعلقهم بأن محمداً ما هو إلا بشر مثلهم فقد أرسل الأولون وهم بشر رجال يوحي إليهم ربهم، بل لم يرسل إلى الأمم إلا رجالاً يوحى إليهم، فبطل تعلقهم في تكذيبهم لمحمد بأنه بشر مثلهم، وكونهم رجالاً معلوم عند أهل الكتب السابقة فاسألوهم عن هذا، فإنهم يخبرونكم به ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنهم كانوا رجالاً.

وليس المراد: أن يقلدوا أهل الكتاب، ولا أن يقبلوا خبرهم في غير هذا، ولكن المراد: أن يقبلوا خبرهم في أن الرسل كانوا رجالاً وهو الحق ليقطع ذلك جدالهم، وفيه مأخذ لسؤال أهل العلم عند الجهل، وجعل هذه في أهل البيت عليهم السلام من التطبيق أي بالنظر إلى دلالتها على وجوب السؤال على الجاهل، وبالنظر إلى أنهم أهل الذكر من حيث أنهم قرناء القرآن بدليل (حديث الثقلين) وغيره.

وعلى هذا: يحمل ما رواه الحاكم الحسكاني بإسناده عن الحارث، قال: سألت علياً عليه السلام في هذه الآية: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؟

وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا

قال: والله إنا لنحن أهل الذكر، ونحن معدن التأويل والتنزيل، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه» انتهى المراد.

﴿٨﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ وما جعلنا الرسل ﴿جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ بل جعلناهم بشراً يأكلون الطعام، وهذا رد على قولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ باعتبار أنه يأكل كما يأكلون، كما قال بعضهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ [المؤمنون:٣٣] لتحقيق المماثلة، فرد الله عليهم أنهم امتازوا بالوحي لا بأنهم ليسوا بشراً ولا بأنهم لا يأكلون الطعام، قال في (الصحاح): «الجسد: البدن» انتهى المراد.

فالرسل بشر يأكلون الطعام كلهم، وليس ذلك مانعاً من رسالتهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ فهم يموتون كما يموت سائر البشر، ورسالتهم لا تنافي ذلك ولا ينافيها.

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ثم بعد إرسال الرسل بالوحي والآيات وبعد تكذيب قومهم لهم، صدقنا الرسل الوعد الذي وعدناهم بنجاتهم ومن آمن معهم، وهلاك أعدائهم المسرفين فأنجيناهم من العذاب الذي أهلكنا به قومهم وأنجينا معهم من نشاء أن ننجيه ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الذين كذبوهم وجادلوا في آيات الله وعادوا رسلهم، وفيهم عبرة لكم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ
وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا

﴿١٠﴾ ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ أيها المكذبون بالقرآن ﴿كِتَٰبًا﴾ يبقى مع الأجيال لهدايتهم ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ يبقى لكم مع الأجيال المستقبلة إن آمنتم به واتبعتموه تُذكَرون في كل جيل فيبقى لكم الشرف إلى يوم القيامة ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ حين خالفتم ما هو الخير لكم وجادلتم فيه وحاولتم إبطاله ما هذا بشأن أهل العقول لو استعملتم عقولكم لآمنتم به، فقوله تعالى: ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ أي تذكرون بسببه أي فيه شرفكم ورفع قدركم، كما ذُكِرَ علي عليه السلام، وأبو ذر، وعمار.. وغيرهم.

﴿١١﴾ ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: القصم في اللغة: هو الكسر والحطم» انتهى المراد، وفي (الصحاح): «قصمت الشيء قصماً: إذا كسرته حتى يبين» انتهى.

فالمراد في الآية كم دمرنا من قرية تدميراً كاملاً، وقوله تعالى: ﴿كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾ يبين أن المراد القرية مع أهلها أو الأهل مع القرية كما في (سورة الإسراء) ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [آية:١٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي خلائف لنبلوهم.

﴿١٢﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ ﴿أَحَسُّواْ﴾ رأوه أو سمعوه، أي أهل القرية الظالمة ﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ يهربون فراراً من العذاب الذي هو بأس الله.

قال الشرفي رحمه الله: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى الركض الإنكاص والهرب، وأصل الركض تحريك الرجل على الدابة أو على الأرض معروف ذلك في لغة العرب» انتهى المراد.

قلت: التعبير عن الفرار بالركض هو ركض الدابة بعقب القدم لتسرع في سيرها، فأهل القرية حين أحسوا العذاب يركضون وهم ركبان هاربين من العذاب، فأما قول الله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢] فهو ركض في مكانه ليس سيراً، لأنه مريض، ضرب برجله فظهر ماء عذب كما قال تعالى: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢].

وفي تفسير (الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ وَجَدوا ﴿يَرۡكُضُونَ﴾ معناه: يسرعون» انتهى.

(١٣) ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ خطاب لهم ليتركوا الفرار، ولعله تهكم بهم كقوله تعالى: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ من الدور وما فيها من الأثاث والنعم المتوفرة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ راجين أن تسألوا أي ارجعوا لعلكم تسألون، أما ما هو السؤال عن أي أمر؟ فيحتمل لعلكم تسألون كما كنتم تسألون ما هو رأيكم في كذا؟ والخدم ما نعمل؟ والمحتاجون هل تتفضلون علينا؟ وكل ذلك لا يكون وإنما هو تهكم بهم لاشتغالهم بطلب النجاة وفرار الكل من أهل القرية.

ويحتمل: لعلكم تسألون كيف صارت؟ وماذا نزل بها؟ وهو أيضاً تهكم بهم؛ لأنهم مشغولون بأنفسهم يريدون نجاتها، والخطاب هنا والله أعلم إنما هو بلسان الحال كما في نظائر هذا الموضوع من القرآن.

كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا
خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ

﴿١٤﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ قد حضر هلاكنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فهو سبب نزول العذاب.

﴿١٥﴾ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ أي تلك الكلمة وهي قولهم: ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ما زالت ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ يكررونها ويرددونها ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ كالزرع المحصود ﴿خَٰمِدِينَ﴾ وسميت دعوى لأنها قامت مقام الدعوى؛ لأن من واجه العقوبة يدعي ما يخلصه منها كمن يدعي الخطأ أو السهو أو الغلط أو الإكراه أو الاضطرار، وهؤلاء لم يجدوا دعوى إلا الإقرار على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين وأن ذلك سبب العذاب حتى هلكوا، ويؤكد هذا قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [آية:٤-٥] وهذا أحد معنيين رواهما الشرفي عن الحسين بن القاسم، حيث حكى عنه أنه قال: «معنى ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي علتهم وما يدّعون من ركاكة حجتهم» انتهى المراد.

قال الشرفي: «والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت» انتهى، وقال الراغب: «جعلناهم حصيداً خامدين كناية عن موتهم من قولهم: خمدت النار خموداً طفئ لهبها» انتهى.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ هذا من الرد على الكفار الجاحدين للآخرة المكذبين للرسل الذين يقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون:٣٧] فلو كان الأمر كما زعموا لما كان في خلق

أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ

السموات والأرض فائدة، حيث يترك من فيهما لا أمر من الله ولا نهي، ولا اختبار، ولا وعد ولا وعيد، ولا فرق بين المحسن والمسيء، ولا إنصاف للمظلوم من الظالم، لكان خلق العالم لعباً؛ لأنه عارٍ عن الحكمة حينئذ.

تفكر كيف يهلك جيل فيخلفه جيل، ثم يهلك هذا فيخلفه جيل وهكذا تهلك الأجيال وتخلفها أجيال لا لتبقى بل لتموت، فلولا الجزاء في الآخرة والفرق فيها بين المحسن والمسيء ولولا إرسال الرسل وأمر المكلفين ونهيهم ولولا الإنذار والتبشير لكان خلق العالم وإهلاكه لا لفائدة ولا لحكمة ولكان ذلك لعباً ـ تعالى الله عن ذلك ـ بل هو أحكم الحاكمين.

﴿١٧﴾ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال الراغب: «اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ـ ثم قال ـ: ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو» انتهى المراد.

وفي (الصحاح): «ولهوت بالشيء ألهو لهواً، إذا لعبت به، وتلهّيت به مثله» انتهى، وفي (لسان العرب): «اللهو ما لهوتَ به ولعبت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما» انتهى، وهاهنا اللهو بمعنى اللعب، أو شامل له؛ لأن السياق يقتضي ذلك. قال الشرفي في هذا الموضع: «واللهو واللعب بمعنى» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي غير خلق السماء والأرض وما بينهما؛ لأن اللعب يكون مما يشتهيه الناظرون أو يلتذ به السامعون أو نحو ذلك، وقدرته تعالى وعلمه لو صدر اللعب واللهو من عنده يناسبهما أن يكون ما يتخذه سبحانه وتعالى في غاية الإتقان يفوق في لذته كل لهو؛ لأنه قادر على كل شيء، وعليم كيف يتقن الصنع.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ

فحاصل المعنى: أن السموات والأرض وما بينهما لا بد أن يكون خلقها لحكمة؛ لأنه سبحانه حكيم، ولم يخلق هذه الدار للهو؛ لأنه لو أراد أن يتخذ لهواً لأتقن صنعه ليكون لهواً فائقاً لكل لهو لا كصنع السموات والأرض وما بينهما الذي ليس من اللهو، فلا بد أن هذا العالم خلق لحكمة وعلى الكفار أن لا يجحدوا الحكمة ولا يعتبروه لهواً ولعباً ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تأكيد للشرط الذي هو ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ﴾ للدلالة على أن هذا مجرد فرض وتقدير لا يكون أبداً؛ لأنه لا يليق بحكمته وغناه عن كل شيء.

﴿١٨﴾ ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي نرمي به الباطل فيبطله، شبه بإلقاء الحجر أو نحوه في رأس إنسان أو غيره ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ يصيب دماغه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ هالك ميت كذلك ينزل الحق فيظهره ويبطل الباطل، وقوله: ﴿بَلۡ﴾ إضراب عن فرض اتخاذ اللهو، أي سبحانه بل يحق الحق ويبطل الباطل ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وعيد للكفار لجحدهم البعث وإرسال الرسول.

﴿١٩-٢٠﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ..﴾ فهو المستحق لأن يعبدوه، والملائكة المقربون ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ لأنهم يؤمنون به ويعلمون أنه ربهم المستحق للعبادة ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ لا يقطع عبادتهم تعبٌ، بل ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾.

ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ
رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ

قال في (الصحاح): «وحسر البعير يحسر حُسُوراً: أعيى، واستحسر وتحسَّر مثله» انتهى، قال في (لسان العرب): «الإعياء: الكلال» انتهى، وعبارة الراغب: «الإعياء: عجز يلحق البدن من المشي» انتهى.

ولعل زيادة (السين) لأنهم لا يطلبون الانقطاع لو تعبوا ولا يريدونه؛ لأنهم يسبحون برغبة دائمة، فأما (صاحب الكشاف) فقد جعل زيادة الحروف تدل على زيادة المعنى، قال: «فإن قلت: الإستحسار مبالغة في الحسور، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور قلت: في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وأنهم أحِقَّاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ﴾ أي الليل كله ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ أي كله، وهذه فائدة إسناد الفعل إلى الليل والنهار بدون (في) ولو قال: (في) ما أفاد ذلك العموم لليل كله والنهار كله وكأن العموم جاء من التعريف بأل؛ لأن المنكر لا يفيده نحو: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء:١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:٥٠].

﴿٢١﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا..﴾ إلى قوله ﴿..وَلاَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣] فالمعنى: أن المشركين اتخذوا آلهة لا تنشر أي لا يحيون ميتاً ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ بل اتخذوا ﴿ءَالِهَةً﴾ مصنوعة ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هم يحيون الموتى فتكون لهم شبهة في عبادتهم؟!

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن

﴿٢٢﴾ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾ في السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ﴾ كما يزعم المشركون ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي لفسدت السماء والأرض لما يكون بينهم من التنازع والاختلاف على العبيد الذين لم يخلقوهم ولا رزقوهم، وشأن كل متعددين يدعون الولاية على ما ليس لهم وليس لهم فيه حق أن يختلفوا؛ لأن استيلاءهم على ما ليس لهم يدعوهم الداعي إليه إلى محاولة الاستيلاء على غيره فيؤديهم ذلك إلى الاختلاف والتنازع والتناهب لما تحت أيديهم مما يسبب لفساد المتنازع فيه واختلال نظامه.

وقوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فسبحان الله أي بعُد وتنزه عما يصفون في جعلهم له شركاء فهو منزه عنهم من حيث ادّعوهم ولداً للرحمن، ومنزه عنهم من حيث ادعوا أن الله شاء من المشركين عبادة شركائهم، ومنزه عن أن يقرن في إلهيته بخرافة شرك شركائهم، ومنزه أن يكون له ند كما زعموا له أنداداً، و﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ الملك، فمعناه: مالك الملك سبحانه عن أن يجعل له عباده شركاء، وهو مالكهم ومالك الملك كله.

﴿٢٣﴾ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ﴾ لأنه مالك الملك، وكل من سواه عبد مربوب ﴿وَهُمۡ﴾ أي العباد أو الذين اتخذهم المشركون آلهة من الملائكة وغيرهم ﴿يُسۡـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عما قدموا في الحياة الدنيا؛ لأنهم عباد الله مربوبون.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ ﴿أَمِ﴾ إضراب

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟
ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ

عن إثباتهم آلهة أهو إثبات لآلهة ينشرون؟ إلى سؤال آخر. بل ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله رب العرش ﴿ءَالِهَةً﴾ ومعنى ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ وسائط بينهم وبين الله يعتبرونهم أقرب إليهم من الله ليكونوا لهم وسيلة إلى الله أو لينفعوهم وينصروهم، لا بمعنى أنهم أنداد لله ـ عزَّ وجل ـ.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ إن كنتم صادقين؛ لأنه منكم اتباع هوى الأنفس بلا دليل وهاتوا برهانكم على زعمكم أن الله شاء منكم عبادتهم ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ هذا القرآن ذكر من معي تذكير من معي يهتدون به إلى توحيد الله ونفي الشركاء ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ من الأمم ذكَّرتهم به أنبياؤهم، أي معنى هذا القرآن ذكر من قبلي، فالإشارة إلى القرآن باعتبار معانيه ودلالاته.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ لإهمالهم عقولهم ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن هذا القرآن لا يلتفتون إليه ليعلموا الحق ويتذكروا للنظر، ولو استعملوا عقولهم فنظروا في الآيات الكونية، لعرفوا الله وعدله وأنه حكيم، وأنه ليس من شأنه إهمال عباده، وتركهم بلا رسول ولا إرشاد ينظم مجتمعهم وكيف يتعاملون ويتخلصون من التناهب والتظالم وفساد المعيشة، ولو عرفوا ذلك لما أعرضوا عن الرسول حين جاءهم بالقرآن الحكيم، وفي هذه الآية أن علم الحق هو بالنظر واستعمال العقول حتى لا يعرضوا عن الوحي عند نزوله.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾ يوحي الله إليه ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وحدي لا تشركوا، فالتوحيد دين الله ورسله كلهم أجمعين.

بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ

وقوله: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ يفيد: أنه لا عبادة لله إلا عبادة من أخلص عبادته لله لم يشرك معه غيره؛ لأنه تعالى فرع الأمر بالعبادة له على توحيده، فدل على أن المراد عبادة الإخلاص وأنها هي عبادته.

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي المشركون من أهل مكة ومن حولها الذين يعبدون الملائكة زعموا أنهم أولاد لله سبحانه، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزيهاً وتبعيداً له عن اتخاذ الولد؛ لأنه الغني، وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أي بل هم أي الملائكة عباد لله مملوكون ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بالهداية لتقوى الله وعبادته والعصمة من معصيته.

﴿٢٧﴾ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ لا يسبقون الرحمن بالقول لا يبادرون قوله بقول، بل لا يقولون إلا ما علمهم ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعصون الله ما أمرهم كائناً ما كان، ولو كان تعذيب من يعبدهم.

﴿٢٨﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُ﴾ أي الله يعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما يستقبلونه من أعمالهم وأحوالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضي من أعمالهم وأحوالهم، فخبره عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، خبر عن علم؛ لأنه علام الغيوب.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ ردّ على المشركين الذين يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله وهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله وهم المؤمنون.

مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا

كما قال تعالى في بعض الأنبياء: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥] وهو إسماعيل عليه السلام، وقال تعالى حاكياً عن زكريا: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦] والمرضي عند الله هو المتقي، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة:٧-٨].

والشفاعة للمؤمنين، من الملائكة لحبهم لهم، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر:٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ قال الراغب: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم» انتهى، ومن حيث أن الخشية خوف والإشفاق مسبَّبٌ عنها فلا بد أن الإشفاق، المحاذرة ومحاولة النجاة لا مجرد الخوف، قال الراغب: «الإشفاق: عناية مختلطة بخوف» انتهى، وقال في (الصحاح): «وإذا قلت أشفقت منه فإنما تعني حذرته» انتهى.

قال الشرفي: «﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون حذرون من أن يفرط منهم فرطة» انتهى المراد.

﴿٢٩﴾ ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَمَن يَقُلْ﴾ أي لو قال ﴿مِنْهُمْ﴾ أحد؛ لأن مَن حرف شرط لا يدل على وقوع شرطه في المستقبل ولا في الحال.

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿فَذَٰلِكَ﴾ القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ سماه ظالماً لأن الشرك ظلم عظيم، ومن قال ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ﴾ قد أشرك بجعل نفسه شريكاً لله سبحانه في الإلهية.

﴿٣٠﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ تقدمة لذكر آية عجيبة لا لإثبات الرؤية ولا للتوبيخ على عدم الرؤية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالآخرة استبعاداً لإحياء الجسد بعد موته ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ مخلوطتين كالشيء الواحد، أو كانتا شيئاً واحداً.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: كانت السموات والأرض واحدة ففتق من الأرض سبع أرضين، ويقال: فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات» انتهى.

ويمكن على ما روي من قول الإمام زيد عليه السلام: كانت واحدة، أن السموات والأرض كانت شيئاً واحداً هو الماء، كما روي عن الإمام علي عليه السلام في (نهج البلاغة): «فأحرق الله بالنار زبده بعد مخضه بالرياح، فخلق السماء من دخانه والأرض من حراقته الباقية» وهذا يناسبه قوله تعالى في الآية هذه عطفاً عليه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فالسماء من الماء والأرض من الماء، وكل حي من الماء، ويناسب كون السماء والأرض مخلوقتين من الماء قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧].

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: العز والسلطان» انتهى، فعزه وسلطانه تعالى على الماء، بولايته عليه ونفوذ أمره فيه.

وقد حكى الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام تفسيراً لقول الله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ وحكى فيه عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: فلما خلق الله تبارك الله وتعالى الماء والرياح أوحى [إلى] الرياح بأن [تقصف] تصقف [كذا] وتهيج غوارب الماء وأمواجه فهيجت أمواجه وزعزعت ساكنه فارتعدت غواربه فتراكم زبده وعظم أمره، ثم أوحى الله إلى النار فأحرقت ذلك الزبد فثار منه دخان فصعد في الهواء وبقي حراقة الزبد على ظهر الماء حفا [لعل الصواب: جفاء بجيم وفاء وهمزة - تمت منه] فخلق الله تبارك وتعالى الأرض من تلك الحُراقة حُراقة الزبد وخلق السموات من ذلك الدخان كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

فقد يمكن أن يكون معنى قوله: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ هو ميّزناهما من أصل واحد وخلقناهما فجعلنا السماء من دخان ذلك الشيء والأرض من حثالته، وهذا عندي من أحسن ما أرى فيه من القول والله سبحانه [أعلم] وبذلك أحكم ولا أتوهم أنه يصح قول خلاف هذا يثبت [في نسخة (المصابيح) خالية من النقط، والراجح: أنه غلط، وأن الصواب: يثبت] على المطالبة ويمكن في المناظرة» انتهى.

قلت: لعله نظر إلى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] فرأى أن هذا التفسير هو الذي يوافقها، فأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي خلقنا من الماء كل شيء حي، أي كل دابة، وكل طائر، وكل سمك، ويحتمل: عموم الآية للشجر أو جعل أصل كل شيء حي الماء.

قال الشرفي: قال في (البرهان): «يعني كل حيوان يدب على الأرض أو يتحرك بشيء من الأشجار من الماء، وجعل حياته منه وحفظ صحته» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي أفلا يؤمنون بالله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء، وهذه آياته الكونية تدل عليه وآياته القرآنية تدل عقولهم عليها، أفبعد هذا لا يؤمنون ينكر عليهم ترك الإيمان به بعد وضوح الدلائل عليه.

﴿٣١﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً رواسي ثابتة في أماكنها، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالرواسي: الجبال الثوابت» انتهى.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ أي لتحفظها الجبال الرواسي من الميَدان أي من التحرك حركة اضطراب وتزلزل، قال في (لسان العرب): «وقال أبو العباس في قوله: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] فقال: تَحرَّكُ بكم وتَزَلْزَلُ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه مسالك، واحدها: فج» انتهى، والضمير هنا للجبال تتخللها الفجاج لتكون ﴿سُبُلٗا﴾ قال في (الصحاح): «الفج: الطريق الواسع بين الجبلين» انتهى.

والفج قد يكون في الجبل إذا كان فيه منخفض منه متسع بين مرتفعين فلذا جوزت أن الضمير للجبال؛ لأن الفج فيها أو بينها إذا كان بين جبلين، وكلام الإمام زيد عليه السلام يعمهما، ويحتمل: أن الضمير للأرض كقوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح:٢٠] والراجح هنا: هو الأول، ليدل على الآية في خلق الجبال تتخللها الفجاج التي تصير سبلاً؛ لأن الجبال لو اتصل بعضها ببعض وكانت أعاليها مرتفعة كلها على شكل واحد لتعسَّر الخروج

ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ

من أرض إلى أرض خلف الجبل، ولم تتعين جهة منه للسالك، فكانت كل ناحية منه يمكن الصعود فيها والنزول منها تصلح أن تجعل سبيلاً، وبذلك تصعب معرفة السبيل في الجبل، فقال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ يعرفون من أين يسلكون لوجود الفج الذين يتعين الخروج منه لسهولته، ويحتمل: لعلهم يهتدون لمعرفة الله تعالى بما يرون من آياته ونعمه في الجبال.

﴿٣٢﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾

﴿سَقۡفٗا﴾ للأرض كسقف البيت في أنه سقف، أما السماء فهي سقف للأرض من كل جهاتها، فأينما صار الإنسان من الأرض فالسماء فوقه، فهي محيطة بالأرض وبما بينهما، وقوله تعالى: ﴿مَّحۡفُوظٗا﴾ الراجح أن معناه محفوظاً من كل شيطان رجيم ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها لأنهم مهملون لعقولهم، والراجح: أن من آياتها البروج التي هي منازل الشمس والقمر؛ لأن الإنسان يعتبرها في السماء فهي مضافة إلى السماء في اعتبار الإنسان.

﴿٣٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾

﴿خَلَقَ ٱلَّيۡلَ﴾ قدره بما يناسب الإنسان والحيوان والشجر فجعله لا يطول حتى يضر ذلك طوله، ولا يقصر حتى تقل فائدته أو تعدم، وكذا تقدير النهار والشمس جعلها بمقدار ما يحتاجها لشعاعها وضيائها، والقمر بمقدار يصلح انقسامه أهلة فما فوقها حتى يتم، ثم ينقص حتى يغيب فيكون ذلك لمدة شهر، وبالقمر وسيره يتحدد الشهر، وبالشهور تتحدد السنة.

مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فالشمس تسبح أي تجري في منازلها، وكذا القمر، والليل والنهار يتخالفان على جهات الأرض، فيكون النهار في جهة يسبح، والليل في جهة أخرى يسبح، ثم يخلف الليل النهار، وهكذا كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، وكل منهما يعقب الآخر حيث كان، ولا حاجة لجعل الضمير للشمس والقمر دون الليل والنهار، ولا لتقدير النجوم مع الشمس والقمر بل كل الأربعة تسبح.

قال (صاحب الكشاف): «وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة» انتهى.

وجملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ إما خبر للمبتدأ الذي هو ﴿كُلٌّ﴾ فقوله: ﴿فِى فَلَكٍ﴾ متعلق بـ﴿يَسْبَحُونَ﴾ وإما حال من ﴿فِى فَلَكٍ﴾ والخبر: ﴿فِى فَلَكٍ﴾ أي كل في فلك حال كونه يسبح، وإما خبر بعد خبر، والراجح الأول، والأفلاك مجاريها التي قدرها الله لها فللشمس فلك وللقمر فلك ولليل فلك وللنهار فلك، وكل واحد يسبح في فلك.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا رسول الله ﴿ٱلْخُلْدَ﴾ أي البقاء في الحياة ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ لعل هذا رد على الكافرين في قولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠] كأنهم لا يموتون ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ منك ومنهم ومن غيركم ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تجد ألمه، شبّه وجدان ألمه بذوق الشيء المر.

إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ﴾ في هذه الحياة من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وسائر الشر كالوباء والفيضان في البحر وشدة الحر التي تضر بعض الناس وشدة البرد كذلك، وخلق الأشياء السامة والضارة لبعض الناس، فكل هذا ﴿فِتْنَةً﴾ أي اختبار أيصبر العقلاء أي شبه الاختبار؛ لأن الله تعالى عالم في الأزل بمن يصبر ومن لا يصبر، وكذلك الخير بأنواعه وهو اختبار أيشكرون؟ أم يكفرون؟

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ راجع إلى الآية كلها فيرجع العباد إلى الله وحده لتجزى كل نفس بما تسعى من ثواب أو عقاب، وكذلك ليجزي الصابر وغير الصابر والشاكر والكافر ففي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ من أجل ما يلاقي من شدائد بسبب النبوءة وما قام به من أمر الله، فله أجره عند الله، وللكافرين جزاؤهم.

ولعل في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ رد على الكفار الذين يزعمون أن الله تعالى وسع لهم الرزق، لأنه يحبهم كما يفيده قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣] فبيّن الله تعالى: أن الخير الذي هم فيه فتنة لهم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾ يا رسول الله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ ما يتخذونك إلا مهزوءاً به استخفُّوا بك واتخذوك مستخفّاً به أي جعلوك محلاً لاستخفافهم المتتابع

فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ يصغرونه ويعظمون ذكره لآلهتهم ويعدونه تكلم بما لا يناسب حقارته بزعمهم.

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ**﴾ [الفرقان:٦٠] جحداً لاسم الرحمن ورفضاً لتسميته الرحمن وهو كفر انفردوا به عن كفار أهل الكتاب لجهلهم، مع أن الله جل جلاله واسع الرحمة هو أهل أن يسمى الرحمن، وإنما عاندوا في ذلك وكابروا ولم ينظروا إلى أنه ربهم الذي خلقهم ورزقهم ولا يحصون أنعمه عليهم، وهذه غاية السخافة أن يعيبوا الكلام في آلهتهم التي لا تنفع ولا تضر ولا يعيبون على أنفسهم كفرهم بالرحمن الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وهم مع ذلك يستحقرون من هو منتهى الكمال البشري ﷺ ويسخرون منه.

﴿٣٧﴾ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ قال الشرفي: قال في (البرهان): «والفرق بين العجلة والسرعة، أن العجلة تقديم الشيء قبل وقته، والسرعة تقديم الشيء في أول أوقاته» انتهى.

قلت: العجلة التسرع في الأمور أو الميل إليه، ولكن المعيب ما خالف مقتضى العقل، والإنسان أي الأكثر كالمطبوع على العجلة حتى كأنه خلق منها إلا أن جعل الإنسان خلق من عجل مجاز عن كونه طبعه أو عن كثرته منه، قال في (مغني اللبيب) في (من) اتصلت بها (ما) الكافة، كقول أبي حية:

وإنا لمما نضرب الكبش ضربة ...

ثم قال: والظاهر أن (ما) مصدرية، وأن المعنى مثله في ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍ﴾.

وضنت علينا والضنين من البخل ...

فجعل الإنسان والبخيل مخلوقين من العجل والبخل مبالغة» انتهى.

ويظهر: أن قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍ﴾ تهكم بالكفار الذين يستعجلون بالعذاب؛ لأن العذاب ليس مما يميل إليه الطبع ويستعجله العجول، وإنما هم يستعجلونه كفراً به وإظهاراً للثقة بأنه لن يكون، هذا إذا كان السياق في استعجالهم بالعذاب، وكذا إذا كان استعجالاً بالأمر الخارق الذي يترتب عليه العذاب إذا لم يؤمنوا فهو كالاستعجال بالعذاب، لأنهم لا يؤمنون، فمعناه الاستعجال بالعذاب.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ يدل على هذا الأخير، ولعل المراد بالآيات ما أصيبوا به فهلكوا، فهي آيات ومصائب عجلت عليهم لاستهزائهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر:٩٥] فهو تهكم بهم أيضاً، كقول الشاعر:

نزلتم منزل الأضياف منا ... فعجلنا القِرى أن تشتمونا

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ أي لا تستعجلوني أي لا تطلبوني تعجيل العذاب أو الآيات، وهذا لأن طلبهم الآيات كفر بما قد جاءهم به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فاستحقوا العذاب.

(٣٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار المستعجلون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ أي القيامة التي وعد الله بها ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: أنها ستكون، أي مالها لا تقوم؟.

ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن

فقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ تعبير عن كونهم قد استبطؤوها، فكان معناها الاستعجال بها إن كانوا صادقين، وقد أجاب عليهم بقوله تعالى:

﴿٣٩﴾ ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فلا يحسن الاستعجال بها من أناس يعذبون فيها، وهذا الجواب مثله في (سورة يونس) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٥٠] والجواب لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ محذوف أي لما قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أو لما استعجلوه أو نحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا يدفع عنهم العذاب غيرهم ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] لا آلهتهم ولا غيرها.

﴿٤٠﴾ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ إضراب من قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ أي لا يعلمون حين تأتيهم ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ وهم لا يتوقعونها في تلك اللحظة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ توقعهم في حيرة لا يدرون ما يقولون.

قال في (لسان العرب): «وقال الزجاج في قوله [عزَّ وجل]: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال: تحيرهم حين تفجأهم بغتة» انتهى.

ونحو هذا في (مصابيح الشرفي) إلا أن في النسخة غلطاً من الناسخ، وعندي أن أصل نصه هكذا: فتبهتهم أي تغلبهم، يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت، ومنه ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨] أو لبغتة الفجاءة..انقطع كلامهم بالرعب..إلخ.

قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي لا يستطيعون دفعها جملة عن أنفسهم، وهو غير معنى: ﴿لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ لأن هذا يشير إلى أنهم مغلولة أيديهم فتلفح وجوههم النار، ولا يدفعونها عن ظهورهم كما يدفع الحر والبرد عن الظهر بما يقيه من لباس أو نحوه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ عند إتيانها لهم أي لا يمهلون، ولو كان لطلب الإمهال مجال لطلبوه، فأين صاروا بعد استعجالهم بالعذاب.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الاستهزاء والسخرية واحد، وهو كلام أو إشارة يراد به الاستخفاف والاحتقار، ولعل منه قولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] فلا يشترط فيه أن يكون تهكماً، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تحذير للمستهزئين برسول الله ﷺ من أن يحيق بهم ما يستهزئون به، وتسلية له؛ لأن الرسل أسوة له.

وقوله تعالى: ﴿فَحَاقَ﴾ قال في (الصحاح): «حاق به الشيء يحيق، أي أحاط به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣] وحاق بهم العذاب أي أحاط بهم ونزل» انتهى، ومعنى أحاط بهم الرسل الذين كانوا بهم يستهزئون أو الحق الذي ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنه أحاط بهم عذاب الاستهزاء به، كأنه هو عذبهم وغلبهم وقهرهم.

﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا
هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ قال في (مفردات الراغب): «الكلاءة حفظ الشيء وتبقيته» انتهى، أي من يحفظكم من الرحمن الغالب على أمره، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيه على أن تعرضهم لبأسه ليس لأن شأنه البأس، وإنما هو عملهم يعذبون بسببه ، ولولا عملهم لكانوا في رحمة الله حتى يأتيهم الموت.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ تخويف من نزول العذاب عليهم ليلاً، وقوله ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ كذلك فهو تعالى قادر على إنزال عذابهم وهم نائمون، وقادر على إنزاله نهاراً وهم يلعبون ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يذكرون الله بقلوبهم، فلا يتذكرون بأسه ولا يخافون بطشه لغفلتهم عنه.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ بل ألهم آلهة؟ انتقال من السؤال الأول ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ إلى سؤال آخر يبطل شركهم بهم ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم﴾؟ تحميهم من عذاب الله وتقيهم بطشه العاجل بقوّتها؟! وجواب هذا السؤال ظاهر لأن شركاءهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ فضلاً عن نصر من يعبدهم.

قال الراغب في (منع): «ويقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وقد منع، وفلان ذو منَعَة أي عزيز» انتهى، ومثله في (لسان العرب): «وظاهر أن كلمة منع مشتركة بين المنع بمعنى الحماية والمنع ضد الإعطاء».

ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا

أما الزمخشري في (أساس البلاغة) فقال: «ومن المجاز: فلان يمنع الجار يحميه من أن يضام..» إلخ، وسواء كان مشتركاً أم مجازاً في الحماية فالسياق في الآية يدل على أنه بمعنى الحماية، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِنَا﴾ أي مستقلة بحمايتهم دون أن تحميهم بحماية الله، والسياق في الحماية من عذاب الله فلا يتصور حماية من حماية الله.

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي لا يصحبهم الله بنصر وتأييد، قال: قال في (البرهان): يعني لا يجارون يقال: إن لك من فلان صاحباً أي مجيراً أي لا صاحب من الله يمنع من عذابه» انتهى.

ويحتمل: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ لا يجيرهم من الله مجير، فآلهتهم لا تنصر نفسها ، ولا يجيرها من الله مجير إن كان الضمير راجعاً إليها في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ﴾ وإن كان الضمير راجعاً إلى المشركين فالمعنى: ولا هم أي المشركون يجارون من الله كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود:٦٣].

وفي (أساس البلاغة): «وصحبك الله تعالى وصاحبك وأحسن الله تعالى صحابتك وامض مصحوباً ومصاحَباً بمعنى مسَلَّماً معافى، ومنه: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي يعافون ويحفظون..» إلخ، وسواء كان الضمير في ﴿وَلَا هُمْ﴾ راجعاً إلى ﴿ءَالِهَةٌ﴾ أم إلى المشركين، فالمعنى راجع إلى أن آلهتهم لا تحميهم، إما لأنها لا تستطيع أن تنصر نفسها ولا لها مجير من الله يحميها منه؛ وإما لأنها لا تستطيع نصر أنفسها ولا المشركون يجارون من الله كائناً من كان المجير.

﴿٤٤﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ إضراب

عن سؤال المشركين إلى ذكر السبب في إعراضهم عن الله وغفلتهم عنه وعدم خشيتهم منه ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ أنعمنا عليهم في هذه الحياة القصيرة وعلى آبائهم ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ طال عليهم مدة حياتهم في التمتيع وهي حياة جماعتهم، فغلب عليهم الاشتغال بالدنيا وما متعوا فيه من الأرزاق ونسوا الله.

وقوله تعالى: ﴿طَالَ عَلَيْهِمُ﴾ يشير إلى أن طول الحياة في النعمة والتمتع بها فتنة يحتاج صاحبها إلى استعمال عقله حتى لا تغلبه الغفلة والاشتغال بالدنيا، وقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي قريشاً أو إياهم ومن حولهم.

قال بعض المفسرين: «وكذلك كان مجتمع قريش فإنهم كانوا بعد أبيهم إسماعيل قاطنين في حرم آمن متمتعين بأنواع النعم التي تُحمَل إليهم، حتى تسلطوا على مكة وأخرجوا جرهماً منها فنسوا ما هم عليه من دين أبيهم إبراهيم وعبدوا الأصنام» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ الراجح في معناه: أنهم قد شاهدوا ما ينزل من المصائب التي تنقص منها الأشجار والثمرات ومع ذلك لا يستطيع أهلها دفع المصيبة ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ إن أراد الله إهلاكهم بكفرهم. وما ينزل بالأشجار ينسب إلى الأرض، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] فقوله تعالى: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ [يونس:٢٤].

وقوله تعالى ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ يناسب أن المراد به الشجر والزروع التي تنزل عليها المصائب مثل البَرَد الذي تظهر إصابته في الأطراف من الشجر والزروع.

مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ

وقوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي أنهم لا يستطيعون دفع ما ينزل على الأرض من المصائب أفهم مع عجزهم عن دفعه هم الغالبون لله؟ كلاّ.

﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ يا قومي ﴿بِٱلْوَحْيِ﴾ من الله الذي لا يبدّل إنذاره ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ فلا زلتم معرضين عن الإنذار؛ لأنكم صرتم كالصم الذين لا يسمعون دعاء من ينذرهم أي مخوف؛ لأنكم خذلتم بسبب تكذيبكم بآيات الله بعد سماعكم لها، فصرتم لا تسمعون الإنذار، أي كمن لا يسمع لأنكم صرتم تكرهون سماعها وتعرضون عن استماعها.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنهم قد عرفوا الحق وتركوه عناداً ولا يعترفون إلا إن مستهم نفحة من عذاب الله فعند ذلك يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ومعنى ﴿نَفْحَةٌ﴾ قليل من عذاب الله.

قال في (الكشاف): «وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات [أي في تقليل العذاب] لأن النفح في معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رَمح [أي ركض] يسير» انتهى المراد.

فإن قيل: فأين الثالثة؟ قلت: أراد أن (التاء) تفيد: التقليل، من حيث أنها للمرة مثل ضربة فهي الثالثة، فهؤلاء الكفار إن مسهم قليل من عذاب سارعوا إلى الإعتراف بأنهم كانوا ظالمين أي بالتكذيب بآيات الله والإعراض عنها..وغير ذلك.

نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا
حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ أعمال العباد تحسب يوم القيامة وتحقق مقاديرها لتجزى كل نفسٍ بقدر عملها ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ وضع الشيء طرحه في الأرض مثلاً، ووضع الموازين إعدادها للوزن يوم القيامة، والتعبير بالوضع يفيد أنها ثقيلة وطريقة الوزن بها لا تتوقف على تعليقها ولا حملها في اليد، ولا مانع أن تكون هذه الموازين آلات يعرف بها مقادير الأعمال كما قد وجد في هذا العصر من ميزان الحرارة ونحوه.

فإن قيل: إن الأعمال قد فنيت في الدنيا ولا تعاد بعينها إنما يعاد ذكرها أو صورتها أو نحو ذلك ؟

قلت: يمكن أن توزن باعتبار حالة وجودها، والله على كل شيء قدير، مثاله: أن يكون في ذمة الإنسان درهم وقد عرف وزن الدرهم فأنت تستطيع أن تبين وزن الدرهم وإن كان قد عدم بوضع ما يوافقه في الثقل، ويعرف به مقدار ثقله باعتبار مفصل له ومحقق بالمشاهدة، فكما يمكن وزن الدرهم فكذلك ما يمكن وزنه بطريقة أخرى لا نعلمها، ولا إشكال أن الوزن يكون باعتبار حسن الحسن وقبح القبيح إن كان القبيح يوزن.

والحاصل: أن المراد التمثيل لتحقيق مقادير الأعمال، فإن كان اسم الوزن يشمله حقيقة فظاهر، وإن كان مجازاً فهو أقرب للحقيقة وأرجح، وأئمتنا يقطعون بأنه تعبير عن العدل بناء على أن الوزن الحقيقي مستحيل؛ لأن الوزن إنما يكون للأجسام الثقيلة نوعاً من الثقل والأعمال حركات ونحوها لا يتصور فيها الوزن، والذي رجحته احتمال وزن غير هذا الوزن المعهود، بل بيان مقدار العمل بطريقة لا نعلمها، وهذا المعنى غير الذي نفاه أئمتنا عليهم السلام.

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ

ووصف الموازين بأنها ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ مبالغة في أنها تحقق القسط، و(اللام) في ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إما (لام التوقيت) مثل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨] وإما (لام الإختصاص) بمعنى: أن يوم القيامة يستدعي وضع الموازين، من حيث أنه يوم الجزاء بالعدل والحق فتوضع له الموازين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ تفريع على الوزن الذي يفهم من وضع الموازين، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي إن كان العمل قليلاً لا يوازن إلا حبة خردل من قلته وحبة الخردل صغيرة وخفيفة.

وقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي لم نضيعها بل نثبتها، فيثاب بها صاحبها بقدرها أو يعاقب بقدرها إن كانت القبائح توزن، وقد فهمت من هذه الآية أنها توزن، أي يحقق مقدارها ليجزى صاحبها بقدرها، ولكن هذا لا يفيد الموازنة بين الحسنات والسيئات فليتأمل.

﴿٤٨-٤٩﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الراجح: أن ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ عبارة عن (التوراة) باعتبار أنها تفرق بين الحق والباطل كما وصف القرآن بهذا الوصف، وكذا قوله تعالى: ﴿وَضِيَآءً﴾ أي نوراً للبصائر كالضياء للبصر.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ موعظة وتذكيراً من الغفلة، فهذه الآية في التوراة، كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بمعنى المتقين بالفعل ليزدادوا تقىً، وليثبتوا على التقوى، وهذه الآية تذكر قريشاً أن سنة الله إنزال الكتب، وأن إنزال القرآن ليس بدعاً من إنزال الكتب.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ تفسير ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وبيان لأساس التقوى الذي هو الخشية من الله والإشفاق من القيامة بسبب صحة إيمانهم بالله واليوم الآخر، والخشية من الله تعم الخشية من خذلانه وعذابه في الآخرة والعقوبة العاجلة وتفيد المراقبة له، والإشفاق من الآخرة محاولة السلامة من هولها وعذابها، ومعناه الحذر منها والاستعداد لها، وتفيد: محاسبة النفس، وملازمة التوبة، والحذر من المعاصي ومنه اجتناب الشبهات.

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ تذكير من الغفلة أو ذكر للدين وتعليم، كقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا..﴾ إلى قوله: ﴿..أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٤-١٢٦] وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وهذا المعنى أعم من الموعظة والتذكير من الغفلة وهو أرجح؛ لأن سياق هذه الآية وما قبلها كسياق الآيات من (سورة الأنعام): ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آية:١٥٤-١٥٥] فهو كتاب هدى وتعليم ودلائل، يعم أصول الدين والجمل من فروعه وتفاصيل كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿مُّبَارَكٌ﴾ يفيد: كثرة فوائده وعظم منافعه وغزارة علومه ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾ الآية [المائدة:١٦] وغيرها.

ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا

وقد أجاد الإمام القاسم عليه السلام في وصفه فراجعه في مجموعه وفي مقدمة (المصابيح) تفسير القرآن للشرفي. وقوله تعالى ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ تعظيم للقرآن بأن الله العلي العظيم العزيز الحكيم رب العالمين أنزله على رسوله، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ سؤال إنكار عليهم؛ لأن إنزال الكتب من الله هدى لعباده ليس أمراً ينكر، قد أنزل الكتب على الأولين وأنزل (التوراة) على موسى، فكيف ينكرون نزول (القرآن) على محمد صلى الله عليه وآله وسلم هدى ورحمة للمتقين.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ وهذه الآية هي من تقرير أن رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنزال القرآن عليه ليس أمراً لم يسبق له نظير، وتبين مع ما سبق قبلها وما يأتي في السورة أن سنة الله في الأولين إرسال الرسل وإنزال الوحي عليهم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ آتيناه هداه الذي حصل له وامتاز به من بين الأمم واستحق به أن اتخذه الله خليلاً، والرشد إصابة الصواب ضد الغواية، وذلك بهداية الله تعالى له، وما آتاه من الدلائل العقلية والسمعية حتى صار في الدرجة القصوى في عبادته لله وإخلاصه ومقاومة الشرك والنصح لله تعالى في تبليغ رسالته والصبر العجيب. وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل ما آتى موسى وهارون ما مر ذكره، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ إما بصبره وعنايته في مقاومة الشرك كما تفيده الآيات التي بعد هذه، وإما بشكره على نعمة إيتائه رشده، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣] وإما بالمعنيين، وكلما تحويه كلمة ﴿رُشْدَهُۥ﴾ ويحتمل: عود الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ إلى ﴿رُشْدَهُۥ﴾ تقدمة لذكر قصته مع المشركين.

عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ ﴿إِذْ﴾ أي اذكر قصته التي فيها دلالة على رشدٍ من رشده ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ ما حقيقتها حتى أنكم تعبدونها؟ والتماثيل جمع تمثال وهي ما يصنع على شكل إنسان أو حيوان ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ أنتم لها عابدون بعكوفكم لها وحبسكم أنفسكم عليها خضوعاً لها وتقرباً إليها بالعكوف لها.

﴿٥٣﴾ ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾ لم يجدوا لها صفة توجب عبادتها؛ لأنها مجرد تماثيل مصنوعة، فلم يجيبوا بجواب مطابق لسؤاله حيث قال: ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؟ وعدلوا إلى التقليد لآبائهم، وكأن الشيطان وسوس لهم بها حتى تصير قضية تعصب لآبائهم وغضب من تخطئة آبائهم، ولم يكن بد من تخطئة آبائهم لبيان ضلالهم في تقليدهم لآبائهم.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ جواب قاطع لاحتجاجهم بآبائهم؛ لأنهم إنما يتبعونهم تقليداً بلا حجة، وعنده عليه السلام الحجة على ضلال المقلِّد والمقلَّد.

﴿٥٥﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ﴾ سؤال معناه طلب الحجة على أن ما جاءهم به هو الحق؛ ولذلك أجابهم ببيان الحجة:

﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ الله الذي هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو المالك لكم كما هو المالك للسموات والأرض.

فأنتم عباده وحده لا شريك له فيكم، وأنتم تجعلون أنفسكم عباداً للتماثيل وليسوا أربابكم؛ لأنهم لم يخلقوكم كما لم يخلقوا السموات والأرض، وهذه حجة من أوضح الواضحات في إبطال الشرك؛ لأن قومه لم يدعوا لتماثيلهم أنها تخلقهم، وذلك لو ادعوه واضح البطلان، فالمالك لهم إنما هو خالقهم، وأبهم الجواب لم يقل: (ربكم الله) في قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لأن الاحتجاج عليهم بالربوبية فاكتفى بذكر رب السموات والأرض؛ لأنه أوضح في الاستدلال بربوبية الله لهم دون خلقه.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي على أن ربهم رب السموات والأرض أي أني أعلم ذلك يقيناً، فأقول لكم ذلك عن يقين، فهذا هو الحق جاءهم به، ووقع في القرآن الاحتجاج على المشركين بمثل هذا الاحتجاج في مواضع؛ لأنهم يعبدون مخلوقاً لا يملك منهم شيئاً، ومعنى عبادتهم للمخلوق أنهم جعلوا أنفسهم عباداً له، فلذلك تكرر ا الاحتجاج عليهم بأن من عبدوه ليس رباً لهم، كما صرح بنفي ملكهم في (سورة فاطر) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] وصرح بالاحتجاج عليهم بالخلق الذي يترتب عليه الملك ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣] ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧].

أمّا أنهم يجعلون أنفسهم عباداً لهم، فالدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤] وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [النساء:١٧٢] فدل على أن العبادة معناها: أن يجعل العابد نفسه عبداً للمعبود، وبذلك اتضح الاحتجاج عليهم بأن الله ربهم وحده، وهم لا ينازعون في ذلك، وإنما غفلوا وأعماهم التعصب لآبائهم، واتكلوا على تقليدهم.

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ

وقد مضى مثل هذا الكلام في تفسير العبادة، الاحتجاج عليهم بالربوبية، ولكن دعا إلى إعادة ذلك قصد بيان صحة احتجاج إبراهيم عليه السلام ووضوحه وقربه للأفهام.

﴿٥٧﴾ ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ وهذا يؤكد أنه على يقين في إنكاره عليهم، ونفي شركائهم، وفيه احتجاج جديد؛ لأنه يتوعدها فلا تضره، وقوله ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ أي لأمحقن ﴿أَصْنَٰمَكُم﴾ أو لأبطلنها بطريقة خفية، وقوله: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ دليل ثالث على بطلان إلهية أصنامهم؛ لأنها لا تحمي نفسها، وإنما المشركون يحمونها، فإذا ولوا عنها مدبرين استطاع كيدها؛ وذلك لأنها جمادات لا تنفع ولا تضر فضلاً عن أن تخلق وترزق.

وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ قسم صدّقه بالفعل، قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَتَٱللَّهِ﴾ قسم، واختار (التاء) لمعنى التعجب من تسهيل الكيد على يده» انتهى، ومعنى هذا: أن القسم بـ(التاء) يكون في موضع التعجب من المقسم عليه، والمراد: أنه اختار ما ترجمته التاء في قسمه.

﴿٥٨﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ أي جعل أصنامهم ﴿جُذَٰذًا﴾ أي قطعاً مجذوذة أي مقطوعة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] أي غير مقطوع بل دائم، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعل قومه وأباه يرجعون إلى الذي لم يقطّعه فينكرون عليه تكسير أصنامهم إن كانوا يعتقدونه قادراً على ذلك، ولكن انكشف أنهم يعلمون

لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ
فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ

أنه عاجز عنه فلم يرجعوا إليه، أو لعلهم إليه يرجعون فيسألونه: من الذي حطم الأصنام؟ فإذا لم يجبهم عرفوا أنه لا ينفع ولا يضر ـ والله أعلم.

﴿٥٩﴾ ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال المشركون حين رأوا أصنامهم مكسرة ﴿مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾؟ استمروا على جهالتهم وشركهم، وقد كان تكسيرهم دليلاً على عجزهم حيث لم يدفعوا عن أنفسهم، فهم أعجز عن نفع غيرهم أو الدفع عنهم، ولكنهم أصروا فسألوا: من فعل هذا التكسير بآلهتنا؟ جعلوه ظلماً؛ لأنه بآلهتهم دلالة على هوانها وعجزها أي هتك لحرمتها؛ ولأنها آلهتهم مضافة إليهم فكأن الواقعة بأصنام المشركين عدوان على المشركين فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يذكر الأصنام حين عاب عليهم عبادتها، وقال لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾؟

﴿٦١﴾ ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ﴾ أي بإبراهيم لتسألوه ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ وتعاقبوه على ما صنع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي لعل الناس يشهدون ذلك فيكون ذلك تحذيراً لغيره أو ليروا تعظيمكم لأصنامكم ويعرفوا غضبكم لها.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ أرادوا أن يقر بذلك أو يشهد عليه الشهود بما قال سابقاً لينتقموا منه.

يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ قال إبراهيم عليه السلام ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ أي كبير الأصنام ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ عن ذلك ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وفيها وجهان: إما أن الكلام من قوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ مشروط بقوله: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ فهو معلق على محال فانتفى، وإما أنه تهكم بكبيرهم؛ لأنهم يعلمون عجزه عن ذلك، وفائدة الاحتجاج عليهم بمعرفتهم عجزه.

﴿٦٤﴾ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ سألوها كيف عبدوا جمادات لا تنطق ولا تدفع عن نفسها ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لأنفسهم ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادة الأصنام أو الظالمون بتظليم إبراهيم مع أن الصواب معه، وهذا أقرب لأنه في مقابلة قولهم: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولأن تظليمهم أنفسهم بعبادة الأصنام يتوقف على معرفتهم لله ومعرفتهم أن الواجب عليهم عبادته وحده لا على مجرد بطلان إلهية أصنامهم؛ لأنهم في حالة جهلهم يعرفون بطلان عبادتهم؛ لا أنها ظلم.

﴿٦٥﴾ ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ مجازاً عن إضلالهم وإرجاعهم إلى الباطل كأن الشيطان نكسهم فجعل أعلاهم الأسفل، وأبلغ من ذلك أنه طرحهم على رؤوسهم قائلين: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ تجاهلاً منهم لكون عجزهم عن الكلام وعن الدفع عن أنفسهم، دليلاً واضحاً أنهم ليسوا قادرين على نفع ولا ضر، وأنهم إذا كانوا كذلك لا يُعبَدون لطلب نفع منهم ولا لدفع ضر، وقد قدم إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فما بقي لهم عذر في عبادة الأصنام.

أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ
لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ
وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا
عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ

﴿٦٦-٦٧﴾ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَتَعْبُدُونَ﴾ أتعرفون عجزها؟ فتعبدونها وتجعلونها أقرب للعبادة من الله أو وسائط بينكم وبين الله وهي لا تنفعكم شيئاً ولا تضركم ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ كلمة تضجر منهم لإهمالهم عقولهم وعنادهم بعد وضوح الحق ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تحقيراً وإعلاناً لبغضها من حيث أنهم يعبدونها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حيث تفعلون فعل من لا يعقل، وهذا توبيخ وتقريع لهم لعنادهم.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ انقطع جدالهم؛ لأنه عليه السلام قهرهم بالحجة فرجعوا إلى طلب أن يحرقوه، ومحاولة تحريقه ليتخلصوا منه ولينصروا أصنامهم تعصباً لباطلهم، وقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ حث على ذلك وتهييج.

﴿٦٩﴾ ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أبطل الله كيدهم ونجى خليله إبراهيم عليه السلام بأن حول النار برداً وسلاماً، فهي برد غير ضار لإبراهيم، فكان ذلك نصراً لإبراهيم عليه السلام، وجعل قومه الأخسرين والأسفلين والتعبير بقوله تعالى: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ دلالة على سهولة ذلك التحويل، وأنه ليس فيه أي مشقة، كما لو أمرها فكانت امتثالاً لأمره برداً وسلاماً.

وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

﴿٧٠﴾ ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أرادوا بـإبراهيم كيـداً لإبطال دعوته بأن يحرقوه فيزعموا أنه أصيب من قبـل آلهـتهم وأنهـا عاقبتـه على كسرها، أو يزعموا أنه لو كان صادقاً لأنجاه الله منهم ولما مكـنهم مـن إحراقه، هذا لأن الكيد محاولة ضر الغير بطريقة خفية، ونفس الإحـراق أمـر واضح، فظهر: أن الكيد غير الإحراق كان غرضهم بالإحراق.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ خـاب أملـهم في إحـراقهم لــه وأملـهم في إبطال دعوته، وبطلت حجتهم واستحقوا العذاب العاجـل والآجـل، ولعـل الله عز وجل أهلكهم بعد هجرة إبراهيم عليه السلام، ويقال: إنهم المراد بقـول الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢٦] والله أعلم، وقد جرت سنة الله بإهلاك الأمم إذا بلغتهم الحجة وتمردوا وهموا برسـولهم ليأخذوه، كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥].

﴿٧١﴾ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي إبراهيم من شر قومه ﴿وَلُوطًا﴾ بـأن هـاجرا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المباركـة، أو نجيناهمـا حتـى بلغـا الأرض المقدسـة، وقولـه تعـالى: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ الراجح: أنها البركات الدينية، بإرسال الرسل فيها صـار فيهـا الهدى للعالمين؛ لأن البركات الدنيوية لا تعم العالمين وهي في بلد مخصـوص، والراجح: أن هذه الأرض المباركة هي (فلسطين) وقد غلبت عليها إسـرائيل بحبل من أمريكا وتخلية وتمكين من الله، نسأل الله أن يعجـل لهـا يوشـعاً مـن هذه الأمة وجنداً صالحين.

بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ
لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى

ولوط إنما صار إلى الأرض التي أرسل إلى أهلها بعد أن بلغ مع إبراهيم عليه السلام الأرض المقدسة؛ لأنه مدلول الآية، أعني أن لوطاً بلغ الأرض المباركة، قال الشرفي في (المصابيح): «ولوط هو ابن أخت إبراهيم، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه، وقيل: هو ابن أخيه ـ قال الشرفي ـ: وهذا قول محمد بن القاسم عليه السلام».

﴿٧٢﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم ﴿إِسْحَٰقَ﴾ ابناً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق وهبناه لجده ﴿نَافِلَةً﴾ وقد دعا إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] فوهب له إسماعيل وإسحاق ووهب له يعقوب زائداً على المطلوب ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي كلاً منهم جعلنا صالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فهي نعمٌ ترادفت لإبراهيم عليه السلام بما صبر.

قال سيد قطب: «لقد ترادفت لإبراهيم عليه السلام وطناً وأهلاً وقوماً فعوّضه الله الأرض المباركة وطناً خيراً من وطنه، وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيراً من أهله، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوماً خيراً من قومه..» إلخ.

﴿٧٣﴾ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ ﴿أَئِمَّةً﴾ جمع إمام فكل واحد إمام أما إبراهيم فإمام للناس كافة، وأما إسحاق ويعقوب فالله أعلم كانت إمامتها كإمامة أبيهما أم لأهل عصرهما، والإمام القدوة المتبوع.

وقوله تعالى: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ يحتمل: بأمرنا لهم أن يهدوا الناس ويعلموهم دين الله؛ لأنهم رسل يهدون الناس بأمر الله الذي أرسلهم وأمرهم بتبليغ الرسالة، ويحتمل ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾: أي يبلغونهم أمرنا ويعلمونهم أمرنا حتى يهتدي من اهتدى بما بلغه من أمر الله، وعلى هذا فجعلهم أئمة وإرسالهم شيء واحد، اختلف اسمه باختلاف الاعتبار، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

وإذا فرض أن إمامتهم أفضل من النبوة فلا يلزم في كل إمامة أن تكون كذلك وإن لم تكن رسالة مع أنا لا نسلم أن إمامتهم أفضل من حيث هي إمامة، وإنما تكون أفضل من حيث هي رسالة، وكونها لم تكن لإبراهيم عليه السلام إلا بعد النبوة قلنا: إن صح فالرسالة بعد النبوة، فيوحى إلى النبي شريعة لتعليمه الدين الذي يوحى إليه ليعمل به ثم يرسل إلى من أمر بتبليغهم فيكون إماماً لهم.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِنَا﴾ ظاهر في الأمر الحقيقي الذي يقتضي الوجوب وتفسير بعضهم له بالأمر التكويني خلاف الظاهر؛ لأنه مجاز، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ يترجح: أن هذا الوحي هو هدايتهم لذلك وإلهامهم وتحبيبه إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] وفعل الخيرات فعل أنواع الخير وأصناف البر عموماً هداهم الله لذلك كله.

وقوله: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ يفعلون الخيرات تعبداً لله واعترافاً بالعبودية له جل جلاله، وتقديم ﴿لَنَا﴾ يفيد الاختصاص بمعونة السياق فيفيد إخلاصهم لله وبراءتهم من الشرك وهو مناسب لما في السورة من إبطال الشرك.

كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى
رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

﴿٧٤﴾ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ يحتمل أنه معطوف على إبراهيم، وهكذا من يأتي ذكره آتاهم رشدهم، وفسر رشد لوط بقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فالحكم أن يحكم بين الناس بالحق، كما قال تعالى في داود وسليمان بعد ذكر حكمهما في الحرث: ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ والعلم معرفة الله ومعرفة ما يجب العلم به ومعرفة الدين والشريعة التي أوحيت إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ الراجح أن فائدة الإسناد إلى القرية أن يعم نجاته من بطشهم ونجاته من أذاهم ونجاته من جوارهم ونجاته من عذابهم الذي عُذِّبوا به بسبب عملهم للخبائث حين أمره الله أن يسري بأهله، فالحاصل نجاه الله من شرهم ومن الشر الذي نزل بهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ تعليل لما يفهم من إنجائه من تعذيبهم أو تعليل لإنجائه من قريتهم بأنهم كانوا قوم سوء فاسقين لو لم ننجه لهلك معهم، فقام قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ مقام أنهم عذبوا، والخبائث التي كانوا يعملونها ذكر بعضها في القرآن وجاء في الحديث الشريف ذكر عشر من عمل قوم لوط رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام).

وقوله تعالى: ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾ قوم قبيح، والإضافة تشعر بأصالتهم في القبيح كأنه صفة لازمة، كما قال حاكياً: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم:٢٨].

فَنَجَّيۡنَـٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٍ فَأَغۡرَقۡنَـٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ

﴿فَـٰسِقِينَ﴾ أهل خبث وفجور، ففي هذه عبَّر عن قوم لوط بقوله: ﴿الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ كأنه صفة مميزة لهم من بين الأمم، ثم سماهم قوم سوء، كأن السوء صفة لهم، ثم وصفهم بأنهم كانوا ﴿فَـٰسِقِينَ﴾ وهي كلمة ذم شديد، كما لو قيل: فجرة خبثاء.

﴿٧٥﴾ ﴿وَأَدۡخَلۡنَـٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿فِي رَحۡمَتِنَآ﴾ لعلها هنا الفوز بالجنة والنجاة من النار بتوفيقه لحسن الخاتمة وتوفيه مرضياً، فكان ذلك إدخالاً له في رحمة الله بعد إنجائه من عذاب قومه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ تعليل لما قبله.

﴿٧٦﴾ ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَـٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ﴿وَنُوحًا﴾ عطف على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ اذكر ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ أي نادى ربه، ونداؤه مفسر في (سورة نوح): ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [آية:٢٦] وقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل إبراهيم ولوط وموسى وهارون ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ بإغراق قومه ونجيناه من الكرب العظيم الذي أصاب قومه وهو غم الغرق عند الإشراف عليه وحاله، وقد مرت قصته مفصلة في (سورة هود).

﴿٧٧﴾ ﴿وَنَصَرۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٍ فَأَغۡرَقۡنَـٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ ﴿وَنَصَرۡنَـٰهُ﴾ على قومه بإنجائه منهم في السفينة ونزول الغرق على قومه بسبب تكذيبهم له وتكذيبهم بآيات الله ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٍ﴾ قبيح. تمرّدٌ على نبيهم وإصرار على الشرك والعدوان وهمّ بأخذ نبيهم ﴿فَأَغۡرَقۡنَـٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وقصة الإغراق لهم مفصلة في (سورة هود) وقوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَـٰهُمۡ﴾ كالتفسير لنصر نبيهم.

وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ

---

٧٨ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ عطف على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فالمعنى آتيناهما رشدهما ﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ﴾ اذكر قصتهما إذ يحكمان ﴿فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ ظاهره أن الحكم في الحرث نفسه وهو الأرض المحروثة، والمفسرون يذكرون: أن الحكم كان في ثمر وزرع ونحو ذلك وقرينة ذلك. قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ لأن الغنم لا تطمع في الحرث الخالي من النبات.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «فالنفش: أن تدخل في الزرع ليلاً فتأكله، ولا يكون إلا بالليل» انتهى، ومثله حكى الشرفي عن الحسين بن القاسم عليهما السلام، وقال الشرفي ـ أيضاً ـ : «فالنفش: انتشار الغنم بالليل ترع[ا] بلا راع، قاله ابن السكيت وابن قتيبة» انتهى.

فأما الزمخشري في (أساس البلاغة) فقال: نفشت الغنم بالليل: انتشرت ولم يذكر الرعي، ولكنه ذكر الرجز:

أجرس لها يا ابن أبي كباش فما لها الليلة من إنفاش

غير السرى وسائق نجّاش

ولعل سبب التعبير بالحرث؛ لأن دعوى صاحبه أن أهل الغنم أهملوها فدخلت الحرث وفيه الزرع فأكلته ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ أي حاضرين لم نغب عنه، قال الشرفي في (المصابيح): «أي عالمين لم يغب عن علمنا» اهـ.

وهو تأويل لأن الله تعالى لا تحويه الأمكنة، وجمع الضمير في ﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾ لأنه متناول للخصمين مع داود وسليمان، وقوله تعالى:

وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾

﴿٧٩﴾ ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أي القضية ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ أعلمناه ولعل الفهم يختص بما فيه غموض، وفيه تفضيل لحكم سليمان كأنه هو الحكم، قالوا: وسبب ذلك أن حكم سليمان كان فيه مع العدل الرفق بالخصمين، ولم يخطئ داود عليه السلام بل كان حكمه عدلاً.

﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ﴿حُكْمًا﴾ بين المتنازعين بالحق ﴿وَعِلْمًا﴾ بالله تعالى وما شرع علمه ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ لعله كان إذا سبح الله كان صدى صوته في الجبال فسمع التسبيح منها، وقوله تعالى ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ أي سخرنا معه الطير، ولعل الواو هي واو المعية كما في (سورة سبأ) فيفيد: أنه كان إذا سبح سبحت الجبال معه ومع الطير في وقت واحد، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي نفعل ما نشاء.

﴿٨٠﴾ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ﴿صَنْعَةَ﴾ علمناه عمل الدروع بمهارة، قال الراغب: الصنع إجادة الفعل، فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعاً، واللبوس هنا: الدروع كما في (سورة سبأ): ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [آية:١١].

وقوله تعالى: ﴿لِيُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي ليحصنكم بالدروع على قراءة نافع، ولتحصنكم الدروع على قراءة حفص أي تحفظكم وتقيكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ من السلاح في الحرب أو غيره.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا
بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ

والدروع التي يصنعها داود من الحديد: حلق مسرودة كالسلوس، بمقدار متوسط بين أن تكون غليظة أو رقيقة لتحفظ لابسها ولا تثقل عليه أكثر من ثقل هذه الدروع.

قال الشرفي في (المصابيح): «كانت صفائح فهو [أي داود] أول من سردها» انتهى المراد، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي نعم الله عليكم، ومنها هذه الدروع أو نعمة الله عليكم بهذه الدروع.

﴿٨١﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح فهو عطف على قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ﴾ وقوله تعالى ﴿عَاصِفَةً﴾ أي قوية بحيث تحمل سليمان وجنده.

وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي بأمر سليمان ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أرض (فلسطين) ويقال: (الشام) وهو اسم جامع: لـ(سوريا) و(الأردن) و(فلسطين). وقال الشرفي في (المصابيح): «﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض بيت المقدس وغيره من البلاد المباركة بكثرة الأنبياء والخصب والسعة» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ علمه تعالى بكل شيء يدل عليه حسن تدبيره للأنبياء عليهم السلام بما مرّ ذكره كما هو دليل على قدرته تعالى، فقال تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وهنا قال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ لدلالة تدبيره على علمه تعالى بكل شيء.

عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ

﴿٨٢﴾ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ وسخرنا لسليمان ﴿مِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في الماء العميق، ولعل ذلك ليجلبوا له الدر والمرجان والعنبر من البحر، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ﴾ لعله يفسره قول الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبا:١٣] فهذا عمل دونه، حول سليمان أقرب من الغياصة، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ إذا كان الضمير للشياطين المذكورين فحفظهم بمعنى قهرهم وإبقائهم في سلطة سليمان لا يستطيعون الفرار منها أو يغلبهم الخوف من سليمان فيمنعهم من الفرار.

﴿٨٣﴾ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿وَأَيُّوبَ﴾ آتيناه رشده، اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ دعاه دعاء كالنداء، ولعله شبه بالنداء لأن المنادي يرفع صوته ليسمع المدعو فيجيب، وهذا الدعاء فيه عناية لإجابته، وقوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ تفسير الدعاء شكوى من الضر الذي مسه، وقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ طلب لرحمة الله له بالشفاء من مرضه.

ومعنى ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أن رحمته أفضل رحمة وأبلغ رحمة؛ لأنه يرحم عبده المؤمن فينجيه من النار ويدخله الجنة فيسعد أبداً ويرحم عبده في الدنيا بما لا يقدر عليه إلا هو ورحمته وسعت كل شيء.

لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾
وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ

﴿٨٤﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ وهذا شفاء عام وعافية تامة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ يفيد: أنهم كانوا قد فارقوه فإما أنهم كانوا قد ماتوا فأحياهم كما يروى، وإما أنهم كانوا قد هجروه بسبب مرضه، فلما عوفي رجعوا له ﴿وَمِثْلَهُم﴾ في عددهم وصفتهم مثلاً زوجات وبنين ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ كشف الضر وإعادة الأهل وإتيانه مثلهم معهم كل ذلك رحمة ليس فتنة كما يكون للفجار، كما قال تعالى فيهم: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا..﴾ الآية [التوبة:٥٥]. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ..﴾ الآيتين [المؤمنون:٥٥-٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ تذكرهم برحمة الله وتبعث في قلوبهم الأمل في رحمة الله إذا صبروا وتذكرهم بفضل الصبر كما صبر أيوب عليه السلام فكانت عاقبة صبره رحمة عاجلة ورحمة آجلة.

﴿٨٥﴾ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ آتيناه رشده ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ كذلك ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ كان نبياً من أنبياء الله ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومن صبر إسماعيل استعداده لذبحه ﴿قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢] ويكفينا خبر الله تعالى ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «وأما ذو الكفل فكان نبيئاً كفل بأمر وَفَى به فضُعِّف ثوابه، قاله في (البرهان])ولعل الله تعالى وصفهم بالصبر لنقتدي بهم، كما قال في أيوب: ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾.

مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ
سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ

﴿٨٦﴾ ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآ﴾ لعلها الرحمة الكبرى في الآخرة أدخلناهم فيها بالعصمة وحسن الخاتمة فصاروا من أهل الدرجات الرفيعة في الجنة، وذلك بسبب صلاحهم السابق.

﴿٨٧﴾ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ آتيناه رشده، اذكر قصته ﴿إِذ ذَّهَبَ﴾ من عند قومه مهاجراً لهم ﴿مُغَٰضِبًا﴾ لهم، وهو يونس عليه السلام، ومغاضباً صيغة مفاعلة، فالغضب منه على قومه إذ عصوه ومنهم عليه إذ دعاهم إلى الخروج من الكفر الذي ألفوه.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ هو عليه السلام لا يخفى عليه أن الله على كل شيء قدير ولكن ظن أن قد أدى ما عليه حين بلّغ قومه الرسالة وأنذرهم وأقام عليهم الحجة وحذرهم من عذاب الله فظن أن ذلك غاية ما كلفه الله فهاجر من بينهم ظاناً أن الله لا يؤاخذه؛ لأنه هاجر غضباً لله، فكأنه ظن أن الله لا يقدر على عقابه حين ظن أنه لا حجة لله عليه؛ لأنه قد قام بما كلف في ظنه، وقيل في تفسير ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ لن نضيّق عليه عيشه كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧] والله أعلم.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نادى ربه في ظلمات بطن الحوت وهو النون ، وبه سمي يونس ذا النون؛ لأنه التقمه حين ألقي في البحر ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أن يكون لك شريك أو سبحانك من ذلك ومن كل نقص.

ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا
تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ

وفي هذا مع قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ الآية [الصافات:١٤٣-١٤٤] مأخذان: التهليل من التسبيح؛ لأنه تنزيه لله تعالى من أن يكون لـه شريك، والتسبيح تنزيه من حيث أنه تبعيد من كل نقص ومن كل عيب.

وقوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ اعتراف بالخطيئة تذكَّر أنـه غـالط في ظنه، وأنه كان يجب عليه البقاء في قومه حتى يأذن الله لـه بالتولي عـنهم، فكان توليه عنهم قبل الأذن معصية، ومعصية المالك المنعم ظلـم أي حيـف مخالف للعدل.

﴿٨٨﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ذلك ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ يشمل الغم في بطـن الحـوت وغـيره، مـثلاً الغـم مـن المعصـية بإبلاغـه أنْ الله قـد غفـر لــه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي سنة الله أن ينجي المؤمنين إذا وقعوا في غـم ورجعـوا إلى الله وسألوه الفرج، وذلك حيث تقتضي الحكمـة تعجيـل الفـرج بسـبب الـدعاء منهم، فإن اقتضت الحكمة إجابة الدعاء وتأخير الفرج فلا بد منه لو لم يكـن إلا بالشهادة أو الموت إلى رحمة الله.

﴿٨٩﴾ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ آتيناه رشده، وإيتاء الرشد في هذا السياق هو مثل الهدى في (سورة الأنعام) من قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ..﴾ الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [٨٤-٩٠].

وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ دعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لا تذرني لا تتركني فرداً بلا ولد ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي وأنا أعلم أنك خير الوارثين لكني أحب أن يكون لي ولد يرثني ويرث من آل يعقوب، ومعنى ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أنك تخلفني بأحسن الخلافة، وكذلك كل مؤمن، ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله تعالى في (سورة الكهف): ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف:٨٢].

﴿٩٠﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ لزكريا لم نذره فرداً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ يحتمل عطفه؛ لأنه المطلوب على أكمل وجه فكأنه زيادة على المطلوب أو هو كالتفسير لاستجابة دعائه، ولعل هذا الارتباط بقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ هو سبب تأخير قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ لأنه غرض غير متعين في دعاء زكريا، فكان نعمة زائدة مترتبة على دعائه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ أي زكريا ويحيى وأم يحيى ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ في الأعمال الصالحات، فكان لهم فضيلة المسارعة وفضيلة الخيرات، فاستحقوا النعمة المذكورة ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ رغبة في فضل الله ورحمته ﴿وَرَهَبًا﴾ رهبة من عذابه ومن أسباب عذابه، وكذلك رغباً في نصر دينه ورهباً من غلبة المفسدين ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ متذللين منقادين مسلّمين تسليماً.

فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ
أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ

﴿٩١﴾ ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي مريم حفظت فرجها من العصيان، وفي الإحصان دلالة على صيانتها لنفسها وابتعادها عن مظان العصيان، آتيناها رشدها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ لتحمل عيسى عليه السلام وترتيب ذلك على إحصانها فرجها؛ لأن ذلك من أسباب شرفها بالنفخ وجعل عيسى عليه السلام ابناً لها بدون أب، وفيه رد على اليهود الذين بهتوها ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ لأن ذلك دليل من دلائل قدرة الله تعالى فيها وفي ابنها.

والراجح في النفخ المذكور: أنه كان سبباً لوجود جسد عيسى عليه السلام، ثم نفخ الروح في الجسد لأن النفخ فيها أسند إليها لا إلى الحمل، وفي بعض الآيات أسند إلى فرجها فهو نفخ غير النفخ في جسد عيسى عليه السلام، أو أن النفخ في جسده امتداد للنفخ السابق قبل العلوق به، وأضافه الله تعالى إليه حيث قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ لأنه جعله أمراً خارقاً للعادة في كونها علقت بعيسى عليه السلام، وتم خلقه في بطنها من غير أب، بل لذلك الروح المنفوخ فيها، فأضافه تعالى إليه كما أضاف روح آدم عليه السلام إليه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر:٢٩] لأنه كان خارقاً تحول الطين إلى بشر يسمع ويبصر بسبب أمر من عند الله كانت به حياته، وعلى هذا فتسميته روحاً من حيث أنه في بطنها سبب بركة ووجود حمل ثم حي فسمي روحاً كما سمي القرآن روحاً، وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ

ولعله ـ أيضاً ـ معنى تسمية روح آدم إلا أنه صار اسماً للروح الخاص الذي به حياة البدن والفرق بين المعنيين أن أحدهما أعم من الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي دليلاً من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه، فعيسى عليه السلام ولد من غير أب، وتكلم في المهد بكلام حق وصواب، وخاطب بخطاب حكيم مر ذكره في (سورة مريم) وأمه حملت من غير نكاح، فكانا آيتين خارقتين للعادة، تدلان على قدرة جاعلهما كذلك وعلمه.

﴿٩٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الأمة التي مر ذكرها من موسى وهارون وإبراهيم عليهم السلام وختم ذكرها بمريم وابنها كلها ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ تعبد الله وحده وتدعو إلى عبادة الله وحده، فعليكم أن تتبعوهم وتقتدوا بهداهم فهم قدوتكم؛ لأنهم رسل الله ما خلا مريم، دعوتهم واحدة ومريم صديقة هي معهم أوتيت رشدها، وكلهم قدوة للبشر الموجودين والماضين في عصرهم وبعدهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أي مالككم ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ ولا تشركوا بي ما لا يملك منكم شيئاً.

﴿٩٣﴾ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ فمقتضى ذلك لو استعمل الناس عقولهم أن يتوحدوا في دينهم على ما جاءت به الرسل وعلى مقتضى عبوديتهم لله، ولكنهم تقطعوا ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي جاءت به الرسل ودعتهم إليه، فأخذت كل فرقة قطعة منه وتركت غيرها من أمرهم الذي كان ينبغي أن تأخذ به كله، وقوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ دلالة على تفرقهم فيما هو في الأصل مشترك بينهم.

أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن
كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ

قال بعض المفسرين: «فقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ استعارة بالكناية والمراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد وهو دين التوحيد المندوب إليه من طريق النبوة وهو أمر وحداني، قِطَعاً متقطعة وزعوه فيما بينهم أخذ كل منهم شيئاً وترك شيئاً..» الخ.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ كل المتفرقين إلينا إلى ملك الملوك راجعون وسيحكم بينهم، وجملة ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ حالية فيما يترجح عندي، أي تفرقوا في حال أنهم إلينا راجعون كلهم.

﴿٩٤﴾ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ تفريع على ذكر التفرق ورجوع الكل إلى الله، أو على ذكر الرجوع إلى الله ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما أوجب الله عليه ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ يبعثه إيمانه على اجتناب الإصرار على المعاصي ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ لا يلغى بلا ثواب، والكفران هنا مقابل الشكر فنفيه إثبات للشكر؛ لأن العامل هذا مؤمن تقي ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ فلا يضيع، يحتمل ﴿كَٰتِبُونَ﴾ معنى: أنا نحفظه ولا ننساه كما لا ينسى المكتوب، ومعنى أنا نأمر الحفظة أن يكتبوه.

﴿٩٥﴾ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ لا يصح لهم أن هلاكهم في الدنيا وعذابهم العاجل يكفي من عذابهم ويغني عن رجوعهم في الآخرة للحساب والجزاء، حرام عليهم ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بل رجوعهم محتوم لا بد منه ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ من عجل عذابه، ومن لم يعجل.

هذا المعنى هو ظاهر التركيب بدون تأويل، وقيل في تفسير هذه الآية: حرام عليهم أنهم يرجعون إلى الدنيا، وتحتمل بالنظر إلى السياق: وحرام ذلك أي الشكر على السعي الحسن وكتابته بل عملهم حابط ولكن في هذا تقدير ضمير: وهو حرام أو وحرام هو، والأصل عدم التقدير.

وأما قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فيصح على هذا المعنى الأخير أنه تعليل لقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي لأنهم لا يرجعون إلى الله من كفرهم.

(٩٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قال بعض المفسرين: «﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قبيلتان همجيتان كانتا تسكنان شمال شرقي قارة آسيا» انتهى.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ يترجح أنها غاية أي ما بعدها غاية لهلاك القرى المحرم عليها، حرام على قرية أهلكناها حتى فتح ياجوج وماجوج واقتراب الوعد الحق ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فتحت بلدهم قهراً ودخلها قوم غيرهم، وقد فسر بفتح السد وهو خلاف الظاهر؛ لأن السد إنما وضع لمنعهم عن الخروج إلى من طلب ذا القرنين أن يبني السد ففتحه لا يعتبر فتحاً على ياجوج وماجوج بل هم الفاتحون له، فكان مقتضى ذلك أن يقال: إذا فتحت ياجوج بالبناء للفاعل، وأيضاً فتحه لا يعتبر فتحاً لبلد ياجوج وماجوج ودخولاً عليهم؛ لأنه يمكن أن يفتح وهم في منعة من عدوهم، فمن البعيد جعل فتح السد فتحاً لياجوج وماجوج جملة، وأيضاً يمكن فتح ياجوج وماجوج في هذا العصر لو كان السد لم يفتح بواسطة الطائرات وجند المظلات، مع أنه يقال: إنه قد فتح اليوم ولكن ياجوج وماجوج كانوا قبيلتين.

أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

وفي هذا العصر يمكن أن قد صاروا شعبين ولا يحتاجون إلى الخروج على زرع من حولهم وصاروا قبائل متعددة بأسماء مختلفة غير اسمي ياجوج وماجوج، وقد نسي هذان الاسمان لطول المدة وكثرة الذراري.

فظهر أن المراد: فتح بلاد ياجوج وماجوج وأن ذلك من علامات قرب الساعة، وأنه عند ذلك تهلك قرى، وحرام عليهم أنهم لا يرجعون، فهي حروب عالمية مدمرة يكون هلاك القرى فيها هو نهاية الهلاك للقرى وغايته وليس بعده بناء قرى أي مدن بل تقوم القيامة قبل أن يتهيأ ذلك ـ والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فالحدب المرتفع من الأرض، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: من كل نشز وارتفاع و﴿يَنسِلُونَ﴾ معناه: يعجلون في مسيرهم» انتهى، ونسولهم من كل مرتفع يناسب ذلتهم بعد فتح بلادهم وخوفهم لأجل قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ ولم يقل: في كل حدب، فهم إذا صاروا في مرتفع خافوا أن يراهم أعداؤهم فنسلوا ـ والله أعلم.

﴿٩٧﴾ ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي هو القيامة عند فتح ياجوج وماجوج وهلاك القرى ﴿فَإِذَا هِيَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ففاجأتهم القيامة وأهوالها فشخصت أبصارهم صارت متجهة إلى جهة كالمحتظر قائلين: ﴿يَـٰوَيْلَنَا﴾ حين رأوا أنهم قد صاروا في الآخرة، وأنهم صائرون إلى العذاب: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا﴾ ولكن ليست غفلتهم لعدم الإنذار، فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ لأنه قد جاءهم النذير، فكذبوا وقالوا: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك:٩].

أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿٩٨-٩٩﴾ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كلكم حصب جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ظاهره في الجمادات وفيما يلحق بها من العقلاء الراضين بعبادتهم مثل فرعون.

وقوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال في (الصحاح): «والحصب: ما يحصب به في النار أي يرمى، قال أبو عبيدة في قوله تبارك وتعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ كل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام معنى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي بمنزلة حصبها وحجارتها والحصب هو الحصى، قال الشاعر:

حلقوا [الرؤوس] وحصّبوا كل الجمر   بالسبع والسبع و[بـ]ـالسبع الأخر»

انتهى، وحكى الشرفي بعد هذا: أنه قال الإمام الهادي في تفسير هذه الآية ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: «فهو حطبها ووقودها» انتهى.

وفي (لسان العرب): والحصب: كل ما ألقيته في النار من حطب وغيره، وفي التنزيل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال الفراء: ذكر أن الحصب في لغة أهل اليمن: الحطب، وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قرأ: {حطب جهنم} وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به، ولا يكون الحصب حصباً حتى يسجر به، وقيل: الحصب: الحطب عامة» انتهى، وهذه الأقوال كلها ترجع إلى أنهم في جهنم.

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ صائرون إليها وداخلون فيها كقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦] قال الراغب: «الورود: أصله قصد الماء ـ ثم قال ـ : واستعمل في النار على سبيل الفضاعة» انتهى، لعله يعني على سبيل التهكم بأهلها.

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خطاب لأهل النار المشركين، والإشارة إلى أصنامهم ونحوها لو كانوا آلهة ما وردوا جهنم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا﴾ أي في جهنم ﴿خَٰلِدُونَ﴾ أي باقون العابدون والمعبودون، ويحتمل: أن الإشارة إلى من اتخذوهم آلهة من الأحياء بل هو الراجح، لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [هود:١٠٦].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: أولئك المتجبرون على الله الفراعنة والطواغيت والكفرة العفاريت، الذين أضلوا عباد الله واتخذوهم خولاً، واستمالوهم إلى عبادتهم بزخرف الدنيا، والعبادة هاهنا: هي الطاعة، فأخبر الله أنه من مات من أولئك فإنهم خالدون في جهنم لهم فيها زفير، والزفير: فهو إلقاؤه والتوجّع والكرب والتألم للعذاب» انتهى.

وقد بسط لتحقيق هذا المعنى الذي ذكره الإمام الهادي عليه السلام الناصر في (البساط) واحتج له، أعني لإثبات أن الطاعة للشيطان ولأعداء الله شرك غير شرك العدل بالله تعالى.

(١٠٠) ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ قال في (الصحاح): «والزفير: اغتراق النفس للشّدة، والزفير: أول صوت الحمار، والشهيق: آخره» انتهى المراد.

سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ
حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ فالراجح: أنه عبارة عن شدة صوت النار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] فكيف إذا صاروا فيها، فإن صوتها يشغل أسماعهم حتى لا يسمعوا إلا ما شاء الله أن يسمعوه في بعض الحالات بأمر خارق كسماعهم لنداء أصحاب الجنة لهم، المذكور في (سورة الأعراف) فهو خارق للعادة، ولذلك قال في الذين سبقت لهم من الله الحسنى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ لبعدهم عنها.

﴿١٠١-١٠٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ سبقت لهم منا الكلمة الحسنى أو العِدَة الحسنى أو نحو هذا، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ وقوله تعالى في (سورة النجم): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [آية:٣١] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة:٦-٧] وسبق الوعد لهم عند خروج آدم من الجنة: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ في مكان بعيد عن جهنم، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لا يسمعون حسيسها لبعدهم عنها، وحسيسها صوتها الذي يكون من اشتعالها.

ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٍ

قال الشرفي: «أي صوتها الذي يحس بالسمع» انتهى، فجعله (فعيلاً) بمعنى (مفعول) فأما صاحب (الصحاح) فجعله اسماً للصوت الخفي ـ ثم قال ـ: «وقال الله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ كأنه يعني أنه استعمل في مطلق الصوت». وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَـٰلِدُونَ﴾ باقون لا يموتون ولا يفنى ما اشتهته أنفسهم، لأن ما أتلفوه أبدل فالجنس باق أبداً.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:١٠١]: «قال الهادي عليه السلام: يعني وجب لهم منا الحكم بالحسنى في دار الدنيا، وتقدم منا في حياتهم الدنيا وجوب [في نسخة (المصابيح): وجواب وهو غلط ـ تمت] الوعد بالحسنى والحسنى فهي الثواب والرحمة ووجوب المغفرة ورفع الدرجة».

ثم قال الشرفي: «قال عليه السلام ـ يعني الإمام الهادي عليه السلام ـ: يخبر أن هؤلاء الذين قد وجب لهم من الله في الدنيا ما وجب من الحسنى عنها مبعدون فهي النار نعوذ بالله من النار، والذين سبق لهم من الله الحسنى هذا في الدنيا والآخرة، فهم المؤمنون بالله العارفون به المثبتون لعدله وتوحيده القائلون [في نسخة (المصابيح): القائمون، والراجح أنه غلط ـ تمت] بصدق وعده ووعيده والعارفون بفضل الجهاد في سبيله، الموالون لأوليائه والمعادون لأعدائه والمؤدّون لجميع فرائضه، القائمون بطاعته التاركون لمعصيته المستقيمون على واضح سبيله رحمة الله عليهم، ونسأل الله أن يجعلنا في حكمه كذلك، وأن يرزقنا برحمته ذلك، وأن يفعل بنا ما يفعل بأولئك، إنه ولي حميد» انتهى.

نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ
بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ أي أهوال القيامة لا يحزنون من أجلها لوثوقهم بالسلامة وتبشير الملائكة لهم بالجنة، وقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لعلها تلقاهم عند خروجهم من قبورهم وعند سوقهم إلى الموقف وعند بلوغهم الموقف فلأجل تكرر اللقاء قال تعالى: ﴿تَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ ولم يقل: تلقاهم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ أي تتلقاهم الملائكة قائلةً لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون وهو نصركم ويوم عزكم ويوم سعادتكم الذي كنتم توعدون؛ لأنه اليوم الآخر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] وقال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤] وغير ذلك.

﴿١٠٤﴾ ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ﴿يَوۡمَ﴾ إما ظرف منصوب بقوله تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمْ﴾ أو ﴿تَتَلَقَّاهُمْ﴾ وإما مفعول به لمحذوف أي: اذكر ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير:١١].

وقوله تعالى: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ أي كطي الورق من القراطيس للكتاب المسطور» انتهى.

ولعل أصله المسطور فيه، ومعناه: أن السجل هو الورق المكتوب فيه، والكتاب هو المكتوب في الورق، ومعنى ذلك: أن طي السموات سهل عليه كطي الورق لما فيه من المكتوب، فـ(السجل) فاعل (طي) أضيف المصدر إلى فاعله، و(اللام) في ﴿لِلكِتَابِ﴾ (لام التعدية) فالمعنى: أن الورق يطوي ما فيه بانطوائه عليه، قال الراغب: «والسجل، قيل: حجر كان يكتب فيه، ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلاً» انتهى.

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ حجة لوقوع ذلك اليوم؛ لأن طي السماء أوله فالمعنى أنا قادرون على الإعادة كما نحن قادرون على الإبداء، ثم قال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ تأكيداً للخبر بوقوعه أي موعوداً علينا الوفاء به، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي من شأننا وعادتنا أن نفعل ما نشاء.

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ﴿ٱلزَّبُورِ﴾ هو الكتاب الذي آتاه الله نبيه داود عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي كتبنا الذكر أولاً ثم كتبنا: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ فما هو الذكر الذي كتب من بعده؟

الراجح: أنه ذكر الله ـ والله أعلم ـ كتبه في الزبور كما كتب في القرآن (سورة الإخلاص) وغيرها من ذكر الله، وقوله تعالى: ﴿يَرِثُهَا﴾ إن كان فعل العادة الذي يفيد التكرار، فالأرض هي هذه التي نحن فيها، فكثيراً أهلك الله الأمم الظالمة وأورث بعدهم الأنبياء ومن آمن معهم، مثل: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأهلك فرعون وقومه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا..﴾ الآية [الأعراف:١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٥-٦].

لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ
إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ..﴾ الآية [النور:٥٥] وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

فعلى هذا: تكون هذه بشرى لداود عليه السلام، ولنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بالتمكين في الأرض في حال أنه بمكة ومن معه مستضعفون، وهذه السورة (مكية) وإن كان فعل (يرث) بمعنى الإستقبال احتملت معنيين: البشارة بالتمكين في هذه الأرض لداود عليه السلام ولمن بعده من الصالحين، وذكرت لشمولها نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وشمولها للصالحين من أمته، واحتملت: البشارة بالجنة بأرض الجنة، والأول عندي أقوى أي أن يرث هو فعل العادة ـ والله أعلم.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ البيان للحق من أول السورة ﴿لَبَلَٰغًا﴾ إما بلاغاً للحجة على المشركين وإما كفاية في إبطال الشرك وإثبات الرسالة وسائر فوائد السورة، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي عابدين لله وحده، فهم الذين ينفعهم هذا البلاغ، أو فهم الذين نفعهم هذا البلاغ، وهذا أرجح لأن بعضهم كانوا مشركين فآمنوا حين سمعوا كلام الله وانتفعوا بما فيه من الحجج.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ لتدعوهم إلى النجاة من النار والفوز بالجنة وتخرجهم من الظلمات إلى النور لتعلمهم الكتاب والحكمة وتزكيهم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فمن عند نفسه أُتِي؛ لأنه جاءته الرحمة فلم يقبلها.

فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا
تُوعَدُونَ ١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ
١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ
وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢

---

١٠٨ ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول اللّه للمشركين ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا غير هذا مما يخالفه ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فهل أنتم مسلمون وجوهكم لله تعبدونه وحده، فإنه لا دين لله خلاف هذا.

١٠٩ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن دعوتك لهم إلى إسلام أنفسهم لله ﴿فَقُلۡ﴾ لهم: ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ أي أعلمتكم، كما قال الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماء ... رُب ثاوٍ يُمل منه الثَّواء

يعني: أعلمتكم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖ﴾ أي كلكم قويكم وضعيفكم، وغنيكم وفقيركم، فقد أعلمتكم ما توعدون، ولم يبق لكم عذر ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ أي لا أدري ﴿أَقَرِيبٌ﴾ ما توعدون من العذاب ﴿أَم بَعِيدٞ﴾؟ وهذا لأن القرب والبعد إضافي، ولعل المراد: إن أدري أقريب يعجل في الدنيا أم بعيد يؤجل في الآخرة فهو بعيد بالنسبة إلى الدنيا.

١١٠ ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ ومنه جهركم بالكفر والتكذيب بآيات الله أيها الكافرون ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ سواء في صدوركم أو عن الرسول ﷺ والمسلمين فهو مجازيكم عليه كله.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ﴾ لعل تأخير ما توعدون، وهذا التأخير قد فهم من قوله: ﴿أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ﴾ اختبار لكم أو إمهال تزدادون فيه إثماً ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى أجل محدود، ثم يأتي ما أنذرتكم أو ينقطع المتاع إلى غير رجعه.

﴿١١٢﴾ ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿قُل﴾ يا رسول الله على قراءة: ﴿قُل﴾ بضم (القاف) أمر بالقول، وعلى قراءة ﴿قَٰلَ﴾ أي قال الرسول: ﴿رَّبِّ ٱحْكُم﴾ بيني وبين قومي ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أو احكم بيني وبين من كذبني من قومي أو من غيرهم، وحكمه سبحانه حق، وإنما هو وصف لحكم الله أنه بالحق، أي قيد واقعي فكأنه قال: احكم بحكمك الذي هو حق، وكأن هذا الدعاء يُسمع به قومه، ولذلك عطف عليه خطابهم بقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فأبيتم إلا التكذيب والإستهزاء.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هو الذي نستعينه ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من أقاويلكم الباطلة، فرحمته لنا بإعانتنا على الصبر، وبالتعجيل للنصر هي التي نرجوها؛ لأنه قريب مجيب لدعوة الداعي، كيف لا وهو الذي أمره بهذا الدعاء؟! وبالله التوفيق.

تمت (سورة الأنبياء) وتفسيرها بعون الله تعالى
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم.

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
١	العلاقات وأنواعها ووجوب الحفاظ عليها	الرعد	٢١
٢	تفسير ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾	الرعد	٣٩
٣	الجن معمرون	الحجر	٣٦
٤	تفسير ﴿تبياناً لكل شيء﴾	النحل	٨٩
٥	عاقبة من يتخذ العهد وسيلة للمكر	النحل	٩٤
٦	معنى ﴿فاستعذ بالله﴾	النحل	٩٨ – ١٠٠
٧	معنى النسخ في القرآن	النحل	١٠١
٨	معنى ﴿سميع عليم﴾	الإسراء	١
٩	في تفسير التبذير ومعنى ﴿إخوان الشياطين﴾	الإسراء	٢٦
١٠	﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾	الإسراء	٣٦
١١	الدليل على إثبات الحكم	الإسراء	٤٠
١٢	ترجيح كون الشجرة الملعونة في القرآن بني أمية	الإسراء	٦٠
١٣	دليل على تحريم الغناء والملاهي	الإسراء	٦٤
١٤	تأويل ﴿لا تشد الرحال﴾	الإسراء	٦٦
١٥	اسم ﴿إمام﴾ غير خاص بأمام الهدى	الإسراء	٧١
١٦	لفتة رائعة في الدلالة على أهمية التسبيح ومعناه	طه	٣٣ـ٣٤
١٧	تفسير الوحي لأم موسى (ع)	طه	٣٨
١٨	من يشفع يوم القيامة!	طه	١٠٩
١٩	كيف نتأول لآدم في أكله من الشجرة	طه	١٢١

محتويات الجزء الرابع

